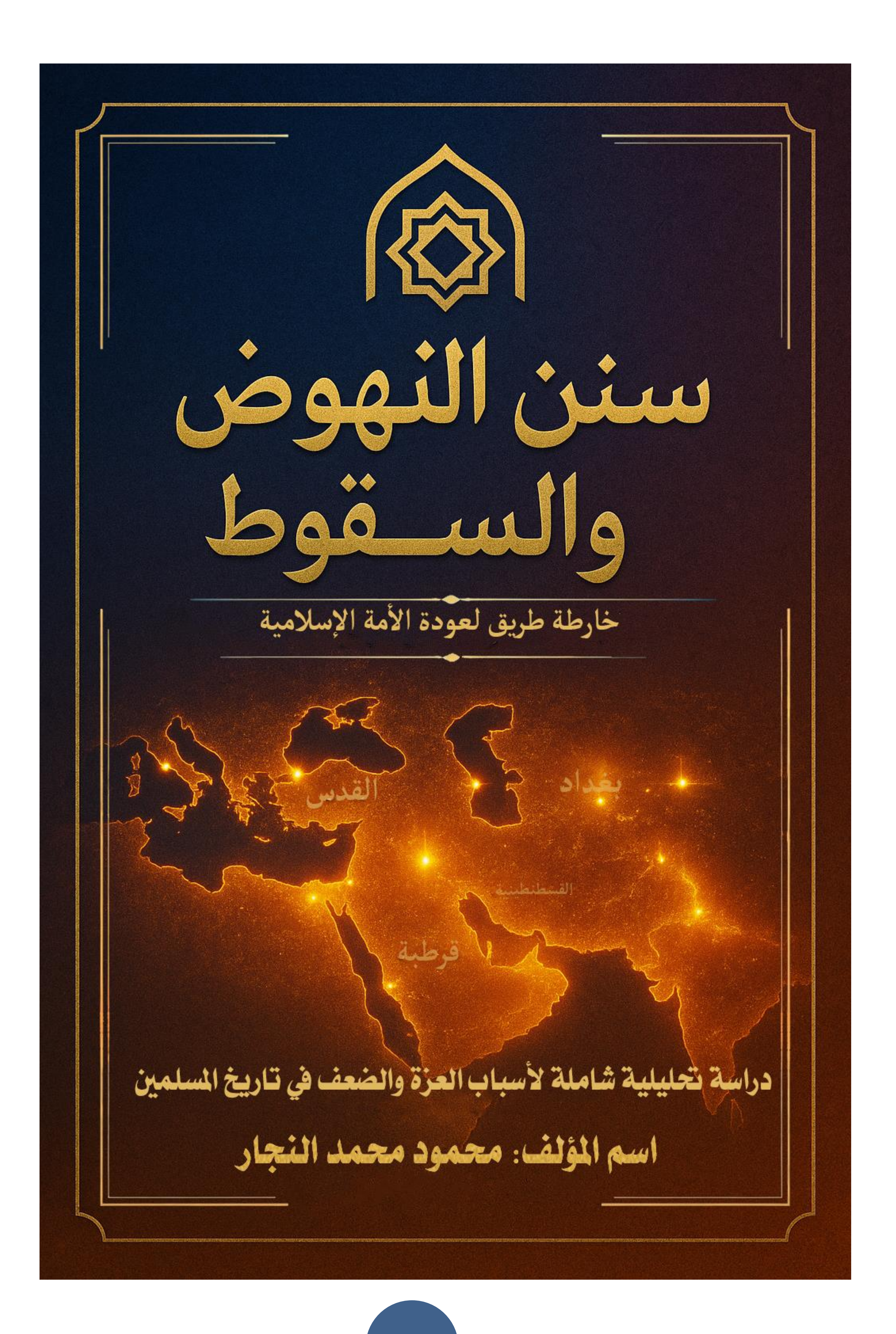

سنن النهوض
والسقوط
خارطة طريق لعودة الأمة الإسلامية
القدس
بغداد
قرطبة
دراسة تحليلية شاملة لأسباب العزة والضعف في تاريخ المسلمين
اسم المؤلف: محمود محمد النجار

"  "

"سنن النهوض والسقوط"

"خارطة طريق لعودة الأمة الإسلامية"

"محمود محمد النجار"

مقدمة

مقدمة الكتاب: سنن النهوض والسقوط: خارطة طريق لعودة الأمة الإسلامية

يمر العالم الإسلامي اليوم بمفترق طرق حاسم، وتواجه الأمة تحديات وجودية تفرض عليها إعادة النظر في مسيرتها، واستقراء حاضرها، واستشراف مستقبلها برؤية واضحة وعزيمة صادقة. فبعد قرون من الريادة الحضارية التي أضاءت جنبات العالم، وقدمت للبشرية نماذج فريدة في العدل، والعلم، والعمران، والتفاعل الإيجابي مع الثقافات الأخرى، نجد واقعنا المعاصر مثقلاً بوطأة التخلف في مجالات شتى، والتشرذم السياسي، والتبعية الاقتصادية، والضعف المعرفي والتقني، والتحديات الاجتماعية والفكرية المتراكمة.

هذا الواقع المؤلم يثير في نفوس الغيورين من أبناء الأمة تساؤلات جوهرية ومؤرقة: كيف وصلت الأمة التي كانت بالأمس سيدة العالم وقائدة الركب الحضاري إلى ما هي عليه اليوم؟ وما هو السبيل العملي والفاعل للخروج من هذه الدائرة واستعادة مكانتها اللائقة بها بين الأمم؟ هل ما زال للإسلام، كدين ونظام حياة، القدرة على قيادة البشرية نحو مستقبل أفضل في ظل تعقيدات العصر وتحدياته المتسارعة؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات لا تكمن في مجرد جلد الذات أو إلقاء اللوم على الآخرين فحسب، بل تتطلب وقفة تأمل عميقة مع الذات، وعودة صادقة إلى الأصول والمنابع الصافية، واستخلاص الدروس والعبر من التجارب التاريخية المتنوعة التي مرت بها الأمة في فترات عزها ومجدها، وكذلك في فترات ضعفها وانحدارها. إن مسيرة الحضارة الإسلامية ليست خطاً بيانياً صاعداً باستمرار، بل هي رحلة شهدت صعوداً وتألقاً، ثم فترات ضعف وانكسار، قبل محاولات نهوض هنا وهناك. في كل مرحلة من هذه المراحل دروس وعبر لا تقدر بثمن.

من هذا المنطلق، يأتي هذا الكتاب ليسهم في بلورة رؤية للنهضة الإسلامية المنشودة، رؤية لا تنفصل عن جذورها العقدية والمنهجية، ولا تنعزل عن واقعها المعاصر وتحدياته، ولا تتجاهل سنن التاريخ وقوانين الاجتماع البشري. إننا نؤمن إيماناً راسخاً بأن الإسلام، بمنهجه الرباني الشامل، يحمل في طياته مقومات السيادة والريادة الكفيلة بإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، متى تمسك المسلمون به حق التمسك، وطبقوا مبادئه تطبيقاً صحيحاً، ونهضوا بواجبهم الحضاري تجاه أنفسهم وتجاه العالم.

ولأن التاريخ هو خير معلم، ولأن التجارب المتتابعة للأمة الإسلامية على مر القرون تقدم لنا ثروة هائلة من العبر، فإننا سنتخذ من المحطات التاريخية الرئيسية مناراً نهتدي به في طريقنا نحو المستقبل.

سنتوقف طويلاً ومتدبرين عند السيرة النبوية العطرة، فهي الأساس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمنبع الصافي للمبادئ والقيم التي قامت عليها أول دولة للإسلام. من سيرته نتعلم أصول بناء الفرد والمجتمع والدولة، ومقومات القيادة الربانية، وفقه التعامل مع التحديات.

ثم ننتقل إلى عهد الخلافة الراشدة، تلك الفترة الاستثنائية التي جسدت أرقى صور الحكم الإسلامي بعد النبوة، وشكلت نموذجاً فريداً في العدل، والإدارة، والتوسع القائم على المبادئ.

بعدها، نستعرض تجربة الخلافة الأموية، التي شهدت اتساعاً جغرافياً غير مسبوق للدولة الإسلامية، وتطوراً في مؤسسات الحكم والإدارة، لكنها واجهت أيضاً تحديات داخلية وخارجية، وبدأت تظهر فيها تحولات في طبيعة الحكم.

لنفحص بعد ذلك الخلافة العباسية، عصر الازدهار العلمي والثقافي والفني الأبرز في تاريخ الإسلام، والذي وصلت فيه الحضارة الإسلامية إلى أوجها في مجالات المعرفة والعلوم. كما سنتتبع مسارها في فترات ضعفها وانقسامها، وصولاً إلى سقوط مركز الخلافة في بغداد، وهو حدث مفصلي كشف عن مدى وهن البنية الداخلية عندما تتآكل عوامل القوة الحقيقية.

ولن نغفل الفترة التاريخية التي تلت سقوط بغداد وشهدت تجزئة سياسية واسعة في العالم الإسلامي وظهور قوى إقليمية متعددة، وهي فترة تحمل دروساً هامة حول تحديات التشرذم والصراع الداخلي، وكيف يمكن للأمة أن تظل حية وقادرة على المقاومة والبقاء رغم غياب السلطة المركزية.

وأخيراً، سنتوقف عند تجربة الخلافة التركية (العثمانية)، باعتبارها القوة الإسلامية الكبرى التي ورثت تركة الخلافة لقرون طويلة، وحمت جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي، وتفاعلت بشكل مباشر مع صعود القوى الأوروبية، وشهدت في نهايتها تسارع عوامل الضعف الداخلي والضغوط الخارجية التي أدت إلى زوالها.

إن مقاربة عودة الإسلام لسيادة الكون في هذا الكتاب لن تكون مجرد سرد تاريخي أو تنظير مجرد. بل تهدف إلى الربط الدائم بين الأصالة والمعاصرة، واستلهام المبادئ الخالدة من هذه التجارب التاريخية المتنوعة، وتحليل عوامل القوة التي أدت إلى الازدهار، وعوامل الضعف

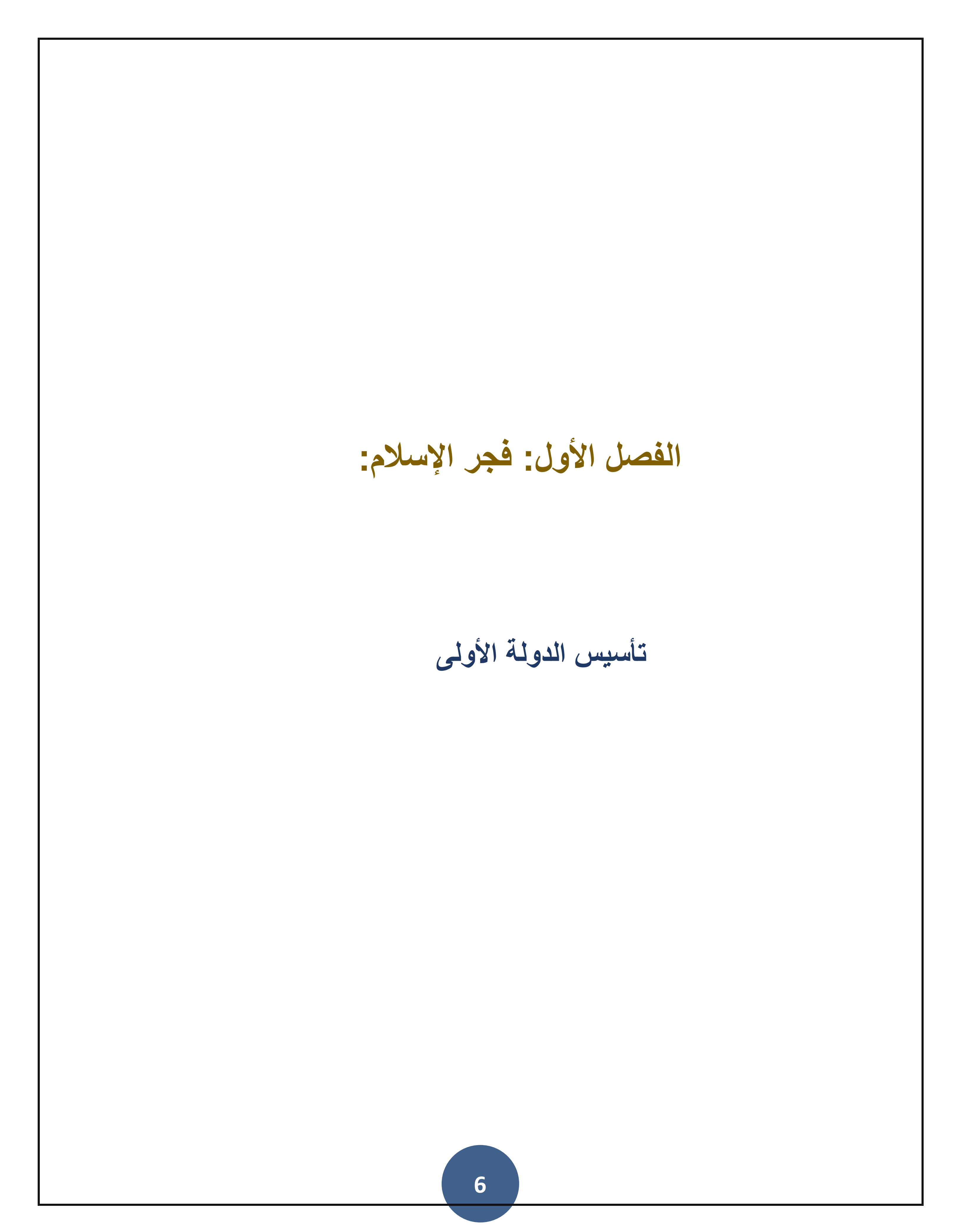
التي أفضت إلى الانحدار في كل مرحلة، ومن ثم تطبيق هذه الدروس بحكمة وبصيرة على تحديات واقعنا المعقد. سنتناول بالتحليل واقع الأمة الإسلامية الراهن، ونحدد أبرز التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها في شتى المجالات – السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية، والفكرية – كما سنسعى لتحديد الفرص المتاحة والإمكانات الكامنة التي يمكن استثمارها في مشروع النهضة.

السيادة التي نتحدث عنها ليست سيادة تسلط أو استكبار في الأرض، بل هي سيادة المنهج الرباني القائم على عبادة الله وحده، ونشر الخير والعدل والسلام بين الناس كافة، وتحقيق الرخاء المادي والروحي للإنسان، وقيادة البشرية نحو التنمية المستدامة والتعايش الإيجابي. إنها سيادة القدوة الحسنة، وسيادة المساهمة الفاعلة في بناء الحضارة الإنسانية المعاصرة بما يتوافق مع القيم السماوية والأخلاق الفاضلة.

في الفصول اللاحقة، سنُقدم تصوراً لهذا المشروع، بدءاً من **الثورة الداخلية وبناء المجتمع** كقاعدة صلبة، مروراً بـ **إرساء قواعد الحكم الرشيد والعدل** كبيئة مستقرة، و**قيادة التقدم العلمي والاقتصادي** كمحرك للقوة، و**تحقيق وحدة الصف والعمل المشترك** لتجاوز الانقسام، و**استعادة الدور الحضاري العالمي** كرسالة للأمة للعالم. ثم سنُفصل في الفصل الأخير "على طريق العودة" ما السبيل وما الحل، مركزين على أن **الجهاد في سبيل الله** هو الطريق الأهم والأولى، وأن **إعداد القوة الشاملة**، و**وحدة الصف والقيادة**، و**التربية والإعداد الروحي والأخلاقي**، و**العدل والبناء الداخلي**، و**النظام الاقتصادي الإسلامي**، و**الإعلام والخطاب المؤثر**، و**التعامل مع التحديات الفكرية والثقافية**، و**دور الشباب والمرأة**، و**التخطيط الاستراتيجي وبناء المؤسسات**، و**منهج التعامل في العلاقات الدولية**، كلها ركائز متكاملة لا غنى عنها لتحقيق النهوض المنشود.

إن هذا الكتاب هو دعوة مفتوحة للتفكر والتدبر، وللعمل الجاد المخلص. إنه محاولة لرسم خارطة طريق أولية للنهوض، مستنيرين بنور الوحي وسيرة خير البشر وتجارب الأمة على مر العصور التي تتراوح بين القوة والضعف، النجاح والإخفاق. نأمل أن يكون هذا الجهد المتواضع لبنة في صرح النهضة الشاملة التي نتطلع إليها، وأن يفتح آفاقاً جديدة للفهم والعمل من أجل غد أفضل للأمة الإسلامية وللإنسانية جمعاء. والله ولي التوفيق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

تأليف : محمود محمد النجار



الفصل الأول: فجر الإسلام:

تأسيس الدولة الأولى

مقدمة الفصل الأول

لا يمكن لأي حديث عن نهضة الأمة الإسلامية واستعادة دورها الريادي في العالم أن يكتمل أو يرتكز على أساس متين دون العودة إلى المنبع الصافي والأصل الأول: سيرة سيد الخلق وخاتم النبيين، محمد صلى الله عليه وسلم. إن سيرة النبي ليست مجرد تاريخ يُروى أو قصص تُحكى عن ماضٍ ولى، بل هي التجسيد العملي والنموذج الحي للمنهج الإلهي الذي أنزله الله هداية للبشرية جمعاء. إنها المنهج الذي حول أفراداً متفرقين في بيئة صحراوية قاسية يمزقهم الصراع وتغرقهم الجهالة، إلى أمة موحدة، تحمل أرقى القيم وأعدل المبادئ، وتؤسس لحضارة لم يشهد التاريخ مثلها في سرعة انتشارها وعمق تأثيرها وإسهامها في رقي الإنسان.

إن النظر إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من زاوية "مشروع النهضة" يكشف عن عبقرية هذا المنهج الرباني في بناء الإنسان القوي بالله، والمجتمع المتراحم المتكافل[1]، والدولة العادلة التي ترعى الحقوق وتحفظ الكرامة. لقد كانت السيرة النبوية خطة عمل متكاملة، بدأت ببناء العقيدة الصافية في النفوس، مروراً بتكوين الجماعة المؤمنة المتماسكة، وصولاً إلى إقامة دولة الحق والعدل في المدينة المنورة، ثم الانطلاق بهذه الرسالة والقيم لتشمل العالم.

إن تفاصيل هذا المشروع العظيم محفوظة لنا بدقة متناهية في **مصادر التشريع الإسلامي الأساسية، القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة**، والتي قام **علماء الحديث والسيرة النبوية عبر العصور** بتدوينها وشرحها وتحقيقها في مؤلفات عظيمة تعد كنزاً للبشرية، مثل كتب الصحاح والسنن، وكتب السيرة الجامعة كـ "السيرة النبوية" لابن هشام، و"دلائل النبوة" للبيهقي، و"الطبقات الكبرى" لابن سعد، وغيرها من **المصادر الإسلامية الموثوقة** التي نقلت لنا أدق تفاصيل حياته الشريفة ومواقفه وأقواله وإقراراته.

دراسة هذه السيرة ليست مجرد ترف فكري[2] أو استعادة للحنين إلى الماضي، بل هي ضرورة حتمية لكل من ينشد النهضة والإصلاح في العصر الحديث. ففيها نجد المبادئ الخالدة للقيادة الحكيمة، وإدارة التغيير، وبناء الوحدة في ظل التنوع، ومواجهة التحديات بالثبات والإيمان،

---

[1] **متراحم**: يُظهر أفراده الرحمة واللين فيما بينهم، فيرأف القوي بالضعيف، ويعطف الغني على الفقير.
متكافل: يتعاون أفراده ويتقاسمون المسؤوليات والحقوق، فلا يُترك أحد في حاجة دون عون.
[2] **ترف فكري**: مصطلح يُقصد به الانشغال بالتفكير أو الثقافة لأجل المتعة فقط، دون هدف عملي أو تأثير واقعي

والجمع بين القوة المادية والسمو الروحي. إنها توفر لنا خارطة طريق واضحة المعالم لتجاوز الإخفاقات الراهنة[3]، وإعادة صياغة واقعنا على أسس صحيحة ومستقيمة.

في هذا الفصل، سنتعمق في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، مستكشفين كيف شكلت محطات حياته الشريفة، من مكة المكرمة حيث البناء الفردي والعقدي[4]، إلى المدينة المنورة حيث التأسيس المجتمعي والدولي والانطلاق العالمي[5]، مشروعاً متكاملاً للنهضة الإنسانية والحضارية، لا تزال مبادئه وقيمه قادرة على قيادة البشرية نحو مستقبل أفضل.

[3] **الإخفاقات الراهنة:**
تشير إلى الأزمات والتراجعات التي تعيشها الأمة الإسلامية في العصر الحاضر، سواء كانت سياسية، اقتصادية، فكرية، أو حضارية.
[4] البناء الفردي يُقصد به تنمية شخصية المسلم من حيث السلوك، والانضباط، والوعي.
أما البناء العقدي فهو ترسيخ العقيدة الصحيحة في القلب والعقل، وضبط التصور الإيماني والتوحيدي تجاه الله والكون والإنسان
[5] **التأسيس المجتمعي والدولي والانطلاق العالمي:**
مراحل تطور المشروع الإسلامي؛ يبدأ ببناء مجتمع قوي متماسك داخليًا (اجتماعيًا وأخلاقيًا)، ثم ينتقل إلى ترسيخ حضوره على الساحة الدولية سياسيًا واقتصاديًا، ليبلغ أخيرًا مرحلة التأثير العالمي بنشر القيم والرسالة خارج حدوده الجغرافية

المبحث الأول: بدايات التغيير وبناء الإنسان في بيئة معادية (المرحلة المكية[6])

لكي نفهم عمق التحول الذي أحدثته سيرة النبوة كمشروع نهضة، لا بد أن نستعرض أولاً البيئة التي انطلق منها هذا المشروع؛ مكة المكرمة قبل بزوغ فجر الإسلام. لم تكن مكة مجرد تجمع سكاني في قلب الصحراء، بل كانت مركزاً تجارياً هاماً وملتقى للقوافل، وحاضنة لبيت الله الحرام (الكعبة)، الذي كان محجاً للعرب وإن كانوا قد لوثوه بعبادة الأصنام. ورغم مكانتها الدينية والتجارية، كانت مكة غارقة في ظلمات الجهل والتخلف على مستويات عديدة.

حال مكة قبل الإسلام (البيئة المعادية[7]):

اجتماعياً، ساد النظام القبلي بكل ما يحمله من عصبية عمياء وتفاخر بالأنساب وصراع على النفوذ. كانت القوة هي المعيار الأول، حيث يسود القوي ويُظلم الضعيف. لم تكن هناك حقوق ثابتة للمرأة أو العبيد، وكانت الفوارق الطبقية صارخة. الأخلاقياً، انتشرت عادات سلبية مثل شرب الخمر، ولعب الميسر، ووأد البنات، والأخذ بالثأر الذي كان قد يدخل القبائل في حروب تمتد لعشرات السنين. دينياً، كانت عبادة الأصنام والخرافات هي السائدة، حيث اتخذت كل قبيلة إلهاً تعبده، بالإضافة إلى وجود قلة من أهل الكتاب والأحناف الذين كانوا يبحثون عن التوحيد الخالص. اقتصادياً، قامت الحياة على التجارة الربوية في جزء كبير منها، مما أدى إلى تضخم ثروات فئة قليلة واستضعاف الكثرة. باختصار، كانت بيئة جاهلية بمعناها الشامل: جهل بالله، وجهل بمنهجه، وجهل بالقيم الإنسانية الفاضلة. هذه البيئة لم تكن مستعدة لتقبل أي تغيير يمس معتقداتها أو مصالحها الراسخة، مما جعلها بيئة "معادية" بالفطرة لأي دعوة تحمل في طياتها بذور التغيير الجذري.

---

[6] **المرحلة المكية:**
هي الفترة التي قضاها النبي ﷺ في مكة قبل الهجرة، وتمتد لـ13 سنة، وتميّزت بالتركيز على **بناء العقيدة، وتزكية النفوس، وتربية الأفراد**، دون تأسيس دولة أو استخدام للقوة، بل بالصبر والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

[7] **البيئة المعادية:**
هي الظروف الاجتماعية والسياسية والفكرية التي تُحارب مشروع الإصلاح، وتقاوم التغيير، كما حدث في مكة حين واجه النبي ﷺ دعوته بالرفض والاضطهاد من قِبل زعماء قريش، خوفًا على مصالحهم ونفوذهم.

بداية الدعوة السرية وبناء اللبنة الأولى:

في هذا الظلام، انبعث نور الوحي على قلب رجل لم تعرف مكة عنه إلا الصدق والأمانة، هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. بدأت الدعوة سراً، تتوجه أولاً إلى الصفوة ممن عرفوا صدقه ووجدوا في رسالته خلاصاً لأرواحهم من رجس الجاهلية. كانت اللبنة الأولى صغيرة العدد، لكنها كانت عظيمة الإيمان. أسلمت زوجته خديجة بنت خويلد، وصاحبه أبو بكر الصديق، ومولاه زيد بن حارثة[8]، وابن عمه علي بن أبي طالب، ثم تتابع دخول الأفراد فرادى وجماعات صغيرة ممن وجدوا في الإسلام نوراً يضيء حياتهم. كان هؤلاء الأوائل نواة المشروع، يتم لقاؤهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعيداً عن أعين قريش، لتلقي الوحي والتربية المباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم.

التركيز على بناء العقيدة وتزكية النفوس:

كان الهدف الأساسي للمرحلة المكية هو **بناء الإنسان** المسلم بناءً عقائدياً ونفسياً متيناً. لم تبدأ التشريعات التفصيلية أو بناء الدولة بعد، بل كان التركيز منصباً على القلب والعقل. القرآن المكي، بآياته القوية المؤثرة، عالج العقائد الفاسدة، ودعا إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، الخالق المدبر، المستحق للعبادة وحده. غرس في النفوس حقيقة التوحيد، والبعث والحساب، والجنة والنار، مما أحدث هزة عنيفة في المفاهيم الجاهلية الراسخة.

إلى جانب بناء العقيدة، كان هناك تركيز مكثف على **تزكية النفوس** وتطهيرها من أدران الجاهلية[9]. حاربت الآيات المكية الكبر، الحسد، البخل، الأثرة، الظلم، الفحشاء، ودعت إلى التحلي بضدها من الصفات: التواضع، القناعة، الكرم، الإيثار، العدل، العفة، ومكارم الأخلاق. كانت الصلاة، وإن لم تفرض بهيئتها الكاملة إلا في أواخر العهد المكي، وسيلة أساسية لتزكية النفس وتقوية الصلة بالله. كان النبي صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه على الطهر الروحي والأخلاقي، ويغرس فيهم معاني التقوى ومراقبة الله في السر والعلن. هذا البناء الداخلي العميق هو ما ميز الجيل الأول وجعله قادراً على حمل الأمانة وتغيير وجه التاريخ.

---

[8] صحابي جليل، كان عبدًا محررًا وتبناه النبي محمد ﷺ قبل أن يُلغى التبني في الإسلام.

[9] يُقصد بها الأمور أو التصرفات السيئة والذنوب التي كانت شائعة في زمن الجاهلية قبل الإسلام.

صبر الأوائل وثباتهم:

لم يكن طريق بناء العقيدة وتزكية النفس مفروشاً بالورود، بل كان محفوفاً بالمحن والابتلاءات الشديدة من قبل قريش التي رأت في هذه الدعوة تهديداً مباشراً لسلطانها ومصالحها وعاداتها. تعرض المسلمون الأوائل لأبشع أنواع التعذيب والتنكيل والسخرية والمقاطعة. صُوَيْب الموت[10]، عمار بن ياسر وأمه سمية وأبوه ياسر، بلال بن رباح، خباب بن الأرت، وغيرهم الكثير، عانوا أشد العذاب بسبب إيمانهم. حتى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه لم يسلم من الأذى اللفظي والجسدي.

في خضم هذه المحن، تجلت عظمة التربية النبوية في غرس **الصبر والثبات** في نفوس أصحابه. كان النبي صلى الله عليه وسلم يذكرهم بقصص الأنبياء السابقين، ويعدهم بالنصر والتمكين، ويغرس فيهم اليقين بأن العاقبة للمتقين. كان صبرهم ليس سلبياً، بل كان صبراً مقروناً بالثبات على الحق، ورفض التنازل عن المبدأ، واستمرارية الدعوة بالوسائل المتاحة. هذا الصبر الفعّال هو ما صقل شخصياتهم[11] وجعلهم صخوراً تتحطم عليها مؤامرات الباطل.

أهمية التوحيد والرسالة في تكوين الفرد:

يكمن جوهر هذا البناء الفردي المتين في محورين أساسيين :**التوحيد والرسالة**.

- **التوحيد :**هو إفراد الله بالعبادة والاعتقاد بأنه وحده الخالق المدبر المستحق للطاعة. هذا المفهوم حرر الإنسان من عبودية الأصنام، وعبودية الهوى، وعبودية البشر. منح الفرد المسلم الأول كرامة وعزة لا تستمد من جاه أو مال أو قبيلة، بل من صلته بخالق الكون. جعل هدفه الأسمى هو رضوان الله، ومنحه قوة داخلية لا تهتز أمام أي ضغط خارجي، لأنه يعلم أن ما يصيبه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن أمره كله بيد الله. التوحيد هو الذي وحد بواعثهم وغاياتهم، وجعل بوصلتهم متجهة نحو هدف واحد هو نصرة دين الله.

---

[10] هو وادٍ أو مكان خارج مكة، عُرف بهذا الاسم لأنه المكان الذي توقف فيه النبي محمد ﷺ أثناء رحلته إلى الطائف، ويقال إنه تعرض فيه لمشقات ومضايقات، ويُقال أيضًا إن اسمه مرتبط بالموت بسبب تلك المشقة أو بسبب وفاة بعض الأشخاص هناك.

[11] **هو ما صقل شخصياتهم:**

يشير إلى التجارب أو المواقف الصعبة التي عايشوها والتي ساعدت في تقوية وتطوير شخصياتهم.

- **الرسالة :**هي الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول من عند الله يحمل منهج الهداية. هذا الإيمان بالرسالة جعل للفرد قدوة عملية كاملة في شخص النبي صلى الله عليه وسلم. لم تكن المبادئ مجرد نظريات، بل كانت مجسدة في حياة أسوة حسنة[12]، في صبره، في حكمته، في خلقه، في تعامله مع الناس. الإيمان بالرسالة أعطى للمسلمين الأوائل دليلاً واضحاً على كيفية تطبيق التوحيد في حياتهم اليومية، وجعلهم جزءاً من مشروع أكبر يرتبط بالسماء ويهدف إلى صلاح الأرض.

لقد كان بناء هذا الإنسان الموحد، الصبور، الطاهر النفس، الواثق بربه، هو الأساس الذي قامت عليه النهضة الإسلامية فيما بعد. فالدولة والمجتمع القوي لا يُبنيان إلا بسواعد وعقول وقلوب أفراد أقوياء يؤمنون بمبادئهم ومستعدون للتضحية من أجلها. المرحلة المكية كانت ورشة عمل إلهية لصناعة هذا الإنسان الفريد، الذي سيحمل على عاتقه مهمة تغيير العالم.

[12] **بل كانت مجسدة في حياة أسوة حسنة:**
.تعني أن القيم أو المبادئ لم تكن مجرد أفكار، بل تجسدت وظهرت في حياة نموذج يحتذى به (أسوة حسنة) مثل النبي محمد ﷺ

المبحث الثاني: تأسيس المجتمع والدولة (المرحلة المدنية)

إذا كانت المرحلة المكية قد شكلت الأساس العقدي والأخلاقي لمشروع النهضة النبوي ببناء الإنسان المؤمن وتزكية نفسه في بيئة معادية، فإن المرحلة المدنية تمثل الانتقال النوعي إلى بناء الكيان الجماعي المنظم، وتأسيس المجتمع والدولة على هذه الأسس المتينة. لم تعد الدعوة محصورة في نطاق الأفراد والجماعات السرية، بل أصبحت قوة ظاهرة لها مركزها وأتباعها وقدرتها على الفعل والتأثير في محيطها وما حولها. الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة لم تكن مجرد انتقال جغرافي، بل كانت نقطة تحول فارقة، إيذاناً ببدء مرحلة جديدة تماماً في مسيرة الإسلام والأمة المسلمة.

بناء المجتمع المتراحم: المؤاخاة واللحمة الداخلية

فور وصوله إلى المدينة، التي كانت تعرف حينها بيثرب[13] وتموج بالصراعات بين قبائلها[14]، كان أول عمل قام به النبي صلى الله عليه وسلم هو **بناء المسجد النبوي** .لم يكن المسجد مجرد مكان للصلاة، بل كان مركزاً لكل شيء: للعبادة، للتعليم، للقضاء، للتشاور، لإدارة شؤون الجماعة، ومنطلقاً للجيوش. لقد كان القلب النابض للمجتمع والدولة الوليدة.

تزامناً مع ذلك، أرسى النبي صلى الله عليه وسلم ركيزة أساسية في بناء المجتمع وهي **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار** .هذا العمل العظيم لم يكن مجرد رابطة شكلية، بل كان رابطة عملية وعقدية ذابت فيه عصبيات القبيلة والنسب والمال لصالح أخوة الدين والإيمان. تقاسم الأنصار ديارهم وأموالهم وممتلكاتهم مع إخوانهم المهاجرين الذين تركوا كل شيء وراء ظهورهم في سبيل عقيدتهم. لقد تجسدت في المؤاخاة أسمى معاني الإيثار والتكافل والرحمة، قال الله تعالى واصفاً حال الأنصار :﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (الحشر: 9). هذه المؤاخاة لم تقتصر على الجانب الاجتماعي والعاطفي، بل كان لها أثر اقتصادي كبير في دعم المهاجرين

---

[13] **بيثرب:**
اسم المدينة التي هاجر إليها النبي محمد ﷺ والمسلمون، وهي الآن تُعرف بالمدينة المنورة.
[14] تعني أن القبائل كانت تعيش في حالة من النزاعات والصراعات المستمرة.

ومساعدتهم على بدء حياة جديدة في المدينة، مما يدل على شمولية المنهج النبوي في بناء المجتمع على أسس متينة من اللحمة الداخلية والقوة الذاتية.

تأسيس الدولة الأولى: وثيقة المدينة وأسس الحكم

الخطوة الثانية في بناء الكيان الجديد كانت إقامة نظام سياسي وقانوني ينظم العلاقة بين جميع سكان المدينة بمختلف انتماءاتهم. هنا تبرز عبقرية **"وثيقة المدينة" (أو الصحيفة)**، والتي تعتبر أول دستور مدون في الإسلام، وربما من أوائل الدساتير في التاريخ التي تنظم العلاقة بين مكونات مجتمع متعدد. لم تقتصر الوثيقة على تنظيم شؤون المسلمين فيما بينهم، بل شملت اليهود والقبائل العربية الأخرى، معلنةً قيام كيان سياسي واحد في المدينة بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم.

أرست الوثيقة مبادئ هامة في الحكم والإدارة، منها:

- **وحدة الأمة :**جعلت المسلمين أمة واحدة من دون الناس، تختلف عقيدتها عن غيرها، لكنها تتعاون مع الآخرين في إطار هذا الكيان الجديد.
- **التعايش المنظم :**أقرت بحقوق غير المسلمين (خاصة اليهود الذين كانوا طرفاً في الوثيقة) على أن يلتزموا بواجباتهم، فلهم دينهم وللمسلمين دينهم.
- **الدفاع المشترك :**ألزمت الجميع بالدفاع عن المدينة إذا تعرضت لهجوم.
- **العدالة والقضاء :**جعلت المرجع النهائي في حل النزاعات هو الله ورسوله، مما يؤسس لسلطة قضائية موحدة وعادلة فوق الجميع.
- **التكافل العام :**ألزمت الجميع بالمساهمة في نفقات الدفاع وفي مساعدة المظلوم.

لقد كانت وثيقة المدينة إعلاناً سياسياً واجتماعياً فريداً من نوعه، حول تجمع قبلي متناحر إلى دولة مدينة لها سيادتها وقوانينها وذمتها المالية وجيشها وقيادتها الموحدة. أصبحت للمسلمين دار هجرة وقاعدة انطلاق، وأصبح النبي صلى الله عليه وسلم رئيس دولة يمارس مهامه في الحكم، والقضاء، والتشريع، وقيادة الجيش، وإدارة العلاقات الخارجية.

..."بعد إرساء اللبنات الأساسية للمجتمع والدولة في المدينة، كان لا بد من بناء قوة تحمي هذا الكيان الوليد وتمكنه من البقاء والانتشار في بيئة لا تزال تكن له العداء. هنا يأتي دور **الجهاد** بمعناه القتالي كركيزة أساسية، **وليس فقط كوسيلة حماية، بل كمظهر من مظاهر حقيقة النهضة التي بدأت من الداخل، من بناء الإنسان وروحه وعقيدته، لا من وفرة ماله أو عمارة بيته.**

من الضروري بمكان التأكيد على أن النهضة في فجر الإسلام لم تنطلق من قوة اقتصادية مسبقة أو ازدهار مادي كان يعيشه المسلمون. على العكس تماماً، لقد هاجر المهاجرون تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم وتجارتهم، وكان الأنصار[15] يتقاسمون معهم لقمة العيش، بل قد يصل الحال ببعضهم إلى ربط الحجارة على بطونهم من الجوع، كما في غزوة الخندق. لقد كانت حالتهم الاقتصادية في بداية العهد المدني صعبة وشديدة، لدرجة أن توفير الطعام والكساء كان تحدياً يومياً للكثيرين منهم.

ولكن، كانت قوتهم الحقيقية ونواتهم الصلبة تكمن في بناء الإنسان الذي تم في المرحلة المكية :بناء العقيدة الراسخة، وتزكية النفس، والرضا بقضاء الله وقدره، واليقين المطلق بوعده ونصره. هذا البناء الروحي العميق أثمر **رضاً نفسياً** يفوق كل متاع الدنيا، وجعل التضحية بالنفس والمال في سبيل الله أقصى غاياتهم وأعظم آمالهم. لم يكونوا يقاتلون من أجل مغانم دنيوية[16] في المقام الأول، بل كانت غايتهم إعلاء كلمة الله وحماية الدعوة والمستضعفين.

إن استعدادهم للجهاد، بذلاً وعطاءً وتضحية، لم يكن نتيجة لرفاه اقتصادي، بل كان **نتيجة مباشرة لفقرهم إلى ما سوى الله وغناهم بالله وإيمانهم به** .هذا يصحح أي فهم قد يتصور أن النهضة تبدأ بالتمكين الاقتصادي أولاً ثم يأتي بعده الاستعداد للبذل والتضحية. بل العكس هو ما حدث في السيرة النبوية؛ **لقد بدأ البناء بالإنسان، ثم بالمجتمع، ثم بالدولة التي استمدت قدرتها على البقاء والانطلاق من استمداد أفرادها وعيهم وقوتهم من عقيدتهم الراسخة ورضا نفوسهم، مما مكنهم من الجهاد والبذل رغم ضعف حالهم المادي.**

---

[15] **الأنصار:**
.هم أهل مدينة يثرب (المدينة المنورة) الذين ناصروا النبي محمد ﷺ وناصحوه ودعموا المسلمين بعد هجرتهم

[16] **مغانم دنيوية:**
.هي المكاسب أو الأرباح المادية التي يحصل عليها الإنسان في الحياة الدنيا

في هذا السياق، يمكننا أن نستخلص درساً بالغ الأهمية قد يكون سبباً رئيسياً في تراجع الأمة اليوم، وهو أن **التعلق المفرط بالحالة الاقتصادية والمال، والركون إلى الدعة**[17] **والراحة التي قد تجلبها الوفرة المادية، يمكن أن يضعف من عزيمة الجهاد بمعناه الشامل**، سواء كان جهاداً ضد العدو الخارجي، أو جهاداً ضد الفساد والاستبداد الداخلي، أو جهاداً للنفس للارتقاء بها. إن تجربة الجيل الأول تعلمنا أن النهضة الحقيقية تبدأ من غنى النفس بالإيمان والرضا، هذا الغنى الذي يدفع صاحبه للبذل والعطاء والتضحية بكل ما يملك في سبيل المبدأ، حتى لو كان لا يملك من حطام الدنيا شيئاً يذكر. هذه الروح هي التي مكنتهم من خوض الغزوات الكبرى وتأسيس دولة قوية رغم شح الإمكانيات المادية الأولية"[18]...

لقد كان الجهاد وسيلة حيوية لـ **بناء الدولة** لأنه:

1. **حماية الكيان الوليد :**مكّن المسلمين من الدفاع عن أنفسهم ومدينتهم ضد هجمات قريش والقبائل المعادية (كما في بدر والخندق). قال تعالى :﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾)الحج: 39.(
2. **تأمين الحدود والمصالح :**ساعد على تأمين طرق التجارة التي كانت حيوية لاقتصاد المدينة، وتأمين حرية الحركة للدعوة.
3. **بناء القدرات العسكرية :**تطلب الجهاد تنظيم جيش، وتدريب المقاتلين، وتوفير السلاح، وتطوير الاستراتيجيات، مما ساهم في بناء مؤسسة عسكرية قوية ومنظمة (كما سيظهر تطورها في عهد الراشدين). قال تعالى في إعداد القوة :﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾)الأنفال: 60.(
4. **صهر المجتمع الجديد :**كانت الغزوات تربية عملية على التضحية، والانضباط، والطاعة، والتعاون بين المهاجرين والأنصار ومن تبعهم، مما زاد من لحمة المجتمع وقوته الداخلية.
5. **إرساء هيبة الدولة :**إظهار قوة الدولة الجديدة وقدرتها على الدفاع عن نفسها ردع الأعداء عن التفكير في القضاء عليها.

---

[17] **الركون إلى الدعة:**
يعني الاعتماد على الراحة والطمأنينة دون بذل جهد أو مواجهة الصعاب.
[18] **رغم شح الإمكانيات المادية الأولية:**
تعني رغم قلة الموارد والمال المتوفر في البداية.

لقد خاض النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه عدداً من **الغزوات** الرئيسية التي كانت كل منها محطة تعليمية واستراتيجية هامة:

- **غزوة بدر الكبرى (2 هـ) :**أول مواجهة حقيقية، تجلت فيها عناية الله بالصف المؤمن، وأهمية الطاعة والتوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، وكانت نصراً مؤزراً رفع من شأن المسلمين وأرسى هيبة الدولة الجديدة.
- **غزوة أحد (3 هـ) :**درس قاسٍ في نتائج مخالفة أمر القيادة، وأهمية الثبات في الشدة، وحقيقة الابتلاء في طريق الدعوة.
- **غزوة الخندق (5 هـ) :**مثال رائع للدفاع الاستراتيجي (حفر الخندق) والتحالفات السياسية وإدارة الحرب النفسية في مواجهة تحالف قبلي كبير.
- **صلح الحديبية (6 هـ) :**رغم ما بدا فيه من شروط مجحفة[19] للمسلمين ظاهراً، إلا أنه كان فتحاً مبيناً كما وصفه القرآن، فقد مهد لانتشار الدعوة، ودخول الكثيرين في الإسلام، وتأمين جبهة قريش مؤقتاً، مما أتاح الفرصة للانطلاق نحو قوى أخرى.
- **فتح مكة (8 هـ) :**ذروة البناء السياسي والعسكري، حيث دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة فاتحاً دون قتال تقريباً، وتجلت فيه أسمى معاني العفو والتسامح عند المقدرة، مما كان له الأثر الأكبر في دخول الناس في دين الله أفواجاً. قال تعالى :﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾)النصر: 1-3.(

الجهاد في المرحلة المدنية لم يكن اعتداءً على الآخرين، بل كان ضرورة حتمية لحماية مشروع النهضة وتأمين بقائه وتمكينه من أداء رسالته العالمية. لقد كانت أخلاقيات القتال في الإسلام صارمة[20] ومرتبطة **بمفهوم الرحمة** الذي هو أصل الرسالة) ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ الأنبياء: 107)،

---

[19] **مجحفة:**
تعني غير عادلة أو فيها ظلم شديد.
[20] **صارمة:**
تعني شديدة وحاسمة لا تقبل التهاون.

حيث نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والأطفال والشيوخ والعُزّل[21]، ونهى عن الغدر، وعن التمثيل بالأجساد، وعن الإفساد في الأرض. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال" :**وَجَدَتِ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي**[22] **رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ)** "رواه البخاري ومسلم.(

خلاصة المبحث الثاني:

لقد شهدت المرحلة المدنية تحولاً عظيماً من بناء الفرد إلى بناء الكيان الجماعي المنظم. فبالمؤاخاة، تأسس المجتمع الإسلامي على قواعد متينة من الإخاء والتكافل. وبوثيقة المدينة، قامت الدولة الإسلامية الأولى ذات النظام السياسي والقانوني الواضح. وبالجهاد والغزوات، تم بناء القوة اللازمة لحماية هذا المشروع وتأمين انتشاره، مع الالتزام بأخلاقيات وقيم الإسلام العليا حتى في أشد المواقف. لقد كانت هذه المرحلة تجسيداً عملياً لكيفية تحويل المبادئ العقدية والأخلاقية إلى واقع مجتمعي وسياسي قوي وعادل، مما يجعلها نموذجاً يحتذى في أي مسعى للنهضة الشاملة اليوم.

---

[21] **العُزّل:**
جمع "أعزل"، وهم الذين لا يحملون سلاحًا.
[22] **مَغَازِي:**
جمع "غزوة"، وتشير إلى المعارك التي شارك فيها النبي محمد ﷺ في الإسلام.

مفهوم الشورى: أساس المشاركة في الحكم

لم يكن حكم النبي صلى الله عليه وسلم حكماً فردياً استبدادياً، بل كان يقوم على أساس **الشورى** .رغم أنه مؤيد بالوحي، إلا أن الله أمره بمشاورة أصحابه، كما في قوله تعالى :﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾)آل عمران: 159).

لقد طبق النبي صلى الله عليه وسلم مبدأ الشورى[23] في أمور كثيرة تتعلق بإدارة الدولة والشأن العام، وخاصة في الأمور التي لم ينزل فيها وحي ملزم أو التي تحتاج إلى تقدير بشري وخبرة. من الأمثلة البارزة: المشاورة في غزوة بدر حول مكان المعركة، والمشاورة في غزوة أحد حول الخروج من المدينة أو البقاء فيها، والمشاورة في غزوة الخندق حول حفر الخندق واقتراح سلمان الفارسي ذلك. كان يأخذ برأي أصحابه "ويختار الرأي الصائب، حتى لو كان مخالفًا لرأيه الأول أو لرأي كبار الصحابة". ، كما حدث في بدر مع الحباب بن المنذر في اختيار مكان الماء.

الشورى في العهد النبوي لم تكن مجرد شكل، بل كانت تفعيل لعقول الأمة وخبراتها في اتخاذ القرار، وغرساً[24] لمبدأ المشاركة والمسؤولية الجماعية في إدارة شؤون الدولة، وهو مبدأ لا غنى عنه لأي نهضة حقيقية في العصر الحديث.

---

[23] **مبدأ الشورى:**
هو مبدأ إسلامي يقوم على تبادل الرأي والتشاور في اتخاذ القرارات.

[24] **غرسًا:**
أي زرعًا ثابتًا ودائمًا، ويُقصد به هنا ترسيخ القيم أو المبادئ في النفوس.

كان **العدل والمساواة** من أبرز سمات الحكم النبوي في المدينة، وهما ركيزتان أساسيتان لا يقوم بدونهما حكم راشد أو مشروع نهضة مستدام. أكد القرآن الكريم على فريضة العدل، قال تعالى :﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (النحل: 90). وكان النبي صلى الله عليه وسلم قدوة عملية في تطبيق العدل حتى على نفسه. طبق العدل في القضاء بين الناس، وبين المسلمين وغير المسلمين، لم يأخذ بالوجاهة أو النسب أو الغنى، بل كان الحق عنده فوق كل اعتبار. طبق المساواة بين المسلمين بغض النظر عن أعراقهم أو طبقاتهم الاجتماعية التي كانوا عليها قبل الإسلام، فكان بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي في مكانة متساوية مع سادات قريش كالعباس وحمزة وعمر رضي الله عنهم في الحقوق والواجبات.

قال صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع مؤكداً على هذه المبادئ" :**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى[25])**

وعندما سرقت المرأة المخزومية[26] وأراد بعض الصحابة الشفاعة لها لئلا تقطع يدها، غضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال قولته المشهورة التي أصبحت قاعدة في العدل" :**وَايْمُ اللَّهِ[27] لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) [28]**

هذه الأمثلة وغيرها رسخت مبدأ سيادة القانون والمساواة أمامه بين جميع أفراد الدولة.

---

[25] " اخرجه (أحمد والبيهقي).

[26] **المرأة المخزومية:**

امرأة من قبيلة بني مخزوم، وهي القبيلة التي كانت تنتمي إليها، واشتهرت بقضية السرقة في عهد النبي ﷺ، فأراد بعض الصحابة الشفاعة لها، فرفض النبي ذلك مؤكدًا مبدأ العدل.

[27] **وَايْمُ اللَّهِ:**

قسمٌ بمعنى: واللهِ، وكان يُستخدم في اللغة العربية الفصحى تأكيدًا للكلام.

[28] " (البخاري ومسلم).

بعد أن استعرضنا أسس قيام الدولة النبوية في المدينة المنورة، والتي ارتكزت على وثيقة تنظم المجتمع، ونظام إداري ومالي بدائي، وقيادة نبوية حكيمة، يبرز مفهوم **الشورى** كأحد الأعمدة الأساسية لهذا البناء السياسي. ولمقاربة واقعنا المعاصر والسبيل إلى النهضة، من الضروري أن نضع مفهوم الشورى في سياق المقارنة مع نظامي الحكم السائدين[29] أو المطلوبين في العصر الحديث:

الديمقراطية كنظام حكم شائع في العالم، و**الاستبداد** كآفة ابتليت بها الكثير من المجتمعات، بما فيها العالم الإسلامي.

1. الشورى في العهد النبوي والخلافة الراشدة

الشورى، كما طبقها النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون، هي مبدأ إسلامي أصيل يعني استطلاع الرأي من ذوي الخبرة والرأي السديد في الأمور التي لا يوجد فيها نص شرعي قاطع، أو في كيفية تطبيق النص الشرعي على الوقائع المتجددة، بما يحقق مصلحة الأمة. وقد أمر الله تعالى بها نبيه :﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾ (آل عمران: 159)، وامتدح المؤمنين الذين يتصفون بها :﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾)الشورى: 38.(

خصائص الشورى في هذا العهد:

- **مرجعيتها علوية :**ليست مفتوحة على كل الآراء، بل مقيدة بحدود الشرع ومبادئه الأساسية (التوحيد، العدل، القيم الأخلاقية). لا شورى في نص قطعي من القرآن والسنة.
- **استطلاع رأي أهل الحل والعقد :**كانت غالباً تتم بمشاورة من يمتلكون الحكمة، والعلم، والخبرة، والأمانة من الصحابة، وليس بالضرورة عموم الناس مباشرة، مع الأخذ في الاعتبار المصلحة العامة للأمة.

---

[29] **السائدين:**
أي الغالبين أو المسيطرين، ويُقصد بها من يسودون أو يتحكمون في الأمور.

- **ليست بالضرورة ملزمة دائماً :**اختلف الفقهاء حول إلزامية رأي أهل الشورى للقائد، ولكن الممارسة النبوية والراشدية أظهرت اهتماماً كبيراً بالأخذ بها، وفي كثير من الأحيان كان الرأي المختار هو رأي الأغلبية أو الرأي الأصلح بعد تداول.
- **هدفها تحقيق المصلحة والعدل :**المقصد الأساسي هو الوصول إلى القرار الأصوب[30] الذي يحقق العدل ويجلب الخير للأمة ويجنبها الشر، وفق مقاصد الشريعة.

.2الديمقراطية (بمفهومها الحديث):

الديمقراطية هي نظام حكم يعني "حكم الشعب"، حيث تكون السيادة للأمة ومصدر السلطات هو الشعب من خلال الانتخابات والاقتراع. يقوم النظام الديمقراطي على عدة مبادئ أساسية:

- **السيادة للشعب :**الشعب هو مصدر السلطات والتشريع، ويتم سن القوانين وإلغاؤها بناءً على إرادته (غالباً عبر ممثلين منتخبين).
- **المساواة السياسية :**الجميع متساوون في الحقوق السياسية (التصويت، الترشح) بغض النظر عن الدين، العرق، الجنس، أو الطبقة الاجتماعية.
- **الفصل بين السلطات :**عادة ما تقوم على الفصل بين السلطات التشريعية، والتنفيذية، والقضائية لضمان عدم تركيز السلطة.
- **التداول السلمي للسلطة :**يتم انتقال السلطة عبر انتخابات دورية حرة ونزيهة.
- **حماية الحريات والحقوق :**يفترض أن تضمن الديمقراطية حريات الأفراد وحقوقهم (التعبير، التجمع، الدين، الملكية).

---

[30] **القرار الأصوب:**
هو القرار الأكثر صحة ودقة والذي يتوافق مع الحق والعقل.

3.الاستبداد (الطغيان/الحكم الفردي المطلق):

الاستبداد هو نقيض كل من الشورى والديمقراطية. ويعني انفراد شخص واحد أو فئة قليلة بالسلطة المطلقة، دون أي رقابة أو مساءلة حقيقية من الأمة أو أي مؤسسات أخرى.

خصائص الاستبداد:

- **السيادة للحاكم (أو الفئة الحاكمة) :**إرادة المستبد هي القانون، ولا يرجع إلى الأمة في شيء أو تكون مرجعيته الوحيدة هي مصالحه أو أهواؤه.
- **تركيز السلطات :**يجمع المستبد بين السلطات المختلفة (التشريعية، التنفيذية، القضائية) في يده أو يد من يواليه.
- **غياب المساءلة والرقابة :**لا يوجد آلية فعالة لمساءلة الحاكم أو عزله إذا أخطأ أو ظلم.
- **قمع الحريات والحقوق :**غالباً ما يقمع المستبد الحريات الأساسية للأفراد (التعبير، المعارضة، التجمع) وينتهك حقوقهم.
- **غياب التداول السلمي للسلطة :**يتم انتقال السلطة غالباً بالوراثة أو القوة أو الانقلابات.
- **انتشار الفساد والظلم :**يؤدي الاستبداد حتماً إلى انتشار الفساد وسوء الإدارة والظلم الاجتماعي والاقتصادي، لأنه لا يوجد من يحاسب أو يراقب.

وجه المقارنة	الشورى في الإسلام المبكر	الديمقراطية الحديثة	
مصدر السيادة	لله تعالى (الحاكمية لله) والشورى تتم في إطار شرعه.	للشعب (السيادة الشعبية)، الشعب مصدر السلطات والتشريع.	
مرجعية التشريع	القرآن والسنة هما المرجعية العليا والنهائية.	الدستور والقوانين الوضعية (التي يسنها ممثلو الشعب).	
نطاق التطبيق	في الأمور الاجتهادية التي لا نص فيها، أو كيفية تطبيق النص.	في جميع شؤون الدولة (التشريع، التنفيذ، السياسة).	
المستشارون/المشاركون	أهل الحل والعقد (العلماء، الحكماء، الخبراء، الأمناء).	جميع المواطنين المؤهلين (من خلال التصويت المباشر أو غير المباشر).	
إلزامية القرار	محل خلاف فقهي، والممارسة النبوية والراشدية تميل للأخذ بها.	غالباً ملزم (قرارات الأغلبية أو ممثليها).	
أساس المشروعية	البيعة القائمة على الالتزام بشرع الله، وتحقيق العدل.	إرادة الشعب المعبر عنها بالانتخابات.	
الهدف الأسمى	تحقيق عبودية الله، إقامة العدل، تحقيق مصالح الدنيا والآخرة.	تحقيق مصالح الشعب (حسب تعريفه)، رفاهيته، حرياته.	
وجه المقارنة	**الشورى في الإسلام المبكر**	**الديمقراطية الحديثة**	

أوجه الالتقاء بين الشورى والديمقراطية (في الجانب الإجرائي والهدف العام):

كلا المفهومين يمثلان بديلاً عن الحكم الفردي المطلق والاستبداد. وكلاهما يهدفان إلى تحقيق قدر من المشاركة في اتخاذ القرار، ومنع الظلم، وتحقيق المصلحة العامة (وإن اختلف تعريف المصلحة العليا والمرجعية النهائية). وكلاهما يقران بأهمية تداول الرأي وعدم انفراد شخص واحد بالسلطة. لذلك يرى كثير من المفكرين الإسلاميين المعاصرين أن الديمقراطية، بما توفره من آليات (انتخابات، برلمان، تداول سلطة، حريات عامة)، يمكن أن تكون إطاراً أو أداة لتحقيق مبدأ الشورى على نطاق واسع في الدولة الحديثة، شريطة أن تكون المرجعية النهائية حاكمة ومقيدة للشعب وممثليه بأصول الشريعة ومبادئها الكلية.

الاستبداد: العدو المشترك للشورى والديمقراطية والنهضة:

على النقيض تماماً، يمثل الاستبداد نقيضاً جذرياً لكل من الشورى والديمقراطية. فهو يهدر كرامة الإنسان، ويصادر حرياته، ويقمع الأصوات الحرة، وينشر الظلم والفساد، ويعطل طاقات الأمة وقدرتها على الإبداع والإنتاج والنهوض. التاريخ الإسلامي، للأسف، شهد فترات تمكن فيها الاستبداد والملك العضوض[31] بعد الخلافة الراشدة، مما كان سبباً رئيسياً في تراجع الأمة وضعفها الداخلي الذي مهد للهزائم الخارجية لاحقاً. قال الإمام مالك بن أنس[32] رحمه الله: **"لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[33]"**؛ وكان صلاح أولها بالتمسك بالوحي والعمل بمبدأ الشورى والعدل.

---

[31] **الملك العضوض:**

هو ملك جبّار قوي، يُستخدم في القرآن لوصف طاغية أو حاكم ظالم شديد القوة.

[32] **الإمام مالك بن أنس:**

عالم وفقيه مسلم مشهور، مؤسس المذهب المالكي في الفقه الإسلامي، عاش في القرن الثاني الهجري.

[33] **"لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها":**

تعني أن أتباع الأمة يجب أن يتمسكوا بتعاليم الإسلام الأصلية التي كانت عليه في عهد النبي ﷺ وأصحابه لضمان صلاحهم.

الخلاصة والتطبيق على واقع النهضة:

إن السعي لعودة الإسلام لسيادة الكون يتطلب حتماً التخلص من داء الاستبداد الذي نخر[34] في جسد الأمة لعقود طويلة. ويتطلب إحياء مبدأ الشورى وتفعيله في كافة مستويات صناعة القرار، بدءاً من الأسرة والمجتمع وصولاً إلى الدولة. الاستفادة من الآليات المعاصرة التي توفرها الديمقراطية (كالتنظيم الانتخابي والبرلماني وتداول السلطة السلمي والفصل بين السلطات) يمكن أن تكون وسيلة لتحقيق هذا الهدف، شريطة أن يكون الإطار الحاكم والمرجعية العليا هي مبادئ وقيم الإسلام التي لا تقبل المساومة، وأن يكون الهدف هو بناء دولة عادلة وقوية تخدم الإنسان وتحقق مقاصد الشرع في الأرض.

إن النهضة لن تتحقق في ظل حكم فردي مستبد يهدر الكفاءات ويقمع الحريات ويظلم العباد. ولن تتحقق بتبني نماذج مستوردة تتعارض كلياً مع مبادئ الأمة وقيمها. السبيل يكمن في استلهام جوهر الشورى والعدل من سيرة النبوة والراشدين، وتطبيقه بروح عصرية واعية، والاستفادة من كل أداة وآلية معاصرة لا تصادم الثوابت، لبناء نظام حكم رشيد يستمد شرعيته من شعبه والتزامه بشريعة ربه.

بدايات التنظيم الإداري والمالي للدولة الناشئة

رغم حداثة عهد الدولة وقلة مواردها، بدأ النبي صلى الله عليه وسلم في وضع لبنات التنظيم الإداري والمالي. كان يولي الولاة[35] على المدن والأقاليم التي تدخل في حكمه، ويختارهم بناءً على الكفاءة والأمانة. كان يرسل السعاة لجمع الزكاة والصدقات من الأقاليم ويقوم بتوزيعها على مستحقيها. بدأ في تنظيم الموارد المالية للدولة، وإنشاء ما يشبه "بيت المال" البدائي لجمع الإيرادات وتوزيع النفقات على المصارف الشرعية، وخاصة الإنفاق على شؤون الدعوة والجهاد ورعاية الفقراء والمساكين. هذا التنظيم الإداري والمالي الأولي وضع الأسس التي توسعت وتطورت فيما بعد في عهد الخلافة الراشدة لتصبح مؤسسات دولة راسخة.

---

[34] **نخر:**
تعني الحفر أو الاختراق، وغالبًا تستخدم لوصف تآكل أو فساد تدريجي في شيء ما.

[35] **الولاة:**
هم المسؤولون أو الحكام الذين يُناط بهم إدارة شؤون منطقة أو دولة معينة.

القيادة النبوية: الحكمة، المرونة، الحزم، القدوة الحسنة

كانت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم للدولة تجسيداً لأسمى معاني القيادة الربانية. اتصف بالحكمة البالغة في التعامل مع مختلف المواقف والأشخاص، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، أصدقاء أو أعداء. كان يتمتع بمرونة عالية في التعامل مع المتغيرات، والقدرة على التكيف مع الظروف المستجدة دون التنازل عن المبادئ الأساسية (كما تجلى في صلح الحديبية). كان حازماً في تطبيق شرع الله والتعامل مع من يهددون كيان الدولة أو يخالفون النظام العام. وقبل كل ذلك، كان **القدوة الحسنة** في كل شيء، في زهده، في عدله، في شجاعته، في صبره، في وفائه بعهده، في رحمته. كان القائد الذي يعيش حياة جنوده ورعيته، ويشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، ويتحمل معهم المشاق. هذه الصفات القيادية الفذة كانت عاملاً حاسماً في التفاف الناس حوله وقوة الدولة التي بناها.

الجهاد كمبدأ أساسي في حياة المؤمنين وأساس بناء الدولة:

لا يمكن فهم قيام هذه الدولة واستمرارها دون استيعاب مكانة الجهاد في حياة المؤمنين وفي بنية الدولة النبوية. لم يكن الجهاد مجرد تكتيك عسكري ظرفي، بل كان **مبدأ أساسياً** في حياة المؤمن، يتضمن جهاد النفس والهوى والشيطان، ويتوج عند اللزوم بالجهاد القتالي لإعلاء كلمة الله والدفاع عن الحق والمستضعفين. هذا المبدأ غرس في نفوس الصحابة الاستعداد الدائم للبذل والتضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيل الله، المال، النفس، الوقت، الجهد.

لقد كان هذا المبدأ هو الوقود الذي حرك عجلة بناء الدولة وحماها. فالدولة التي تقوم على العدل والشورى والحق تحتاج إلى قوة تحميها من أعدائها الذين لا يريدون لها البقاء. الجهاد هو الذي وفر هذه القوة. هو الذي جعل أفراد المجتمع مستعدين للذود عن حياض الدولة[36]، وحماية حدودها، وتأمين طرقها، وردع المعتدين[37]. الدولة النبوية لم تكن دولة مسالمة بالمعنى السلبي، بل كانت دولة قوية بالحق، مستعدة للدفاع عن نفسها وعن دعوتها.

---

[36] **للذود عن حياض الدولة:**
يعني الدفاع بحماية وقوة عن حدود الدولة وأراضيها من الأعداء أو المخاطر
[37] **وردع المعتدين:**
.يعني ردع ومنع الأشخاص الذين يعتدون أو يهاجمون الآخرين بالقوة أو العقاب

الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الجهاد تبين فضله العظيم ومكانته في الإسلام. قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ *يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الصف: 10-13). وقال صلى الله عليه وسلم" :**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** " (الترمذي وصححه الألباني). هذه النصوص وغيرها تؤكد أن الجهاد، بمعناه الواسع والقتالي عند اللزوم، ليس ملحقاً أو ثانوياً، بل هو ذروة سنام[38] هذا الدين وعامل أساسي في قوته وصموده وبناء كيانه السياسي.

..."إن مكانة الجهاد في الإسلام، بمعناه الشامل والقتالي عند اللزوم، ليست مجرد تكتيك دفاعي أو وسيلة للتوسع، بل هي **مبدأ أساسي متجذر في حياة المؤمنين** وجزء لا يتجزأ من إيمانهم ومسؤوليتهم تجاه دينهم وأمتهم وإعلاء كلمة الله في الأرض. هذا المبدأ هو الذي غرس في نفوس الصحابة الاستعداد الدائم للبذل والتضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيل الله، المال، النفس، الوقت، الجهد.

لقد أكدت نصوص كثيرة من السنة النبوية المطهرة على فضل الجهاد ومكانته العالية في الإسلام، مبينةً أنه ذروة سنام الدين وشرط لعزة الأمة وقوتها. فمن الأحاديث التي تحث على الجهاد وتبين عواقبه نذكر:

- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول" :**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**[39] ."

---

[38] **ذروة سنام:**
تعني أعلى نقطة أو قمة، وغالبًا تُستخدم مجازًا للدلالة على أعلى مستوى أو أفضل حالة.

[39] **المصدر:** سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة. مسند أحمد.

- صححه الألباني في صحيح أبي داود.

الشاهد :هذا الحديث يبين بجلاء أن ترك الجهاد (والاشتغال بالدنيا عنه كما في سياق الحديث) سبب في تسليط الذل على الأمة، وأن العودة إلى العزة مرتبطة بالعودة إلى الدين والجهاد في سبيله. وفي روايات أخرى بلفظ مقارب يشير إلى نفس المعنى.

- ومما يذكر في هذا السياق، وإن كان محلاً للبحث والتحقيق في رواياته، المعنى الذي يفيد أن الأمة ما تركت الجهاد إلا حاق بها الذل. وهذا المعنى صحيح ومتفق مع نصوص شرعية أخرى وواقع تاريخي، وقد وردت روايات تقاربه، مثل رواية في "مسند الشهاب" للقضاعي، و"كنز العمال" بلفظ" :**ما ترك قوم الجهاد إلا ظهر عليهم عدوهم** ."والمعنى العام مدعوم بنصوص أخرى مثل قوله تعالى عن المنافقين الذين تثاقلوا عن الجهاد :﴿**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾ (التوبة: 81)، وما أعقب ذلك من تسلط الأعداء على الأمة في فترات تركها للجهاد.
- وإليك أحاديث أخرى تؤكد على فضل الجهاد وعظيم منزلته:
- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي العمل أفضل؟ فقال" :**إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** ."قيل: ثم ماذا؟ قال" :**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ."قيل: ثم ماذا؟ قال" :**حَجٌّ مَبْرُورٌ** [40]."
  - **الشاهد :**هذا الحديث يبين أن الجهاد يأتي في المرتبة الثانية بعد الإيمان بالله ورسوله مباشرة، مما يدل على عظيم منزلته في سلم الأعمال الصالحة.
- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال" :**لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** [41]."
  - **الشاهد :**هذا الحديث يوضح عظم أجر الجهاد ومقارنته بالدنيا بأسرها، مما يجعله هدفاً يسعى له المؤمن ويهون عليه ما يبذله في سبيله.

---

[40] **المصدر :**صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل؛

- [41] **المصدر :**صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله؛ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله.

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله أي الناس أفضل؟ قال : **"مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ** ."قالوا: ثم من؟ قال" :**مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ**[42] **يَتَّقِي اللَّهَ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ** [43]."
  - **الشاهد :**هذا الحديث يجعل المجاهد في سبيل الله بنفسه وماله في قمة مراتب الفضل بين الناس، مما يبرز مكانة الجهاد كغاية عظيمة للمؤمن.

هذه الأحاديث وغيرها الكثير ترسخ في ذهن المؤمن أن الجهاد ليس مجرد خيار، بل هو جزء لا يتجزأ من كمال إيمانه، وأنه الطريق إلى العزة والكرامة للأمة. الدولة التي تتخلى عن هذا المبدأ، وتستكين للضعف، وتترك الاستعداد لمواجهة أعدائها ومن يقفون حائلاً دون رسالتها، محكوم عليها بالذل والهوان، كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم. لذا، كان إحياء فريضة الجهاد، بمعناها الشامل ومستوياتها المختلفة، ركناً أساسياً في بناء الدولة النبوية في المدينة، وسيظل كذلك أي مسعى جاد لاستعادة النهضة والسيادة.

خلاصة المبحث [الثالث]:

لقد شكلت المرحلة المدنية نموذجاً فريداً لقيام الدولة الإسلامية على أسس راسخة من وثيقة تنظم العلاقات، وشورى تفعّل المشاركة، وعدل ومساواة يحفظان الحقوق، وتنظيم إداري ومالي يدير شؤون الدولة، وقيادة نبوية مثالية تجمع بين الحكمة والقوة والقدوة. كل هذا البناء السياسي والإداري كان مدعوماً بروح الجهاد المتجذرة في نفوس المؤمنين، والتي مثلت القوة الدافعة والحامية للمشروع كله، مما يؤكد أن بناء الدولة في الإسلام لا ينفصل عن إعداد القوة والاستعداد للتضحية في سبيل المبادئ العليا التي قامت عليها.

---

[42] **شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ:**
تعني واديًا صغيرًا أو مجرى مائي فرعي بين الجبال.

- [43] **المصدر :**صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الهجرة وقول المهاجر أحسن من المقيم؛ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب تفضيل الجهاد على ترك الجهاد.

. المبحث الرابع: بناء القوة: الجهاد والعلاقات الخارجية

لم تكن الدولة النبوية التي تأسست في المدينة المنورة كياناً منغلقاً على نفسه، بل كانت مشروعاً يحمل رسالة عالمية، ويواجه تحديات جسيمة[44] من قوى متعددة كانت تتربص به .من هنا، كان بناء القوة، عسكرياً وسياسياً، وتطوير العلاقات الخارجية، أمراً حتمياً لضمان بقاء الدولة وحماية الدعوة وتمكينها من الوصول إلى العالمين .هنا يبرز مفهوم **الجهاد** كعنصر محوري في هذا البناء، ليس فقط بمعنى القتال، بل كاستعداد دائم للبذل والتضحية، وكآلية دفاعية وهجومية (عند اللزوم لدفع الظلم وإزالة العقبات) تخدم أهداف الدولة العليا.

مفهوم الجهاد في الإسلام (الدفاع، دفع الظلم، تبليغ الدعوة):

في المرحلة المدنية، تطور مفهوم الجهاد من مجرد الثبات على العقيدة في مكة إلى كونه إحدى وسائل الدولة الإسلامية لتحقيق أهدافها وحماية وجودها .لم يكن القتال غاية في حد ذاته، بل كان وسيلة لتحقيق غايات نبيلة، يمكن تلخيصها في الآتي:

1. **الدفاع عن النفس والدولة :**الرد على أي عدوان يستهدف المسلمين أو كيان دولتهم الوليد .هذا هو الجهاد الدفعي الذي لا يختلف عن حق أي دولة في الدفاع عن سيادتها وأمنها .قال تعالى :**﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**)البقرة.(190 :
2. **دفع الظلم ونجدة المستضعفين :**تحرير المسلمين وغير المسلمين من القمع والطغيان والاستعباد، ورفع الظلم عن المظلومين الذين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم .قال تعالى : **﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾**)النساء.(75 :

[44] تعني كبيرة أو خطيرة جدًا.

3. **إزالة العقبات المادية أمام تبليغ الدعوة :**لم يكن الهدف إكراه الناس على الدخول في الإسلام، فالقرآن نص صراحة على ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾)البقرة(256 :، ولكن كان الهدف إزالة الأنظمة القمعية[45] والظالمة التي تمنع الناس من سماع الحق واختيار عقيدتهم بحرية .كان القتال وسيلة لفتح الطريق أمام الدعوة لتصل إلى قلوب الناس وعقولهم.

كان الجهاد بهذا المفهوم جزءاً أساسياً من بناء القوة اللازمة لتمكين الدولة من أداء رسالتها وحماية وجودها في عالم لا يحترم الضعيف.

تنظيم الجيش وخطط المعارك (دروس من الغزوات):

شهدت المرحلة المدنية بناء جيش إسلامي من الصفر .بدأ بفرق صغيرة (السرايا)[46] للاستطلاع وتأمين الطرق، ثم تطور ليصبح جيشاً قادراً على خوض معارك كبرى (الغزوات)[47] .اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بتنظيم الجيش، وتدريب الأفراد، وتوزيع الأدوار، وتنمية روح الانضباط والطاعة فيهم، مع غرس روح الجهاد والتضحية والاستشهاد التي كانت وقود هذا الجيش.

قدمت الغزوات الكبرى دروساً استراتيجية وتكتيكية هامة:

- **غزوة بدر (2 هـ) :**رغم قلة العدد والعتاد، انتصر المسلمون بفضل الإيمان العميق، والتخطيط المحكم (اختيار موقع المعركة، السيطرة على الماء)، والطاعة التامة للقيادة، والثبات في القتال .كانت درساً في أن النصر من عند الله أولاً، ولكن مع ضرورة الأخذ بالأسباب كاملة.
- **غزوة أحد (3 هـ) :**كانت درساً قاسياً ومبكراً في أهمية الانضباط العسكري وعدم مخالفة أوامر القائد، وبيان لخطورة حب الدنيا (النزول لجمع الغنائم) على النصر .كما أظهرت الغزوة أهمية القيادة في أوقات الشدة وإعادة تجميع الصفوف.

---

[45] **الأنظمة القمعية:**
هي أنظمة حكم تستخدم القوة والسيطرة الشديدة لقمع المعارضة وإلغاء الحريات.
[46] **السرايا:**
جمع "سرية"، وهي وحدة عسكرية صغيرة تتكون من مجموعة من الجنود.
[47] **الغزوات:**
معارك صغيرة أو حملات عسكرية شارك فيها النبي محمد ﷺ والمسلمون في بداية الإسلام.

- **غزوة الخندق (5 هـ) :**تجسدت فيها حكمة القيادة في تبني خطة دفاعية مبتكرة (حفر الخندق باقتراح سلمان الفارسي) لم تكن معروفة لدى العرب، وإدارة الحرب النفسية والإعلامية، والصبر على الحصار والشدائد، والتوكل على الله .كانت درساً في الاستفادة من الخبرات المختلفة (الفارسية في حفر الخندق) وفي الصمود الاستراتيجي.
- **غزوات أخرى :**مثل غزوة بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة (كما سيأتي)، وغزوة خيبر، وفتح مكة، وتبوك، كل منها قدمت دروساً في التعامل مع العدو الداخلي والخارجي، وفي الحصار، وفي إدارة المدن المفتوحة، وفي الاستعداد لمواجهة القوى العظمى (الروم في تبوك).

خيانة يهود المدينة: تحد داخلي للسيادة

لم تكن التحديات التي واجهت الدولة النبوية خارجية فحسب، بل كانت هناك تحديات داخلية تمثلت في وجود بعض القبائل اليهودية في المدينة، والتي كانت طرفاً في وثيقة المدينة التي ألزمتهم بالتعاون والمسالمة وعدم مساندة أعداء الدولة .ولكن، أظهرت بعض هذه القبائل نقضاً للعهود وموالاة[48] لقريش وأعداء الإسلام، مما شكل تهديداً خطيراً للأمن الداخلي للدولة الناشئة.

- **يهود بني قينقاع :**كانوا أول من نكث العهد .بعد غزوة بدر، أظهروا الحسد والعداء للمسلمين، ووصل الأمر إلى التحرش بامرأة مسلمة وقتل رجل مسلم دافع عنها حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى استسلموا، فأجلاهم عن المدينة جزاءً لنقضهم العهد وعدوانهم.
- **يهود بني النضير :**بعد غزوة أحد، زاد حقدهم وكيدهم للإسلام والمسلمين .تآمروا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم عندما جاءهم يستعين بهم في دية قتيلين .كشف الله أمرهم، فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم وأجلاهم عن المدينة بعد أن سمح لهم بأخذ أمتعتهم إلا السلاح، جزاءً لنقضهم العهد ومحاولتهم الاغتيال.

---

[48] **موالة:**
.تعني المساندة أو التحالف والوقوف إلى جانب جهة أو شخص بمودة ونصرة

- **يهود بني قريظة:** كانت خيانتهم أشد وأخطر .أثناء غزوة الخندق، وفي أحلك الظروف التي كان المسلمون يواجهون فيها تحالفاً كبيراً من المشركين، نقض بنو قريظة عهدهم وتحالفوا مع الأحزاب ضد المسلمين من داخل المدينة، مما كاد يعرض المسلمين لهلاك محقق .بعد انتهاء غزوة الخندق بفضل الله ورحمته، حاصر النبي صلى الله عليه وسلم بني قريظة .حكم عليهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، سيد الأوس وحليفهم السابق، بحكم وافق حكم الله في أمثالهم من الخائنين في الشرائع السابقة، وهو قتل المقاتلين وسبي الذراري[49] والنساء ومصادرة الأموال، وقد نفذ الحكم فيهم.

هذه الأحداث لم تكن مجرد وقائع تاريخية، بل كانت دروساً في كيفية تعامل الدولة الإسلامية مع الخيانة الداخلية والتهديدات الوجودية، وأن أمن الدولة والمجتمع مقدم على بقاء من يهدده وينقض عهوده، مع الالتزام بالإطار الشرعي في التعامل حتى مع الخائنين (حكم الله في بني قريظة).

أخلاقيات الحرب في الإسلام:

رغم ضرورة القوة والقتال في مواجهة التحديات، إلا أن الإسلام قيد الحرب بقيود أخلاقية صارمة لم تكن معروفة في الأنظمة الأخرى حينها، ولا تزال محل إعجاب الكثيرين اليوم . الحرب في الإسلام ليست تدميراً شاملاً أو قتلاً عشوائياً.

من أبرز أخلاقيات الحرب في الإسلام التي طبقها النبي صلى الله عليه وسلم وأوصى بها جيوشه:

- تحريم قتل غير المقاتلين :الأطفال، النساء، الشيوخ، الرهبان في صوامعهم، الفلاحين في مزارعهم (ما لم يشاركوا في القتال).
- تحريم التمثيل بالأجساد.
- تحريم الغدر ونقض العهود والمواثيق.

---

[49] **وسبي الذراري:**
.يعني أسر النساء والأطفال من الأعداء بعد الحروب، وكان ذلك معمولًا به في الحروب القديمة

- تحريم قطع الأشجار المثمرة وإتلاف الزرع وتخريب العمران (إلا لضرورة حربية قاهرة لا مناص منها).
- الرحمة بالأسرى والإحسان إليهم.
- وجوب الوفاء بالعهد والصلح ما التزم به الطرف الآخر.

هذه الأخلاقيات لم تكن مجرد توصيات، بل كانت جزءاً من المنهج الذي ربى عليه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، والتي جعلت الفتوحات الإسلامية الأولى مختلفة عن موجات الغزو والتدمير التي عرفتها البشرية في عصور أخرى، وجعلت شعوباً كثيرة تدخل في الإسلام طواعية لما رأوا من عدل المسلمين وسماحة أخلاقهم مقارنة بغيرهم.

العلاقات مع القوى المحيطة (المعاهدات، إرسال الرسل):

لم تقتصر علاقات الدولة النبوية على الجانب العسكري .كان النبي صلى الله عليه وسلم يتبع منهجاً سياسياً متوازناً، يعتمد على القوة عند اللزوم، والدبلوماسية[50] والصلح عند الإمكان، وتبليغ الدعوة في كل الأحوال.

- **المعاهدات :**عقد النبي صلى الله عليه وسلم معاهدات مع مختلف القبائل والقوى المحيطة، مثل وثيقة المدينة نفسها، وصلح الحديبية مع قريش .كانت هذه المعاهدات تهدف إلى تنظيم العلاقات، تأمين الحدود، كسب الوقت لترتيب الأوضاع الداخلية، أو فتح آفاق جديدة للدعوة .الوفاء بالعهود كان مبدأ إسلامياً راسخاً :﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾)المائدة.(1 :
- **إرسال الرسل :**بعد صلح الحديبية الذي أمن جانب قريش مؤقتاً، اتجه النبي صلى الله عليه وسلم في العام السابع الهجري إلى إرسال الرسل إلى ملوك وزعماء القوى العظمى في عصره (كـ كسرى فارس، قيصر الروم، المقوقس عظيم مصر، النجاشي ملك الحبشة، وغيرهم) يدعوهم فيها إلى الإسلام .كان هذا العمل إعلاناً عالمياً عن رسالة الإسلام، وتأكيداً على أن الدولة الجديدة في المدينة تحمل مشروعاً يتجاوز الإقليمية إلى العالمية.

---

[50] **الدبلوماسية:**
هي فن التفاوض وإدارة العلاقات بين الدول أو الأطراف بطريقة سلمية وحكيمة.

خلاصة المبحث الرابع:

لقد كانت المرحلة المدنية فترة بناء للقوة بكل أبعادها .فبالجهاد المنضبط بالشرع والأخلاق، تم بناء جيش قوي قادر على الدفاع عن الدولة وإزالة العقبات أمام الدعوة، مستفيداً من دروس المعارك والتجارب .وبالحزم في التعامل مع الخيانة الداخلية (كما في حالة يهود المدينة)، تم تأمين الجبهة الداخلية .وبالدبلوماسية والمعاهدات وإرسال الرسل، تم تنظيم العلاقات الخارجية وإعلان عالمية الرسالة .كل هذه الجوانب العسكرية والسياسية والدبلوماسية شكلت مجتمعة "بناء القوة" اللازم لمشروع النهضة النبوي للانتقال من نطاق المدينة إلى آفاق العالم، مع الالتزام الدائم بمبادئ الإسلام وقيمه حتى في أشد الظروف.

المبحث الخامس: طلب العلم ومكانته ودوره في مشروع الجهاد والنهضة

إنَّ أيَّ حديث عن النهضة لا يكتمل دون تسليط الضوء على مكانة العلم في الإسلام، وكيف شكَّل مطلباً أساسياً في بناء الفرد والمجتمع والدولة في العهد النبوي. لم تكن الحضارة الإسلامية لتُبنى وتزدهر لقرون لولا أنَّ العلم كان في صلب رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. بل إنَّ هذا العلم لم يكن بمعزل عن فريضة الجهاد، بل كان أساساً لترسيخها وفهمها وتطبيقها، فكانت النهضة النبوية قائمة على تكامل لا انفصال فيه بين العلم والعمل، والإيمان والجهاد.

"اقرأ": الأمر الإلهي الأول والامتثال له في الجهاد

إنَّ أول كلمة نزلت من القرآن الكريم على قلب النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن "صلِّ" أو "صُمْ" أو "جاهِد"، بل كانت "**اقْرَأْ**."في هذا الأمر الإلهي القاطع، الذي جاء في سورة العلق : **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** (العلق: 1-5)، يتجلى بوضوح أنَّ **العلم هو مفتاح الرسالة، وهو الأساس الذي تبنى عليه معرفة الخالق، ومعرفة الكون، ومعرفة الذات**. هذه الكلمة لم تكن مجرد دعوة للقراءة والكتابة، بل هي دعوة شاملة للمعرفة، والتفكر، والتدبر في آيات الله الكونية والقرآنية.

ربطاً بالجهاد: هذا الأمر بالعلم ليس ترفاً فكرياً، بل هو أول خطوة في إعداد المجاهد الحقيقي. فكيف يجاهد المرء في سبيل الله بغير **علم بالله، وبمقاصد دينه**[51]**، وبأحكام الجهاد وأخلاقياته؟** العلم هو الذي يميز الجهاد المشروع عن القتال المتهور أو الظالم. هو الذي يغرس اليقين في القلب، ويجعل النفس مطمئنة للقدر، ومستعدة للبذل لأنها تعلم فضل الجهاد وعاقبته الحميدة عند الله. بل إن العلم بما ينتظر الشهيد في الجنة هو أعظم حافز على المضي قدماً في المعركة، قال تعالى :**﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** (آل عمران: 169-170). هذا الفهم العميق لا يأتي إلا بطلب العلم والتدبر.

---

[51] **وبمقاصد دينه:**
أي بالأهداف العليا والمبادئ الأساسية التي جاء بها الدين، مثل العدل والرحمة وحفظ النفس.

تشجيع النبي صلى الله عليه وسلم على التعلم ونشر المعرفة ومكانة العلم في الجهاد والغزوات

لم يكتفِ النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر الإلهي، بل كان قدوة ومعلماً ومُحفِّزاً على طلب العلم ونشره بكل السبل المتاحة. في العهد المكي، كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أول مدرسة للإسلام، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه القرآن والسنة، ويغرس فيهم العقيدة الصافية والأخلاق الحميدة.

ربطاً بالجهاد :في المدينة المنورة، اتخذ تشجيع العلم أبعاداً أوسع، وأصبح مرتبطاً بشكل مباشر بإعداد الأمة للجهاد:

- **تعليم الأسرى كفداء :**بعد غزوة بدر، كانت إحدى الفداء للأسرى المشركين أن يعلم كل أسير منهم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة. هذا القرار النبوي الرائد يؤكد على القيمة العظمى للعلم، **وتقديمه على الفداء المالي، بل جعله جزءاً من استراتيجية بناء الدولة التي ستخوض معارك كبرى** .فالجيش القوي لا يتكون من المقاتلين فقط، بل من المتعلمين القادرين على فهم الأوامر، وتدوين المراسلات، وتوثيق الأحداث، وإدارة الدولة.
- **تشجيع العلماء في صفوف المجاهدين :**كان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه أصحابه ليتعلموا ويعلموا، ويفقهوا الناس. وكان أصحاب العلم هم حملة الرايات في الحرب[52]، وقادة الجيوش في السلم .**فالعلم الشرعي يربي على الشجاعة والإقدام والثبات في مواجهة العدو، لأنه يبصّر المجاهد بحقيقة ما يقاتل من أجله وبثوابه العظيم.**
- **العلم بالعدو وفن الحرب :**لم يكن الجهاد مجرد حماس، بل كان يتطلب علماً بأساليب القتال، ومعرفة بخطط العدو، وفهماً لتضاريس المعركة. النبي صلى الله عليه وسلم كان يُرسل السرايا للاستطلاع وجمع المعلومات (وهو نوع من العلم والمعرفة العسكرية)، واستمع لرأي الخبراء في الغزوات (مثل سلمان الفارسي في حفر الخندق)، مما يؤكد أن العلم بفنون الحرب وتكتيكاتها كان جزءاً أساسياً من الاستعداد للجهاد.

---

[52] **حملة الرايات في الحرب:**
هم الجنود الذين يحملون أعلام الجيش، وكانوا رمزًا للثبات والقيادة في ساحة المعركة.

المسجد كمؤسسة تعليمية أولى ودوره في الحث على الجهاد

لم يكن المسجد النبوي مجرد مكان للصلاة، بل كان جامعة متكاملة ومؤسسة تعليمية مركزية للدولة الإسلامية الوليدة. ففي المسجد:

- كان النبي صلى الله عليه وسلم يلقي دروسه وخطبه ويعلم الصحابة القرآن والسنة.
- كانت "أهل الصُّفة[53]" يجلسون فيه لطلب العلم الشرعي، وكانوا بمثابة نواة لطلاب العلم المتفرغين، ومنهم من كان يُبعث في السرايا والدعوة.
- كانت تُعقد فيه الحلقات العلمية لمختلف العلوم التي كانت متاحة في ذلك الوقت.

ربطاً بالجهاد :دور المسجد في الجهاد كان محورياً. فمنه كانت تنطلق الجيوش والسرايا، وفيه كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلن عن الغزوات ويحث الصحابة على الخروج، ويُلقي الخطب التي تثير فيهم روح الجهاد والتضحية.

- **الحث على الجهاد في المسجد :**كان المسجد منبر الجهاد الأول، تُتلى فيه آيات القرآن التي تحث على القتال في سبيل الله، وتُذكر فيه أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم عن فضل الجهاد والشهادة .
    - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال : **"إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** ."قيل: ثم ماذا؟ قال" :**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ."قيل: ثم ماذا؟ قال" :**حَجٌّ مَبْرُورٌ) متفق عليه** [54]."هذا الحديث وغيره كان يُتلى في المسجد ليزيد من عزيمة المجاهدين.
- **توزيع الرايات وتعيين القادة :**في المسجد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعقد الألوية والرايات ويعهد بها إلى قادة الجيوش. هذا المشهد كان يثير الحمية ويوضح أهمية الدور الذي سيقوم به كل قائد .

---

[53] **أهل الصُّفّة:**

فقراء من الصحابة كانوا يقيمون في جزء من مسجد النبي ﷺ، وتفرغوا للعبادة وطلب العلم.

[54] (رواه البخاري ومسلم).

- من الأمثلة على ذلك، عندما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة، وأمر عليهم زيد بن حارثة، وقال" :**فإن قتل زيد فجعفر[55]، فإن قتل جعفر فابن رواحة [56]"**(رواه البخاري ومسلم). هذا الترتيب العلني والواضح كان يتم في المسجد، ويُبين أهمية القيادة والاستعداد لكل طارئ في المعركة.

- **إعداد الجيش ونشر الوعي :**كان المسجد مكاناً لإعداد الجيش معنوياً وفكرياً، وتوعية المسلمين بضرورة الجهاد، وفهم أبعاده وأهدافه.

الربط بين الإيمان والعقل، والعلم والعمل (في سياق الجهاد)

ميز المنهج النبوي بوضوح بين الإيمان والعقل، فلا تعارض بينهما، بل كل منهما يكمل الآخر ويدعمه. فالعلم يوجه العقل ويزوده بالغاية النبيلة، والعقل يقوي الإيمان ويجعل التدين مبنياً على بصيرة.

ربطاً بالجهاد :هذا الربط كان جوهرياً في بناء جيش قوي ومؤمن:

- **إعداد القائد والمقاتل الواعي :**لم يكن المجاهدون مجرد جنود، بل كانوا أصحاب عقول واعية وإيمان راسخ، يفهمون لماذا يقاتلون ومن يقاتلون. وهذا الوعي العميق المبني على العلم الشرعي والعقلي هو ما جعلهم يثبتون في أشد المواقف، ويجاهدون عن قناعة لا عن مجرد عصبية.
- **العلم بخطط العدو :**العلم بالواقع، وبقوة العدو وضعفه، وبخططه وتكتيكاته[57]، هو جزء من العقل والعمل، وهو ضروري للجهاد الحكيم. لم يكن الجهاد تهوراً أو إلقاء بالنفس إلى التهلكة بغير بصيرة.
-

---

[55] **فجعفر:**
يقصد به جعفر بن أبي طالب، ابن عم النبي ﷺ، وأحد أوائل المسلمين، استُشهد في غزوة مؤتة وكان من القادة الشجعان.

[56] **فابن رواحة:**
هو عبد الله بن رواحة، صحابي جليل وشاعر، وأحد قادة المسلمين في غزوة مؤتة، استُشهد فيها.

[57] **تكتيكاته:**
تعني خططه أو أساليبه العملية في إدارة المعارك أو المواقف لتحقيق أهداف محددة.

- **الجهاد كعمل مستمر :**لم يكن العلم في الإسلام مجرد معرفة نظرية أو ترف فكري، بل كان يهدف إلى **العمل والتطبيق** .والعلم بالجهاد يعني تطبيق الجهاد في سبيل الله على أرض الواقع. فالمؤمن الصادق لا يكتفي بالعلم بفضل الجهاد، بل يسعى لتطبيقه قولاً وفعلاً، بنفسه وماله.

لقد كان هذا التلازم بين العلم والجهاد هو سر قوة هذه الأمة في بداياتها. فالعلم يوجه الجهاد ويجعل له غاية نبيلة ومنهجاً صحيحاً، والجهاد يدفع لطلب العلم الذي يعين على تحقيق الأهداف الكبرى للدعوة والدولة.

خلاصة الفصل الأول: من مكة للعالم: سيرة النبوة كمشروع نهضة.

لقد استعرضنا في هذا الفصل كيف كانت سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مشروع نهضة متكاملاً وشاملاً، لم يترك جانباً من جوانب حياة الإنسان والمجتمع إلا وتناوله بالبناء والتأسيس. بدأ هذا المشروع من النقطة الأصعب: بناء الفرد في بيئة معادية تماماً، ليشق طريقه نحو تأسيس دولة عظيمة غيرت وجه التاريخ.

في **المبحث الأول: بدايات التغيير وبناء الإنسان في بيئة معادية (المرحلة المكية)**، رأينا كيف انطلقت الدعوة السرية في مكة، مركزة على غرس **التوحيد** الخالص وتزكية النفوس وبناء العقيدة الراسخة والصبر على الشدائد. كانت هذه المرحلة هي ورشة العمل الإلهية التي صنعت الإنسان الذي رفض الركون إلى الذل، ولم تكن قوته في ماله أو جاهه، بل في إيمانه العميق ورضا نفسه بالله، وهذا ما جعله مستعداً للتضحية الكبرى.

ثم انتقلنا إلى **المبحث الثاني: تأسيس المجتمع والدولة (المرحلة المدنية)**، حيث تحولت الجماعة المؤمنة إلى كيان سياسي واجتماعي. بدأ الأمر بإنشاء **المسجد النبوي** كمركز شامل للحياة، وتجسدت الأخوة الحقيقية في **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار** .بعدها، وُضعت أسس الدولة المدنية عبر **وثيقة المدينة**، التي كانت بمثابة دستور ينظم العلاقة بين جميع مكونات المجتمع على أساس **العدل والمساواة**، ويؤسس لمبدأ **الشورى** في الحكم. كل ذلك تم في ظل ظروف اقتصادية صعبة، مؤكداً أن النهضة الحقيقية تنبع من غنى النفس وقوة الإيمان، وليس من وفرة المال.

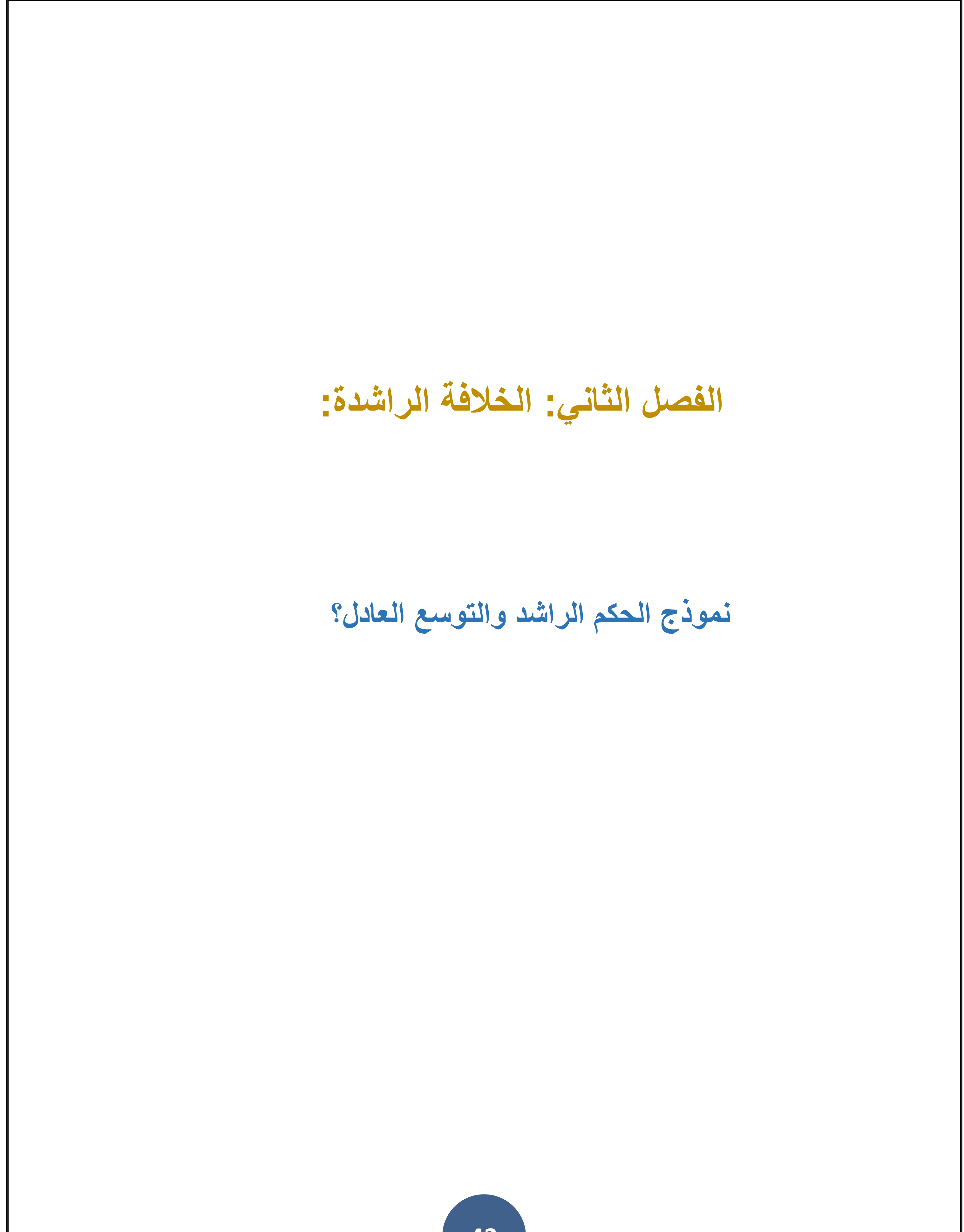
في **المبحث الثالث: أسس الحكم والإدارة في عهد النبوة** (والذي يمكن اعتباره توسيعاً لمفاهيم الحكم في المرحلة المدنية)، تعمقنا في كيفية تطبيق الشورى، وترسيخ العدل والمساواة في

القضاء والإدارة، وبدايات التنظيم الإداري والمالي. وقد وضحنا كيف أن هذه الأسس كانت تعمل في تناغم مع مبدأ الجهاد، وأن **الجهاد ليس مجرد عمل عسكري، بل هو مبدأ أساسي في حياة المؤمن وشرط لعزة الأمة وبقاء دولتها وكرامتها**، وأن تركه يؤدي إلى الذل.

بعد ذلك، تناولنا في **المبحث الرابع: بناء القوة: الجهاد والعلاقات الخارجية**، كيف أن الجهاد لم يكن مجرد خيار، بل ضرورة لبناء قوة الدولة وحماية الدعوة. ناقشنا مفهوم الجهاد بأبعاده (الدفاع، دفع الظلم، تبليغ الدعوة)، واستعرضنا دروساً من تنظيم الجيش وخطط المعارك في الغزوات الكبرى. وأبرزنا أن **الأخلاق كانت هي السائدة في حروب الإسلام**، ميزت المسلمين عن غيرهم، كما تطرقنا إلى التحديات التي فرضتها **خيانة يهود المدينة** وكيف تم التعامل معها بحزم وعزم. وفي هذا المبحث أيضاً، استعرضنا الجانب الدبلوماسي في العلاقات الخارجية من خلال المعاهدات وإرسال الرسل إلى ملوك العالم.

وأخيراً، في **المبحث الخامس: طلب العلم ومكانته ودوره في مشروع الجهاد والنهضة**، بيّنا أنَّ الأمر الإلهي الأول كان "اقرأ"، مما يؤكد مكانة العلم المحورية. ووضحنا كيف شجع النبي صلى الله عليه وسلم على التعلم وجعل المسجد مركزاً تعليمياً، والأهم من ذلك، ربطنا العلم بالجهاد، فالمسلم لا يجاهد بغير بصيرة وعلم، والمسجد هو منطلق الجيوش ورافع روح الجهاد، والعلم يوفر الوعي بخطط العدو ويزيد من إيمان المجاهد وعزيمته.

لقد كانت هذه المباحث معاً ترسم صورة متكاملة لمشروع نهضة لا يزال صالحاً لكل زمان ومكان. إنه نموذج يجمع بين قوة الإيمان، وحكمة القيادة، وعدالة الحكم، وفاعلية التنظيم، واستعداداً لا ينضب للتضحية، كل ذلك في إطار من العلم والمعرفة. هذه الأسس هي التي مكنت الأمة من الانطلاق من قلب الصحراء إلى سيادة العالم، وهي التي يمكنها، لو تم التمسك بها وتطبيقها بحكمة، أن تعيد للأمة مكانتها اليوم.



الفصل الثاني: الخلافة الراشدة:

نموذج الحكم الراشد والتوسع العادل؟

بعد أن رسَّخت سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مكة أسس الإيمان وبناء الإنسان، وفي المدينة أُقيمت الدولة الأولى على دعائم[58] المجتمع والنظام، جاءت فترة **الخلافة الراشدة**[59] لتكون الامتداد الطبيعي والتطبيق العملي لهذا المشروع النبوي العظيم. لم تكن هذه الفترة مجرد تسلسل زمني للحكم بعد وفاة النبي، بل كانت ذروة تطبيق المنهج الإسلامي في الحياة العامة والسياسة والإدارة، ونموذجاً يُحتذى به في العدل والقيادة والتضحية.

لقد استمرت الخلافة الراشدة حوالي ثلاثين عاماً (من 11هـ إلى 40هـ)، حكم فيها أربعة من خيرة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين. سُمّيت هذه الفترة بـ"الراشدة" لأنها سارت على هدي النبوة، والتزمت بمنهجها في كل شؤونها، فأرست دعائم الحكم العادل، وتوسعت بالجهاد لنشر رسالة الإسلام وتحرير الشعوب، وقدمت نموذجاً فريداً من نوعه في التاريخ البشري للحكم الذي يجمع بين قوة السلطان وعدالة التطبيق، وخدمة الأمة ومصلحة الإنسان.

في هذا الفصل، سنتعمق في دراسة هذا النموذج الفريد، لنرى كيف واصل الخلفاء الراشدون بناء الدولة وتمكينها، وكيف تصدوا للتحديات الداخلية والخارجية، وكيف تجلى في عهدهم مفهوم **الجهاد** كقوة دافعة لتوسيع رقعة الدولة وكنهج حياة أساسي للمؤمنين، وكيف قدموا لنا دروساً عظيمة في القيادة، والإدارة، والعدل، والزهد، والتضحية، التي لا تزال تُعد منارات هادية[60] لكل من يطمح في إحياء نهضة حقيقية لأمته اليوم.

---

[58] **دعائم:**
جمع "دعامة"، وتعني الأسس أو الركائز التي يقوم عليها شيء ما، كالدين أو الدولة.
[59] **الخلافة الراشدة:**
هي فترة حكم الخلفاء الأربعة الأوائل بعد وفاة النبي محمد ﷺ، الذين قادوا الأمة الإسلامية بحكمة وعدل.
[60] **تُعد منارات هادية:**
تعني أنها مصادر ضوء أو هداية توجه الناس نحو الطريق الصحيح.

المبحث الأول: الانتقال وتثبيت أركان الدولة (عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه)

لم تكن وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مجرد حدث عابر، بل كانت اختباراً عظيماً للأمة الإسلامية الوليدة. ففي هذا الظرف الدقيق، برزت ضرورة قيادة حكيمة تحمل الأمانة وتواصل المسيرة. هنا تبرز خلافة **أبي بكر الصديق رضي الله عنه**، كفترة مفصلية لمرحلة الانتقال من عهد النبوة إلى عهد الدولة الراشدة، وهي الفترة التي شهدت تثبيت أركان الإسلام والدولة عبر جهود عظيمة، كان **الجهاد** فيها ركيزة أساسية لا غنى عنها.

بيعة أبي بكر ومفهوم الخلافة

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة للتشاور في أمر الخلافة، ثم لحق بهم المهاجرون، وانتهى الأمر ببيعة **أبي بكر الصديق رضي الله عنه** خليفة لرسول الله. لم تكن هذه البيعة وراثة أو استبداداً، بل كانت اختياراً حراً مبنياً على الشورى والتشاور بين كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، مما أسس لمبدأ **الاختيار الحر** كطريقة لتولي الحكم في الإسلام.

تجلّى مفهوم **الخلافة في الإسلام** في عهد أبي بكر بوضوح: فهو "خلافة عن النبوة في إدارة شؤون الأمة". أي أن الخليفة ليس نبياً يتلقى الوحي، بل هو قائد سياسي وإداري يستمد شرعيته من التزامه بشرع الله وسنة نبيه، ومسؤولياته تشمل رعاية شؤون الدين والدنيا للمسلمين. وقد أعلن أبو بكر ذلك في خطبته الأولى بعد البيعة" :**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي[61] .الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ . وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ[62] إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. لا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا خَذَلَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ، وَلا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلاءِ. أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ ".**هذه الكلمات رسمت دستور الحكم الراشد: مسؤولية الخليفة أمام الله والأمة، وواجب الطاعة المشروط، وحتمية الجهاد للحفاظ على الكرامة والعزة.

---

[61] **وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي:**

تعني "إذا أخطأت، فأصلحوني"؛ طلب لتصحيح الخطأ والنصح بلطف

[62] **حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ:**

تعني أن أُعطي الشخص حقه كاملاً دون نقصان أو ظلم.

تحديات الردة[63] وتوحيد الصف: الجهاد كدرع للدولة

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، واجهت الدولة الإسلامية الوليدة تحديات هائلة كادت تعصف بوجودها. فبعض القبائل العربية، التي أسلمت حديثاً، ارتدت عن الإسلام أو امتنعت عن أداء الزكاة، وظهر مدعو النبوة في عدة مناطق. كانت هذه الحركات تهديداً وجودياً للدولة المركزية في المدينة، محاولةً تفكيك الصف الإسلامي والعودة إلى جاهلية القبائل المتناحرة.

هنا، كان **دور الجهاد حاسماً في تثبيت أركان الدولة والحفاظ على وحدتها** .لقد اتخذ أبو بكر الصديق موقفاً صلباً وحازماً، أعلن فيه الحرب على المرتدين ومانعي الزكاة، مؤكداً أن الإسلام كلٌ لا يتجزأ، وأن أركانه متصلة لا ينفصل بعضها عن بعض. في هذا السياق، كان **الجهاد ضد المرتدين** واجباً لحماية الدين، والحفاظ على وحدة الأمة، وتأكيد ولاء القبائل للإسلام والدولة المركزية.

استراتيجية أبي بكر في مواجهة هذه التحديات كانت قمة في الحزم والبصيرة[64]. أرسل جيوشاً متعددة إلى مختلف المناطق التي ظهرت فيها الردة، تحت قيادة كبار الصحابة وقادة الجيوش الفاتحين فيما بعد. كان هدف هذه الحملات ليس مجرد القتل، بل إعادة القبائل إلى طاعة الله ورسوله، وضمان استمرارية الإسلام في الجزيرة العربية[65]. هذه الحروب، التي سميت بـ"حروب الردة"، كانت مكلفة، لكنها كانت ضرورية؛ فقد **وحدت الجزيرة العربية بالكامل تحت راية الإسلام**، وأمنت حدود الدولة، وخلقت جيشاً قوياً متمرساً مستعداً للانطلاق نحو الفتوحات الكبرى.

---

[63] **الردة:**
تعني الرجوع عن الإسلام وتركه، وقد كانت ظاهرة ظهرت بعد وفاة النبي ﷺ وتطلبت مواجهتها بالحزم.

[64] **قمة في الحزم والبصيرة:**
تعني أعلى درجات الحزم (الصرامة والحسم) والفطنة (الفهم العميق والرؤية الواضحة).

[65] **في الجزيرة العربية:**
تشير إلى المنطقة الجغرافية التي تضم شبه الجزيرة العربية، وهي مهد الإسلام.

بدايات الفتوحات الإسلامية الكبرى: استمرارية الجهاد والتوسع

لم يكتفِ أبو بكر بتثبيت الأركان الداخلية للدولة، بل واصل مسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة وتوسيع رقعة الإسلام، مستنداً إلى قوة الجيش الموحد والروح الجهادية المتأججة[66] بعد حروب الردة. بدأت هذه الفتوحات الكبرى في **العام الثاني عشر الهجري (633م)**، وامتدت حتى وفاة أبي بكر في **العام الثالث عشر الهجري (634م)**، لتضع اللبنات الأولى للدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

1. إرسال جيش أسامة بن زيد إلى الشام:

- كان هذا القرار من أولى قرارات أبي بكر بعد توليه الخلافة، رغم اعتراض البعض نظراً للظروف الداخلية الحرجة (حروب الردة). كان هذا الجيش قد أعده النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه قبل وفاته، وأبو بكر أصر على إرساله **وفاءً لوصية النبي، ولإظهار قوة الدولة الإسلامية للخارج**، وأنها لم تضعف بوفاة قائدها. وقد حقق جيش أسامة أهدافه وعاد بالنصر، مما رفع من معنويات المسلمين وأرسل رسالة واضحة للقوى المجاورة.

2. فتوحات العراق (في مواجهة الدولة الفارسية):

- بعد أن استقرت الأوضاع في الجزيرة العربية، وجه أبو بكر جيوش المسلمين إلى العراق، الذي كان جزءاً من الإمبراطورية الفارسية الساسانية[67].
- **القائد الرئيسي للجيوش في العراق كان الصحابي الجليل خالد بن الوليد رضي الله عنه**، الذي أظهر براعة عسكرية فائقة.

---

[66] **المتأججة:**
تعني المشتعلة أو المتوهجة، وتُستخدم غالبًا لوصف المشاعر أو الصراعات الشديدة.
[67] **الفارسية الساسانية:**
نسبة إلى الدولة الساسانية، وهي آخر إمبراطورية فارسية قبل الإسلام، وكانت قوية ومنافسة للدولة البيزنطية.

- **أبرز المعارك والمدن المفتوحة في عهده :**
  - **معركة ذات السلاسل (كاظمة) :**(محرم 12هـ / مارس 633م) أولى معارك خالد في العراق ضد الفرس وحلفائهم العرب، سميت بذلك لأن الفرس ربطوا أنفسهم بالسلاسل لمنع الفرار، وانتهت بانتصار حاسم للمسلمين.
  - **معركة المذار :**(صفر 12هـ / أبريل 633م) انتصار آخر للمسلمين على الفرس بقيادة خالد.
  - **معركة الولجة :**(ربيع الأول 12هـ / مايو 633م) أظهر فيها خالد عبقريته العسكرية بتكتيك "الكماشة" للقضاء على القوات الفارسية.
  - **معركة أُلَّيْس :**(ربيع الآخر 12هـ / مايو 633م) انتصار حاسم آخر، فتح الطريق نحو وسط العراق.
  - **فتح الحيرة :**(ربيع الأول 12هـ / مايو 633م) مدينة الحيرة، وهي عاصمة المناذرة العرب عملاء الفرس، سقطت صلحاً في أيدي المسلمين.
  - **معركة الأنبار وفتحها :**(شعبان 12هـ / نوفمبر 633م) فتحت الأنبار بعد حصارها من قبل خالد.
  - **معركة عين التمر :**(شعبان 12هـ / ديسمبر 633م) معركة أخرى في شمال العراق ضد تحالف الفرس والعرب.
- **مدى الفتوحات في العراق خلال عهده :**تمكن خالد بن الوليد وجيشه من السيطرة على مساحات واسعة من جنوب ووسط العراق، ووصلت الفتوحات إلى منطقة قريبة من مدينة الفرات (التي تقع شمال الحيرة وشرق الأنبار)، وفتحت الحيرة والأنبار. هذه المنطقة أصبحت تحت السيطرة الإسلامية المباشرة.

3. فتوحات الشام (في مواجهة الدولة الرومانية البيزنطية)

- في أواخر عام 12هـ (633م) وبداية عام 13هـ (634م)، وجه أبو بكر الصديق جيوشاً متعددة لفتح بلاد الشام، التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية البيزنطية.
- **قادة الجيوش الأوائل في الشام :**أرسل أبو بكر أربعة جيوش رئيسية، ثم ألحق بها خامساً :
  - **يزيد بن أبي سفيان :**إلى دمشق والبلقاء (منطقة في الأردن حالياً).
  - **شرحبيل بن حسنة :**إلى الأردن.
  - **عمرو بن العاص :**إلى فلسطين.
  - **أبو عبيدة بن الجراح :**إلى حمص.
  - لاحقاً، أُرسل **عكرمة بن أبي جهل** لمدد الجيوش.
- **أبرز المعارك والمدن المفتوحة في عهده :**
  - **معركة أجنادين[68] :**(جمادى الأولى 13هـ / يوليو 634م) كانت معركة حاسمة بين جيوش المسلمين المتجمعة بقيادة خالد بن الوليد (بعد قدومه من العراق بأمر من أبي بكر) والروم، وانتهت بانتصار ساحق للمسلمين. هذه المعركة مهدت الطريق لفتح فلسطين والشام.
  - **فتح بصرى :**(شوال 12هـ / يناير 634م) أول مدينة كبرى تفتح في الشام.
  - **بدء حصار دمشق :**وصلت الجيوش الإسلامية إلى مشارف دمشق وبدأت في حصارها، ولكن فتحها الكامل تم في عهد عمر بن الخطاب.

---

[68] **معركة أجنادين:**

معركة وقعت سنة 13هـ بين المسلمين والروم، وانتصر فيها المسلمون بقيادة خالد بن الوليد، وكانت من أوائل الفتوحات في الشام.

- **مدى الفتوحات في الشام خلال عهده :**في نهاية عهد أبي بكر، كانت الجيوش الإسلامية قد سيطرت على جنوب بلاد الشام (أجزاء من الأردن وفلسطين)، ووصلت إلى أطراف سوريا (مشارف دمشق).

لقد كان هذا التوسع **امتداداً طبيعياً لرسالة الإسلام العالمية**، ودفعاً للظلم الذي كانت تمارسه تلك الإمبراطوريات على شعوبها. لم تكن هذه الفتوحات غزوًا استعمارياً، بل كانت تهدف إلى تحرير الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وإقامة العدل الإلهي في الأرض. لقد كان **الجهاد كأولوية في عهده**، ليس فقط دفاعاً عن الوجود، بل وسيلة لنشر الخير والهداية والعدل إلى أقطار الأرض، والالتزام بمنهج النبوة في القيادة والإدارة، والذي كان الجهاد أحد أهم ركائزه.

المبحث الثاني: بناء الدولة وإرساء دعائم الإدارة في عصر التوسع (عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه)

بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في العام الثالث عشر الهجري (634م)، انتقلت راية الخلافة إلى الفاروق **عمر بن الخطاب رضي الله عنه** .لم يكن هذا الانتقال مفاجئاً، فقد أوصى به أبو بكر بعد استشارة كبار الصحابة، لما يعلمه من قوة عمر وحزمه وعدله، ولتأكيده على مبدأ الشورى والأهلية في تولي أمر الأمة.

تولي عمر الخلافة: استمرارية منهج الشورى

لقد كان اختيار عمر خليفة لأبي بكر مثالاً آخر على المنهج الإسلامي في تداول السلطة. فقد فكر أبو بكر في الأمر ملياً واستشار كبار الصحابة مثل عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما، وبعد أن وجد إجماعاً على عمر، كتب وصيته بذلك. ورغم أن عمر كان معروفاً بشدته، إلا أن الصحابة أجمعوا على بيعته لما رأوا فيه من قوة في الحق، وعدل في الحكم، وخشية لله. هذه الطريقة أكدت استمرار مبدأ **الشورى** في اختيار الحاكم، وأن الأمر ليس وراثة أو استبداداً، بل هو عهد ومسؤولية تقع على عاتق من يختاره أهل الحل والعقد ليقود الأمة وفق شرع الله.

شخصية عمر القيادية ومناقبها: العدل، الزهد، الحزم، التواضع

كانت شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه فذة ومُلهمة[69]، وقد أثرت مناقبه بشكل مباشر في بناء الدولة وتوسيع نفوذها عالمياً:

- **العدل :**كان عمر رمزاً للعدل المطلق، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يفرق بين غني وفقير، ولا حاكم ومحكوم. كان يقول: "والله لوددت أني وإياكم في السفينة، فليسيرني حمال[70] حتى لا يخرج شيء يكسرها". قصة عدله مع الفلاح القبطي في مصر، وقصة قضائه بين المسلمين وغيرهم، كلها أمثلة تبرز كيف أن العدل كان أساس حكمه،

---

[69] **فذّة ومُلهمة:**
.تعني نادرة في تميزها وعظمتها، وتبعث على الإعجاب والتحفيز
[70] **فليسيرني حمال:**
.أي فليقدني (أو يوجّهني) حمال، وهو اسم شخص، والمعنى: لا يهمني من يقودني ما دام على الحق
.يُذكر هذا التعبير في سياق التواضع والقبول بالحق ولو جاء من شخص بسيط

- وهو ما أسهم في استقرار الدولة المترامية الأطراف وقبول الشعوب المفتوحة لحكم المسلمين.

- **الزهد والتواضع :**عاش عمر حياة شديدة البساطة والزهد، حتى وهو أمير للمؤمنين يحكم أكبر دولة في عصره. كان ينام تحت الشجر، ويلبس المرقع من الثياب[71]، ويشارك الناس طعامهم. تواضعه الجم هذا جعله قريباً من الناس، وملجأ للمظلومين، ومثالاً يُحتذى به في القيادة، مما ألهم الأمة للبذل والتضحية في سبيل الله دون النظر إلى مغانم الدنيا.

- **الحزم والقوة في الحق :**اشتهر عمر بحزمه وشدته في تطبيق الحق وإقامة العدل ومحاسبة الولاة والقادة. هذه الشدة كانت ضرورية لضبط الأمور في دولة تتوسع بسرعة، ولضمان تنفيذ أوامر الله وتطبيق الشريعة. كان قادراً على اتخاذ القرارات الصعبة بحزم، وهو ما مكنه من إدارة جيوش ضخمة وتحقيق فتوحات عظيمة.

- **الشورى :**رغم حزمه، كان عمر من أكثر الصحابة مشاورة لأهل الحل والعقد. كان يجمع كبار الصحابة ويستمع لآرائهم قبل اتخاذ القرارات المصيرية المتعلقة بالفتوحات، أو التشريعات الإدارية، أو تعيين الولاة. هذا المنهج الشوري عزز من شرعية قراراته، وضمن مشاركة العقول الراجحة في إدارة شؤون الدولة.

هذه الصفات مجتمعة هي التي مكنت عمر من بناء دولة قوية ذات حضور عالمي، حيث كانت القيم والمبادئ هي أساس القيادة، وليس مجرد السلطة أو القوة العسكرية.

الفتوحات الكبرى والتوسع العسكري: الجهاد يُوسِّع رقعة الدولة

في عهد عمر بن الخطاب، بلغ **الجهاد ذروته** واتخذ بعداً عالمياً غير مسبوق، فتحولت الدولة الإسلامية من قوة إقليمية إلى إمبراطورية مترامية الأطراف. استمر **الجهاد كركيزة لسياسة الدولة الخارجية**، وكسياسة دفاعية وهجومية تهدف إلى إزالة الأنظمة الظالمة وتبليغ الدعوة الإسلامية.

---

[71] **المرقع من الثياب:**
الثوب المرقع هو الذي فيه خياطة من قماش مختلف لسدّ التمزق، ويُرمز به إلى البساطة والزهد.

- **توجيه الجيوش وقيادتها :**وجه عمر الجيوش الإسلامية نحو معاقل الإمبراطوريتين العظميين (الفارسية والرومانية)، التي كانت تسيطر على مساحات شاسعة وتضطهد شعوبها.
  - **فتوحات العراق وبلاد فارس :**استكمل المسلمون فتح العراق بعد أن بدأه أبو بكر، وتوجهوا لفتح بلاد فارس. كان **سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه** القائد الأبرز في جبهة فارس.
    - **معركة القادسية العظمى (15هـ / 636م) :**كانت معركة فاصلة حطمت شوكة الإمبراطورية الفارسية وفتحت طريق العراق، وانتهت بانتصار ساحق للمسلمين. تلاها **فتح المدائن (عاصمة الفرس)** في نفس العام.
    - **معركة جلولاء (16هـ / 637م) :**استكملت فتح العراق.
    - **معركة نهاوند (21هـ / 642م) :**تُعرف بـ"فتح الفتوح"، حيث قضت على آخر مقاومة منظمة للإمبراطورية الساسانية، مما أدى إلى **فتح معظم بلاد فارس (إيران حالياً)**، وانتشر الإسلام شرقاً.
  - **فتوحات الشام :**بعد الانتصارات الأولية في عهد أبي بكر، استمر الجهاد في الشام بقيادة **أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه** (الذي تسلم القيادة العامة من خالد بن الوليد) وبتخطيط من عمر.
    - **معركة اليرموك (15هـ / 636م) :**معركة حاسمة ضد الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، شهدت تجميع الروم لأكبر جيش لهم، لكن المسلمين حققوا انتصاراً ساحقاً أضعف الروم بشكل كبير وفتح الطريق لفتح المدن الكبرى في الشام.
    - توالت الفتوحات :**فتح دمشق (14هـ / 635م)**، **حمص (15هـ / 636م)**، **حلب**، **أنطاكية**.

- **فتح بيت المقدس (إيلياء) (16هـ / 637م) :**

- **الحصار والمفاوضات :**بعد سلسلة الانتصارات في الشام، توجهت جيوش المسلمين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لحصار بيت المقدس (إيلياء حينها)، الذي كان محصناً بقوة. طال الحصار، فأدرك بطريرك القدس **صفرونيوس** أن المقاومة لا جدوى منها، لكنه اشترط للاستسلام أن يأتي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه لتسلم المدينة.

- **قدوم عمر إلى القدس :**استجاب عمر لطلب البطريرك، وخرج من المدينة المنورة في رحلة تاريخية، بسيطة ومتواضعة. كان يركب ناقته بالتناوب مع غلامه، وفي بعض الروايات دخل ماشياً بينما كان الغلام راكباً ناقته، في مشهد أذهل الروم ودل على تواضعه وزهده، على عكس قادة الجيوش العظام في عصره الذين كانوا يدخلون المدن المهزومة بمواكب فخمة وبطش وقسوة.

- **العهدة العمرية (الوثيقة) :**عندما وصل عمر إلى الجابية (قرب دمشق)، استقبله كبار قادة المسلمين، ثم توجه إلى القدس حيث تم تسليم المدينة له. وهناك، كتب عمر بن الخطاب للبطريرك صفرونيوس وأهل إيلياء **وثيقة أمان تاريخية** تُعرف بـ **"العهدة العمرية ."**نصت هذه الوثيقة على :

  - "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله، عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقمها وبريئها وسائر ملتها .لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود." (مع وجود روايات مختلفة لبعض الألفاظ، ولكن المعنى العام واحد).

- هذه الوثيقة جسدت مبادئ التسامح الديني، وحماية أهل الذمة، واحترام مقدساتهم، وهو ما يبرز العدل الإلهي في الفتوحات الإسلامية.

- **دخول عمر إلى القدس :**بعد التوقيع على العهدة، **دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس من الباب الجنوبي الغربي للمدينة، وهو ما يُعرف بـ "باب داود" أو "باب النبي داود" (ويُعرف اليوم بباب الخليل)** .رفض عمر الصلاة داخل كنيسة القيامة التي عرضها عليه البطريرك صفرونيوس، خوفاً من أن يتخذها المسلمون مسجداً من بعده ويخرجوا النصارى منها. صلى في مكان قريب منها (الذي أصبح لاحقاً موضع بناء المسجد العمري)، ثم توجه إلى موقع المسجد الأقصى (القدس الشريف)، الذي كان حينها مهجوراً ومليئاً بالقمامة، وأمر بتنظيفه، وصلى فيه بالمسلمين.

- **خلافه لقادة الرومان :**على عكس قادة الرومان الذين كانوا يدخلون المدن المفتوحة بقوة السيف، ويسلبون وينهبون، ويهدمون أماكن العبادة المخالفة لدينهم، دخل عمر متواضعاً، غير مسلح، يعرض الأمان والعدل، ويصون الكنائس، ويضمن حرية العقيدة. هذا المشهد المذهل أقنع أهل القدس بأنهم أمام فاتح مختلف، يمثل ديناً يحمل الرحمة والعدل.

- **فتوحات مصر :**بعد فتح الشام، أذن عمر لـ **عمرو بن العاص رضي الله عنه** بفتح مصر في **عام 20هـ (641م)** .وقد تميزت هذه الفتوحات بالسرعة والكفاءة، حيث استقبل المصريون المسلمين كمحررين من ظلم الرومان، وتم **فتح الإسكندرية ومعظم أجزاء مصر**.

- **توسع آخر :**بدأت الفتوحات تمتد إلى شمال أفريقيا (برقة وطرابلس في ليبيا حالياً)، وأجزاء من الأناضول.

- **أثر هذه الفتوحات على رقعة الدولة :**توسعت الدولة الإسلامية بشكل غير مسبوق لتصبح **قوة عالمية** تسيطر على مساحات شاسعة تمتد من ليبيا غرباً إلى خراسان (أفغانستان حالياً) شرقاً، ومن القوقاز شمالاً إلى النوبة جنوباً. هذا التوسع لم يكن مجرد

إضافة أراضٍ، بل كان تأميناً لحدود الدولة، ونشراً للعدل الإسلامي بين شعوب كانت تعاني من الظلم والاضطهاد تحت حكم الإمبراطوريات القديمة. وقد أسهمت هذه الفتوحات في توفير موارد ضخمة للدولة، وفي فتح آفاق جديدة لنشر الإسلام.

تأسيس الدواوين[72] والتنظيم الإداري للدولة المترامية الأطراف

فرض التوسع الهائل في عهد عمر بن الخطاب ضرورة ملحة لإنشاء نظام إداري حديث ومؤسسات دولة لضمان إدارة فعالة لهذه الأقاليم المفتوحة وللموارد المتزايدة. فكان عمر **المؤسس الحقيقي للدولة الإسلامية الإدارية العصرية.**

إنشاء الدواوين :

- **ديوان الجند (الجيش) :**لضبط أسماء الجند وقبائلهم، وتسجيل عطاياهم ورواتبهم. هذا يضمن تنظيم الجيش وكفاءته في الجهاد المستمر.
- **بيت المال :**لجمع إيرادات الدولة (الزكاة، الخراج، الجزية، الغنائم) وصرفها في مصارفها الشرعية (نفقات الجيش، رواتب الجند، الفقراء، بناء البنية التحتية).
- **ديوان العطاء :**لتنظيم العطاءات للمسلمين من أهل بدر وغيرهم، وهو نظام تكافل اجتماعي فريد.
- دواوين أخرى مثل ديوان الخراج (لجبايات الأرض) وديوان الرسائل (للمراسلات الرسمية).

- **تنظيم الولايات وتعيين الولاة والقضاة :**قسم عمر الدولة إلى ولايات كبرى، وعين على كل ولاية والياً مؤهلاً، وكان يراقبهم ويحاسبهم بشدة. كما عين قضاة مستقلين عن الولاة لضمان العدل في الأقاليم المفتوحة، وفصل القضاء عن الولاية.
- **تأسيس الأمصار :**أمر عمر ببناء مدن جديدة في الأراضي المفتوحة لتكون مراكز عسكرية وإدارية :

---

[72] **الدواوين:**
هي سجلات أو مؤسسات إدارية كانت تُستخدم لتنظيم شؤون الدولة، مثل ديوان الجند أو الخراج.

- **الكوفة والبصرة في العراق :**كانتا نقطتي انطلاق للجيوش نحو بلاد فارس، ومركزين لنشر الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية.
- **الفسطاط في مصر [73]:**عاصمة مصر الإسلامية، ونقطة ارتكاز للفتوحات في أفريقيا.
- كانت هذه الأمصار بمثابة قواعد للجهاد ومراكز حضارية جديدة.

العدالة الاجتماعية والرعاية العامة للمواطنين

لم يكن اهتمام عمر بالفتوحات والإدارة ليطغى على اهتمامه بالإنسان والعدالة الاجتماعية. لقد طبق مبادئ العدل والمساواة على نطاق واسع في الدولة المتوسعة، حتى شملت غير المسلمين (أهل الذمة)[74].

- كان يضمن الحقوق ويقدم الخدمات للفقراء والمساكين، المسلمين وغير المسلمين على حد سواء، فقد فرض العطاء لكبير السن واليتيم من بيت مال المسلمين بغض النظر عن دينه.
- أمر بإنشاء السجون وتنظيم الشرطة (الأحداث)، وتنظيم الأسواق والمرافق العامة، مما يدل على اهتمام عميق بالخدمات الاجتماعية وتنظيم الحياة المدنية.
- من أقواله الخالدة: "لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة، لظننت أن الله سائلني عنها يوم القيامة". هذه المقولة تجسد أقصى درجات المسؤولية والعدالة التي كان يتحلى بها تجاه رعيته.

لقد أسهم هذا التطبيق العملي لمبادئ الإسلام في قبول الناس للحكم الإسلامي في الأقاليم المفتوحة، ورأوا فيه خلاصاً من الظلم والاضطهاد الذي كانوا يعيشونه تحت حكم الإمبراطوريات السابقة، مما عزز من استقرار الدولة الإسلامية الواسعة.

---

[73] **الفسطاط في مصر:**
أول مدينة إسلامية تأسست في مصر بعد الفتح، بناها عمرو بن العاص عام 20هـ، وكانت عاصمة لمصر الإسلامية.
[74] **أهل الذمة:**
هم غير المسلمين الذين يعيشون في دولة إسلامية ويحصلون على الحماية مقابل دفع الجزية.

المبحث الثالث: توسع الدولة ووحدة المصحف في ظل تحديات البناء (عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه)

تولى أمير المؤمنين **عثمان بن عفان رضي الله عنه** الخلافة في ذي الحجة من العام الثالث والعشرين للهجرة (644م)، بعد استشهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعد أن اختاره أهل الشورى الذين حددهم عمر. استمرت خلافته نحو اثني عشر عاماً (23-35هـ / 644-656م)، وهي فترة حافلة بالإنجازات العظيمة التي وسعت من نفوذ الدولة الإسلامية، وأرست دعائم وحدتها الدينية، ولكنها انتهت أيضاً بظهور فتنة داخلية عصفت بالوحدة وأدت إلى استشهاده، لتصبح هذه الأحداث علامة فارقة في تاريخ الأمة.

امتداد الفتوحات وتوسع الدولة الإسلامية براً وبحراً: الجهاد يدشن عصراً جديداً

واصلت الدولة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه مسيرة **الجهاد** التي بدأها الخلفاء من قبله، وبخاصة عمر بن الخطاب، وامتدت رقعة نفوذها بشكل غير مسبوق، لتشمل مناطق واسعة جداً في آسيا وأفريقيا وأوروبا. كان هذا التوسع ضرورة للحفاظ على زخم الدعوة، ونشر رسالة الإسلام التي تحمل العدل والرحمة، وتأمين حدود الدولة التي أصبحت تمتد لآلاف الكيلومترات.

- **استمرار الجهاد لزيادة رقعة الدولة وتثبيت نفوذها:**
    - **في المشرق (آسيا الوسطى وبلاد فارس) :**بعد القضاء على المقاومة الفارسية الرئيسية في عهد عمر، استمرت الفتوحات في الشرق بقيادة قادة أمثال **عبد الله بن عامر بن كريز** (والي البصرة) وغيره. تم إخماد بقايا الثورات الفارسية، وأُعيد تأمين مناطق مثل **خراسان (تشمل أجزاء من إيران وأفغانستان وطاجيكستان حالياً)** .امتدت الفتوحات إلى ما وراء نهر جيحون (نهر آمو داريا)، حيث **فتحت مدن مثل مرو، نيسابور، هراة، بلخ، خوارزم، وكرمان، وسجستان** .هذا التوسع الهائل في الشرق أضاف مساحات شاسعة وثروات عظيمة للدولة، وفتح الطريق أمام الإسلام في تلك المناطق التي كانت تحت سيطرة الفرس.

- **في الشمال (أرمينيا والقوقاز) :**استكملت الفتوحات في أرمينيا وأذربيجان، وتم تأمين الحدود الشمالية للدولة مع الإمبراطورية البيزنطية، بقيادة قادة مثل **حبيب بن مسلمة الفهري وسلمان بن ربيعة الباهلي.**

- **في المغرب (شمال أفريقيا) :**تم فتح مناطق جديدة في شمال أفريقيا. من أهم الفتوحات كانت **فتح إفريقية (تونس حالياً)** بقيادة **عبد الله بن سعد بن أبي السرح** (والي مصر) في **عام 27هـ (647م)**، حيث دارت **معركة سبيطلة** الحاسمة ضد جيش **"جُرجيْر** (Gregory) "البطريق البيزنطي، والتي انتهت بانتصار ساحق للمسلمين، ومهدت الطريق لفتح عمق الشمال الأفريقي.

- **تأسيس الأسطول البحري الإسلامي ودوره في الفتوحات البحرية:**

  - كانت الإمبراطورية البيزنطية تسيطر على البحر الأبيض المتوسط بشكل كامل، مما كان يمثل تهديداً مستمراً لسواحل الشام ومصر التي أصبحت إسلامية، وعائقاً أمام أي توسع للدعوة في الجزر أو عبر البحر.

  - "بقيادة معاوية بن أبي سفيان، والي الشام، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، والي مصر"وبعد استئذان وموافقة عثمان بن عفان (الذي كان متردداً في البداية خشية ركوب المسلمين البحر)، تم **تأسيس أول أسطول بحري إسلامي ضخم** . هذه الخطوة كانت ثورية وتمثل **تطوراً كبيراً في القدرة العسكرية للدولة**، وينقل الجهاد إلى بعد بحري جديد ومهم.

  - **فتح قبرص (28هـ / 649م) :**كانت أول غزاة بحرية كبرى للمسلمين، بقيادة معاوية، وفتحت قبرص صلحاً. وكان هذا الفتح يهدف إلى تأمين قواعد بحرية للمسلمين وقطع طريق الإمداد عن البيزنطيين.

  - **معركة ذات الصواري (34هـ / 655م) :**كانت هذه المعركة البحرية الكبرى بين الأسطول الإسلامي والأسطول البيزنطي بقيادة الإمبراطور قسطنطين الثاني نفسه. دارت المعركة قبالة السواحل الأناضولية، وقد حقق فيها المسلمون نصراً ساحقاً على الرغم من التفوق العددي للأسطول البيزنطي. هذا النصر **كسر الهيمنة البيزنطية على البحر المتوسط**، وأمَّن حدود الدولة البحرية، وفتح آفاقاً جديدة للفتوحات نحو الجزر، وأثبت أن المسلمين أصبحوا قوة بحرية لا يستهان بها.

- هذه الإنجازات البحرية دلت على التكيف السريع للدولة الإسلامية مع المتطلبات الجديدة للجهاد والتوسع، وتطوير قدراتها لتلائم التحديات الجغرافية والاستراتيجية، مما عزز مكانة الدولة كقوة عالمية.

جمع القرآن الكريم وتوحيد المصحف: حصن الأمة الديني

مع توسع الدولة الإسلامية الهائل، ودخول شعوب مختلفة اللغات واللهجات والأعراق في الإسلام، ومع انتشار كبار الصحابة في الأمصار يعلمون الناس القرآن، بدأت تظهر اختلافات يسيرة في قراءة القرآن بحسب اختلاف لهجات العرب أو طرق الأداء، مما أثار مخاوف على وحدة الأمة. فقد نقل الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه إلى عثمان خلافاً رآه بين المسلمين في قراءاتهم، وقال لعثمان: "أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى."

- **أهمية هذا العمل في الحفاظ على المرجعية الأساسية للأمة :**
  - أدرك عثمان، بحكمته وبعد نظره، خطورة هذا الأمر على وحدة المسلمين وتماسكهم في المستقبل. فالقرآن هو المصدر الأول للدين، وأي خلاف فيه، وإن كان في ظاهره بسيطاً، قد يؤدي إلى شقاق عظيم وتفرق في جوهر الدين، ويؤثر على الوحدة العقدية للأمة التي تعد أساس قوتها وقدرتها على الجهاد والبناء.
  - كان توحيد المصحف ضرورة قصوى لضمان أن تبقى المرجعية الأساسية للأمة واحدة وغير قابلة للتأويلات أو التحريفات التي قد تحدث مع تباعد الأزمان والأقطار.
- **كيفية توحيد المصحف (جمع المصحف العثماني) :**
  - أمر عثمان رضي الله عنه بجمع القرآن الكريم مرة أخرى، بناءً على الصحف التي كانت موجودة عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها (والتي جمعها أبو بكر من قبل)، وعهد بهذه المهمة الجليلة إلى لجنة من كبار الصحابة المحققين في القرآن، برئاسة **زيد بن ثابت الأنصاري**، الذي كان قد جمع القرآن في عهد أبي بكر، ومعه عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. وقد أُمروا أن يكتبوا المصحف بلسان قريش، التي نزل بها القرآن، إذا اختلفوا في شيء.

- كلفت اللجنة بنسخ عدة مصاحف (يُقدر عددها بستة أو سبعة مصاحف)، بعد التأكد من دقتها ومطابقتها للقراءة التي نزل بها القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم.
- أمر عثمان بإرسال مصحف إلى كل مصر من الأمصار الإسلامية الكبرى (مثل الكوفة، البصرة، الشام، ومكة)، والاحتفاظ بمصحف في المدينة (المصحف الإمام أو مصحف الإمام).
- وفي خطوة حاسمة لضمان الوحدة، أمر عثمان بجمع وحرق ما عدا هذه المصاحف الموحدة من الصحف الخاصة أو المصاحف التي كتبها الصحابة لأنفسهم والتي قد تحتوي على قراءات شاذة أو ترتيب غير المتفق عليه (كالذي كان يكتبه بعض الصحابة لتفسير آية أو توضيحها كجزء من كتابتهم الشخصية). هذا الإجراء كان لضمان **وحدة المسلمين على مصحف واحد لا اختلاف فيه**، والقضاء على أي مصدر للفرقة أو التباين في فهم النص القرآني الأساسي.

- **أثره :**كان هذا العمل الجليل من أعظم مآثر عثمان، فقد **ضمن وحدة المسلمين حول كتاب الله إلى يومنا هذا، وحفظ القرآن من أي اختلاف أو تحريف**، مما يعد خدمة جليلة للإسلام والمسلمين، وعاملاً رئيسياً في تماسك الأمة ونجاحها في توسعها الحضاري والجهادي، ومنع أسباب الفتنة الدينية حول أصل النص.

تحديات نهاية عهده وبدايات ظهور الفتنة: صراع الحلم والتآمر والشهادة

على الرغم من الإنجازات العظيمة في عهده (الفتوحات الهائلة، توحيد المصحف)، إلا أن السنوات الست الأخيرة من خلافة عثمان شهدت ظهور **تحديات داخلية خطيرة**، أدت إلى نشأة **الفتنة الكبرى**[75] التي عصفت بالأمة وبلغت ذروتها باستشهاده رضي الله عنه. هذه الفتنة لم تكن حدثاً عابراً أو بسيطاً، بل كانت نتيجة لتفاعل عدة عوامل معقدة، واستغلال مدروس لنقاط الضعف والتغيرات المجتمعية من قبل عناصر هدامة.

---

[75] **الفتنة الكبرى:**
هي النزاعات والاضطرابات التي حدثت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، والتي أدت إلى انقسام المسلمين وحروب أهلية.

1.الخلفية والعوامل المساهمة في ظهور الفتنة:

- **اتساع رقعة الدولة الهائل وتحديات دمج الثقافات:**

  - مع توسع الدولة لتشمل شعوباً ذات خلفيات ثقافية ودينية متباينة (الفرس، الروم، الأقباط، البربر، السريان)، لم يتمكن كل هؤلاء من استيعاب المنهج الإسلامي الجديد بنفس العمق والإيمان والولاء للدولة المركزية. بعضهم دخل الإسلام حديثاً ولم يتمكن من الفهم الصحيح لتعاليمه أو لم يكن لديهم فهم راسخ لمبدأ الولاء للأمة.
  - كان هناك بقايا من حكام سابقين أو جماعات فقدت نفوذها ومصالحها بقدوم الإسلام، كانوا يبحثون عن أي فرصة لإثارة القلاقل[76].
  - ظهرت فوارق اجتماعية واقتصادية بين الأمصار المختلفة.

- **تزايد الثروة والرخاء وتغير نمط الحياة:**

  - الفتوحات جلبت غنائم هائلة[77] وموارد اقتصادية ضخمة للدولة، مما أدى إلى زيادة في الرفاهية والرخاء لم يكن معهوداً في عهد النبوة أو أبي بكر وعمر.
  - هذا الرخاء، رغم كونه نعمة، أحدث تغيراً في بعض النفوس؛ فظهرت نزعات حب الدنيا والتنافس عليها، وابتعد البعض عن زهد الخلفاء الأوائل وبساطة العيش، مما أدى إلى نوع من التراخي الأخلاقي لدى البعض، وأثار حسد البعض الآخر.
  - توسعت المدن، وبنيت القصور، وازدادت التجارة، مما خلق بيئة اجتماعية أكثر تعقيداً.

---

[76] **لإثارة القلاقل:**
يعني إحداث الفوضى والاضطرابات وعدم الاستقرار بين الناس أو في المجتمع.
[77] **غنائم هائلة:**
تعني مكاسب كبيرة تُنتزع من الأعداء بعد المعارك، مثل المال والممتلكات.

- **البعد الجغرافي للمراكز الإدارية عن المدينة وضعف الرقابة المركزية:**
  - مع اتساع الدولة، أصبحت المدن الكبرى (الكوفة، البصرة، الفسطاط) بعيدة عن مركز الخلافة في المدينة المنورة. هذا البعد سمح لبعض العناصر غير المنضبطة بالتجمع والتآمر بعيداً عن الرقابة المباشرة والصارمة التي كانت في عهد عمر.
  - كان من الصعب على الخليفة مراقبة كل التفاصيل في الولايات البعيدة، مما أتاح فرصاً للتحريض وتشويه الحقائق.
- **سياسات عثمان الإدارية (أوجه النقد التي استغلتها الفتنة):**
  - **تعيين عثمان لأقاربه من بني أمية في بعض الولايات**:كان عثمان من بني أمية، وقد قام بتعيين بعض أقاربه في مناصب قيادية مهمة (مثل معاوية بن أبي سفيان في الشام، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح في مصر، والوليد بن عقبة في الكوفة لفترة). ورغم أن هؤلاء كانوا في الغالب من أكفأ القادة والإداريين الذين أثبتوا جدارتهم في الفتوحات أو الإدارة، إلا أن أعداء عثمان استغلوا هذا الأمر كشبهة **للطعن في عدله ورميه بالمحسوبية والأثرة**[78]، خاصة وأن عمر كان حريصاً جداً على عدم تولي أقاربه أي مناصب.
  - **تصرفه في بعض الأموال من بيت المال**:اتهمه خصومه بالإنفاق على أقاربه من بيت المال، رغم أن عثمان كان من أغنى الصحابة وأكثرهم إنفاقاً في سبيل الله، وكثيراً ما كان ينفق من ماله الخاص. وقد كان له اجتهادات في منح بعض الأموال، أو التوسع في العطاء لبعض أقاربه من باب الصلة أو العطاء الشرعي الذي يراه.
  - **قضية حرق المصاحف**:وهي النقطة التي كان عثمان فيها قد اتخذ قراراً حكيماً لتوحيد الأمة وحفظ القرآن، لكنها استُخدمت ضده من قبل الجهلة والمغرضين كاتهام بالتبديل أو التحريف.
  - **إتمامه الصلاة في منى**:فقد أتم الصلاة أربع ركعات في منى، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر يقصرونها (يسافرون). وقد كان لعثمان

---

[78] **بالمحسوبية والأثرة:**
المحسوبية تعني تفضيل الأقارب أو المعارف دون اعتبار للكفاءة، و*الأثرة* تعني حب النفس وتقديم المصلحة الشخصية على الآخرين.

اجتهاده في ذلك (أنه تزوج بمكة وأصبحت وطنه، أو أنه أراد دفع شبهة أن الإتمام غير جائز)، لكنها استُخدمت كتهمة له بمخالفة السنة.

- هذه النقاط وغيرها، كانت في غالبها إما اجتهادات صحيحة، أو اتهامات مبالغ فيها، أو شبهات تم تضخيمها وتشويهها من قبل المحرضين.

- **دور المحركين الرئيسيين للفتنة (الخوارج الأوائل):**

  - يُعد **عبد الله بن سبأ** (وهو شخصية تاريخية موضع جدل بين المؤرخين حول مدى تأثيرها الحقيقي، لكنها تظهر في كثير من الروايات كرمز للفتنة الخفية) من أبرز المحركين للفتنة. كان يهودياً من اليمن، أظهر الإسلام وأبطن الكفر، وسافر بين الأمصار (الكوفة، البصرة، الشام، مصر) ينشر سمومه.

  - **أفكار ابن سبأ :**نشر فكراً غريباً ومتطرفاً، زعم فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم سيعود (الرجعة)، وأنه أوصى لعلي بن أبي طالب بالخلافة، وأن عثمان غصبها منه. وقد غالى في علي (مما أدى لظهور فكر السبئية)[79]، واستغل غلوه هذا للطعن في عثمان والخلفاء السابقين. كان هدفه الأساسي هو هدم الإسلام من الداخل عن طريق بث الشبهات وإثارة الخلافات والفتن.

  - **طرق التحريض :**استخدم ابن سبأ وأتباعه أساليب خبيثة للتحريض، مثل :

    - **نشر الشائعات والأكاذيب :**عن عثمان وولاته، مع تضخيم أي خطأ بشري أو اجتهاد.

    - **التظاهر بالورع والغيرة على الدين :**لجذب البسطاء والمتحمسين.

    - **التواصل السري :**بناء شبكة من الأتباع في المدن الكبرى.

    - **إثارة الفتن بين الناس والولاة :**والادعاء بوجود ظلم أو انحراف.

  - **المراكز الرئيسية للتحريض :**تركزت مراكز الإثارة والتحريض بشكل خاص في المدن الكبرى التي تجمعت فيها جيوش وجموع من مختلف القبائل والأعراق، ولم يتلقوا تعليماً كافياً، مثل **الكوفة والبصرة في العراق، والفسطاط**

---

[79] **فكر السبئية:**
نسبة إلى عبد الله بن سبأ، ويُقصد بها الأفكار المنحرفة التي بثّها لإثارة الفتنة بين المسلمين والطعن في الخلفاء.

في مصر. كانت هذه المدن بيئات خصبة لانتشار الشائعات وتجمع الساخطين والجهلة.

- **طبيعة عثمان وصفاته (اللين والحلم والصبر):**
  - كان عثمان رضي الله عنه يتميز بحلم بالغ، ولين في المعاملة، وصبر عظيم على الأذى، وحب شديد لوحدة المسلمين.
  - هذه الصفات النبيلة، التي كانت محمودة في أوقات السلم والاستقرار، فسرها البعض خطأً في أوقات الفتنة على أنها ضعف أو تساهل، مما شجع المفسدين على التمادي في غيهم. كان عثمان يفضل الحوار والإقناع والصبر على العنف والصدام، وذلك حفاظاً على دماء المسلمين.

2.تصاعد الأحداث وحصار عثمان:

- **الشكاوى والوفود إلى المدينة:** بدأ الأمر بوفود من المحتجين تأتي من الأمصار إلى المدينة المنورة لتقديم شكواها عن الولاة أو عن بعض سياسات عثمان. كان عثمان يقابلهم ويستمع إليهم ويحاول إزالة اللبس ويوضح لهم الحق.
- **إرسال الرسل إلى الأمصار:** حاول عثمان تهدئة الأوضاع وإصلاح ما قد يكون من أخطاء بإرسال كبار الصحابة والأمينين إلى الأمصار (مثل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وعمار بن ياسر إلى مصر، وأسامة بن زيد إلى البصرة) للتحقيق في الشكاوى ومعالجة الأمور. لكن بعض هؤلاء الرسل إما أنهم لم ينجحوا في إخماد الفتنة بسبب تغلغل المحرضين، أو أنهم تأثروا ببعض المحرضين، أو أن الروايات التاريخية اختلفت حول مصيرهم.
- **تجمع الثوار في المدينة المنورة:** بلغت الفتنة ذروتها عندما خرجت مجموعة كبيرة من مثيري الفتنة من مصر، والعراق (الكوفة والبصرة)، متجهة إلى المدينة المنورة، بحجة المطالبة بإصلاحات ومقابلة الخليفة. وقد وصلوا إلى المدينة وعسكروا خارجها.
- **خدعة الرسالة المزورة:** تظاهر عثمان بأنه سيستجيب لبعض مطالبهم، واقتنعوا بالعودة إلى أمصارهم. ولكن، أثناء عودتهم، "اعترضوا" رسالة مزورة (قيل إنها منسوبة لعثمان أو لعامل من عماله) تأمر الولاة بقتل أو سجن بعض قادتهم فور وصولهم. هذه

الرسالة المفبركة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وكانت الشرارة النهائية لتأجيج الموقف، فادعى الثوار أن عثمان غدر بهم وعادوا غاضبين لحصار بيته.

3.حصار واستشهاد عثمان رضي الله عنه:

- **الحصار :**استمر حصار بيت عثمان رضي الله عنه في المدينة المنورة لأسابيع طويلة (نحو 40 يوماً). تميز الحصار بالشدة؛ فمنعه الثوار من الخروج حتى لصلاة الجمعة بالناس، ومنعوا عنه الماء والطعام. ومع ذلك، لم يزل عثمان على صبره وحلمه.

- **عرض الدفاع ورفض عثمان :**عرض عليه كبار الصحابة، أبناء كبار المهاجرين والأنصار، مثل الحسن والحسين ابني علي، وعبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، وأبو هريرة وغيرهم، أن يدافعوا عنه وأن يقاتلوا الثوار. لكن عثمان رفض ذلك رفضاً قاطعاً، متمسكاً بحديث النبي صلى الله عليه وسلم" :**إني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وقد جاءني، فقال: يا عثمان أفطر عندنا"**، وهو ما فسرها بأنه سيلقى الله شهيداً.

- قال لهم مقولته الخالدة" :**لا تريقوا في سبيلي دماً** [80]."كان يخشى أن يكون أول من يفتح باب القتال بين المسلمين، فآثر أن يكون شهيداً مظلوماً على أن يتسبب في إراقة دماء إخوانه المسلمين، مؤكداً على عظم حرمة الدم المسلم وضرورة الوحدة. وقد كان هذا الموقف منهجه طوال حياته وفي آخر أيامه.

- **لحظة الاستشهاد :**وفي يوم الجمعة، الثامن عشر من ذي الحجة من العام الخامس والثلاثين للهجرة (17 يونيو 656م)، اقتحم الثوار بيته، ووجدوه يقرأ القرآن الكريم (في سورة البقرة، وتلطخت آية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بدمه الشريف). اعتدوا عليه بالسيوف، فسال دمه على المصحف الذي كان يقرأ فيه، ولقي ربه شهيداً مظلوماً، وقد أتم ثلاثة عشر يوماً من السنة الثالثة عشرة من خلافته.

- **الآثار المباشرة لاستشهاده :**لقد كانت استشهاده صدمة هائلة للأمة، ومفتاحاً لفتن لاحقة أعظم (مثل معركة الجمل وصفين)، أثرت بعمق في مسار التاريخ الإسلامي، وأدخلت

---

[80] **لا تريقوا في سبيلي دماً:**
أي لا تسفكوا دماء الناس بسببي أو دفاعًا عني، وهي دعوة إلى تجنب القتال أو الفتنة.

الأمة في فترة اضطراب لم تشهدها من قبل. لكن موقفه من رفض سفك دماء المسلمين ظل نبراساً[81] يُستلهم منه في مواجهة الفتن.

إدارة الدولة في عهده: استمرارية وتوسع واجتهادات

- استمر عثمان رضي الله عنه في الإدارة على نهج عمر بن الخطاب في معظم الجوانب، مع بعض الاجتهادات التي رآها تخدم مصلحة الدولة المتوسعة، خاصة مع زيادة الخيرات واتساع الرقعة الجغرافية.
- تم توسيع المؤسسات التي أسسها عمر لتشمل الأقاليم الجديدة التي فتحت، مما تطلب زيادة في عدد الولاة والعمال والقضاة، وتوسيعاً في بيت المال لإدارة الموارد الضخمة الواردة من الجزية والخراج والغنائم.
- من أبرز اجتهاداته الإدارية التي أثير حولها الجدل (وإن كانت تهدف إلى مصلحة من وجهة نظره واجتهاده) :
  - **توليته بعض أقاربه :**مثل الوليد بن عقبة على الكوفة، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح على مصر، ومعاوية بن أبي سفيان على الشام. وقد كانوا جميعاً من كبار الصحابة أو التابعين ومن أهل الكفاءة والخبرة، وأثبتوا جدارتهم في الفتوحات والإدارة. إلا أن هذا كان مخالفاً لنهج عمر بن الخطاب في عدم تولي أقاربه، وقد استخدمه المحرضون كذريعة للطعن في عثمان.
  - **السماح للصحابة بالخروج من المدينة والاستقرار في الأمصار :**في عهد عمر كان يفضل بقاء كبار الصحابة في المدينة لاستشارتهم. أما عثمان فقد سمح لهم بالانتشار، مما أدى إلى انتشار العلم والفتوحات، ولكنه أدى أيضاً إلى تباعدهم عن مركز الخلافة وصعوبة التواصل المباشر معهم في أوقات الأزمة.

---

[81] **نبراساً:**
تعني مصباحًا أو منارة، ويُقصد بها مجازًا: قدوة أو مصدر هداية ونور في السلوك أو الفكر.

- **التصرف في بعض الأموال:** منحه بعض الصحابة أراضي أو أموالاً من بيت المال أو من الأراضي المفتوحة (مثل منح بعض الأراضي في السواد)، مما أثار شبهات لدى البعض، رغم أن له تأويلات شرعية واجتهادية.

- رغم هذه الانتقادات، كانت إدارة عثمان ناجحة في الحفاظ على قوة الدولة المترامية الأطراف، واستمرار عجلة الجهاد والفتوحات، وضمان الأمن والعدل في معظم أقاليمها، فكانت تلك الفترة إحدى أزهى فترات التوسع والازدهار الاقتصادي والعلمي.

المبحث الرابع: العدل في خضم الاضطراب وتوقف التوسع المؤقت (عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه)

بعد الفتنة العظمى التي أدت إلى استشهاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، دخلت الأمة الإسلامية مرحلة جديدة من تاريخها، تميزت بالاضطراب الداخلي، وصعود نجم **علي بن أبي طالب رضي الله عنه** إلى سدة الخلافة في ظروف بالغة التعقيد. كانت خلافته، التي امتدت نحو خمس سنوات (35-40هـ / 656-661م)، فترة مليئة بالتحديات الجسام، حيث كان عليه أن يواجه آثار الفتنة المدمرة ويحاول إعادة اللحمة[82] إلى صفوف المسلمين، مما أثر بشكل مباشر على حركة الجهاد والتوسع التي شهدتها العهود السابقة.

تحديات بداية عهده والظروف التي أحاطت بخلافته

تولى علي بن أبي طالب الخلافة في أعقاب حدث جلل لم تشهده الأمة من قبل: **استشهاد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه على يد الخارجين عليه**. كانت هذه الظروف العصيبة هي التي أحاطت ببيعته، مما جعل خلافته تبدأ في مناخ من التوتر، والانقسام، والاضطراب السياسي والاجتماعي العميق.

- **فراغ السلطة وتداعيات مقتل عثمان**: بعد استشهاد عثمان، خلت المدينة المنورة من أمير للمؤمنين لعدة أيام، وسيطر عليها مثيرو الفتنة الذين أتوا من الأمصار. كانت المدينة في حالة من الفوضى، وكبار الصحابة كانوا في موقف حرج، مما دفعهم للضغط على (عليٍّ) لتولي الخلافة، حيث كان يُنظر إليه كأفضل من يمكنه جمع شمل الأمة وإعادة الاستقرار.
- **تصاعد الفتنة الداخلية**: لم تكن بيعة علي محل إجماع كامل أو رضا تام من الجميع. فبينما بايعه جمهور أهل المدينة وكبار الصحابة، اعترض بعض الصحابة الكرام (مثل معاوية بن أبي سفيان في الشام، وطلحة والزبير في البصرة) على بيعته قبل الأخذ بثأر عثمان. هذه الخلافات لم تكن حول أحقية علي في الخلافة بقدر ما كانت حول أولوية معالجة الفتنة والقضاء على قتلة عثمان. هذه المطالبات بالقصاص كانت الشرارة التي أشعلت الخلافات بين المسلمين، وتحولت الفتنة إلى صراع مسلح.

---

[82] **إعادة اللحمة:**
تعني إعادة التماسك والوحدة بين أطراف متفرقة أو مختلفة، بعد انقسام أو نزاع.

- **غياب الوحدة ووجود أطراف متعددة :**لم يعد صف المسلمين موحداً كما كان في عهدي أبي بكر وعمر. فقد انقسمت الآراء والمواقف، وبرزت أطراف متعددة لكل منها وجهة نظره ومطالبه، مما جعل مهمة علي في إعادة توحيد الأمة غاية في الصعوبة. أصبحت الدولة الإسلامية، لأول مرة، تواجه تحديات داخلية تهدد وجودها من الداخل، بدلاً من التحديات الخارجية التي كانت سمة العهود السابقة.

العدل كمنهج في ظل الأزمة: مبدأ ثابت في زمن متقلب

رغم هذه الظروف القاسية، ظل **علي بن أبي طالب رضي الله عنه متمسكاً بمبادئ العدل والمساواة**، والتي كانت أساس حكمه ومنهجه. كان يرى أن العدل هو الطريق الوحيد لإنقاذ الأمة من الفتنة وإعادة الاستقرار إليها، حتى وإن كان ذلك في أصعب الظروف.

- **التزامه بمبادئ العدل المطلق :**كان علي رضي الله عنه معروفاً بزهده، وورعه، وحبه الشديد للعدل، وتمسكه بحرفية الشرع. وقد طبق هذه المبادئ في كل تعاملاته، سواء مع مؤيديه أو مع خصومه. فلم يكن يقبل الظلم من أي طرف، وحاول أن يعيد الحقوق إلى أهلها، وأن يعامل جميع رعيته على قدم المساواة، بغض النظر عن انتمائهم القبلي أو مكانتهم الاجتماعية.
- **محاولاته لاستعادة الاستقرار والعدل داخل الدولة :**
  - **محاولة إعادة ترتيب البيت الداخلي :**من أولى خطوات علي بعد توليه الخلافة كانت محاولة عزل بعض الولاة الذين عينهم عثمان، وتعيين ولاة جدد يرى فيهم القدرة على إدارة الأقاليم بحزم وعدل، وإعادة فرض سلطة الدولة المركزية التي اهتزت بسبب الفتنة.
  - **إعطاء الأولوية لإصلاح ذات البين :**كان علي يرى أن الأولوية هي لجمع كلمة المسلمين وإخماد الفتنة، وتأخير القصاص من قتلة عثمان حتى تستقر الأوضاع وتتمكن الدولة من إقامة العدل بحيادية وقوة. هذه النقطة بالذات كانت محل خلاف مع المطالبين بالقصاص الفوري، مما أدى إلى المواجهة.
  - **التزام بالحوار والدعوة إلى الوحدة :**رغم تفاقم النزاعات، كان علي يدعو خصومه باستمرار إلى الحوار والصلح، محاولاً تجنب المواجهة المسلحة بين المسلمين. مواقفه في معركة الجمل ومعركة صفين تشهد على محاولاته المتكررة لدرء القتال وجمع الكلمة.

- **العدل في توزيع الأموال**: سعى علي إلى إعادة توزيع الموارد المالية بشكل عادل، متأسياً[83] بمنهج عمر بن الخطاب، وألغى بعض الامتيازات التي كانت قد ظهرت، مما كان يهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية لكنه في نفس الوقت أثار حفيظة بعض المنتفعين.

في عهد علي، أصبح العدل ليس مجرد صفة للحاكم، بل منهجاً للحياة في خضم الأزمة، يواجه به أمير المؤمنين تحديات غير مسبوقة تهدد كيان الأمة. وقد أثرت هذه الظروف بشكل مباشر على قدرة الدولة على استكمال الجهاد الخارجي والتوسع، حيث تحولت الطاقات نحو حل الأزمات الداخلية التي كانت أولى بالمعالجة.

الفتنة الداخلية والنزاعات المسلحة: صراع الأمة على الوحدة

لم تمضِ فترة طويلة على تولي علي بن أبي طالب الخلافة حتى انخرطت الأمة في سلسلة من الصراعات الداخلية الكبرى، التي تعد من أحلك صفحات التاريخ الإسلامي. هذه الصراعات لم تكن حروباً على السلطة بالمعنى الدنيوي البحت، بل كانت نتيجة لاجتهادات متباينة بين الصحابة حول كيفية معالجة الفتنة التي بدأت بمقتل عثمان، وحول أولويات إدارة الدولة في ظل تلك الظروف المعقدة.

1. معركة الجمل (36هـ / 656م): أول صدام مسلح بين المسلمين

كانت معركة الجمل أول مواجهة عسكرية كبيرة بين المسلمين، وقد وقعت بعد أشهر قليلة من بيعة علي.

- أطراف النزاع :
  - **جيش علي بن أبي طالب**: الذي كان يعتقد أن الأولوية هي لترسيخ السلطة وتوحيد الصف، ثم يتم الأخذ بالقصاص من قتلة عثمان بعد استقرار الدولة.
  - **جيش الصحابة المطالبين بالقصاص**: بقيادة **طلحة بن عبيد الله** و**الزبير بن العوام** (من العشرة المبشرين بالجنة)، ومعهما **أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها**، التي خرجت للمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان وإصلاح ذات البين.

---

[83] **متأسياً**:
أي مقتديًا أو متبعًا لغيره في السلوك أو التصرف، غالبًا في الخير أو الصبر.

- كان هؤلاء يعتقدون أن القصاص الفوري هو واجب شرعي لا يجوز تأخيره، وأن تأخيره يمثل تقصيراً في حق الخليفة المقتول.

- **سبب المعركة :**بدأت هذه الأزمة من المدينة المنورة، ثم توجه طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، حيث جمعوا جيشاً. حاول علي رضي الله عنه تفادي القتال، وأرسل رسله، وذهب بنفسه ليلتقي بطلحة والزبير قبل المعركة، مذكراً إياهم بفضلهم وقربهم من النبي صلى الله عليه وسلم، ومحاولاً إقناعهم بالصلح. وقد كادت الأمور أن تستقر على الصلح.
- **اندلاع المعركة :**إلا أن مثيري الفتنة (من قتلة عثمان أو المحرضين) الذين كانوا ضمن جيش علي، والذين كانوا يدركون أن الصلح سيعني القصاص منهم، قاموا بإشعال شرارة القتال ليلاً وبدون إذن القادة، مما دفع الطرفين إلى القتال للدفاع عن النفس، معتقدين أن الطرف الآخر هو من بدأ الاعتداء.
- **نتائجها :**انتهت المعركة بمقتل طلحة والزبير رضي الله عنهما، وانتصار جيش علي. كانت هذه المعركة كارثة على الأمة، فقد أريقت فيها دماء عدد كبير من الصحابة والمسلمين الأبرار، وحفرت جرحاً عميقاً في جسد الوحدة الإسلامية. تعامل علي مع أم المؤمنين عائشة باحترام وتقدير بالغين، وأعادها إلى المدينة معززة مكرمة.

.2معركة صفين (37هـ / 657م): مواجهة بين علي ومعاوية

بعد معركة الجمل، تحول مركز الثقل السياسي إلى العراق (الكوفة والبصرة)، حيث استقر علي. أما الشام فكانت تحت ولاية **معاوية بن أبي سفيان**، الذي كان والياً عليها منذ عهد عمر، ورفض بيعة علي قبل الأخذ بثأر عثمان.

- **أطراف النزاع :**
  - **علي بن أبي طالب :**الخليفة الشرعي المنتخب، الذي كان يرى وجوب مبايعته أولاً، ثم النظر في قضية القصاص بعد تثبيت أركان الدولة.

- **معاوية بن أبي سفيان :**والي الشام، الذي كان يرى أن الأولوية للقصاص من قتلة عثمان، ويطالب بتسليمهم إليه لمحاكمتهم، رافعاً شعار "يا لثارات عثمان[84]."

- **سبب المعركة :**فشلت المفاوضات المتعددة بين علي ومعاوية في التوصل إلى حل. اختلف الطرفان حول كيفية التعامل مع قتلة عثمان. علي لم يتمكن من تسليم قتلة عثمان لأنه كان يرى أنهم مختلطون في جيشه، وأن تسليمهم سيعني مواجهة داخل جيشه. بينما معاوية اعتبر ذلك مماطلة[85].
- **أحداث المعركة :**التقى الجيشان في منطقة "صفين" على الحدود بين العراق والشام. دارت معارك عنيفة استمرت لأيام، وراح ضحيتها آلاف المسلمين من الطرفين. وقد حاول علي ومعاوية مراراً تجنب القتال، لكن الأوضاع كانت تزداد تعقيداً.
- **رفع المصاحف والتحكيم :**عندما كادت جيوش معاوية أن تنهزم، أشار عليه عمرو بن العاص برفع المصاحف على أسنة الرماح، مطالبين بالتحكيم إلى كتاب الله. استجاب جيش علي لهذا النداء، رغم اعتراض بعض قادة جيش علي (مثل الأشتر النخعي) الذين رأوا فيها خدعة، لكن عامة الجيش أصروا على وقف القتال وقبول التحكيم.
- **نتائج التحكيم :**تم الاتفاق على تعيين حكمين :**أبو موسى الأشعري** عن جيش علي، و**عمرو بن العاص** عن جيش معاوية. ولكن التحكيم لم يسفر عن حل للنزاع. ففي اجتماع الحكمين في دومة الجندل وأذرح، وبعد مداولات، أعلن أبو موسى الأشعري خلع علي ومعاوية، بينما أعلن عمرو بن العاص تأييد معاوية. هذا الاختلاف زاد من تعقيد الأوضاع، وأدى إلى تشتت الصف أكثر، وإلى انقسام داخل جيش علي نفسه.

.3ظهور الفرق والخوارج: بذور الانقسام العقدي والسياسي

كانت أحداث التحكيم نقطة تحول حاسمة في عهد علي، حيث أدت إلى ظهور فرقة جديدة من المسلمين تُعرف بـ **"الخوارج."**

---

[84] **"يا لثارات عثمان":**
نداء يُطلق للمطالبة بالثأر لمقتل الخليفة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وأصبح شعارًا سياسيًا في الفتنة الكبرى.

[85] **مماطلة:**
تعني التأخير أو التسويف المتعمّد في أداء واجب أو تنفيذ وعد.

- **نشأة الخوارج [86]:** ظهرت هذه الفرقة من قلب جيش علي. فقد اعترضوا بشدة على قبول التحكيم، ورفعوا شعار **"لا حكم إلا لله"**، معتبرين أن قبول التحكيم هو خروج على حكم الله وتنازل عن الحق.

- **عقيدة الخوارج:** اتسمت عقيدتهم بالتطرف في التكفير؛ فقد كفروا علي ومعاوية والحكمين وكل من رضي بالتحكيم، بل وكفروا عثمان قبل ذلك. اعتبروا أنفسهم وحدهم المسلمين الحقيقيين، وأن كل من خالفهم هو كافر يستباح دمه وماله.

- **صراع علي مع الخوارج:** عندما خرج الخوارج عن طاعة علي، وحاولوا إثارة الفتنة والقتل في الأمة، اضطر علي إلى قتالهم بعد أن فشلت كل محاولاته في إقناعهم والعودة بهم إلى صوابهم .

  - **معركة النهروان (38هـ / 658م):** كانت معركة حاسمة بين جيش علي والخوارج، انتهت بانتصار علي والقضاء على معظم قادة الخوارج. ورغم أن هذه المعركة أضعفت شوكة الخوارج في حينها، إلا أنها لم تقضِ عليهم تماماً، بل تحولوا إلى خلايا سرية تتبنى الاغتيالات والعنف، وأصبحوا سبباً رئيسياً لعدم استقرار الدولة.

- **أثر ظهور الفرق:** ظهور الخوارج، وظهور فرق أخرى في هذه الفترة، مثل الشيعة (أنصار علي الذين يرون أن الخلافة حق لعلي وأهل بيته)، والجمهور (أهل السنة الذين يرون أن الخلافة شورى)، أدى إلى انقسام سياسي وعقدي عميق داخل الأمة الإسلامية، أثر على قوتها وفعاليتها، ومهد لظهور مذاهب فقهية وعقدية مختلفة في عصور لاحقة.

---

[86] **الخوارج:**
فرقة ظهرت في صدر الإسلام بعد معركة صفّين، خرجت على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكفّرت من خالفها.

توقف التوسع الخارجي: استنزاف الطاقات نحو الداخل

كانت الصراعات الداخلية المتتالية في عهد علي بن أبي طالب لها أثر بالغ السلبية على حركة الجهاد والفتوحات الخارجية.

- **تحويل الطاقة العسكرية :**اضطرت الدولة إلى توجيه معظم طاقتها العسكرية وجهود **الجهاد** نحو حل النزاعات الداخلية بدلاً من التوسع الخارجي. الجيوش التي كانت موجهة لفتح بلاد بعيدة، وجدت نفسها تقاتل بعضها البعض أو تقاتل الخوارج.
- **استنزاف الموارد والطاقات :**استنزفت هذه الصراعات موارد الدولة المالية والبشرية بشكل كبير. الآلاف من خيرة المسلمين، من الصحابة والتابعين، لقوا حتفهم في هذه المعارك الداخلية، وهي طاقات كانت يمكن أن توجه نحو نشر الإسلام وتأمين حدوده.
- **تباطؤ أو توقف حركة الفتوحات الكبرى :**نتيجة لهذه الاضطرابات الداخلية، تباطأت حركة الفتوحات الكبرى بشكل ملحوظ، وفي بعض الجبهات توقفت تماماً. فبينما كانت الإمبراطورية الإسلامية تتوسع بسرعة البرق في عهدي عمر وعثمان، أصبحت في عهد علي مشغولة بتأمين حدودها الداخلية وإخماد التمردات. بعض الأقاليم المفتوحة حديثاً، مثل أرمينيا وبعض أجزاء شمال أفريقيا، شهدت تمردات ومحاولات للانفصال، مما استدعى جهوداً عسكرية لإعادة السيطرة عليها.

رؤية علي لإدارة الدولة: العدل والتقوى في مواجهة رياح الفتنة

رغم الاضطراب الهائل الذي أحاط بخلافته، بقي علي بن أبي طالب رضي الله عنه متمسكاً بمبادئ الحكم الراشد التي تعلمها من النبي صلى الله عليه وسلم، وسعى جاهداً لتطبيقها:

- **العدل المطلق :**كان علي من أشد الناس حرصاً على إقامة العدل، وتطبيق الشريعة بحذافيرها، والمساواة بين جميع الناس في الحقوق والواجبات، حتى بين خصومه. كان يقول: "الناس شركاء في الحقوق".
- **الزهد والبساطة :**كان علي مثالاً في الزهد والورع، وعاش حياة بسيطة لا تتناسب مع منصب الخليفة، رافضاً مظاهر الترف أو الانغماس في الدنيا، مما جعله قدوة للمسلمين في التقوى والورع.
- **الشورى والاحتجاج بالحق :**كان علي يحرص على الشورى والاستماع لأهل الرأي، وكان يرفض الظلم والفساد بكل أشكاله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

- **إصلاح الأوضاع :**سعى علي إلى إصلاح الأوضاع المالية والإدارية التي رأى فيها بعض الانحرافات، وحاول إعادة الدولة إلى نهج عمر بن الخطاب في إدارة بيت المال وتوزيع العطاءات.
- **الحرص على وحدة الأمة :**كان هدفه الأسمى هو الحفاظ على وحدة الأمة، وقد بذل في سبيل ذلك أقصى جهده، وعانى من ويلات الفتنة بسبب حرصه على تجنب القتال بين المسلمين.

لكن الظروف القاسية التي أحاطت بخلافته، والتحديات المعقدة، وانتشار الفتنة وتجذرها، لم تمكنه من تحقيق كل رؤاه وطموحاته في إعادة الاستقرار الكامل للدولة وإعادة توجيه طاقاتها نحو الجهاد الخارجي. فكانت خلافته نموذجاً لحاكم يسعى للعدل المطلق في ظل أصعب الظروف، لكنه اصطدم بواقع الانقسام الذي فرضته الفتنة. لقد كان استشهاده رضي الله عنه على يد الخوارج في **رمضان عام 40هـ (661م)**، علامة على نهاية عصر الخلافة الراشدة، وبداية عصر جديد في تاريخ الدولة الإسلامية

المبحث الخامس: ملامح الحكم الراشد في الخلافة الراشدة: دروس وعبر

بعد استعراض مسيرة الخلفاء الراشدين الأربعة وما شهدته فترات حكمهم من إنجازات وتحديات، نصل إلى المبحث الختامي الذي يركز على استخلاص **الدروس والعبر** من هذه الحقبة الذهبية في تاريخ الإسلام. كانت الخلافة الراشدة نموذجاً فريداً للحكم، لم يكن مجرد فترة زمنية، بل تجسيداً عملياً لمبادئ الإسلام في إدارة الدولة والمجتمع، وقدمت ملامح لحكم عادل ونزيه استند إلى قيم الشورى، العدل، الزهد، المسؤولية، والجهاد.

الشورى: منهج أصيل لصناعة القرار

لم تكن الشورى مجرد مصطلح نظري في عصر الخلافة الراشدة، بل كانت **تطبيقاً فعلياً ومنهجاً راسخاً في صناعة القرار**، يضمن مشاركة الأمة في قيادة شؤونها، حتى في الأمور الكبرى المتعلقة بالجهاد والتوسع، وإدارة الدولة.

- **بيعة الخلفاء :**بدأت الخلافة ببيعة أبي بكر الصديق في السقيفة، التي لم تكن وراثة ولا استبداداً، بل اختياراً حراً مبنياً على التشاور بين كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار. وعندما أراد أبو بكر أن يوصي بالخلافة لعمر، استشار كبار الصحابة وأخذ رأيهم، مما يؤكد أن الوصية كانت امتداداً للشورى. أما عثمان بن عفان، فقد تولى الخلافة بعد أن اختاره أهل الشورى الذين حددهم عمر. وفي عهد علي، تمت البيعة بعد فراغ في السلطة وضغط من الصحابة. هذا التداول للسلطة عبر الشورى أرسى مبدأً أساسياً في الحكم الإسلامي.
- **مجالس الشورى الدائمة :**لم تكن الشورى تقتصر على اختيار الخليفة فحسب، بل كانت حاضرة في كل المستويات الإدارية. كان الخلفاء يستشيرون كبار الصحابة في القضايا الهامة، سواء كانت متعلقة بتوجيه الجيوش، أو سن التشريعات، أو التعامل مع الأزمات الداخلية والخارجية .
  - فعمر بن الخطاب، رغم حزمه، كان من أكثر الناس مشاورة لأهل الحل والعقد. لم يتخذ قراراً مهماً إلا بعد مشاورة الصحابة الكبار.
  - وعثمان بن عفان، في قضية توحيد المصحف، استشار كبار الصحابة وأخذ رأيهم قبل الإقدام على هذا العمل الجليل.

- **ضمان مشاركة الأمة :**من خلال الشورى، كان الخلفاء يضمنون أن قراراتهم تعكس، قدر الإمكان، مصلحة الأمة ورضاها، مما يعزز من شرعية الحكم ويزيد من تلاحم الناس مع قيادتهم. هذا المبدأ كان له دور كبير في حشد الأمة للجهاد والبناء، لأنهم كانوا يشعرون بملكيتهم للقرار.

العدل والمساواة: ركيزة الحكم وجاذبية الإسلام

كان **العدل والمساواة** من أبرز ملامح الحكم الراشد، وتجليا في جميع جوانب الحياة داخل الدولة المتوسعة: في القضاء، الإدارة، توزيع الثروات، والعلاقات الاجتماعية. لم يكن العدل مجرد شعار، بل ممارسة يومية كانت عاملاً جاذباً للشعوب المفتوحة.

- **في القضاء :**كان القضاء مستقلاً ونزيهاً، لا يفرق بين قوي وضعيف، أو حاكم ومحكوم، أو مسلم وغير مسلم. الخليفة نفسه كان يخضع للقضاء. وقصص عمر بن الخطاب في عدله مع الفلاح القبطي، أو علي بن أبي طالب في قضائه بين المسلم واليهودي، هي أمثلة حية على أن العدل كان أساس الحكم.
- **في الإدارة :**كان الولاة والقادة مطالبين بتطبيق العدل في ولاياتهم. وكان الخلفاء يراقبونهم ويحاسبونهم بشدة. وعمر بن الخطاب كان يتفقد أحوال رعيته بنفسه، ويحاسب الولاة على أي انحراف عن العدل.
- **في توزيع الثروات :**طبق الخلفاء الراشدون مبدأ المساواة في توزيع العطاءات من بيت المال، وقد سعى علي بن أبي طالب في بداية خلافته إلى إعادة فرض المساواة الكاملة في العطاء، متأسياً بمنهج أبي بكر وعمر. كانت الثروات المكتسبة من الفتوحات توزع بشكل عادل على المسلمين، وتخصص حقوق للفقراء والمساكين من المسلمين وغير المسلمين.
- **في العلاقات الاجتماعية :**كان الإسلام يرفض التمييز العنصري أو الطبقي[87]. فالجميع سواسية أمام شرع الله. هذا المبدأ كان جذاباً جداً للشعوب المفتوحة، التي كانت تعاني من الظلم الطبقي والعرقي في الإمبراطوريات السابقة (الرومانية والفارسية). لقد رأوا في حكم المسلمين خلاصاً من الظلم والاضطهاد، وحرية دينية لم يعرفوها من قبل، مما أسهم في قبولهم للحكم الإسلامي واعتناق الكثيرين للإسلام طواعية.

---

[87] **التمييز العنصري أو الطبقي:**
هو معاملة الأشخاص بظلم أو تفضيل بناءً على العرق أو الطبقة الاجتماعية، دون عدل أو مساواة.

الزهد والبساطة: قدوة في التعامل مع السلطة

عاش الخلفاء الراشدون حياة تتسم بـ**الزهد والبساطة**، رغم كونهم حكام أكبر دولة في عصرهم. كانوا قدوة عملية في التعامل مع السلطة، ورفضوا الترف والإسراف، مما زاد من هيبتهم وقدرتهم على حشد الأمة للجهاد والبذل.

- كان أبو بكر الصديق يتنازل عن أي مكاسب مادية من الخلافة، ويعيش على حرفته[88].
- وعمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، كان يرتدي الثياب المرقعة، وينام تحت الشجر، ويشارك عامة الناس طعامهم، ويرفض أن يميز نفسه عنهم.
- وعثمان بن عفان، رغم ثرائه، كان شديد الإنفاق في سبيل الله، ولم تكن حياته الشخصية حياة ترف وبذخ.
- وكذلك علي بن أبي طالب، الذي كان مضرب الأمثال في الزهد والورع، وعاش حياة بسيطة لا تتناسب مع منصب الخليفة.
- هذه البساطة والزهد في حياة الخلفاء أرسلت رسالة قوية للأمة بأن السلطة تكليف وليست تشريفاً، وأنها مسؤولية عظيمة لا ينبغي أن يتبعها استئثار بالمال أو الجاه، مما ألهم المسلمين للبذل والتضحية في سبيل الله دون النظر إلى مغانم الدنيا، وكرس روح الجهاد والعطاء.

المسؤولية والمساءلة: ضمانة لنزاهة الحكم

اعتبر الخلفاء الراشدون أنفسهم **مسؤولين أولاً وأخيراً أمام الله عز وجل، ثم أمام الأمة** .هذا الشعور العميق بالمسؤولية أوجد نظاماً فعلياً للمساءلة، يضمن نزاهة الحكم وفعاليته في إدارة شؤون الدولة الكبيرة.

- **المسؤولية أمام الله :**كانوا يؤمنون أنهم محاسبون على كل صغيرة وكبيرة أمام الله يوم القيامة، كما قال عمر: "لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة، لظننت أن الله سائلني عنها يوم القيامة." هذا الإيمان جعلهم شديدي الحرص على تطبيق العدل ورعاية شؤون الرعية.

---

[88] **ويعيش على حرفته:**
يعني يكسب رزقه من مهنته أو عمله الحرفي.

- **تقبل النقد والمساءلة العلنية:** لم يكونوا يرون أنفسهم فوق النقد، بل كانوا يتقبلونه بصدر رحب. كان بإمكان أي فرد من الأمة أن يقف أمام الخليفة ويعترض على قراره أو يطالبه بالعدل. وقد حدث ذلك مراراً في خطب الخلفاء، حيث كان الناس يستفسرون ويعترضون مباشرة، وكان الخلفاء يجيبون ويوضحون.
- **محاسبة الولاة والقادة:** كان الخلفاء يراقبون الولاة والقادة، ويحاسبونهم بشدة على أي تجاوز أو ظلم. فعمر بن الخطاب كان يعزل الولاة بمجرد وصول شكوى جادة ضدهم، ويفرض عليهم إظهار أموالهم. وعثمان بن عفان كان يرسل المحققين إلى الأمصار[89] للتحقق من شكاوى الناس. هذا النظام من المساءلة ضمن أن الإدارة تظل نزيهة وفعالة، حتى في أطراف الدولة المترامية.

التوسع العادل (الفتوحات): رسالة تحرير لا احتلال

شهد عصر الخلافة الراشدة، خاصة في عهدي عمر وعثمان، توسعاً جغرافياً غير مسبوق، أضاف مساحات شاسعة من الأرض إلى الدولة الإسلامية. إلا أن هذا التوسع لم يكن احتلالاً أو استعماراً بالمعنى التقليدي الذي عرفته الإمبراطوريات القديمة والحديثة. بل كان **فتحاً للأرض أمام العدل والإسلام، وتحريراً للشعوب من ظلم الأنظمة السابقة، مع احترام الأديان والثقافات الأخرى** .هذا التمايز يبرز الفارق الجوهري بين الفتوحات الإسلامية والحملات الاستعمارية التي سادت في تاريخ البشرية.

- **الدافع للفتوحات:** لم يكن الدافع الأساسي للفتوحات هو التوسع الإقليمي، أو السيطرة على الموارد الاقتصادية، أو استعباد الشعوب. بل كان الدافع الأول هو **تبليغ رسالة الإسلام العالمية**، وإزالة العوائق التي تمنع الناس من سماع الدعوة واعتناقها بحرية. فكثير من المناطق المفتوحة كانت شعوبها ترزح[90] تحت وطأة ظلم الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، اللتين فرضتا ضرائب باهظة، واضطهدتا الأقليات الدينية والعرقية.

---

[89] **الأمصار:**
جمع مَصر، وتعني المدن أو البلاد الكبرى، خاصة في سياق الفتوحات الإسلامية.
[90] **ترزح:**
تعني تقع تحت وطأة أو عبء شيء ثقيل، كأن ترزح تحت ظلم أو ضيق.

- **احترام الأديان والثقافات :**على عكس الغزاة التقليديين، حافظ الفاتحون المسلمون على أماكن عبادة أهل الذمة (النصارى واليهود والمجوس)، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الدينية بحرية .
  - **العهدة العمرية في القدس** هي خير مثال على ذلك، حيث ضمنت للمسيحيين كنائسهم وأموالهم وأرواحهم، دون إكراه على تغيير دينهم.
  - في مصر والشام وبلاد فارس، استمرت الكنائس والمعابد في الوجود، وعاش أهل الأديان الأخرى تحت رعاية الدولة الإسلامية.
- **العدالة الضريبية :**كانت الجزية[91] التي فرضت على أهل الذمة أقل بكثير من الضرائب التي كانت تفرضها عليهم الإمبراطوريات السابقة. كما أن المسلمين لم يفرضوا الجزية إلا على القادرين، وأعفوا منها الشيوخ، والنساء، والأطفال، والمرضى، ورجال الدين، ومن كان يشارك في القتال مع المسلمين.
- **التحرير من الظلم :**كثير من الشعوب المفتوحة، مثل الأقباط في مصر، والسريان[92] في الشام، وسكان العراق تحت الحكم الفارسي، رحبوا بالفاتحين المسلمين، ورأوا فيهم منقذين ومحررين من الظلم والاضطهاد الذي كانوا يعيشونه. وهذا ما يفسر سرعة انتشار الإسلام ودخول أعداد غفيرة من هذه الشعوب في الدين الجديد طواعية، وليس بالإكراه.
- **بناء الحضارة :**لم تكن الفتوحات تدميراً للثقافات، بل كانت بناءً لحضارة جديدة استوعبت وأثرت في الحضارات السابقة. المدن الجديدة التي أقيمت (كالكوفة، البصرة، الفسطاط) لم تكن مجرد حاميات عسكرية، بل أصبحت مراكز حضارية وعلمية لنشر الإسلام والثقافة العربية.

---

[91] **الجزية:**
ضريبة تؤخذ من غير المسلمين (أهل الذمة) مقابل حمايتهم في الدولة الإسلامية.
[92] **السريان في الشام:**
هم جماعة مسيحية قديمة تسكن بلاد الشام، ولهم لغتهم الخاصة (السريانية)، وكانت لهم مكانة اجتماعية ودينية في المنطقة.

ظل الجهاد، بكل أبعاده (الدفاعي، الهجومي، جهاد النفس)، ركيزة أساسية للدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، ليس فقط عسكرياً، بل كمنهج حياة يضمن عزة الأمة وقوتها، ويحافظ على وجودها وتوسعها، ويُعد وقوداً للنهضة الشاملة.

- **الجهاد كضرورة وجودية وبناء للدولة:**
  - بدأ الجهاد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كجهاد دفاعي لحماية الدعوة، ثم تطور إلى جهاد هجومي لإزالة العوائق أمام نشرها.
  - في عهد أبي بكر، كان الجهاد ضد المرتدين ضرورة وجودية لتثبيت أركان الدولة وتوحيد الجزيرة العربية، ثم انطلق لفتح العراق والشام.
  - في عهدي عمر وعثمان، أصبح الجهاد محركاً رئيسياً للتوسع الهائل، حيث وصل المسلمون إلى حدود لم تكن تخطر على بال، وأسسوا إمبراطورية غير مسبوقة في مساحتها وتأثيرها.
  - هذا الجهاد لم يكن فقط حرباً بالمعنى التقليدي، بل كان حركة دعوية واقتصادية وسياسية تهدف إلى إقامة العدل وتوصيل رسالة الإسلام.
- **توسع الفتوحات والجهاد المستمر في عهد الراشدين:**
  - **الخلفية :**بعد أن قضى أبو بكر على حروب الردة في العامين 11-12هـ، استعاد المسلمون قوتهم ووحدتهم، وامتلكوا جيشاً متمرساً وقوياً. وقد واجهت الدولة الإسلامية الوليدة في الجزيرة العربية إمبراطوريتين عظميين متربصتين: الفرس في الشرق والروم في الشمال.
  - **بدايات التوسع (أبو بكر) :**
    - **إرسال جيش أسامة بن زيد (11هـ) :**رغم حروب الردة، أصر أبو بكر على تنفيذ وصية النبي صلى الله عليه وسلم بإرسال جيش أسامة إلى الشام، مما أظهر قوة الدولة للخارج وكسر هيبة الروم.

- **جبهة العراق (12هـ / 633م) :**وجه أبو بكر القائد الفذ **خالد بن الوليد** إلى العراق، الذي كان تحت سيطرة الفرس. حقق خالد انتصارات حاسمة في معارك مثل **ذات السلاسل، الولجة، أُلَّيْس، وفتح الحيرة والأنبار** .أضعفت هذه المعارك الوجود الفارسي في جنوب العراق، وفتحت مساحات واسعة.
- **جبهة الشام (13هـ / 634م) :**وجه أبو بكر أربعة جيوش بقيادة (يزيد بن أبي سفيان، شرحبيل بن حسنة، عمرو بن العاص، أبو عبيدة بن الجراح) نحو الشام لمواجهة الروم.

ذروة التوسع (عمر بن الخطاب) :

- **استكمال فتح الشام (15-16هـ / 636-637م) :**بعد استقدام خالد بن الوليد من العراق، حقق المسلمون نصراً عظيماً في **معركة اليرموك (15هـ / 636م)** ضد الإمبراطورية البيزنطية، مما أضعف شوكة الروم وفتح الطريق لفتح المدن الكبرى مثل **دمشق، حمص، حلب، ثم فتح بيت المقدس (16هـ / 637م)** التي تسلم عمر مفاتيحها بنفسه وكتب العهدة العمرية. وبذلك تم فتح بلاد الشام (سوريا، الأردن، فلسطين، لبنان).
- **فتح العراق وبلاد فارس (15-21هـ / 636-642م) :**في جبهة الفرس، قاد **سعد بن أبي وقاص** الجيوش الإسلامية. كانت **معركة القادسية (15هـ / 636م)** هي المعركة الفاصلة التي حطمت الإمبراطورية الفارسية، وتبعها **فتح المدائن** (عاصمة الفرس)، ثم **معركة جلولاء**، وتوجت هذه الفتوحات بـ**معركة نهاوند (21هـ / 642م)**، التي سميت "فتح الفتوح"، وقضت على المقاومة الفارسية المنظمة، مما أدى إلى **فتح معظم بلاد فارس (إيران حالياً)**.
- **فتح مصر (20-21هـ / 641-642م) :**أذن عمر لـ**عمرو بن العاص** بفتح مصر، التي كانت تحت سيطرة الروم. تم فتحها بسرعة، و**الفسطاط** (القاهرة لاحقاً) أصبحت عاصمة إسلامية جديدة، مما أضاف ولاية غنية ومهمة للدولة.

- ◦ **توسع واختراقات جديدة (عثمان بن عفان) :**

- ▪
- ▪ **في المشرق :**استمرت الفتوحات بقيادة **عبد الله بن عامر** لتشمل مناطق واسعة في **خراسان وما وراء النهر (آسيا الوسطى)**، مثل مرو ونيسابور وبلخ، ووصلت الجيوش إلى حدود الصين.
- ▪ **في المغرب :**تم فتح **إفريقية (تونس حالياً)** بقيادة **عبد الله بن سعد بن أبي السرح** في **عام 27هـ (647م)** بعد معركة سبيطلة.
- ▪ **الفتح البحري :**كان الإنجاز الأبرز هو بناء **الأسطول الإسلامي** بجهود معاوية وعبد الله بن سعد، والذي أدى إلى **فتح قبرص (28هـ / 649م)**، وتحقيق نصر بحري ساحق في **معركة ذات الصواري (34هـ / 655م)**، مما كسر الهيمنة البحرية البيزنطية.

- ◦ **توقف مؤقت في عهد علي :**أدت الفتنة الداخلية والنزاعات المسلحة (الجمل، صفين، النهروان) في عهد علي بن أبي طالب إلى توقف شبه كامل للفتوحات الكبرى، حيث استنزفت الصراعات الداخلية الموارد والطاقات التي كانت موجهة للجهاد الخارجي. تحولت الجيوش لقتال بعضها البعض، مما سمح لبعض المناطق المفتوحة سابقاً بالتمرد.

- **الجهاد كمنهج حياة :**لم يكن الجهاد مقتصراً على المعارك العسكرية فحسب، بل كان يمتد ليشمل "جهاد النفس" (تزكية النفس، التغلب على الشهوات)، و"جهاد الكلمة" (نشر الدعوة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، و"جهاد البناء" (العمران، العلم، الإدارة العادلة).
  - ◦ كان الجهاد بمعناه الشامل وقوداً للنهضة الشاملة في جميع المجالات (العلوم، العمران، الاقتصاد، الإدارة). فقد دفع المسلمين إلى استكشاف العالم، واكتساب المعرفة، وتطوير العلوم، وتنظيم الدولة.
  - ◦ ضمن الجهاد المستمر عزة الأمة وقوتها، وحافظ على وجودها وتوسعها، وجعلها قوة مهابة في العالم القديم.
  - ◦

لم تكن الفتنة الداخلية التي عصفت بالدولة الإسلامية في أواخر عهد عثمان وبداية عهد علي مجرد نزاع سياسي عابر، بل كانت زلزالاً هزَّ أركان الأمة، وكشف عن تحديات عميقة في إدارة دولة مترامية الأطراف تضم شعوباً وثقافات متباينة. بعد معركة صفين وقضية التحكيم، لم تُحل الأزمة، بل تفاقمت وانقسم المسلمون إلى أطراف متناحرة: أنصار علي، وأنصار معاوية، والخوارج الذين خرجوا على الطرفين وكفروهما. استنزفت هذه الانقسامات طاقة الأمة ومواردها البشرية بشكل هائل، وتوقفت حركة الفتوحات العظيمة التي كانت سمة العهود السابقة، وتحولت سيوف المسلمين لتُشهر في وجوه بعضهم البعض. كان المسلمون يعيشون فترة عصيبة من عدم اليقين، والصراعات المستمرة، والتهديدات الداخلية التي فاقت في خطورتها التحديات الخارجية.

تصاعد الأزمة واغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :بعد معركة النهروان التي قمع فيها علي الخوارج، لم يقضِ عليهم تماماً، بل تفرقوا في البلاد وتحولوا إلى خلايا سرية تتربص بأطراف النزاع، وخاصة بمن كفروهم من الصحابة. في محاولة يائسة منهم لإنهاء ما رأوه سبباً للفتنة في الأمة، اتفق ثلاثة من الخوارج، وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكير التميمي، على اغتيال قادة المسلمين الثلاثة الذين اعتبروهم رؤوس الضلال: علي بن أبي طالب في الكوفة (لأنه رضي بالتحكيم ثم قاتل الخوارج)، ومعاوية بن أبي سفيان في الشام (لأنه نازع علي الخلافة)، وعمرو بن العاص في مصر (لأنه كان حكماً في صف معاوية).

وبالفعل، في صبيحة يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان عام 40 للهجرة (الموافق 28 يناير 661 ميلادية)، وبينما كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يتوجه إلى المسجد الجامع في الكوفة ليؤم الناس في صلاة الفجر، باغته الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي بضربة سيف مسموم على رأسه وهو يقول: "حكم الله، يا علي، ليس لك ولا لأصحابك". أُصيب علي رضي الله عنه إصابة بليغة في مفرق رأسه[93]، وحُمل إلى بيته، وتوفي على إثرها بعد يومين، في الحادي والعشرين من رمضان عام 40 للهجرة، ليكون بذلك خاتمة الخلفاء الراشدين المستشهدين.

---

[93] **مفرق رأسه:**
يعني مصبوب أو مشقوق الرأس بشدة، وغالبًا يشير إلى ضربة قاتلة أو شديدة القوة على الجمجمة.

أما محاولتي اغتيال معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، فقد فشلتا؛ فأصيب معاوية بجرح غير قاتل، بينما لم يخرج عمرو بن العاص للصلاة في ذلك اليوم بسبب مرضه، وصلى بالناس غيره فقتل بدلاً منه[94].

كان استشهاد علي رضي الله عنه حدثاً جللاً وصدمة هائلة للأمة، حيث فقد المسلمون قائد السفينة في خضم أمواج الفتنة العاتية. ترك استشهاده فراغاً في الخلافة في ظل انقسام الأمة وتنافس القوى، ومهد الطريق لتطورات جديدة في المشهد السياسي الإسلامي.

تولي الحسن بن علي الخلافة في الكوفة :بعد استشهاد أمير المؤمنين علي، بايع أهل الكوفة وجمهور المسلمين في العراق ابنه الأكبر **الحسن بن علي رضي الله عنهما** خليفة للمسلمين. كان الحسن يتمتع بمكانة عظيمة بين المسلمين، فهو سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيد شباب أهل الجنة، وابن علي وفاطمة الزهراء، وكان معروفاً بورعه، وزهده، وحبه للصلح، وتجنبه للفتن. تولى الحسن الخلافة في ظروف لا تقل صعوبة عن تلك التي واجهها أبوه في سنواته الأخيرة. فالدولة كانت منقسمة، وجيش الكوفة الذي كان تحت قيادته لم يكن على قلب رجل واحد، بل كان خليطاً من أنصار علي المخلصين، والمترددين، والانتهازيين، والخوارج الذين كانوا يتربصون به. كثير من قادة جيش الكوفة كانوا يفتقرون إلى الولاء الكامل للحسن، بل إن بعضهم كان يميل إلى معاوية أو يتواصل معه سراً.

في المقابل، كان معاوية بن أبي سفيان يسيطر على الشام ومصر، ويمتلك جيشاً قوياً موحداً ومنضبطاً ومخلصاً له منذ سنوات طويلة من ولايته على الشام. لم يعترف معاوية بخلافة الحسن، ورأى في وفاة علي فرصة لتحقيق ما كان يصبو إليه من جمع السلطة تحت يده لإنهاء الفتنة من وجهة نظره. لذلك، جهز معاوية جيشه وتقدم به نحو العراق لمواجهة الحسن، مصمماً على نيل الخلافة بنفسه.

[94] الشخص الذي قُتل بدلاً من عمرو بن العاص هو **علي بن جهم التيمي**.

تنازل الحسن لمعاوية: عام الجماعة (41هـ / 661م) :واجه الحسن بن علي رضي الله عنهما واقعاً سياسياً وعسكرياً صعباً للغاية. فجيشه في الكوفة كان يعاني من الانقسامات، والخذلان، وعدم الانضباط، وقد تعرض هو نفسه لمحاولات اغتيال وخيانات داخلية من بعض من كانوا حوله. أدرك الحسن، بحكمته وبعد نظره، أن المواجهة العسكرية الشاملة مع جيش معاوية القوي والموحد ستؤدي حتماً إلى معركة طاحنة أخرى بين المسلمين، وإلى إراقة دماء غزيرة لا قبل للأمة بها، وستزيد من تمزق الصف وتضعف المسلمين أمام أعدائهم المتربصين بهم خارج حدود الدولة.

كان الحسن، بوعيه العميق بمصلحة الأمة التي هي فوق كل اعتبار، يرى أن **وحدة المسلمين ووقف نزيف الدماء هو الأولوية القصوى** في ذلك الظرف العصيب، حتى لو كان الثمن هو التنازل عن حقه الشرعي في الخلافة. لقد كان يتذكر حديث جده المصطفى صلى الله عليه وسلم فيه" :**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**[95] "

رأى الحسن أن هذا الحديث ينطبق على موقفه، وأن دوره هو تحقيق هذا الصلح الذي يجمع كلمة المسلمين.

لذلك، قام الحسن بن علي رضي الله عنهما بعمل عظيم ينم عن حكمة بالغة، وإيثار نادر، وتضحية كبرى، حيث قرر **التنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان،** حقناً لدماء المسلمين وجمعاً لكلمتهم، وإنهاءً لحالة الحرب الأهلية. لم يكن هذا التنازل ضعفاً أو خوفاً، بل كان **تضحية كبرى من أجل المصلحة العليا للأمة،** وإدراكاً لواقع القوة والضعف في جيشه وجيش خصمه، ورغبة صادقة في تحقيق ما بشر به جده صلى الله عليه وسلم.

أُبرم الصلح بين الحسن ومعاوية بشروط تهدف إلى استقرار الدولة والحفاظ على مبادئ العدل، ومن أبرز هذه الشروط التي اتفقت عليها الروايات التاريخية:

---

[95] **صحيح مسلم**

- رقم الحديث: 1828 (في النسخ المختلفة)

1. **أن تؤول الخلافة إلى معاوية على أن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم) .**وهو شرط عام يلزمه بالمنهج الإسلامي)

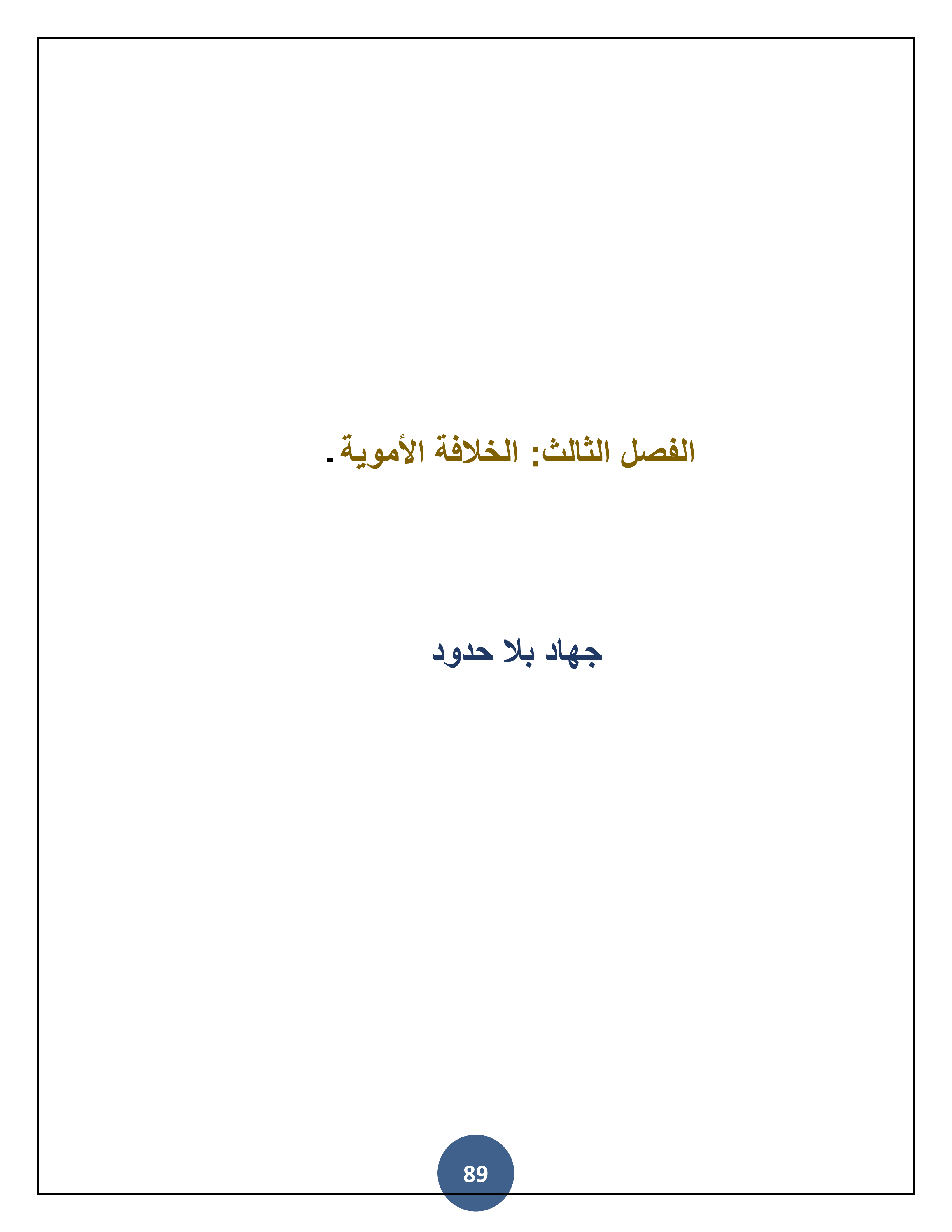
2. **أن لا يستخلف معاوية أحداً بعده، وأن تكون الخلافة من بعده شورى بين المسلمين .**)هذا الشرط كان يهدف إلى منع تحول الخلافة إلى ملك وراثي، ولكنه لم يفِ به معاوية لاحقاً بتعيين ابنه يزيد، مما كان سبباً في فتنة لاحقة).

3. **أن يكف معاوية عن سب علي بن أبي طالب، وأن يحافظ على حياة وأموال أهل بيته وأتباعهم وشيعته) .**شرط يهدف إلى إنهاء الحملات الإعلامية والسياسية ضد علي وأتباعه، وضمان سلامتهم).

4. **ضمان الأمان والحرية لجميع المسلمين أينما كانوا، وأن لا يتعرض أحد ممن قاتل مع علي لأذى بسبب موقفه السابق) .**شرط يهدف إلى تحقيق المصالحة الوطنية الشاملة ومنع الانتقام.)

5. (ووردت شروط أخرى في بعض الروايات التاريخية، مثل حصول الحسن على مبلغ مالي أو خراج منطقة معينة، ولكن هذه الشروط محل خلاف بين المؤرخين، والأرجح أن الهدف الأساسي للحسن كان جمع الكلمة وحقن الدماء لا المكاسب المادية).

تم هذا الصلح العظيم في عام 41 للهجرة، والذي سُمي بـ **"عام الجماعة"**، لأن المسلمين اجتمعوا فيه على خليفة واحد بعد سنوات من الفرقة والنزاع والقتال. وبهذا انتهت فترة الخلافة الراشدة التي دامت حوالي ثلاثين عاماً، وبدأت الخلافة الأموية، التي أسسها معاوية بن أبي سفيان، والتي شهدت عودة قوية لحركة الفتوحات والجهاد الخارجي، وتوسيع غير مسبوق للدولة الإسلامية. كان تنازل الحسن حدثاً فاصلاً في تاريخ الإسلام، حيث وضع حداً لأول فتنة كبرى وأعاد الاستقرار النسبي للدولة، وإن كان بتكلفة سياسية كبيرة تمثلت في تحول نظام الحكم لاحقاً إلى ملك عضوض.



الفصل الثالث: الخلافة الأموية.

جهاد بلا حدود

بعد سنوات عصيبة من الفتنة الداخلية التي كادت تعصف بكيان الدولة الإسلامية في أواخر عهد الخلفاء الراشدين، وبعد الصلح التاريخي الذي عقده الحسن بن علي مع معاوية بن أبي سفيان في عام الجماعة (41هـ)، دخلت الأمة الإسلامية مرحلة جديدة من تاريخها، هي مرحلة **الخلافة الأموية** (41-132هـ / 661-750م). لم تكن هذه المرحلة مجرد انتقال سياسي في الحكم، بل كانت حقبة استثنائية شهدت تحولات كبرى، كان أبرزها وأكثرها تأثيراً هو **استئناف مسيرة الجهاد والفتوحات الإسلامية على نطاق واسع جداً، خارج حدود جزيرة العرب**، لتصل راية الإسلام إلى أقاصي الأرض المعروفة حينها.

لقد تمكن الأمويون، وعلى رأسهم مؤسس الدولة معاوية بن أبي سفيان، من إعادة توحيد الصفوف، وتوجيه طاقات الأمة الهائلة، التي كادت أن تُستنزف في الصراعات الداخلية، نحو هدف مشترك وهو نشر رسالة الإسلام وتبليغها للعالم. في هذا العصر، تحولت الدولة الإسلامية من دولة ناشئة إلى **أكبر إمبراطورية عرفها العالم في عصرها**، متجاوزةً في اتساعها الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية اللتين قضى المسلمون على نفوذهما في مناطق واسعة.

لم تكن هذه الفتوحات مجرد حملات عسكرية للسيطرة على الأراضي والثروات، بل كانت في جوهرها حركة دعوية وحضارية، قادها رجال عظام جمعوا بين الشجاعة العسكرية والبصيرة السياسية والروح الإيمانية العالية. أسماء مثل **موسى بن نصير وطارق بن زياد في الأندلس، وقتيبة بن مسلم الباهلي في آسيا الوسطى، ومحمد بن القاسم الثقفي في السند**، هي نماذج لهؤلاء القادة الذين لم يفتحوا البلدان فحسب، بل فتحوا القلوب والعقول لدين الإسلام وحضارته.

في هذا الفصل، سنتناول بالدراسة والتحليل هذه الحقبة الهامة، مركزين على الجانب الجهادي والتوسعي فيها. سنستعرض أبرز قادة الفتوحات الأموية وإنجازاتهم، وسنحدد المناطق الشاسعة التي وصلتها راية الإسلام في أقصى الغرب والشرق والشمال والجنوب. كما سنتطرق إلى مفهوم الجهاد في الفكر الأموي، وكيف تم تنظيمه وتوجيهه ليصبح القوة الدافعة لهذه التوسعات غير المسبوقة، مع الإشارة إلى بعض التحديات التي صاحبت هذا التوسع السريع. إن فهم هذه المرحلة ضروري لإدراك كيف استعادت الأمة عافيتها بعد الفتنة، وكيف انطلقت مجدداً لتحمل رسالة الإسلام إلى العالمين، وكيف كان الجهاد، بمعناه الشامل، محركاً رئيسياً لهذه النهضة والتوسع.

المبحث الأول: قادة الجهاد الأموي: صناع الحضارة والفاتحون العظام

إنَّ النجاحات العسكرية الهائلة التي حققتها الدولة الأموية، والتي أدت إلى توسعها لتصبح أكبر إمبراطورية في العالم حينها، لم تكن لتتحقق لولا توفيق الله أولاً، ثم بفضل رجال عظام جمعوا بين الإيمان العميق، والبصيرة العسكرية الفذة، والقدرة الإدارية العالية، والروح الدعوية الصادقة. هؤلاء هم **قادة الجهاد الأموي**، الذين قادوا الجيوش الإسلامية إلى أقصى بقاع الأرض، ولم يكونوا مجرد فاتحين بالسيف يهدفون إلى السيطرة على الأراضي والثروات، بل كانوا **حملة دعوة، وناشرين للعدل، ومؤسسين لحضارة** تركت بصمات لا تُمحى في المناطق التي وصلوا إليها. لقد كانوا يمثلون روح الجهاد الإسلامي في أبهى صورها، حيث يتكامل الهدف الديني (نشر الإسلام) مع الهدف السياسي (توسيع الدولة) والهدف الحضاري (إقامة العدل والعمران).

سنتناول هنا أبرز هؤلاء القادة الذين لمعت أسماؤهم في سجل الفتوحات الأموية، ونستعرض شيئاً من سيرهم وإنجازاتهم التي غيرت مجرى التاريخ.

1. موسى بن نصير: فاتح المغرب ومُمهِّد فتح الأندلس

يُعدُّ أمير الحرب والقائد الفذ **موسى بن نصير اللخمي** (ولد حوالي 19هـ/640م - توفي 97هـ/716م) من أبرز قادة الدولة الأموية، وأكثرهم تأثيراً في جبهة المغرب الإسلامي والأندلس. ينتمي إلى قبيلة لخم العربية، ونشأ في الشام. تولى ولاية إفريقية (تونس حالياً) في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان عام 79هـ (698م)، وكانت هذه الولاية تمثل قاعدة الانطلاق نحو فتح شمال أفريقيا بالكامل، ومنها إلى الأندلس.

- **إنجازاته في المغرب الإسلامي:**
  - عندما تولى موسى بن نصير ولاية إفريقية، كانت المنطقة لا تزال تشهد مقاومة شرسة من القبائل البربرية ومن بقايا الوجود البيزنطي. عمل موسى على **إعادة تنظيم الجيش الإسلامي** في إفريقية، وتدريب القوات، وتأمين المدن التي فتحها المسلمون سابقاً (مثل القيروان التي كانت عاصمة الولاية).
  - قاد حملات عسكرية متواصلة ومظفرة لفتح ما تبقى من شمال أفريقيا غرباً، ففتح مدناً ومناطق واسعة في **الجزائر والمغرب الأقصى**

- .واجه مقاومة شديدة من بعض القبائل البربرية، لكنه تمكن بحنكته العسكرية وسياسته الحكيمة من إخضاعها، بل و**إدخال أعداد كبيرة من البربر**[96] **في الإسلام**، وتضمينهم في جيوش المسلمين، ليصبحوا فيما بعد عماد الفتوحات في الأندلس.
- اهتم موسى بن نصير **ببناء الأسطول البحري الإسلامي** في إفريقية، وتطوير القواعد البحرية مثل ميناء تونس، ليكون قادراً على مواجهة الأسطول البيزنطي الذي كان يسيطر على غرب البحر المتوسط، ولتأمين السواحل الإسلامية.
- لم يكن موسى مجرد قائد عسكري، بل كان **إدارياً ناجحاً**، عمل على تنظيم الولايات المفتوحة، وبناء المساجد، ونشر الإسلام وتعاليمه بين السكان المحليين.

- **التمهيد لفتح الأندلس:**
  - بعد أن أحكم سيطرته على شمال أفريقيا ووصل إلى سواحل المحيط الأطلسي، أصبح موسى بن نصير يطل على شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس)، التي كانت تحت حكم مملكة القوط الغربيين. كانت الأندلس تعاني من ضعف داخلي، وظلم اجتماعي، واضطهاد للأقليات الدينية (خاصة اليهود)، مما جعلها مهيأة للفتح الإسلامي.
  - بدأ موسى بن نصير بإرسال حملات استطلاعية صغيرة إلى سواحل الأندلس للتأكد من ضعفها وتهيئتها للفتح. وفي إحدى هذه الحملات، قاد مولاه **طارق بن زياد** حملة ناجحة إلى منطقة طريف (التي سميت باسمه).
  - بعد أن تأكد موسى من ضعف مملكة القوط الغربيين[97]، ومن وجود رغبة لدى بعض سكان الأندلس في التخلص من حكمهم الظالم، قرر الإقدام على خطوة الفتح الكبرى، وعهد بها إلى أبرز قادته ومواليه، طارق بن زياد.

---

[96] **البربر:**
.شعوب أصلية في شمال أفريقيا، لهم لغاتهم وعاداتهم الخاصة، وكانوا من أول من دخلوا الإسلام في الفتوحات الإسلامية

[97] **مملكة القوط الغربيين:**
.مملكة حكمها القوط الغربيون في شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال حاليًا) بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين قبل الفتح الإسلامي

2.طارق بن زياد: قائد الفتح العظيم إلى الأندلس

يُعتبر القائد البربري المسلم **طارق بن زياد** (تاريخ ولادته ووفاته غير محددين بدقة، لكنه عاش في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل الثاني) من أشهر قادة الفتوحات الإسلامية، وقائد الفتح الإسلامي للأندلس. كان مولى لموسى بن نصير، وأظهر كفاءة وشجاعة مبكرة، مما جعله محل ثقة قائده.

- **عبور المضيق ومعركة وادي لكة:**
  - في **عام 92هـ (711م)**، عبر طارق بن زياد المضيق الفاصل بين شمال أفريقيا والأندلس (الذي سُمي فيما بعد "جبل طارق" نسبة إليه) بجيش يتكون من حوالي 7000 مقاتل، معظمهم من البربر الذين أسلموا حديثاً، بالإضافة إلى عدد قليل من العرب.
  - واجه طارق جيش القوط الغربيين بقيادة ملكهم لذريق (رودريك) في **معركة وادي لكة (أو وادي برباط)** في جنوب الأندلس. كان جيش القوط يفوق جيش المسلمين عدداً بكثير (تذكر الروايات أعداداً مبالغاً فيها).
  - في هذه المعركة الحاسمة، أظهر طارق بن زياد براعة عسكرية فائقة، وشجاعة نادرة، وقدرة على تحفيز جيشه. وتُنسب إليه الخطبة الشهيرة التي ألقاها على جنوده قبل المعركة (وإن كان بعض المؤرخين يشككون في نصها الحرفي، إلا أن معناها يعكس روح الموقف)" :**أَيُّهَا النَّاسُ، أَيْنَ الْمَفَرُّ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَاللَّهِ إِلاَّ الصِّدْقُ وَالصَّبْرُ."...**
  - انتهت المعركة بانتصار ساحق للمسلمين، ومقتل الملك لذريق، مما أدى إلى انهيار المقاومة المنظمة للقوط الغربيين في جنوب الأندلس.
- **استكمال الفتوحات في الأندلس:**
  - بعد النصر في وادي لكة، انطلق طارق بن زياد بجيشه لفتح المدن الأندلسية الكبرى بسرعة مذهلة. فتح **قرطبة، وغرناطة، وطليطلة (عاصمة القوط)**.
  - لحق به قائده موسى بن نصير بجيش أكبر، واستكمل الفتوحات في مناطق أخرى من الأندلس، مثل إشبيلية، ومباردة، وسرقسطة. التقى موسى وطارق في طليطلة، واختلفا في بعض الأمور، ثم سار موسى شمالاً في فتوحاته.

- خلال سنوات قليلة (حوالي 711-714م)، تمكن موسى بن نصير وطارق بن زياد وجيش المسلمين من **فتح معظم شبه الجزيرة الإيبيرية**[98]، باستثناء بعض الجيوب الصغيرة في الشمال.

- **طارق بن زياد كنموذج للقائد الفاتح والدبلوماسي:**

  - لم يكن طارق مجرد مقاتل، بل كان قائداً حكيماً، تميز بقدرته على إدارة الجيش، والتخطيط للمعركة، واستغلال الظروف المتاحة.
  - كما أظهر تسامحاً كبيراً مع سكان الأندلس من النصارى واليهود، حيث منحهم الأمان على أرواحهم وأموالهم وكنائسهم ومعابدهم بموجب العهود، مما أسهم في استقرار المناطق المفتوحة وقبول الناس للحكم الإسلامي.

3. قتيبة بن مسلم الباهلي: فاتح بلاد ما وراء النهر

يُعدُّ القائد العسكري الفذ **قتيبة بن مسلم الباهلي** (ولد حوالي 50هـ/670م - توفي 96هـ/715م) من أبرز قادة المشرق الإسلامي في العصر الأموي، وقائد الفتوحات الكبرى في **بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى حالياً)** .تولى ولاية خراسان (منطقة واسعة تشمل أجزاء من إيران وأفغانستان وتركمانستان وأوزبكستان وطاجيكستان حالياً) في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك عام 86هـ (705م)، وكانت خراسان تمثل ثغر الإسلام الشرقي وقاعدة الانطلاق نحو الشرق.

- **حملاته المتواصلة وفتوحاته الكبرى:**

  - عندما تولى قتيبة ولاية خراسان، كانت بلاد ما وراء النهر منطقة صعبة، تتكون من إمارات وممالك صغيرة متناحرة، وتخضع لنفوذ الإمبراطورية الصينية من الشرق، وبقايا النفوذ الفارسي والتركي.
  - قاد قتيبة بن مسلم حملات عسكرية متواصلة ومظفرة على مدى عشر سنوات تقريباً، تميزت بالتخطيط الدقيق، والسرعة في الحركة، والحزم في التنفيذ.

---

[98] **شبه الجزيرة الإيبيرية:**
منطقة جغرافية تقع في جنوب غرب أوروبا، تضم حالياً إسبانيا، البرتغال، وأجزاء من جنوب فرنسا، وتطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي.

- من أبرز فتوحاته :
  - **فتح بخارى (90هـ / 709م) :**كانت بخارى من أكبر مدن بلاد ما وراء النهر وأهمها. بعد عدة محاولات، تمكن قتيبة من فتحها، وعمل على ترسيخ الإسلام فيها، وبناء المساجد، وتشجيع السكان على اعتناق الإسلام.
  - **فتح سمرقند (93هـ / 712م) :**كانت سمرقند من أهم المراكز التجارية والثقافية في المنطقة. حاصرها قتيبة وتمكن من فتحها صلحاً أو عنوة (تختلف الروايات)، وعمل على نشر الإسلام فيها أيضاً.
  - **فتح خوارزم (93هـ / 712م) :**فتح عاصمتها وضم إقليم خوارزم إلى الدولة الإسلامية.
  - **الوصول إلى كاشغر (96هـ / 715م) :**وصل قتيبة بجيشه إلى مدينة كاشغر في تركستان الشرقية (شينجيانغ حالياً في الصين)، وأرسل رسله إلى إمبراطور الصين يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، مما يدل على وصول نفوذ الدولة الإسلامية إلى أقصى الشرق.

- **قتيبة بن مسلم: القائد الإداري والداعية:**
  - لم يكن قتيبة مجرد فاتح، بل كان **إدارياً قوياً**، عمل على تنظيم الولايات المفتوحة، وتعيين العمال، وجمع الضرائب، وتأمين الطرق.
  - اهتم بشكل خاص **بنشر الإسلام بين السكان المحليين**، وشجعهم على اعتناقه، وقرب منهم من أسلم، وأسقط عنهم الجزية بعد إسلامهم، مما أسهم في انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر لتصبح فيما بعد من أهم مراكز الحضارة الإسلامية.
  - كان يتمتع بشخصية قوية وحازمة، وقدرة على القيادة في أصعب الظروف.

4. محمد بن القاسم الثقفي: الفاتح الشاب للسند

يُعدُّ القائد الشاب **محمد بن القاسم الثقفي** (ولد حوالي 72هـ/692م - توفي 95هـ/714م) من أروع نماذج القيادة الشابة في التاريخ الإسلامي. كان من قبيلة ثقيف، وابن عم الحجاج بن يوسف الثقفي (والي العراق الشهير). رغم صغر سنه (حوالي 17 عاماً عندما بدأ الفتح)، أظهر نضجاً عسكرياً وإدارياً ودعوياً يفوق عمره بكثير.

- **فتح إقليم السند:**
  - جاء فتح السند (باكستان حالياً وأجزاء من الهند) استجابة لنداء استغاثة من مسلمات تعرضن للاعتداء من قبل قراصنة السند الذين كانوا يغيرون على السفن التجارية الإسلامية.
  - عهد الحجاج بن يوسف إلى ابن عمه محمد بن القاسم بقيادة جيش لفتح هذا الإقليم الشاسع الذي كان يتميز بتنوعه الديني (الهندوسية، البوذية) والثقافي والجغرافي.
  - في **عام 92هـ (711م)**، انطلق محمد بن القاسم بجيشه، وتمكن من فتح المدن الرئيسية في السند، مثل **ديبل، والنيرون، وملتان** .واجه مقاومة من حكام السند المحليين، لكنه تمكن من التغلب عليها بفضل شجاعته وبراعته.

- **محمد بن القاسم: القائد العادل والداعية المتسامح:**
  - تميز أسلوب محمد بن القاسم في الفتح بالعدل والتسامح مع السكان الأصليين. لم يجبر أحداً على الدخول في الإسلام، بل سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، وعاملهم معاملة حسنة، مما أدى إلى قبول واسع للحكم الإسلامي وتغلغل الإسلام في المنطقة.
  - أعاد بناء المدن، ونظم الإدارة، وأقام المساجد، ونشر الإسلام وتعاليمه بين الناس. وقد ترك أثراً عميقاً في منطقة السند، حيث أصبح الإسلام الدين السائد فيها بمرور الوقت.
  - رغم صغر سنه، أظهر حكمة سياسية وإدارية نادرة، وقدرة على التعامل مع مختلف الشرائح الاجتماعية والدينية في الإقليم.

هؤلاء القادة، وغيرهم من القادة العظام في العصر الأموي، مثل مسلمة بن عبد الملك (في جبهة الروم ومحاولة فتح القسطنطينية)، وعقبة بن نافع الفهري (مؤسس القيروان وفاتح أجزاء من المغرب)، كانوا يمثلون روح الجهاد الإسلامي التي انطلقت لنشر رسالة الإسلام والعدل والحضارة في أقصى بقاع الأرض. لم تكن إنجازاتهم مجرد فتوحات عسكرية، بل كانت تأسيسات لحضارات جديدة، ونقاط انطلاق لانتشار الإسلام في مناطق واسعة من العالم، مما يؤكد أن الجهاد في العصر الأموي كان بحق "جهاداً بلا حدود"، تجاوز الأهداف السياسية الضيقة ليحمل رسالة عالمية.

المبحث الثاني: أين وصلت الفتوحات؟ انتشار الإسلام في أقصى بقاع الأرض

لم يكن العصر الأموي عصر استقرار سياسي داخلي تام، فقد شهد بعض الاضطرابات والثورات، إلا أنه كان بحق **عصر الجهاد والتوسع الأعظم** في تاريخ الدولة الإسلامية. فبعد أن استقرت الأمور نسبياً للمسلمين تحت راية الأمويين، انطلقت الجيوش الإسلامية مجدداً لتواصل مسيرة الفتوحات التي بدأها الخلفاء الراشدون، بل لتتجاوزها بكثير، لتصل إلى مناطق لم تطأها أقدام المسلمين من قبل، ولتصبح الدولة الإسلامية **أكبر إمبراطورية عرفها العالم في عصرها**، متجاوزةً في اتساعها الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية اللتين كانتا تسيطران على العالم القديم. هذا التوسع لم يكن مجرد إضافة أراضٍ على الخريطة، بل كان يعني نشر رسالة الإسلام وقيمه وحضارته بين شعوب متنوعة، ودمج هذه الشعوب في نسيج الدولة الإسلامية، مما أسهم في بناء إمبراطورية ذات أبعاد عالمية حقيقية.

سنتتبع في هذا المبحث مسار هذه الفتوحات في مختلف الاتجاهات، لنرى إلى أي مدى وصلت راية الإسلام في هذا العصر الذهبي للجهاد.

1.الفتوحات في الغرب: من شمال أفريقيا إلى قلب أوروبا

كانت جبهة الغرب من أهم الجبهات وأكثرها حيوية في العصر الأموي، وشهدت إنجازات عسكرية وحضارية كبرى.

- **استكمال فتح شمال أفريقيا (المغرب الإسلامي):**
  - بدأت فتوحات شمال أفريقيا في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، لكنها لم تكن قد اكتملت تماماً واستقرت. في العصر الأموي، وخاصة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، تم توجيه جهود كبيرة لاستكمال فتح هذه المنطقة الشاسعة التي تمتد من ليبيا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً.
  - قاد هذه الحملات قادة عظام مثل **عقبة بن نافع الفهري** (الذي أسس مدينة القيروان في تونس لتكون قاعدة للجيوش ومنطلقاً للفتوحات في المغرب الأقصى)، و**حسان بن النعمان الغساني**، و**موسى بن نصير**.
  - واجه المسلمون مقاومة شديدة من القبائل البربرية المحلية، ومن بقايا الوجود البيزنطي في المدن الساحلية.

- لكن بفضل إصرار القادة، والمدد المستمر من مركز الخلافة، والسياسة الحكيمة التي اتبعها بعض القادة مثل موسى بن نصير في استيعاب البربر وإدخالهم في الإسلام وتضمينهم في الجيش، تمكن المسلمون من إخضاع المنطقة بالكامل.
- تم فتح مدن رئيسية مثل **قرطاجنة** (عاصمة إفريقية البيزنطية)، و**طنجة** (في المغرب الأقصى)، ووصلت الجيوش إلى سواحل **المحيط الأطلسي**.
- أصبحت شمال أفريقيا، بفضل هذه الفتوحات، جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي، وقاعدة انطلاق رئيسية للفتوحات اللاحقة، وخاصة فتح الأندلس. كما أسهم إسلام البربر في تعزيز قوة الدولة الإسلامية بشكل كبير.

- **فتح الأندلس (شبه الجزيرة الإيبيرية):**

- كان فتح الأندلس (إسبانيا والبرتغال حالياً) من أروع وأسرع الفتوحات في التاريخ الإسلامي. بدأ هذا الفتح في **عام 92هـ (711م)** بقيادة القائد البربري المسلم **طارق بن زياد**، الذي عبر المضيق الفاصل بين المغرب والأندلس بجيش صغير (حوالي 7 آلاف مقاتل) أغلبهم من البربر، وبإذن من قائده **موسى بن نصير** والي إفريقية.
- واجه طارق جيش القوط الغربيين بقيادة ملكهم لذريق في **معركة وادي لكة**، وحقق نصراً حاسماً أضعف مملكة القوط بشكل كبير.
- بعد هذا النصر، انطلق طارق لفتح المدن الكبرى في جنوب الأندلس ووسطها، مثل **قرطبة، وغرناطة، وطليطلة**)عاصمة القوط.
- لحق به قائده موسى بن نصير بجيش أكبر، واستكمل الفتوحات في مناطق أخرى، مثل **إشبيلية، وماردة، وسرقسطة**.
- في غضون سنوات قليلة (حوالي 711-714م)، تمكن المسلمون من **فتح معظم شبه الجزيرة الإيبيرية**، باستثناء بعض المناطق الجبلية في الشمال.
- لم يقتصر الفتح على الجانب العسكري، بل عمل موسى وطارق على تنظيم الولايات الجديدة، ونشر الإسلام، والتعامل بعدل وتسامح مع السكان الأصليين من النصارى واليهود، مما أسهم في استقرار الحكم الإسلامي في الأندلس لقرون طويلة، لتصبح الأندلس منارة للحضارة الإسلامية في أوروبا.

- **التوغل في جنوب فرنسا:**
  - بعد فتح الأندلس، لم تتوقف حركة الجهاد غرباً. عبرت الجيوش الإسلامية جبال البرانس (جبال البيرينيه) وتوغلت في جنوب بلاد **فرنسا**)التي كانت جزءاً من مملكة الفرنجة.
  - وصل المسلمون إلى مدن مثل **ناربونة** (التي أصبحت قاعدة إسلامية مهمة في جنوب فرنسا)، و**كاركسون، ونيم، وأربونة، وتولوز، وبوردو**.
  - **مثَّلت معركة بلاط الشهداء (أو تور أو بواتييه)** عام 114هـ (732م) نقطة توقف رئيسية لهذا التوسع في عمق أوروبا الغربية. ورغم أن هذه المعركة كانت خسارة للمسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي، إلا أنها لم تعنِ نهاية الوجود الإسلامي في جنوب فرنسا، فقد استمر المسلمون في السيطرة على بعض المناطق والقواعد (مثل ناربونة) لعقود أخرى، وشنوا حملات أخرى إلى داخل فرنسا وإيطاليا، لكنها لم تصل إلى نفس مدى التوسع الذي تحقق في الأندلس.

2.الفتوحات في الشرق: من بلاد فارس إلى حدود الصين والهند

كانت جبهة الشرق، التي بدأت فتوحاتها في عهد الراشدين، منطلقاً لتوسع هائل في العصر الأموي، قاد إلى ضم مناطق واسعة في آسيا الوسطى وشبه القارة الهندية إلى الدولة الإسلامية.

- **استكمال فتح بلاد فارس وتثبيت السيطرة:**
  - بعد القضاء على الإمبراطورية الساسانية في عهد عمر، استمرت في العصر الأموي جهود تثبيت السيطرة على بلاد فارس (إيران حالياً) وإخماد الثورات المحلية التي كانت تظهر بين الحين والآخر.
  - تم فتح مناطق واسعة في شمال وشرق فارس، وتأمين الطرق والمعابر.
- **فتح بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى):**
  - كانت هذه المنطقة الشاسعة، الواقعة بين نهر جيحون (آموداريا) ونهر سيحون (سير داريا)، هدفاً رئيسياً للفتوحات الأموية في الشرق. كانت تضم ممالك وإمارات صغيرة، وتخضع لنفوذ ثقافي فارسي وصيني وتركي.

- قاد الفتوحات في هذه الجبهة قادة عظام، أبرزهم **قتيبة بن مسلم الباهلي**)والي خراسان.
- على مدى حوالي عشر سنوات (86-96هـ)، قاد قتيبة حملات متواصلة ومظفرة، تمكن خلالها من فتح مدن ومناطق رئيسية مثل:
  - **بخارى** :(90هـ / 709م) من أهم المراكز التجارية والعلمية.
  - **سمرقند** :(93هـ / 712م) مدينة عريقة ذات أهمية كبرى.
  - **خوارزم** :(93هـ / 712م) إقليم واسع يضم مدناً مهمة.
  - **الشاش (طشقند)**(94 **:** هـ / 713م.)
- وصلت جيوش قتيبة إلى **كاشغر** في تركستان الشرقية (شينجيانغ حالياً في الصين) عام 96هـ (715م)، مما يعني أن حدود الدولة الإسلامية وصلت إلى **حدود الصين** مباشرة.
- لم يقتصر دور قتيبة على الفتح العسكري، بل عمل على نشر الإسلام بين السكان المحليين، وبناء المساجد، وتشجيع التعريب، مما أسهم في تحول بلاد ما وراء النهر إلى مركز إسلامي وحضاري عظيم فيما بعد.

- **فتح السند (شبه القارة الهندية):**
  - في نفس الفترة تقريباً، انطلقت الفتوحات الإسلامية نحو شبه القارة الهندية من خلال إقليم السند (باكستان حالياً وأجزاء من الهند).
  - قاد هذا الفتح القائد الشاب **محمد بن القاسم الثقفي** في **عام 92هـ (711م)**.
  - تمكن محمد بن القاسم من فتح مدن رئيسية مثل **ديبل، والنيرون، وملتان،** وأخضع إقليم السند لنفوذ الدولة الإسلامية.
  - وصلت حدود الدولة الإسلامية في هذه الجبهة إلى **حدود الهند**، وبدأت التفاعلات الحضارية والتجارية مع هذه المنطقة.

- تميز فتح السند بالتسامح مع السكان المحليين من الهندوس والبوذيين، حيث سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، مما أسهم في قبولهم للحكم الإسلامي وانتشار الإسلام تدريجياً في المنطقة.

3. الفتوحات في الشمال: جبهة الروم والقوقاز

شكلت الحدود الشمالية للدولة الإسلامية، وخاصة مع الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى (الأناضول) ومنطقة القوقاز، جبهة قتال مستمرة في العصر الأموي.

- **جبهة الروم (آسيا الصغرى):**

- لم يتمكن المسلمون من فتح آسيا الصغرى بالكامل في العصر الأموي، لكن هذه الجبهة شهدت **حملات عسكرية متواصلة** ("الصوائف والشواتي")[99] تشنها الجيوش الإسلامية على الأراضي البيزنطية بشكل شبه سنوي.
- كان الهدف من هذه الحملات هو إضعاف الإمبراطورية البيزنطية، وتأمين حدود الدولة الإسلامية، وغنم الموارد، وتدريب الجند، وإظهار قوة الدولة.
- شهد هذا العصر محاولتين كبيرتين لفتح **القسطنطينية** (عاصمة الإمبراطورية البيزنطية)، الأولى في عهد معاوية (49-53هـ / 669-673م) بقيادة يزيد بن معاوية، والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك (98-99هـ / 716-717م) بقيادة مسلمة بن عبد الملك. ورغم فشل المحاولتين في فتح المدينة الحصينة، إلا أنهما دلتا على طموح الدولة الأموية في الوصول إلى أبعد نقطة في الشمال الغربي.
- تم تأمين الثغور والحصون[100] على طول الحدود مع البيزنطيين، لتكون نقاط دفاع وانطلاق للجيوش.

---

[99] **الصوائف والشواتي:**
مجموعتان من القبائل البربرية في شمال أفريقيا، كانت تشارك في الفتوحات الإسلامية وتتمركز في مناطق مختلفة بين المغرب والجزائر.

[100] **الثغور والحصون:**
الثغور هي المناطق الحدودية في الدولة الإسلامية التي كانت تشكل خط الدفاع الأول ضد الأعداء، و*الحصون* هي القلاع أو المواقع العسكرية المحصنة التي تحمي هذه الثغور.

- **منطقة القوقاز:**
  - استكملت الفتوحات في منطقة القوقاز، وتم تأمين السيطرة على مناطق مثل **أرمينيا وأذربيجان**.
  - واجه المسلمون في هذه الجبهة قوى محلية، بالإضافة إلى مملكة الخزر القوية في شمال القوقاز، التي كانت تشكل تهديداً للحدود الشمالية.
  - تم تأمين الممرات الجبلية الحيوية في القوقاز (مثل دربند)، والتي كانت تفصل بين العالم الإسلامي وشعوب السهوب في الشمال.

4. تثبيت السيطرة في الجنوب: شمال أفريقيا والتوجه جنوب الصحراء

في الجنوب، كان الإنجاز الأكبر في العصر الأموي هو **تثبيت السيطرة الكاملة على شمال أفريقيا**، لتصبح هذه المنطقة قاعدة قوية للدولة الإسلامية ومنطلقاً للفتوحات في الأندلس.

- بعد استكمال الفتح، عمل الأمويون على تنظيم الإدارة في شمال أفريقيا، وبناء المدن الجديدة (مثل القيروان)، ونشر الإسلام بين القبائل البربرية، وتضمينهم في الجيش والإدارة.
- أصبحت شمال أفريقيا، بفضل جهود قادة مثل موسى بن نصير، مصدراً رئيسياً للمقاتلين والموارد للدولة الأموية، وخاصة في جبهة الأندلس.
- بدأت في هذا العصر بعض الاتصالات الأولية مع المناطق الواقعة **جنوب الصحراء الكبرى**، من خلال طرق التجارة الصحراوية. ورغم أن الفتوحات الكبرى في هذه المناطق جاءت لاحقاً، إلا أن العصر الأموي شهد بداية تغلغل التجار والدعاة المسلمين في هذه المناطق، مما مهد لانتشار الإسلام فيها بمرور الوقت.

خلاصة التوسع الجغرافي الأموي: إمبراطورية بلا حدود

بفضل هذه الفتوحات المتواصلة في جميع الاتجاهات، وصلت الدولة الإسلامية في العصر الأموي إلى أقصى اتساع لها في تاريخها المبكر. امتدت حدودها من:

- **الغرب :**المحيط الأطلسي في المغرب والأندلس، حتى جنوب فرنسا.
- **الشرق :**ما وراء نهر جيحون في آسيا الوسطى، حتى حدود الصين والسند (الهند).
- **الشمال :**مناطق في آسيا الصغرى والقوقاز.
- **الجنوب :**الصحراء الكبرى في أفريقيا.

لقد كانت هذه الإمبراطورية الشاسعة، التي ضمت شعوباً وثقافات ولغات مختلفة، دليلاً على قوة الدولة الإسلامية في هذا العصر، وعلى فعالية منهج الجهاد في نشر الإسلام وتبليغ رسالته. هذا التوسع الهائل لم يكن ليتحقق لولا الإيمان العميق، والقيادة الحكيمة، والجيوش المنظمة، والروح الجهادية العالية التي سادت في هذا العصر، والتي جعلت من الجهاد الأموي "جهاداً بلا حدود."

المبحث الثالث: الجهاد في الفكر الأموي: رسالة عالمية وتحديات جديدة

بعد أن استعرضنا في المبحثين السابقين أبرز قادة الفتوحات الأموية والمناطق الشاسعة التي وصلتها راية الإسلام في عهدهم، ننتقل الآن إلى تحليل جوهر هذه الحركة التوسعية، وهو مفهوم **الجهاد في الفكر الأموي**. لم يكن الجهاد في هذا العصر مجرد سلسلة من المعارك العسكرية العشوائية، بل كان **منظّماً ومبنياً على رؤية واضحة ومبدأ أساسي**: أنَّ الإسلام رسالة عالمية موجهة للبشرية جمعاء، وأنَّ هذه الرسالة لا يجب أن تُحبس داخل حدود جزيرة العرب أو المناطق التي فتحت في عهد الراشدين، بل يجب أن تُبلَّغ إلى أقاصي الأرض، وأن يُزال الظلم والطغيان الذي يحول دون وصولها إلى الناس.

1. المبدأ الأساسي: الإسلام رسالة عالمية

كانت الدولة الأموية تدرك تمام الإدراك أنَّ الإسلام ليس ديناً قبلياً أو إقليمياً، بل هو دين للناس كافة، كما قال الله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** (الأنبياء: 107). هذا الفهم العميق لعالمية الرسالة كان هو المحرك الأساسي للجهاد والتوسع في هذا العصر.

- **تبليغ الدعوة:** رأى الأمويون أنَّ من واجبهم الشرعي تبليغ دعوة الإسلام إلى الشعوب التي لم تصلها بعد. لم يكن الهدف إكراه الناس على الدخول في الإسلام، فالقرآن الكريم نص صراحة على **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** (البقرة: 256)، ولكن كان الهدف إزالة العقبات المادية والسياسية التي كانت تمنع الناس من سماع الحق واختيار عقيدتهم بحرية. كانت الإمبراطوريات الكبرى (البيزنطية والفارسية) والأنظمة المحلية في المناطق الأخرى تمارس القمع والاضطهاد على شعوبها، وتحول دون وصول أي فكر جديد إليها. كان الجهاد وسيلة لكسر هذه الحواجز وإتاحة الفرصة للدعاة والتجار والمسلمين للتواصل مع هذه الشعوب.
- **إقامة العدل:** كان الجهاد يهدف أيضاً إلى إقامة العدل الإلهي في الأرض. فقد كانت كثير من الشعوب المفتوحة تعاني من الظلم الاجتماعي، والاضطهاد الديني، والضرائب الباهظة تحت حكم الإمبراطوريات القديمة. رأى المسلمون أن من واجبهم تحرير هذه الشعوب من هذا الظلم، وإقامة نظام حكم يقوم على العدل والمساواة التي جاء بها الإسلام. وقد كان هذا العامل سبباً رئيسياً في قبول الكثير من الشعوب للحكم الإسلامي، بل واعتناقهم للإسلام طواعية.

- **الجهاد كفريضة مستمرة**: لم ينظر الأمويون إلى الجهاد كعمل ظرفي أو تكتيك عسكري، بل كفريضة مستمرة على الأمة الإسلامية إلى قيام الساعة، ما دام هناك من يحول بين الناس ودين الله، أو يظلمهم ويضطهدهم. هذا المبدأ هو الذي أبقى جذوة الجهاد مشتعلة على جميع الجبهات طوال فترة حكمهم تقريباً.

2. تنظيم الجهاد وتوجيه الطاقات

لتحقيق هذه الرؤية العالمية، عمل الأمويون على تنظيم الجهاد وتوجيه طاقات الأمة الهائلة نحو الخارج بعد سنوات من الصراع الداخلي.

- **إعادة بناء الجيش**: بعد الفتنة، كان من أولويات الأمويين إعادة بناء الجيش الإسلامي على أسس قوية. تم تنظيم الجيوش، وتحديد رواتب الجند وعطاياهم، وتوفير التدريب اللازم. تم الاعتماد على العرب كعماد للجيش، ولكن تم أيضاً استيعاب أعداد كبيرة من الموالي (غير العرب المسلمين) في صفوف الجيش، وخاصة في جبهات الفتوحات الجديدة (مثل البربر في المغرب والأندلس، والفرس في المشرق).
- **تأسيس الثغور والحصون**: أنشأ الأمويون شبكة واسعة من الثغور والحصون على طول الحدود المترامية للدولة، وخاصة مع الإمبراطورية البيزنطية في الشام وآسيا الصغرى. كانت هذه الثغور بمثابة خطوط دفاع قوية، ونقاط انطلاق للحملات الجهادية ("الصوائف والشواتي") التي كانت تشن بشكل شبه سنوي.
- **بناء الأسطول البحري**: كما ذكرنا سابقاً، أولى الأمويون اهتماماً كبيراً ببناء الأسطول البحري الذي بدأ في عهد عثمان. أصبح الأسطول الأموي قوة بحرية ضاربة، قادرة على خوض المعارك الكبرى في البحر المتوسط (مثل ذات الصواري) والمشاركة في حصار القسطنطينية، وفتح الجزر، وتأمين السواحل الإسلامية.
- **توجيه الحملات المنهجي**: لم تكن الفتوحات عشوائية، بل كانت تتم بتخطيط منهجي من مركز الخلافة في دمشق. كان الخلفاء يوجهون القادة إلى جبهات محددة، ويزودونهم بالجيوش والموارد اللازمة. كانت هناك استراتيجية واضحة لفتح المناطق تباعاً، وتأمين الأقاليم المفتوحة قبل الانطلاق إلى غيرها.

3. التوسع السريع وتحدياته المصاحبة

أدى هذا التنظيم للجهاد والرؤية العالمية إلى توسع سريع جداً للدولة الإسلامية في العصر الأموي. ففي أقل من قرن، امتدت الدولة لتشمل مساحات شاسعة لم تعرفها أي إمبراطورية سابقة في ذلك الوقت. لكن هذا التوسع السريع، رغم إيجابياته الكبرى، جاء معه أيضاً **تحديات داخلية وخارجية جديدة** فرضت نفسها على الدولة والمجتمع.

- **صراع سياسي داخلي:**
  - رغم أن عام الجماعة أنهى الفتنة الكبرى الأولى، إلا أن العصر الأموي لم يخلُ من الصراعات السياسية الداخلية. ظهرت معارضات لحكم الأمويين من قبل بعض القوى التي لم تقبل بتحول الخلافة إلى ملك وراثي (كما حدث بعد معاوية)، أو التي كانت ترى أحقية غير الأمويين في الحكم (مثل العلويين الذين يرون أحقية أهل البيت، والخوارج الذين استمروا في التمرد على السلطة المركزية وكفروا الأمويين).
  - حدثت صراعات أيضاً داخل البيت الأموي نفسه على السلطة، خاصة عند انتقال الخلافة من خليفة إلى آخر.
  - هذه الصراعات الداخلية، مثل ثورة الحسين بن علي في كربلاء، وثورة عبد الله بن الزبير في مكة، وثورات الخوارج المتعددة، كانت تستنزف جزءاً من طاقة الدولة ومواردها، وتؤثر على استقرارها الداخلي، رغم أن الأمويين كانوا قادرين في معظم الأحيان على قمعها والحفاظ على وحدة الدولة.
- **صعوبة الإدارة المركزية:**
  - مع اتساع الإمبراطورية إلى أقصى بقاع الأرض (من الأندلس غرباً إلى حدود الصين شرقاً)، أصبحت إدارة هذه المساحات الشاسعة من مركز واحد (دمشق ثم بعدها في بعض الأحيان الكوفة أو الرقة) مهمة بالغة الصعوبة والتعقيد.
  - أدى هذا إلى منح ولاة الأقاليم صلاحيات واسعة جداً، وخاصة في الأقاليم البعيدة مثل خراسان وشمال أفريقيا والأندلس. ورغم أن هذا كان ضرورياً لضمان فعالية الإدارة في المناطق النائية، إلا أنه قد يؤدي في بعض الأحيان إلى ظهور نزعات استقلالية لدى بعض الولاة الطموحين،

- أو تحديات للسلطة المركزية، أو ظهور بعض المظالم في الولايات البعيدة التي يصعب على الخليفة في دمشق الإحاطة بها بشكل كامل.
- كانت صعوبة الاتصال والمواصلات في ذلك العصر تزيد من تعقيد مهمة الإدارة المركزية والرقابة على الولاة.

- **التفاوت بين العرب وغير العرب (الموالي)[101]:**

- مع دخول أعداد هائلة من غير العرب في الإسلام (مثل الفرس، الأقباط، البربر، الأندلسيين، السريان، الترك)، ظهرت قضية "الموالي" (غير العرب المسلمين).
- في بداية العصر الأموي، كان هناك بعض التمييز الإداري والاجتماعي لصالح العرب. فالعرب كانوا يُمنحون عطاءات أكبر من بيت المال، وكانوا يُفضلون في تولي المناصب القيادية في الجيش والإدارة. هذا التفاوت لم يكن مقصوداً به التمييز العنصري بالمعنى الحديث، ولكنه كان نتيجة طبيعية لكون الدولة عربية النشأة، ولعب العرب دوراً رئيسياً في الفتوحات وتأسيس الدولة.
- لكن هذا التفاوت أثار استياء بعض الموالي، الذين كانوا يرون أن الإسلام جاء ليساوي بين الناس على أساس التقوى لا على أساس العرق، وأنهم أسهموا في الفتوحات وتحملوا المسؤوليات، فلماذا لا يُعاملون بالمساواة الكاملة مع العرب؟ شكل هذا التفاوت تحدياً لوحدة الدولة، حيث رأى بعض الموالي أن الواقع الإداري لم يعكس مبدأ المساواة في الإسلام بشكل كامل.
- وقد أدرك بعض الخلفاء الأمويين خطورة هذه القضية، وحاولوا معالجتها. كان أبرز من عالجها الخليفة الراشد الخامس **عمر بن عبد العزيز** (99-101هـ / 717-720م). فقد سعى عمر بن عبد العزيز إلى تطبيق مبادئ الإسلام بشكل كامل، وألغى بعض الامتيازات التي كانت للعرب، وساوى في العطاء بين العرب والموالي، وأسقط الجزية عن الموالي الذين أسلموا، وأمر الولاة بالعدل مع جميع الرعية بغض النظر عن أعراقهم.

---

[101] **لموالي:**
هم الأفراد الذين دخلوا في الإسلام وكانوا يتبعون قبائل معينة، وغالبًا كانوا غير عرب أصليين تم دمجهم في المجتمع الإسلامي، وكانوا مرتبطين بولاة أو قبائل كموالي (أي موالين).

- هذه السياسة العادلة أسهمت في تهدئة الأوضاع وإعادة اللحمة بين مكونات الدولة المختلفة، وأثبتت أن مبادئ الإسلام قادرة على استيعاب الجميع.

4. الجهاد كوقود للدولة الأموية

رغم التحديات الداخلية والخارجية، ظل الجهاد هو القوة الدافعة والوقود الذي أبقى الدولة الأموية قوية وموحدة لفترة طويلة.

- **توحيد الصفوف:** وجه الجهاد طاقات الأمة نحو الخارج، مما قلل من احتمالات الصراع الداخلي ووحد المسلمين تحت راية واحدة في مواجهة الأعداء الخارجيين.
- **الموارد الاقتصادية:** وفرت الفتوحات موارد اقتصادية ضخمة (غنيمة، خراج، جزية) للدولة، مما ساعد على تمويل الجيش، وتطوير البنية التحتية، ودعم الاقتصاد، وتوزيع العطاءات على الناس، مما أسهم في استقرار الدولة ورفاهيتها.
- **تعزيز الشرعية:** كانت الفتوحات المستمرة تعزز من شرعية حكم الأمويين في عيون المسلمين، حيث كانوا يرون فيهم قادة يحققون وعد الله بنصر دينه وتبليغ رسالته.
- **بناء القدرات:** أدى الجهاد المستمر إلى بناء جيش قوي ومنظم، وتطوير القدرات العسكرية (براً وبحراً)، واكتساب الخبرات في فنون الحرب والإدارة في مختلف البيئات.

باختصار، كان الجهاد في الفكر الأموي مبنياً على رؤية عالمية لرسالة الإسلام، وتُرجم إلى حركة توسعية غير مسبوقة قادها قادة عظام. ورغم أن هذا التوسع السريع جاء معه تحديات داخلية وإدارية واجتماعية، إلا أن الجهاد ظل القوة الدافعة التي أبقت الدولة قوية وموحدة، ومهدت لانتشار الإسلام في مناطق واسعة من العالم، لتصبح الدولة الإسلامية في هذا العصر إمبراطورية بلا حدود، تحمل رسالة حضارية وإنسانية إلى العالمين. وكانت حدودها كما ذكرنا وصلت حدود الإمبراطورية الأموية في أقصى اتساع لها إلى:

- **الغرب :**المحيط الأطلسي في المغرب والأندلس، حتى جنوب فرنسا.
- **الشرق :**ما وراء نهر جيحون في آسيا الوسطى، حتى حدود الصين والسند (الهند).
- **الشمال :**شملت مناطق في آسيا الصغرى والقوقاز.
- **الجنوب :**وصلت إلى الصحراء الكبرى في أفريقيا.

المبحث الرابع: تحديات الدولة الأموية: صراع داخلي وإدارة إمبراطورية

على الرغم من الإنجازات العظيمة التي حققتها الدولة الأموية في مجال الجهاد والتوسع، والتي جعلتها أكبر إمبراطورية في عصرها، إلا أنَّ هذا العصر لم يخلُ من **تحديات جسيمة** واجهت الدولة من الداخل والخارج. لقد كان التوسع السريع، وتنوع الشعوب المنضوية تحت لوائها، وتحول نظام الحكم من الشورى إلى الملك الوراثي في معظمه، عوامل أدت إلى ظهور مشكلات معقدة، كان على الأمويين التعامل معها للحفاظ على وحدة الدولة واستقرارها. هذه التحديات كانت بمثابة اختبار لقدرة الدولة الإسلامية على إدارة إمبراطورية عالمية، وكيفية التوفيق بين مبادئ الإسلام ومتطلبات حكم دولة مترامية الأطراف.

1. الصراع السياسي الداخلي: بقايا الفتنة ومعارضات جديدة

لم ينتهِ الصراع السياسي الداخلي بانتهاء الفتنة الأولى وتنازل الحسن بن علي، بل استمرت جذوره كامنة، وبرزت معارضات جديدة لحكم الأمويين لأسباب مختلفة، سواء كانت دينية، أو سياسية، أو اجتماعية.

- **بقايا الخوارج :**استمرت فرقة الخوارج، التي ظهرت في نهاية عهد علي، في التمرد على السلطة الأموية. كانوا يرون أن الأمويين قد خرجوا عن حكم الله، وكفروا بعض الخلفاء والولاة. شن الخوارج ثورات متعددة في مناطق مختلفة من الدولة (خاصة في العراق وشمال أفريقيا)، تميزت بالشدة والتطرف، مما استنزف جزءاً كبيراً من طاقة الدولة الأموية في قمعها. ورغم أن الأمويين تمكنوا من إضعاف شوكتهم في كثير من الأحيان، إلا أنهم لم يقضوا عليهم تماماً.
- **معارضة العلويين (الشيعة) :**استمرت المطالبة بالخلافة في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وخاصة في أبناء علي بن أبي طالب. ورغم صلح الحسن مع معاوية، إلا أن بعض أنصار أهل البيت لم يرضوا بهذا الصلح، واستمروا في رؤية أن الخلافة حق لأهل البيت. بلغت هذه المعارضة ذروتها في **ثورة الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء عام 61هـ (680م)**، والتي انتهت باستشهاده ومعه عدد من أهل بيته وأصحابه. كانت هذه الثورة حدثاً مأساوياً ترك أثراً عميقاً في التاريخ الإسلامي، وعزز من الشعور بالظلم لدى أنصار أهل البيت، وأدت إلى ترسيخ الانقسام بين الشيعة والجمهور (أهل السنة).

- **معارضة الزبيريين:** بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان وتولي ابنه يزيد الخلافة، رفض عدد من الصحابة والتابعين البيعة ليزيد، ورأوا أن الخلافة يجب أن تعود إلى الشورى. كان أبرز هؤلاء **عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما**، الذي أعلن نفسه خليفة في مكة المكرمة. امتدت خلافة ابن الزبير لنحو تسع سنوات (64-73هـ)، وسيطر على الحجاز واليمن وأجزاء من العراق وخراسان، مما أدى إلى انقسام الدولة الإسلامية إلى خليفتين متنافسين. اضطر الأمويون لخوض حروب طويلة ضد ابن الزبير، انتهت بمقتله في مكة على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، لتعود الدولة الأموية موحدة تحت راية عبد الملك بن مروان.
- **النزاعات القبلية:** كانت العصبية القبلية، التي حاول الإسلام القضاء عليها، لا تزال موجودة تحت السطح، وبرزت بشكل أكبر في العصر الأموي، خاصة بين قبائل قيس واليمانية.[102] استغل بعض الولاة أو الطامعين في السلطة هذه العصبيات لإثارة الفتن والنزاعات، مما أثر على استقرار بعض الولايات، وخاصة في العراق والشام.
- **الصراعات داخل البيت الأموي:** لم تكن الخلافة الأموية خالية من الصراعات الداخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها، خاصة عند انتقال السلطة من خليفة إلى آخر، مما أدى في بعض الأحيان إلى نزاعات مسلحة أو اغتيالات.

هذه الصراعات الداخلية المتعددة كانت تستنزف جزءاً كبيراً من طاقة الدولة ومواردها البشرية والمالية، وتؤثر على استقرارها الداخلي، وتُضعف من قدرتها على التركيز الكامل على الجهاد الخارجي.

2. صعوبة الإدارة المركزية: تحديات إمبراطورية مترامية الأطراف

مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية في العصر الأموي لتشمل مساحات شاسعة من الأندلس غرباً إلى حدود الصين شرقاً، أصبحت مهمة الإدارة المركزية من عاصمة الخلافة (دمشق في الغالب) **بالغة الصعوبة والتعقيد**.

---

[102] **قبائل قيس واليمانية:**
هما مجموعتان كبيرتان من القبائل العربية، تقسم العرب في الجاهلية والإسلام إلى قبائل قيسية (شمالية) وقبائل يمانية (جنوبية)، وكان لهذا الانقسام أثر سياسي واجتماعي هام في التاريخ الإسلامي

- **البعد الجغرافي وصعوبة الاتصال :**كانت المسافات بين دمشق والولايات البعيدة (مثل الأندلس، السند، بلاد ما وراء النهر، شمال أفريقيا) شاسعة جداً، وكانت وسائل الاتصال والمواصلات بدائية وبطيئة. هذا البعد الجغرافي جعل من الصعب على الخليفة في دمشق الإحاطة الكاملة بما يجري في الولايات، والتحقق من الشكاوى، وإصدار الأوامر بسرعة، ومراقبة الولاة بشكل فعال.
- **تنوع الشعوب والثقافات :**ضمت الإمبراطورية الأموية شعوباً ذات خلفيات عرقية، وثقافية، ودينية، ولغوية متنوعة جداً (عرب، فرس، رومان، أقباط، بربر، سريان، ترك، هنود، وغيرهم). إدارة هذه الشعوب المختلفة، وتطبيق نظام حكم واحد عليها، وتلبية احتياجاتها المتنوعة، كان تحدياً كبيراً يتطلب حكمة وبصيرة إدارية عالية.
- **صلاحيات الولاة الواسعة :**نظراً لصعوبة الإدارة المركزية المباشرة، اضطر الخلفاء الأمويون إلى منح ولاة الأقاليم الكبرى صلاحيات واسعة جداً، خاصة في الأمور العسكرية والإدارية والمالية. ورغم أن هذا كان ضرورياً لضمان فعالية الإدارة في المناطق النائية، إلا أنه قد يؤدي في بعض الأحيان إلى تجاوزات من قبل بعض الولاة، أو استئثارهم بالسلطة، أو ظهور نزعات استقلالية لديهم، مما يهدد وحدة الدولة. شخصيات مثل الحجاج بن يوسف الثقفي (والي العراق) وموسى بن نصير (والي إفريقية والأندلس) كانت تتمتع بسلطات واسعة جداً في مناطقها.
- **تنظيم الإدارة والمالية :**تطلب إدارة إمبراطورية بهذا الحجم تطوير أنظمة إدارية ومالية معقدة. واصل الأمويون تطوير الدواوين التي أسسها عمر بن الخطاب، وأنشأوا دواوين جديدة، ونظموا جمع الضرائب (الخراج والجزية) وتوزيع العطاءات. كما قاموا بتعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان، حيث كانت تكتب بلغات أهل البلاد المفتوحة (الفارسية في الشرق، اليونانية في الشام ومصر)، مما كان خطوة هامة لتوحيد الإدارة.

.3التفاوت بين العرب وغير العرب (الموالي): التحدي الاجتماعي

مع دخول أعداد هائلة من غير العرب في الإسلام، ظهرت قضية **"الموالي "**كأحد أبرز التحديات الاجتماعية والسياسية التي واجهت الدولة الأموية.

- **من هم الموالي؟** هم غير العرب الذين دخلوا في الإسلام من الشعوب المفتوحة (الفرس، الروم، الأقباط، البربر، وغيرهم). في بداية الإسلام، كان الموالي يُعاملون

كمواطنين من الدرجة الثانية في بعض الجوانب مقارنة بالعرب، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أهل الدولة ومؤسسيها، وكان لهم السبق في الإسلام والجهاد.

- **أوجه التفاوت :**تجلى هذا التفاوت في عدة جوانب:
  - **العطاء من بيت المال :**كان العرب يُمنحون عطاءات أكبر من بيت المال مقارنة بالموالي، بناءً على سابقة في عهد عمر بن الخطاب الذي رتب العطاءات بناءً على السبق في الإسلام والمشاركة في الجهاد الأول، لكن هذا الترتيب استمر في العصر الأموي وأصبح يُنظر إليه كتمييز عرقي.
  - **المناصب القيادية :**كان العرب يُفضلون في تولي المناصب القيادية في الجيش والإدارة، رغم وجود كفاءات عالية بين الموالي (مثل طارق بن زياد).
  - **الجزية :**في بعض الأحيان، استمر بعض الولاة في فرض الجزية على الموالي الذين أسلموا، رغم أن الإسلام يسقط الجزية عن المسلم، وكان الهدف من ذلك الحفاظ على إيرادات الدولة التي كانت تعتمد على الجزية من غير المسلمين. هذا التصرف كان مخالفاً لتعاليم الإسلام وأثار استياء كبيراً بين الموالي.
- **آثار التفاوت :**أدى هذا التفاوت إلى شعور بعض الموالي بالظلم وعدم المساواة، مما دفعهم إلى الانضمام إلى الحركات المعارضة للأمويين (مثل ثورات الخوارج أو الحركات التي مهدت لقيام الدولة العباسية). شكل الموالي قوة بشرية هائلة، وكان استياؤهم يمثل تهديداً لوحدة الدولة واستقرارها على المدى الطويل.
- **معالجة القضية (خاصة في عهد عمر بن عبد العزيز) :**أدرك بعض الخلفاء الأمويين خطورة قضية الموالي، وحاولوا معالجتها. كان أبرز من قام بذلك الخليفة العادل **عمر بن عبد العزيز** (99-101هـ). فقد سعى عمر بن عبد العزيز إلى تطبيق مبادئ الإسلام بشكل كامل، وألغى بعض الامتيازات التي كانت للعرب، وساوى في العطاء بين العرب والموالي، وأسقط الجزية عن الموالي الذين أسلموا بشكل قاطع، وأمر الولاة بالعدل مع جميع الرعية بغض النظر عن أعراقهم أو أصولهم. هذه السياسة العادلة أسهمت في تهدئة الأوضاع وإعادة اللحمة بين مكونات الدولة المختلفة، وأثبتت أن مبادئ الإسلام قادرة على استيعاب الجميع وتحقيق المساواة بينهم، وأن تطبيق العدل هو أساس استقرار الدولة وقوتها.

4. تحديات أخرى: اقتصادية، اجتماعية، وثقافية

إلى جانب التحديات السياسية والإدارية والاجتماعية الكبرى، واجهت الدولة الأموية تحديات أخرى:

- **التحديات الاقتصادية :**إدارة موارد إمبراطورية شاسعة، وتوزيع الثروات المكتسبة من الفتوحات، وتطوير الزراعة والصناعة والتجارة في مناطق متنوعة، كانت كلها تحديات اقتصادية كبرى.
- **التحديات الاجتماعية :**دمج شعوب مختلفة في مجتمع واحد، وتجاوز العصبيات القبلية والعرقية، ونشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية في الأقاليم المفتوحة، كانت كلها تحديات اجتماعية وثقافية تتطلب جهوداً مستمرة.
- **التحديات الخارجية :**رغم ضعف الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية بعد الفتوحات الإسلامية، إلا أنهما لم تختفيا تماماً، وظلتا تشكلان تهديداً على الحدود، بالإضافة إلى ظهور قوى أخرى في الشرق (مثل مملكة الخزر) وفي الغرب (مثل مملكة الفرنجة).

في الختام، كانت الدولة الأموية نموذجاً لإمبراطورية إسلامية عظيمة حققت توسعاً هائلاً بفضل الجهاد المنظم والقيادة الفعالة، ولكنها واجهت أيضاً تحديات داخلية وخارجية معقدة فرضها حجمها وتنوعها وتحولات نظام حكمها. هذه التحديات، وخاصة قضية الموالي والصراعات الداخلية، كانت عوامل أثرت على مسار الدولة الأموية وساهمت في نهايتها لاحقاً، لتفتح الباب أمام عصر جديد في تاريخ الإسلام.

المبحث الخامس: أسباب سقوط الدولة الأموية ونـهاية العصر

على الرغم من القوة العسكرية الهائلة، والتوسع الجغرافي غير المسبوق، والإنجازات الإدارية والحضارية التي حققتها الدولة الأموية، إلا أنها لم تستمر طويلاً مقارنة بالدول والإمبراطوريات الكبرى في التاريخ. فقد حكم الأمويون لحوالي تسعين عاماً (41-132هـ / 661-750م)، ثم سقطت دولتهم على يد العباسيين. لم يكن سقوطها مفاجئاً، بل كان نتيجة لتراكم مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية، التي أدت إلى إضعاف الدولة من الداخل، وجعلتها عاجزة عن مواجهة التحديات المتزايدة.

1.قضية الخلافة وتحولها إلى ملك وراثي: بذور الانقسام العميق

ربما كان السبب الأبرز والأكثر تأثيراً على المدى الطويل في إضعاف الدولة الأموية هو **تحول نظام الخلافة من الشورى والاختيار إلى الملك الوراثي** .هذا التحول بدأ بشكل واضح في عهد معاوية بن أبي سفيان.

- **عهد معاوية وتعيين يزيد** :كان معاوية بن أبي سفيان، بحكمته ودهائه[103] السياسي، يدرك أهمية استقرار الدولة وتجنب عودة الفتنة بعد وفاته. ورغم الشرط الذي تضمنه صلحه مع الحسن بن علي بأن تكون الخلافة من بعده شورى، إلا أن معاوية، وبعد استشارة بعض المقربين منه، قرر أن يأخذ البيعة لابنه **يزيد بن معاوية** ولياً للعهد في حياته. كانت هذه الخطوة سابقة خطيرة في تاريخ الإسلام، حيث لم يعهد المسلمون أن يتم توريث الحكم بهذه الطريقة.
    - **الخلاف حول يزيد** :لم يكن يزيد يتمتع بنفس المكانة الدينية والأخلاقية التي تمتع بها الخلفاء الراشدون، أو حتى أبوه معاوية في بداية حكمه. كانت هناك تحفظات كبيرة على شخصيته وسلوكه من قبل العديد من كبار الصحابة والتابعين الذين رأوا فيه بعداً عن منهج الإسلام وقيمه.

---

[103] **ودهائه:**
أي ذكائه العميق وحكمته في التعامل والمراوغة، خاصة في المواقف السياسية أو الحربية.

- **المعارضة لبيعة يزيد :**قوبلت بيعة يزيد بالرفض والمعارضة من قبل عدد من كبار الصحابة الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة، وعلى رأسهم **الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر،** رضي الله عنهم. رأى هؤلاء أن هذا التحول مخالف لمنهج الإسلام في اختيار الحاكم، وأنه سيفتح باباً للملك العضوض والاستبداد.

- **مأساة كربلاء (61هـ / 680م) :**بعد وفاة معاوية وتولي يزيد الخلافة، رفض الحسين بن علي مبايعته، وخرج من مكة متجهاً إلى الكوفة في العراق استجابة لدعوات أهلها الذين وعدوه بالنصرة. ولكن أهل الكوفة خذلوه، وواجهه جيش يزيد بقيادة عبيد الله بن زياد في **كربلاء** .انتهت هذه المواجهة المأساوية باستشهاد الحسين بن علي ومعه عدد قليل من أهل بيته وأصحابه بعد حصار ومنع من الماء.

  - **الأثر البعيد لكربلاء :**كانت فاجعة كربلاء حدثاً مروعاً ترك جرحاً عميقاً في وجدان الأمة الإسلامية، خاصة لدى أنصار أهل البيت. رسخت هذه المأساة الشعور بالظلم لدى الشيعة، وأصبحت رمزاً للمقاومة ضد الحكم الأموي الذي اعتبروه ظالماً ومغتصباً للخلافة. شكلت كربلاء نقطة تحول في تاريخ التشيع، وأصبحت ذكرى سنوية تُحيي الشعور بالمظلومية وتغذي المعارضة ضد السلطة الأموية وكل من اعتبروه امتداداً لها. كان لهذا الحدث تأثير كبير على المدى الطويل في إضعاف شرعية الحكم الأموي في نظر قطاع كبير من المسلمين.

إن تحول الخلافة إلى وراثة، وما ترتب عليه من صراعات على السلطة داخل البيت الأموي، ومن معارضة خارجية (خاصة من العلويين والزبيريين)، أضعف من وحدة الدولة وأفقدها جزءاً كبيراً من شرعيتها في نظر الأمة، مقارنة بالشرعية الدينية التي تمتع بها الخلفاء الراشدون.

2. استمرار الصراعات الداخلية والثورات

كما أشرنا في المبحث السابق، لم تكن الدولة الأموية خالية من الصراعات الداخلية. استمرت ثورات الخوارج في الظهور، واستمرت معارضة العلويين، وظهرت ثورات أخرى لأسباب مختلفة (قبلية، اقتصادية، إقليمية). هذه الثورات المتعددة في مختلف أنحاء الدولة (العراق،

شمال أفريقيا، خراسان، الحجاز) كانت تستنزف موارد الدولة وطاقاتها البشرية، وتؤثر على استقرارها، وتُظهر ضعفاً في قدرة السلطة المركزية على فرض سيطرتها بشكل كامل ودائم.

3. قضية الموالي والتمييز الاجتماعي

رغم الجهود التي بذلها بعض الخلفاء (مثل عمر بن عبد العزيز) لمعالجة قضية الموالي والتمييز ضدهم، إلا أن هذه المشكلة لم تُحل بشكل جذري في العصر الأموي. استمر بعض الولاة في ممارسات أثارت استياء الموالي (مثل فرض الجزية على من أسلم منهم، أو تفضيل العرب في العطاء والمناصب). شكل الموالي غالبية سكان الدولة الإسلامية في الأقاليم المفتوحة، وكان استياؤهم يمثل قاعدة شعبية واسعة يمكن استغلالها من قبل الحركات المعارضة. وقد لعب الموالي دوراً حاسماً في دعم الدعوة العباسية التي قامت على شعار المساواة بين المسلمين، عربهم وعجمهم.

4. ضعف بعض الخلفاء وتدهور الإدارة في الفترات المتأخرة

لم يكن جميع الخلفاء الأمويين على نفس المستوى من القوة والكفاءة والعدل الذي تمتع به الخلفاء الأوائل مثل معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز. في الفترات المتأخرة من عمر الدولة الأموية، جاء بعض الخلفاء الذين كانوا ضعافاً، أو صغار السن، أو غير قادرين على إدارة شؤون الدولة المعقدة. أدى هذا الضعف في القيادة المركزية إلى تدهور في الإدارة، وانتشار للفساد في بعض الولايات، وضعف في الرقابة على الولاة، مما زاد من استياء الناس وأضعف من هيبة الدولة.

5. العصبية القبلية وتأثيرها السلبي

استمرت العصبية القبلية تلعب دوراً سلبياً في العصر الأموي. كانت النزاعات بين قبائل قيس واليمانية تظهر بين الحين والآخر، وتؤثر على استقرار بعض المناطق، وتُضعف من تماسك الجيش والإدارة. استغل بعض الطامعين في السلطة هذه العصبيات لإثارة الفتن، مما زاد من تعقيد المشهد السياسي.

6. ظهور الدعوة العباسية: القوة المنظمة التي أسقطت الدولة

في ظل هذه الظروف الداخلية المضطربة، ظهرت **الدعوة العباسية** في خراسان. استغل العباسيون، وهم من بني هاشم (عمومة النبي صلى الله عليه وسلم)، حالة الاستياء العام من الحكم الأموي، وخاصة بين الموالي وأنصار أهل البيت.

رفع العباسيون شعار "الرضا من آل محمد"، وهو شعار فضفاض استقطب إليه مختلف المعارضين للأمويين (من شيعة، وخوارج، وموالي، وقبائل عربية مستاءة).

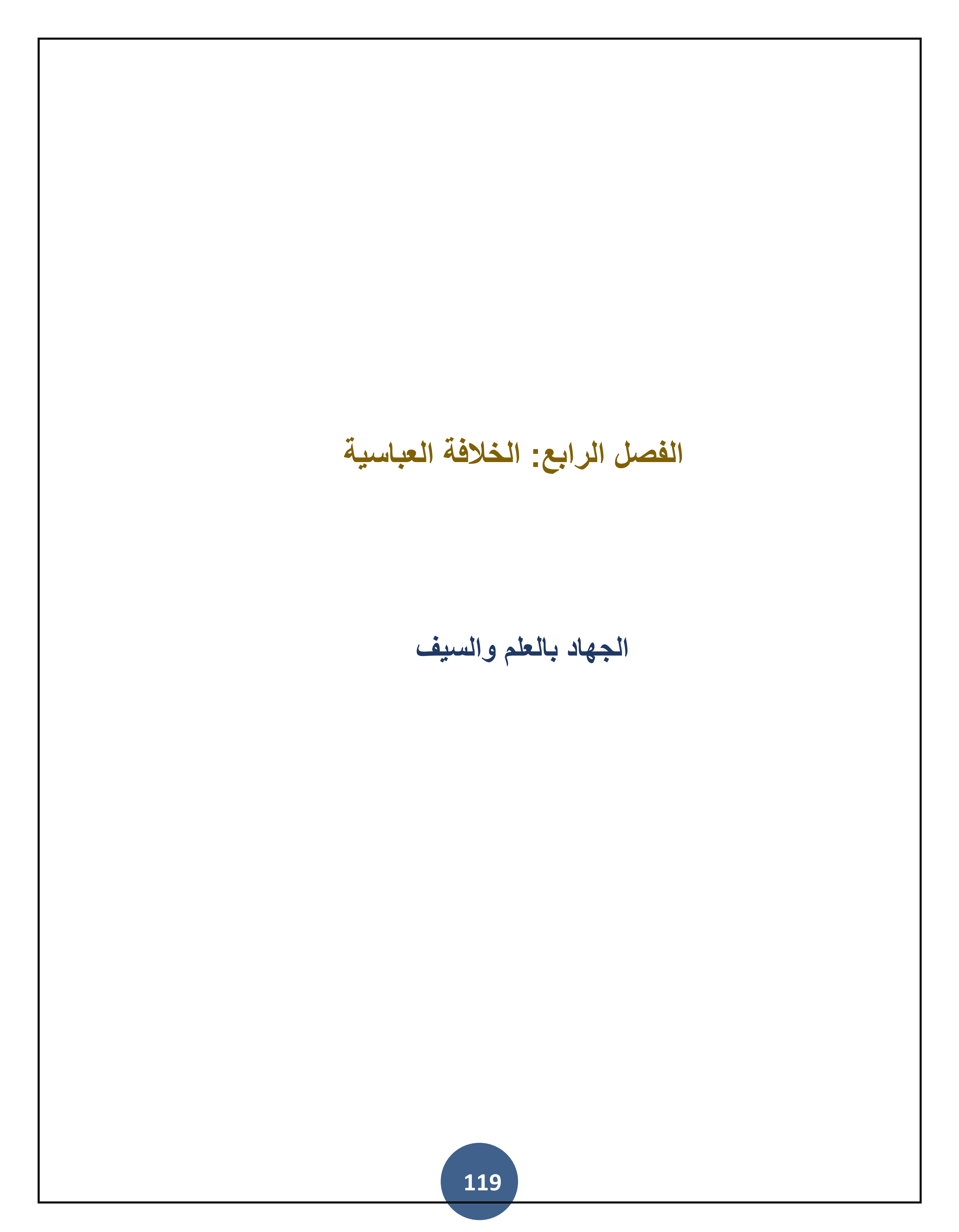
- **تنظيم الدعوة :**تميزت الدعوة العباسية بالتنظيم السري المحكم في خراسان، بقيادة دعاة أكفاء مثل أبو مسلم الخراساني. استطاعوا بناء قاعدة شعبية قوية، وتعبئة الجماهير ضد الحكم الأموي.
- **الاستفادة من نقاط ضعف الأمويين :**استغل العباسيون ضعف الخلفاء المتأخرين، والصراعات الداخلية الأموية، واستياء الموالي، والظلم الذي وقع على بعض الناس، لتقديم أنفسهم كبديل إسلامي عادل يعيد الحكم إلى أصله.
- **الثورة المسلحة وسقوط الدولة :**في عام 129هـ (747م)، أعلن العباسيون ثورتهم المسلحة في خراسان. تمكنت جيوشهم من تحقيق انتصارات متتالية على جيوش الأمويين المنهكة بالصراعات الداخلية. زحفت الجيوش العباسية غرباً، ودخلت العراق، وهزمت الجيش الأموي في معركة الزاب[104] الفاصلة عام 132هـ (750م). بعد هذه المعركة، انهارت الدولة الأموية، وتم القضاء على آخر خلفائها مروان بن محمد، لتنتقل الخلافة إلى العباسيين.

خاتمة الفصل الثالث

لقد كانت الدولة الأموية حقبة عظيمة في تاريخ الإسلام من حيث الجهاد والتوسع، حيث وصلت راية الإسلام إلى مناطق لم تصلها من قبل، وأسست لمراكز حضارية كبرى. لكنها كانت أيضاً فترة شهدت تحولات سياسية وإدارية واجتماعية عميقة، وظهور تحديات كبيرة. لقد أدت قضية تحول الخلافة إلى وراثة، والصراعات الداخلية المستمرة، واستياء الموالي، وضعف بعض الخلفاء، إلى إضعاف الدولة تدريجياً، مما مهد الطريق لسقوطها على يد الدعوة العباسية التي استغلت هذه العوامل بذكاء وتنظيم. ورغم سقوط الدولة الأموية في المشرق، إلا أن حكمهم استمر في الأندلس لقرون أخرى، شاهداً على عظمة الإنجازات التي تحققت في هذا العصر.

---

[104] **معركة الزاب:**
معركة حاسمة وقعت عام 132هـ (750م) بين العباسيين والأمويين قرب نهر الزاب في العراق، انتهت بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية.



الفصل الرابع: الخلافة العباسية

الجهاد بالعلم والسيف

بعد قرابة قرن من الزمان، أسدلت الدولة العباسية الستار على حكم الدولة الأموية، لتفتح صفحة جديدة في تاريخ الأمة الإسلامية. لم يكن انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس في العام 132هـ (750م) مجرد تغيير في الأسرة الحاكمة، بل كان تحولاً عميقاً في بنية الدولة، وعاصمتها، وتوجهاتها السياسية والإدارية والحضارية. فبعد أن كانت دمشق مركز الثقل السياسي في العصر الأموي، انتقلت العاصمة إلى المشرق، لتُبنى مدينة **بغداد** العظيمة وتصبح قلب الإمبراطورية الإسلامية الجديدة، ومركزاً للإشعاع الحضاري والعلمي للعالم.

لقد تميز العصر العباسي، الذي امتد لأكثر من خمسة قرون (132-656هـ / 750-1258م)، بسمات فريدة جعلته من أزهى عصور الحضارة الإسلامية في كثير من جوانبه. فبينما استمرت حركة الجهاد العسكري لحماية حدود الدولة وتوسيع نفوذها في بعض الجبهات، شهد هذا العصر ازدهاراً غير مسبوق في الحركة العلمية والمعرفية، حتى لُقب بـ"العصر الذهبي للحضارة الإسلامية."

في هذا العصر، لم يعد الجهاد مقتصراً على حمل السيف في ساحات القتال فحسب، بل اتخذ بعداً آخر لا يقل أهمية، وهو **الجهاد بالعلم والمعرفة** .لقد أدرك العباسيون، وخاصة في فترات قوتهم وازدهارهم، أنَّ بناء الحضارة وتمكين الأمة لا يتم بالقوة العسكرية وحدها، بل يتطلب أيضاً قوة معرفية وعلمية. لذلك، شجعوا حركة الترجمة من الحضارات الأخرى، وأسسوا المؤسسات العلمية الكبرى مثل "بيت الحكمة"، ورعوا العلماء من مختلف التخصصات والخلفيات.

في هذا الفصل، سنتناول بالدراسة هذه الحقبة الهامة، مركزين على كيفية قيام الدولة العباسية، والتحولات التي شهدتها في بنية الحكم والإدارة، ودور العاصمة الجديدة بغداد. كما سنسلط الضوء بشكل خاص على **النهضة العلمية والحضارية** التي بلغت أوجها في هذا العصر، وكيف تكاملت مع حركة الجهاد العسكري في بناء قوة الأمة. ولن نغفل أيضاً التحديات التي واجهت الدولة العباسية على مر القرون، والتي أدت في نهاية المطاف إلى ضعفها وتفتتها، وسقوط عاصمتها بغداد على يد المغول، لتنتهي بذلك صفحة من أروع صفحات التاريخ الإسلامي.

لم تكن نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية حدثاً مفاجئاً، بل كانت نتيجة لمسار طويل من التحديات الداخلية التي واجهت الدولة الأموية، واستغلال منظم لهذه التحديات من قبل حركة معارضة سرية تمكنت من بناء قاعدة شعبية قوية وتعبئة الجماهير للثورة. كانت الدعوة العباسية هي القوة المنظمة التي نجحت في إسقاط صرح الدولة الأموية وإقامة دولة جديدة على أنقاضها.

1. خلفية الدعوة العباسية وأسباب ظهورها: استغلال عوامل الضعف الأموي

نشأت الدعوة العباسية في ظل ظروف معينة، واستغلت بذكاء مجموعة من عوامل الضعف والاستياء التي كانت سائدة في أواخر العصر الأموي:

- **استغلال استياء الموالي :**كما ذكرنا في الفصل السابق، عانى الموالي (غير العرب المسلمين) من بعض أشكال التمييز الإداري والاجتماعي في العصر الأموي، خاصة في قضايا العطاء والمناصب والجزية. شعر الكثير منهم بأنهم لا يُعاملون على قدم المساواة مع العرب رغم إسلامهم ومشاركتهم في الفتوحات. كانت الدعوة العباسية ترفع شعار المساواة بين المسلمين بغض النظر عن أصولهم، ووعدت الموالي بالعدل والإنصاف، مما جعلهم يشكلون قاعدة دعم رئيسية للثورة العباسية، خاصة في خراسان التي كانت تضم أعداداً كبيرة من الموالي الفرس.
- **أنصار أهل البيت والمطالبة بالخلافة :**بعد مأساة كربلاء، ازداد الشعور بالمظلومية لدى أنصار أهل البيت (الشيعة)، الذين كانوا يرون أن الخلافة حق لذرية علي وفاطمة. استغل العباسيون، وهم من بني هاشم (عمومة النبي صلى الله عليه وسلم)، هذا الشعور. ورغم أنهم لم يكونوا من نسل علي المباشر، إلا أنهم كانوا أقرباء للنبي صلى الله عليه وسلم، ورفعوا شعاراً غامضاً هو "الرضا من آل محمد"، والذي يمكن تفسيره ليشمل كلاً من العلويين والعباسيين، مما جذب إليهم أنصار أهل البيت الذين كانوا يتطلعون إلى تغيير الحكم الأموي.
- **ضعف أواخر الأمويين :**شهدت السنوات الأخيرة من حكم الدولة الأموية ضعفاً في القيادة المركزية، وتنافساً على السلطة داخل البيت الأموي، وفساداً إدارياً في بعض الولايات، وتدهوراً في الأوضاع الاقتصادية في بعض المناطق. هذه العوامل مجتمعة

أضعفت من هيبة الدولة الأموية وفقدتها جزءاً من شعبيتها، مما جعلها أكثر عرضة للسقوط أمام أي حركة معارضة قوية ومنظمة.

- **العصبية القبلية :**استمرت النزاعات القبلية بين العرب في إضعاف الصف الأموي، واستغل العباسيون هذه النزاعات لصالحهم في بعض المناطق.
- **الظلم الواقع على بعض الفئات :**عانى بعض الناس من ظلم بعض الولاة الأمويين، مما زاد من نقمتهم على الحكم القائم.

2. تنظيم الدعوة وسريتها في خراسان

لم تكن الدعوة العباسية مجرد رد فعل عفوي على استياء الناس، بل كانت **حركة منظمة وسرية للغاية**، اختارت **خراسان** (منطقة واسعة في شرق بلاد فارس) كمركز رئيسي لنشاطها.

- **لماذا خراسان؟** اختار العباسيون خراسان لعدة أسباب:
  - **بعدها عن مركز الخلافة الأموية في الشام :**مما جعل من الصعب على السلطة الأموية كشف وتتبع نشاط الدعاة العباسيين.
  - **وجود عدد كبير من الموالي الفرس :**الذين كانوا يحملون استياءً من بعض سياسات الأمويين، وكانوا متعطشين للمساواة والعدل الذي وعدت به الدعوة العباسية.
  - **وجود قبائل عربية مستقرة :**كانت بعض القبائل العربية قد استقرت في خراسان منذ الفتوحات، وكان بعضها يحمل استياءً من الأمويين لأسباب مختلفة.
  - **طبيعة المنطقة الجغرافية :**كانت خراسان منطقة واسعة وتضاريسها متنوعة، مما يوفر بيئة مناسبة للعمل السري.
- **التنظيم الهرمي السري :**تميزت الدعوة العباسية بتنظيمها الهرمي الدقيق والسري للغاية. كان على رأس الدعوة "الإمام" (العباسي الذي يمثل رأس الدعوة، مثل محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ثم ابنه إبراهيم). تحت الإمام، كان هناك عدد من "الدعاة الكبار" الذين يعملون في الأقاليم الرئيسية.

- وتحت الدعاة الكبار، كان هناك شبكة من "الدعاة الصغار" و"النقباء" الذين يتواصلون مباشرة مع الجماهير ويكسبون الأنصار سراً.
- **السرية التامة :**كانت السرية مبدأ أساسياً في عمل الدعوة. كان الدعاة يتواصلون بأسماء مستعارة، ويستخدمون رموزاً وكلمات سر، ويحرصون على عدم كشف هويتهم الحقيقية أو هوية قادة الدعوة، لتجنب اكتشافهم من قبل جواسيس الأمويين.
- **التعبئة الفكرية والنفسية :**عمل الدعاة العباسيون على نشر الوعي بمظالم الحكم الأموي، والتأكيد على أحقية أهل البيت (بالمعنى الواسع الذي يشمل العباسيين) في الخلافة، ووعدوا الناس بالعدل والمساواة إذا قامت دولتهم. ركزوا على الجوانب الدينية والأخلاقية، واستغلوا الشعور بالظلم لدى الموالي وأنصار أهل البيت.

3. قيام الثورة العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني

كانت الدعوة العباسية في خراسان بحاجة إلى قائد ميداني يتمتع بالكفاءة التنظيمية والعسكرية والقدرة على تعبئة الجماهير. ظهر هذا القائد في شخص **أبي مسلم الخراساني** (تاريخ ولادته غير محدد بدقة، توفي 137هـ/755م). كان أبو مسلم مولى من أصل فارسي، يتمتع بذكاء حاد، وقدرة تنظيمية فائقة، وإخلاص شديد للدعوة العباسية.

- **دور أبي مسلم :**أرسل الإمام العباسي إبراهيم بن محمد[105] أبا مسلم إلى خراسان ليتولى قيادة الدعوة فيها. تمكن أبو مسلم من إعادة تنظيم صفوف الدعاة والأنصار، وتوحيد جهودهم، وإعدادهم للمرحلة الحاسمة: إعلان الثورة.
- **إعلان الثورة :**في عام **129هـ (747م)**، وفي ليلة الخامس والعشرين من رمضان، أعلن أبو مسلم الخراساني الثورة علناً في خراسان، ورفع الراية السوداء التي كانت شعار العباسيين. كان هذا الإعلان بمثابة الشرارة التي أشعلت الثورة في المنطقة.
- **الانتصارات الأولية :**تمكن أبو مسلم وجيشه من تحقيق انتصارات سريعة على قوات الأمويين في خراسان، مستفيداً من ضعف القيادة الأموية في المنطقة، ومن الدعم الشعبي الواسع الذي حظيت به الثورة من الموالي والعرب المستائين.

---

[105] **إبراهيم بن محمد (الإمام):**

من كبار رجال الدعوة العباسية، بعث الدعاة سراً في أنحاء المشرق لنشر الدعوة ضد الأمويين. اعتقله الأمويون وقتلوه عام 132هـ قبيل سقوط دولتهم، وخلفه في القيادة أخوه أبو العباس السفاح، أول خلفاء بني العباس.

4. سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

بعد أن أحكم أبو مسلم سيطرته على خراسان، أرسل جيوشه غرباً بقيادة قادة أكفاء مثل قحطبة بن شبيب الطائي[106]، للزحف نحو العراق والشام، قلب الدولة الأموية.

- **الزحف نحو الغرب :**واجهت الجيوش العباسية مقاومة من قوات الأمويين، لكنها تمكنت من تحقيق انتصارات متتالية في المعارك التي خاضتها في بلاد فارس والعراق.
- **معركة الزاب (132هـ / 750م) :**كانت هذه المعركة، التي وقعت على نهر الزاب الكبير في شمال العراق، هي المعركة الفاصلة التي حسمت الصراع بين الأمويين والعباسيين. التقى فيها جيش العباسيين بقيادة عبد الله بن علي (عم أبي العباس السفاح) بجيش الأمويين بقيادة آخر خلفائهم مروان بن محمد. انتهت المعركة بانتصار ساحق للعباسيين، وهزيمة جيش الأمويين وانهياره.
- **نهاية مروان بن محمد :**فر مروان بن محمد بعد الهزيمة إلى مصر، حيث تمت ملاحقته وقتله في بوصير بالفيوم في نفس العام. بمقتل مروان، انتهى حكم الدولة الأموية في المشرق.
- **إعلان الخلافة العباسية :**بعد الانتصار في الزاب، دخل العباسيون الكوفة، وتمت مبايعة **أبي العباس عبد الله بن محمد السفاح** كأول خليفة عباسي. وبذلك، قامت الدولة العباسية رسمياً في العام 132هـ (750م).
- **تتبع الأمويين :**قام العباسيون بحملة واسعة لتتبع والقضاء على بقايا الأمويين، خوفاً من عودة حكمهم. تم قتل عدد كبير من الأمويين، ولم ينجُ منهم إلا القليل، كان أبرزهم عبد الرحمن بن معاوية الذي فر إلى الأندلس وأسس فيها دولة أموية مستقلة.

لقد كان قيام الدولة العباسية حدثاً تاريخياً ضخماً، غيّر خريطة العالم الإسلامي، ونقل مركز الثقل السياسي والحضاري من الشام إلى العراق، وفتح الباب لعصر جديد تميز بازدهار علمي وحضاري غير مسبوق.

---

[106] **قحطبة بن شبيب الطائي:**
قائد عسكري بارز في بدايات الدولة العباسية، تولّى قيادة جيوش الدعوة العباسية ضد الأمويين، وحقق انتصارات حاسمة، أبرزها في **معركة الزاب**، وتُوفي عام 132هـ أثناء زحفه نحو الكوفة.

مع قيام الدولة العباسية في العام 132هـ (750م)، بدأت مرحلة تأسيسية جديدة للدولة الإسلامية. لم يكتفِ العباسيون بإسقاط الأمويين، بل شرعوا في بناء دولة جديدة بملامح مختلفة، متأثرين بالظروف التي أوصلتهم إلى الحكم، وبالخلفيات الثقافية للمناطق التي شكلت عماد ثورتهم (خاصة خراسان). كان بناء هذه الدولة الجديدة يتطلب إعادة تنظيم شاملة على المستويات السياسية، والإدارية، والعسكرية، والاقتصادية، واختيار مركز جديد يليق بإمبراطورية عالمية.

1. تأسيس بغداد كعاصمة جديدة للدولة: قلب الإمبراطورية الجديدة

كان من أبرز قرارات الخلفاء العباسيين الأوائل، والتي كان لها أثر عميق ودائم، هو **تغيير عاصمة الخلافة**. فبعد أن كانت المدينة المنورة ثم الكوفة ثم دمشق عواصم للدولة الإسلامية، قرر الخليفة العباسي الثاني **أبو جعفر المنصور** (حكم 136-158هـ / 754-775م) بناء عاصمة جديدة للدولة.

- **اختيار الموقع:** وقع اختيار المنصور على موقع استراتيجي على نهر دجلة، بالقرب من المدائن (عاصمة الفرس الساسانيين القديمة). كان هذا الموقع يتمتع بمزايا عديدة:
  - **موقع جغرافي مركزي:** يقع في قلب العراق، الذي أصبح مركز الثقل السكاني والاقتصادي للدولة بعد الفتوحات.
  - **أهمية تجارية:** يقع على مفترق طرق التجارة النهرية والبرية، مما يسهل التواصل مع مختلف أقاليم الدولة ويُعزز من النشاط الاقتصادي.
  - **أهمية عسكرية:** محصن طبيعياً بنهري دجلة والفرات، ويسهل الدفاع عنه ومراقبة الطرق المؤدية إليه.
  - **بعده عن مراكز القوى القديمة:** يبتعد عن الشام (معقل الأمويين) وعن الكوفة والبصرة (اللتين شهدتا اضطرابات في عهد علي)، مما يسمح ببناء سلطة مركزية جديدة بعيداً عن تأثيرات الماضي.

- **بناء المدينة المدورة:** أمر المنصور ببناء مدينة عظيمة في هذا الموقع، وقد اختار لها تصميماً فريداً على شكل دائرة، تُعرف بـ **"مدينة السلام"** أو **"المدينة المدورة"**. بدأ بناؤها في عام 145هـ (762م)، واستمر لسنوات. كانت المدينة محاطة بسورين دائريين وخندق، وفي مركزها قصر الخليفة والمسجد الجامع.
- **أثر بغداد كعاصمة:** أصبح تأسيس بغداد نقطة تحول كبرى في تاريخ الدولة الإسلامية.
  - **مركز سياسي وإداري:** أصبحت بغداد عاصمة الخلافة، ومقر الخليفة، ومركزاً لجميع الدواوين والمؤسسات الإدارية التي تدير شؤون الإمبراطورية.
  - **مركز حضاري وعلمي:** نمت بغداد بسرعة لتصبح أكبر مدينة في العالم حينها، وملتقى للعلماء، والأدباء، والتجار، والصناع من جميع أنحاء العالم الإسلامي وخارجه. أصبحت مركزاً للإشعاع الحضاري، وشاهداً على عظمة الدولة العباسية.
  - **رمز للدولة الجديدة:** مثل بناء بغداد إعلاناً عن بداية عصر جديد، ورمزاً لقوة الدولة العباسية واستقرارها بعد سنوات من الفتنة.

2. تطور المؤسسات الإدارية والمالية في العصر العباسي

ورث العباسيون الهيكل الإداري الأساسي من الدولة الأموية (الذي تطور عن الهيكل الذي أسسه عمر بن الخطاب)، لكنهم قاموا بتطويره وتوسيعه ليناسب إدارة إمبراطورية أكبر وأكثر تعقيداً، مستفيدين من الخبرات الإدارية للشعوب التي حكموها، وخاصة الفرس.

- **الدواوين:** تم تطوير الدواوين القائمة (مثل ديوان الخراج، ديوان الجند، ديوان الرسائل) وإنشاء دواوين جديدة لتلبية احتياجات الدولة المتزايدة. من أبرز التطورات:
  - **تعريب الدواوين:** استكمل العباسيون عملية تعريب الدواوين التي بدأها الأمويون في عهد عبد الملك بن مروان، مما جعل اللغة العربية لغة الإدارة الرسمية في جميع أنحاء الدولة.
  - **تنظيم الدواوين وتخصصها:** أصبحت الدواوين أكثر تنظيماً وتخصصاً، مع وجود موظفين متخصصين في كل ديوان.

- **ديوان المظالم:** أنشئ هذا الديوان للنظر في شكاوى الرعية ضد الولاة والعمال وكبار الموظفين، مما يعكس حرص الخلفاء على إقامة العدل ومحاسبة المسؤولين.

- **الوزارة:** ظهر منصب "الوزير" بشكل أكثر وضوحاً وتأثيراً في العصر العباسي مقارنة بالعهود السابقة. أصبح الوزير هو المسؤول الأول عن إدارة شؤون الدولة تحت إشراف الخليفة. برزت أسر وزارية قوية مثل أسرة البرامكة في بداية العصر العباسي.
- **بيت المال والنظام المالي:** شهد نظام بيت المال تطوراً كبيراً لاستيعاب الموارد المالية الضخمة التي كانت ترد من مختلف أقاليم الدولة (خراج الأراضي، جزية غير المسلمين، الزكاة، الغنائم، الضرائب التجارية). تم تنظيم جمع هذه الموارد وتوزيعها على مصارفها الشرعية (رواتب الجند والموظفين، نفقات الجيش، بناء المرافق العامة، مساعدة الفقراء).
- **القضاء:** تم تعزيز استقلال القضاء، وتعيين قضاة مؤهلين في جميع أنحاء الدولة، مع وجود قاضي القضاة في العاصمة للإشراف على النظام القضائي.

هذا التطور في المؤسسات الإدارية والمالية كان ضرورياً لضمان فعالية حكم الدولة العباسية وقدرتها على إدارة إمبراطورية بهذا الحجم، وقد أسهم في استقرار الدولة وازدهارها في فترات قوتها.

3. انتقال مركز الثقل السياسي والحضاري إلى الشرق

كان لقيام الدولة العباسية وعاصمتها بغداد أثر كبير في **انتقال مركز الثقل السياسي والحضاري للدولة الإسلامية إلى الشرق.**

- **من الشام إلى العراق:** بعد أن كانت دمشق في الشام مركزاً للخلافة الأموية، أصبحت بغداد في العراق هي العاصمة الجديدة. هذا النقل الجغرافي أدى إلى تراجع نفوذ الشام السياسي نسبياً، وصعود نجم العراق كمركز للقوة والنفوذ.
- **تأثير الثقافة الفارسية:** بما أن الثورة العباسية انطلقت من خراسان (التي كانت ذات غالبية سكانية فارسية)، وبما أن العديد من قادة الدعوة والجيش والوزراء الأوائل كانوا من أصول فارسية (مثل البرامكة)، فقد كان للثقافة الفارسية تأثير كبير على الدولة العباسية، وخاصة في الجوانب الإدارية، والاحتفالات، والآداب، والفنون. لم يكن هذا

التأثير سلبياً بالضرورة، بل كان إثراءً للحضارة الإسلامية التي أصبحت تستوعب عناصر من الحضارات الأخرى.

- **بغداد كملتقى للحضارات:** أصبحت بغداد ملتقى للحضارات والثقافات المختلفة من الشرق والغرب. توافد إليها العلماء، والفنانون، والتجار من بلاد فارس، والهند، وآسيا الوسطى، والشام، ومصر، وشمال أفريقيا، وحتى من أوروبا. هذا التفاعل الثقافي أسهم في ازدهار الحركة العلمية والمعرفية التي سنتناولها في المبحث التالي.

4. استمرار حركة الفتوحات في بعض الجبهات وتأمين الحدود

رغم أن العصر العباسي لم يشهد نفس وتيرة وسرعة الفتوحات الهائلة التي شهدها العصر الأموي، إلا أن حركة الجهاد لم تتوقف تماماً. استمرت الدولة العباسية في شن الحملات العسكرية لعدة أهداف:

- **تأمين الحدود:** كان الهدف الرئيسي للجهاد في العصر العباسي هو تأمين حدود الدولة المترامية الأطراف ضد الأعداء الخارجيين، وخاصة الإمبراطورية البيزنطية في الشمال الغربي، وممالك ما وراء النهر في الشرق، وممالك الهند في الجنوب الشرقي.
- **جبهة الروم (الثغور):** ظلت جبهة الروم في آسيا الصغرى من أهم جبهات الجهاد. استمرت الحملات السنوية ("الصوائف والشواتي") على الأراضي البيزنطية، وكان الهدف هو إضعاف البيزنطيين ومنعهم من استعادة الأراضي التي فقدوها. قام العباسيون بتعزيز الثغور (المناطق الحدودية المحصنة) في الشام وشمال الجزيرة، مثل طرسوس وأدنة، وجعلها مراكز عسكرية للدفاع والانطلاق.
- **الفتوحات في البحر المتوسط:** استمرت حركة الجهاد البحري، وتمكن المسلمون في العصر العباسي من فتح بعض الجزر الهامة في البحر المتوسط، مثل **جزيرة كريت** (في عهد المأمون) و**جزيرة صقلية** (بدأ فتحها في عهد الأغالبة الذين كانوا ولاة للعباسيين، ثم استكملت).
- **الفتوحات في الشرق:** استمرت الحملات في بعض المناطق في الشرق لتثبيت السيطرة أو إخضاع بعض المناطق التي لم تخضع بالكامل، مثل بعض المناطق في بلاد ما وراء النهر أو الهند.

- **قمع الثورات الداخلية:** اضطر العباسيون أيضاً إلى توجيه جزء من طاقتهم العسكرية نحو قمع الثورات الداخلية التي كانت تظهر بين الحين والآخر في مختلف أقاليم الدولة (مثل ثورات الخوارج، ثورات العلويين، ثورات الزنج، ثورة بابك الخرمي[107]).

لم يكن الجهاد في العصر العباسي بنفس زخم الجهاد في العصر الأموي من حيث التوسع الجغرافي الكبير، لكنه كان ضرورياً للحفاظ على كيان الدولة، وتأمين حدودها، وإظهار قوتها، وقمع التمردات الداخلية.

الخلاصة، شهدت الفترة المبكرة من العصر العباسي بناء دولة جديدة قوية ومنظمة، كان مركزها في بغداد، وتأثرت بشكل كبير بالخلفيات الثقافية الشرقية. تم تطوير المؤسسات الإدارية والمالية بشكل كبير، واستمرت حركة الجهاد العسكري لتأمين الحدود وقمع التمردات، مما مهد الطريق لازدهار حضاري وعلمي غير مسبوق في المباحث التالية.

---

[107] **ثورة بابك الخرمي:**
حركة تمرد دينية وسياسية قادها **بابك الخرمي** في أذربيجان ضد الدولة العباسية بين عامي 201–223هـ (816–838م)، دعا فيها إلى معتقدات مجوسية متطرفة، واستمرت قرابة 20 سنة حتى قُتل على يد القائد العباسي **الأفشين**.

المبحث الثالث: عصر الازدهار الذهبي: النهضة العلمية والحضارية

إذا كانت الدولة الأموية قد تميزت بـ"الجهاد بلا حدود" في التوسع الجغرافي، فإن العصر العباسي، وخاصة في فتراته الأولى والوسطى، قد تميز بـ"الجهاد بالعلم"، وشهد **نهضة علمية وحضارية غير مسبوقة** جعلت بغداد مركزاً للعالم، ومقصداً لطلاب العلم والعلماء من كل حدب وصوب. لقد أدرك الخلفاء العباسيون الأوائل أنَّ قوة الدولة لا تقتصر على السيف والجيش، بل تمتد لتشمل قوة العقل والمعرفة، فكانت رعايتهم للعلم والعلماء جزءاً لا يتجزأ من مشروع بناء الدولة وتمكين الأمة.

1. دور الخلفاء العباسيين في تشجيع العلم والعلماء

لعب الخلفاء العباسيون دوراً محورياً في إشعال فتيل النهضة العلمية ورعايتها. لم يكونوا مجرد حكام، بل كانوا في كثير من الأحيان مهتمين بالعلم بأنفسهم، ومقدرين لجهود العلماء، ومُنفقين بسخاء على المؤسسات العلمية.

- **الخلفاء الرعاة:** برز عدد من الخلفاء كداعمين رئيسيين للحركة العلمية، وعلى رأسهم:
  - **أبو جعفر المنصور (حكم 136-158هـ):** مؤسس بغداد، كان حريصاً على استقطاب العلماء والفقهاء والمترجمين إلى عاصمته الجديدة. شجع على ترجمة الكتب من اللغات الأخرى، واهتم بعلم الفلك والتنجيم (الذي كان شائعاً حينها)، ووضع الأسس الأولى للمؤسسات العلمية.
  - **هارون الرشيد (حكم 170-193هـ):** يُعد عصره من أزهى عصور الدولة العباسية، وشهد ازدهاراً كبيراً في جميع المجالات، بما في ذلك العلم. كان هارون الرشيد نفسه محباً للعلم والأدب، وقرب إليه العلماء والفقهاء والشعراء. يُنسب إليه الفضل في تأسيس "بيت الحكمة" كنواة أولى، وتشجيع حركة الترجمة بشكل واسع. كانت بغداد في عهده مركزاً عالمياً لا يضاهى في الثراء العلمي والثقافي.
  - **المأمون (حكم 198-218هـ):** يُعتبر عصر المأمون **ذروة النهضة العلمية في العصر العباسي**. كان المأمون نفسه عالماً وفيلسوفاً، محباً للنقاشات العلمية والفكرية. أولى اهتماماً استثنائياً ببيت الحكمة، ووسع نطاق عمله بشكل كبير جداً، وجعله مؤسسة علمية متكاملة للترجمة، والبحث، والتدريس، والمناظرة.

أنفق أموالاً طائلة على استقطاب المترجمين والعلماء من جميع أنحاء العالم، وشجع على ترجمة أعمال الفلسفة والعلوم من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية.

- **الإنفاق السخي:** لم تكن رعاية العلم مجرد اهتمام شكلي، بل كانت مدعومة بإنفاق سخي من بيت المال. كان الخلفاء والوزراء والأمراء ينفقون بسخاء على العلماء، ويقدمون لهم الرواتب والمكافآت السخية مقابل أعمال الترجمة والتأليف والتدريس. كانت قيمة الكتاب المترجم أو المؤلف تقدر بالذهب، مما يدل على القيمة العالية التي أعطيت للعلم.
- **بناء المؤسسات:** تم بناء المؤسسات العلمية الكبرى التي وفرت البيئة المناسبة للبحث والتعلم (كما في بيت الحكمة). كما استمر دور المساجد كمركز للتعليم، وظهرت المدارس النظامية لاحقاً لتنظيم التعليم بشكل أكبر.

2. تأسيس بيت الحكمة وحركة الترجمة الكبرى

كان **بيت الحكمة** في بغداد هو القلب النابض للحركة العلمية في العصر العباسي، وكانت **حركة الترجمة الكبرى** هي الشريان الذي غذى هذا القلب بالمعرفة من الحضارات الأخرى.

- **بيت الحكمة:** رغم أن بداياته قد تكون في عهد هارون الرشيد، إلا أن المأمون هو الذي طوّره وجعله مؤسسة علمية عالمية. لم يكن بيت الحكمة مجرد مكتبة، بل كان:
  - **مركزاً للترجمة:** يضم عدداً كبيراً من المترجمين المهرة من مختلف الخلفيات الدينية والثقافية (مسلمين، نصارى، يهود، صابئة)، الذين كانوا يتقنون لغات متعددة (اليونانية، السريانية، الفارسية، الهندية).
  - **مركزاً للبحث والتأليف:** لم يقتصر عمل العلماء على الترجمة، بل كانوا يقومون بدراسة هذه الأعمال، والتعليق عليها، وتصحيحها، وتطويرها، وتأليف أعمال جديدة بناءً عليها.
  - **مرصداً فلكياً:** كان يضم مرصداً فلكياً لمراقبة الكواكب والنجوم.
  - **مكتبة ضخمة:** احتوت على عدد هائل من الكتب المترجمة والمؤلفة في مختلف العلوم والفنون.

- **حركة الترجمة الكبرى:** كانت حركة الترجمة في العصر العباسي من أضخم حركات الترجمة في تاريخ البشرية. تم ترجمة آلاف الكتب من اللغات اليونانية (خاصة أعمال أرسطو، أفلاطون، إقليدس، بطليموس، جالينوس)، والفارسية (في التاريخ، الأدب، الإدارة)، والهندية (في الرياضيات، الفلك، الطب).
  - **منهجية الترجمة:** لم تكن الترجمة مجرد نقل حرفي، بل كانت تتم بمنهجية دقيقة، حيث كان المترجمون يعيدون النظر في الترجمات السابقة، ويصححونها، ويتناقشون في المصطلحات، لضمان دقة النقل وجودته.
  - **أثر الترجمة:** فتحت حركة الترجمة آفاقاً جديدة للمسلمين للاطلاع على إنجازات الحضارات السابقة في العلوم والفلسفة، وكانت بمثابة الوقود الذي أشعل فتيل النهضة العلمية الإسلامية، حيث لم يكتفِ المسلمون بالترجمة، بل قاموا باستيعاب هذه المعارف، ونقدها، وتطويرها، والإضافة إليها.

3. النهضة في مختلف العلوم: إسهامات لا تُحصى

بفضل رعاية الخلفاء، وجهود العلماء، وحركة الترجمة، شهد العصر العباسي نهضة غير مسبوقة في جميع فروع العلم والمعرفة. لم يقتصر العلماء المسلمون على نقل علوم الأوائل، بل أضافوا إليها إضافات جوهرية، وأسسوا لعلوم جديدة، ووضعوا المنهج التجريبي في بعض المجالات.

- **الطب:** برز أطباء مسلمون عظماء مثل **الرازي** (مؤلف كتاب "الحاوي في الطب") و**ابن سينا** (مؤلف كتاب "القانون في الطب" الذي ظل مرجعاً في أوروبا لقرون). اكتشف المسلمون أمراضاً جديدة، وطوروا الجراحة، وأنشأوا المستشفيات (البيمارستانات)[108] كنماذج للمستشفيات الحديثة.
- **الفلك:** اهتم المسلمون بعلم الفلك لأسباب دينية (تحديد القبلة، مواقيت الصلاة، رؤية الهلال) وأسباب عملية (الملاحة، تحديد المواقع). بنوا المراصد الفلكية، وألفوا الزيجات (جداول فلكية)، وصححوا بعض نظريات بطليموس، وقاسوا محيط الأرض بدقة نسبية. برز علماء مثل **البَتَّاني** و**أبو معشر البلخي**.

---

[108] **البيمارستانات:**
مستشفيات أنشأها المسلمون في العصور الوسطى لعلاج المرضى، وكانت تُوفّر الرعاية الطبية مجانًا، وتُعد من أوائل النماذج للمستشفيات الحديثة في العالم.

- **الرياضيات:** أضاف المسلمون إضافات جوهرية إلى الرياضيات، أهمها **تطوير علم الجبر** (الخوارزمي هو مؤسس علم الجبر الحديث بكتابه "الجبر والمقابلة")، و**إدخال الأرقام الهندية** (الأرقام العربية التي نستخدمها اليوم) إلى العالم الإسلامي ومنه إلى أوروبا، و**تطوير علم حساب المثلثات**.
- **الكيمياء:** برز علماء مثل **جابر بن حيان** الذي يُعد مؤسس علم الكيمياء التجريبي. أجرى المسلمون تجارب كيميائية دقيقة، واكتشفوا مواد كيميائية جديدة، وطوروا أدوات وتقنيات مخبرية.
- **الفلسفة:** تم ترجمة أعمال الفلاسفة اليونانيين (أرسطو، أفلاطون)، وقام الفلاسفة المسلمون بدراستها، والتعليق عليها، والمحاولة للتوفيق بينها وبين العقيدة الإسلامية. برز فلاسفة مثل **الكندي، والفارابي، وابن سينا**.
- **الفقه والحديث واللغة:** شهدت العلوم الشرعية واللغوية ازدهاراً كبيراً أيضاً. تم تدوين السنة النبوية وجمعها في كتب الصحاح والسنن، وظهرت المذاهب الفقهية الكبرى، وتم تأليف المعاجم اللغوية ووضع قواعد النحو والصرف.

4. العلاقة بين النهضة العلمية وقوة الدولة والجهاد المعرفي

لم تكن النهضة العلمية في العصر العباسي بمعزل عن قوة الدولة والجهاد، بل كانت هناك علاقة تكاملية بينها.

- **العلم كعامل قوة للدولة:**
    - **تطوير القدرات العسكرية:** ساهمت علوم مثل الرياضيات والفلك في تطوير القدرات العسكرية (صناعة الآلات الحربية، الملاحة البحرية، التخطيط للمعسكرات).
    - **تحسين الإدارة والاقتصاد:** ساهمت علوم الرياضيات والحساب في تطوير الأنظمة المالية والإدارية للدولة.
    - **الصحة العامة:** ساهم علم الطب في تحسين صحة المجتمع وجيشه.
    - **الهيبة والمكانة:** أصبحت الدولة العباسية، بفضل ازدهارها العلمي، تتمتع بمكانة وهيبة عظيمة بين الأمم، وكانت بغداد قبلة للعلماء من جميع أنحاء العالم، مما يعكس قوة الدولة وتفوقها الحضاري.

- **الجهاد المعرفي:** يمكن النظر إلى هذه النهضة العلمية كشكل من أشكال **الجهاد المعرفي**. فالمسلمون لم يكتفوا بالجهاد العسكري لفتح البلاد، بل قاموا بجهاد معرفي لاستيعاب علوم الحضارات الأخرى، ونقدها، وتطويرها، والإضافة إليها، وتقديم إسهامات أصيلة للبشرية. كان هذا الجهاد المعرفي يهدف إلى إثبات أن الإسلام دين يدعو إلى العلم والتفكر، وأنه قادر على بناء حضارة عالمية تستفيد من كل ما هو نافع من إنجازات البشرية.
- **تكامل العلم والجهاد العسكري:** لم يكن هناك تعارض بين العلم والجهاد العسكري في الفكر الإسلامي. فالعلم هو الذي يبصر المسلم بحقيقة الجهاد وأهدافه وأخلاقه، وهو الذي يوفر الأدوات والتقنيات اللازمة للجهاد (في الطب، الهندسة، الفلك، إلخ). والجهاد، بمعناه الشامل، يشمل جهاد النفس لطلب العلم ونشره.

فقد، كان العصر العباسي بحق "عصر الازدهار الذهبي" للحضارة الإسلامية. لقد شهد نهضة علمية غير مسبوقة بفضل رعاية الخلفاء، وجهود العلماء، وحركة الترجمة الكبرى. هذه النهضة لم تكن مجرد ترف فكري، بل كانت عاملاً أساسياً في قوة الدولة وتمكين الأمة، وشكلت نوعاً من الجهاد المعرفي الذي أضاف إسهامات عظيمة للبشرية، وأثبت أن الإسلام دين يدعو إلى العلم والعمل، وأن قوته تكمن في تكامل الجهاد بالسيف والجهاد بالعلم.

على الرغم من عصر الازدهار العلمي والحضاري الذي بلغ ذروته في الفترة الأولى من حكمهم، إلا أن الدولة العباسية لم تستطع الحفاظ على وحدتها وقوتها المركزية على المدى الطويل. فبعد فترة من القوة والتماسك، بدأت الدولة تعاني من عوامل ضعف داخلية وخارجية أدت إلى **تراجع القوة المركزية للخلافة في بغداد، وظهور دويلات وإمارات مستقلة** في مختلف أنحاء الإمبراطورية المترامية الأطراف. هذا الانقسام والتراجع كان لهما آثار عميقة على المشهد السياسي، والاقتصادي، والعسكري، بما في ذلك تأثير مباشر على حركة الجهاد الموحد.

1. ظهور الدويلات والإمارات المستقلة عن الخلافة المركزية

كانت ظاهرة ظهور الدويلات والإمارات المستقلة من أبرز سمات العصر العباسي، وخاصة بعد القرن الثالث الهجري. هذه الدويلات كانت تستقل عن السلطة المركزية في بغداد اسمياً أو فعلياً، وإن كان بعضها لا يزال يعترف بالخلافة العباسية اسمياً ويدعو للخليفة على المنابر.

- **الأندلس (الأموية):** كانت الأندلس أول إقليم ينفصل عن الخلافة العباسية بشكل كامل. فبعد سقوط الدولة الأموية في المشرق، تمكن الأمير الأموي **عبد الرحمن الداخل** (صقر قريش) من الفرار إلى الأندلس وتأسيس إمارة أموية مستقلة هناك عام 138هـ (756م). تحولت هذه الإمارة لاحقاً إلى خلافة أموية في الأندلس (316-422هـ / 929-1031م) في عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله. شكلت الأندلس كياناً سياسياً مستقلاً تماماً عن بغداد، وكانت تنافس الخلافة العباسية في المشرق، سياسياً وحضارياً.
- **الأغالبة في إفريقية (شمال أفريقيا):** في منطقة إفريقية (تونس حالياً)، أسس **إبراهيم بن الأغلب** دولة الأغالبة عام 184هـ (800م) كإمارة شبه مستقلة عن الخلافة العباسية، وإن كانت تدين لها بالولاء الاسمي. تمتع الأغالبة باستقلال ذاتي واسع، وكان لهم دور كبير في الجهاد البحري في البحر المتوسط وفتح جزيرة صقلية.
- **الطولونيون والإخشيديون في مصر والشام:** في مصر والشام، ظهرت دويلات مستقلة أيضاً. أسس **أحمد بن طولون** الدولة الطولونية عام 254هـ (868م)، والتي استقلت فعلياً عن بغداد وحكمت مصر والشام.

- ثم جاء من بعدهم **الإخشيديون** الذين حكموا نفس المنطقة واستقلوا عن الخلافة. هذه الدويلات كانت تتمتع بقوة عسكرية واقتصادية كبيرة، وكانت تدير شؤونها بمعزل عن بغداد.
- **السامانيون في بلاد ما وراء النهر وخراسان:** في المشرق، ظهرت الدولة السامانية (204-389هـ / 819-999م) في بلاد ما وراء النهر وخراسان. كانت هذه الدولة من أصول فارسية، وتمتعت باستقلال واسع، وكان لها دور كبير في نشر الإسلام في آسيا الوسطى ومواجهة القبائل التركية.
- **البويهيون في بلاد فارس والعراق:** في القرن الرابع الهجري، ظهرت الدولة البويهية (320-447هـ / 932-1055م)، وهي دولة شيعية من أصول فارسية. تمكن البويهيون من السيطرة على بلاد فارس والعراق، بل ودخلوا بغداد عام 334هـ (945م) وسيطروا على الخليفة العباسي نفسه، ليصبح الخليفة مجرد حاكم اسمي تحت سيطرة الأمراء البويهيين. شكلت سيطرة البويهيين على بغداد نقطة تحول كبرى في تاريخ الخلافة العباسية، حيث فقد الخليفة سلطته الفعلية وأصبح مجرد رمز.
- **السلاجقة في بلاد فارس والعراق والشام:** بعد البويهيين، جاء السلاجقة (429-552هـ / 1038-1157م)، وهم قبائل تركية مسلمة. تمكن السلاجقة من إسقاط الدولة البويهية والسيطرة على بلاد فارس والعراق والشام. دخل طغرل بك السلجوقي بغداد عام 447هـ (1055م)، وأعاد للخلافة بعضاً من هيبتها الاسمية، لكن السلطة الفعلية كانت بيد السلاجقة (السلاطين السلاجقة). استمر الخلفاء العباسيون كحكام اسميين تحت سيطرة السلاجقة.

هذه مجرد أمثلة لأبرز الدويلات التي ظهرت. كانت هناك دويلات أخرى أصغر حجماً في مناطق مختلفة. أدت هذه الظاهرة إلى تفتت الإمبراطورية الإسلامية الموحدة إلى كيانات سياسية متعددة، لكل منها جيشه وإدارته وسياسته الخاصة.

2. أثر الصراعات الداخلية وضعف بعض الخلفاء

ساهمت الصراعات الداخلية المستمرة وضعف بعض الخلفاء العباسيين بشكل كبير في تراجع القوة المركزية وظهور الدويلات المستقلة.

- **التنافس على السلطة داخل البيت العباسي:** لم تكن عملية انتقال السلطة داخل الأسرة العباسية دائماً سلسة. حدثت صراعات وتنافس بين أبناء الخلفاء وإخوتهم على ولاية

العهد والخلافة، مما أدى في بعض الأحيان إلى حروب أهلية داخلية (مثل الحرب بين الأمين والمأمون). هذه الصراعات أضعفت من هيبة الخلافة واستنزفت مواردها.

- **ضعف بعض الخلفاء:** مع مرور الوقت، جاء بعض الخلفاء الذين كانوا ضعاف الشخصية، أو غير مهتمين بشؤون الحكم، أو يفتقرون إلى الكفاءة الإدارية والعسكرية. هذا الضعف في رأس الهرم أتاح الفرصة للقادة العسكريين والوزراء الطموحين للسيطرة على مقاليد الأمور، وللولاة في الأقاليم بالاستقلال.
- **تدخل القوى العسكرية في السياسة:** مع ضعف الخلفاء، بدأ القادة العسكريون، وخاصة من غير العرب (كما سنرى لاحقاً)، يتدخلون بشكل متزايد في شؤون الحكم، ويفرضون إرادتهم على الخلفاء، بل ويقومون بخلع الخلفاء وتعيين غيرهم. هذا التدخل العسكري في السياسة أضعف من سلطة الخليفة وجعلها رهينة بيد القوى العسكرية.

3. ظهور قوى عسكرية غير عربية وسيطرتها على مقاليد الحكم

من أبرز التحولات التي شهدها العصر العباسي هو **تزايد نفوذ وسيطرة القوى العسكرية غير العربية** على مقاليد الحكم في بغداد وفي بعض الولايات.

- **عنصر الأتراك:** بدأ الخلفاء العباسيون في الاعتماد على الجنود المماليك من أصول تركية في جيوشهم وحرسهم الخاص، خاصة في عهد الخليفة المعتصم. تميز الجنود الأتراك بالقوة والشجاعة والإخلاص للخليفة الذي اشتراهم ودربهم. ولكن مع مرور الوقت، ازداد نفوذ هؤلاء القادة الأتراك، وبدأوا يتدخلون في شؤون الحكم، ويعينون ويعزلون الوزراء، بل ويفرضون إرادتهم على الخلفاء. أصبح الخليفة في بعض الفترات مجرد أسير في قصره بيد قادة الجيش الأتراك.
- **البويهيون:** كما ذكرنا، سيطر البويهيون الفرس على بغداد في القرن الرابع الهجري. ورغم أنهم أبقوا على الخلافة العباسية اسمياً، إلا أن السلطة الفعلية كانت بيد الأمراء البويهيين الذين كانوا يحكمون باسم الخليفة. كان هذا مثالاً واضحاً على سيطرة قوة غير عربية على مركز الخلافة.
- **السلاجقة:** بعد البويهيين، جاء السلاجقة الأتراك وسيطروا على بغداد ومعظم أقاليم الدولة. ورغم أن السلاجقة كانوا سنة وأعادوا للخلافة بعضاً من هيبتها الاسمية، إلا أن السلطة الفعلية كانت بيد السلاطين السلاجقة. استمر هذا الوضع حتى نهاية الدولة العباسية تقريباً.

هذه الظاهرة، أي سيطرة القوى العسكرية غير العربية على مقاليد الحكم، كانت نتيجة لعدة عوامل، منها ضعف الخلفاء، والاعتماد المتزايد على هذه القوى في الجيش، وعدم وجود جيش عربي قوي ومنظم يوازي قوتهم. أدت هذه السيطرة إلى إضعاف مكانة الخليفة، وتفتيت السلطة، وزيادة الاضطراب السياسي.

4. تأثير هذا الانقسام على حركة الجهاد الموحد

كان للانقسام السياسي وظهور الدويلات المستقلة وتراجع القوة المركزية للخلافة تأثير سلبي ومباشر على **حركة الجهاد الموحد** التي كانت سمة العصور السابقة.

- **ضعف الجبهات الحدودية:** مع انقسام الدولة، لم تعد هناك قيادة مركزية قوية قادرة على توجيه وتنسيق الجهود الجهادية على جميع الجبهات. أصبحت كل دويلة أو إمارة مسؤولة عن تأمين حدودها والجهاد في منطقتها، مما أدى إلى ضعف في بعض الجبهات الحدودية، وعدم القدرة على شن حملات جهادية كبرى ومنسقة كما كان في عهدي الأمويين والعباسيين الأوائل.
- **تحول الجهاد إلى صراع بين الدويلات[109]:** في بعض الأحيان، تحول الصراع بين الدويلات الإسلامية المستقلة إلى حروب بينها، مما استنزف طاقاتها التي كان يمكن توجيهها نحو الجهاد الخارجي.
- **فقدان الزخم التوسعي:** توقفت حركة الفتوحات الكبرى التي كانت تهدف إلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية ونشر الإسلام في مناطق جديدة. أصبح الجهاد في الغالب جهاداً دفاعياً لتأمين الحدود القائمة.
- **تأثير على الروح الجهادية:** أثر الانقسام والصراعات الداخلية على الروح الجهادية الموحدة للأمة. أصبح الولاء في بعض الأحيان للإمارة أو للأسرة الحاكمة المحلية، بدلاً من الولاء للخلافة المركزية وللأمة الإسلامية الموحدة.

---

[109] **الدويلات:**
مصطلح يُطلق على الكيانات السياسية الصغيرة التي نشأت بعد ضعف الدولة الإسلامية المركزية، وكانت تحكم مناطق محددة بشكل مستقل نسبيًا.

رغم هذا التراجع في الجهاد الموحد، إلا أن بعض الدويلات المستقلة قامت بجهود جهادية مهمة في مناطقها، مثل جهاد الأغالبة[110] في البحر المتوسط وفتح صقلية، وجهاد الأمويين في الأندلس ضد الممالك المسيحية، وجهاد السامانيين[111] في آسيا الوسطى ضد القبائل التركية غير المسلمة. لكن هذه الجهود كانت جهوداً محلية أو إقليمية، وليست جزءاً من استراتيجية جهادية موحدة للدولة الإسلامية ككل.

شكلت تحديات الانقسام وتراجع القوة المركزية نقطة تحول حاسمة في تاريخ الدولة العباسية. أدت عوامل مثل ظهور الدويلات المستقلة، وضعف بعض الخلفاء، وتزايد نفوذ القوى العسكرية غير العربية، إلى إضعاف الدولة من الداخل، والتأثير سلباً على قدرتها على قيادة الأمة بشكل موحد، وخاصة في مجال الجهاد. هذه التحديات المتراكمة كانت تمهد الطريق لنهاية الدولة العباسية التي سنتناولها في المبحث الأخير.

---

[110] **جهاد الأغالبة:**
يشير إلى الحملات العسكرية التي قادها **حكام الدولة الأغلبية** (184–296هـ / 800–909م) في شمال أفريقيا لنشر الإسلام، وخاصة في **صقلية** وجنوب إيطاليا، حيث أسهموا في فتح أجزاء واسعة من أوروبا الجنوبية.

[111] **السامانيون:**
أسرة فارسية سنية حكمت ما بين عامي **261–389 هـ (875–999م)**، قامت دولتهم في **بلاد ما وراء النهر** (آسيا الوسطى)، وكانت من أبرز حماة الثقافة الإسلامية واللغة العربية والفارسية في تلك المنطقة.

المبحث الخامس: نهاية الدولة العباسية: سقوط بغداد على يد المغول.

لم تكن الدولة العباسية محصنة ضد عوامل الضعف والتدهور التي تصيب الدول والإمبراطوريات عبر التاريخ. فبعد قرون من القوة والازدهار، بدأت الدولة تعاني من تراجع مستمر في قوتها المركزية، وتفتت سياسي متزايد، وتحديات داخلية وخارجية متراكمة. بلغت هذه التحديات ذروتها في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، مع ظهور قوة جديدة ومدمرة على الساحة العالمية، لم يتمكن العالم الإسلامي الممزق من الصمود أمام زحفها: **المغول**. كان سقوط بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، على يد المغول عام 656هـ (1258م) حدثاً كارثياً، لم يضع حداً لدولة دامت أكثر من خمسة قرون فحسب، بل شكل صدمة هائلة للعالم الإسلامي، وغير وجه التاريخ بشكل جذري.

1. الظروف التي أحاطت بالدولة العباسية في أواخر أيامها

في أواخر أيامها، كانت الدولة العباسية في بغداد تعيش حالة من الضعف الشديد، والانقسام العميق، والتهديدات المتعددة، مما جعلها هدفاً سهلاً للقوى الطامعة.

- **الضعف السياسي والعسكري للخلافة المركزية:** كما أوضحنا في المبحث السابق، كانت الخلافة في بغداد قد فقدت سلطتها الفعلية منذ فترة طويلة. كان الخلفاء مجرد حكام اسميين، والسلطة الحقيقية كانت في يد قادة عسكريين من غير العرب (مثل البويهيين ثم السلاجقة ثم قادة الجيش الأتراك والمماليك). كان هؤلاء القادة يتنافسون فيما بينهم على النفوذ، ويعينون ويعزلون الخلفاء حسب مصالحهم، مما أضعف من هيبة الخلافة وجعلها عاجزة عن قيادة الدولة بشكل موحد.
- **الانقسام السياسي وظهور الدويلات والإمارات المستقلة:** كانت الإمبراطورية الإسلامية قد تفتت إلى دويلات وإمارات مستقلة ومتناحرة في كثير من الأحيان. كانت كل دويلة تركز على مصالحها الإقليمية، وتتنافس مع الدويلات المجاورة، بدلاً من التعاون والتكاتف لمواجهة التحديات المشتركة. هذا الانقسام أضعف من قوة العالم الإسلامي ككل، وجعله غير قادر على حشد قواه لمواجهة خطر خارجي كبير.
- **التدهور الاقتصادي في بعض المناطق:** عانت بعض أقاليم الدولة من تدهور اقتصادي بسبب الحروب الداخلية، وسوء الإدارة، وتغير طرق التجارة، مما أثر على موارد الدولة وقدرتها على تمويل الجيش والدفاع عن نفسها.

- **التحديات المذهبية والاجتماعية:** استمرت التحديات المذهبية (بين السنة والشيعة) والاجتماعية (بين العرب وغير العرب) في إضعاف النسيج الداخلي للمجتمع الإسلامي، مما زاد من صعوبة توحيد الصفوف في وجه الخطر الخارجي.
- **التهديدات الخارجية المستمرة:** كانت الدولة العباسية تواجه تهديدات مستمرة على حدودها من قوى مختلفة، مثل بقايا الإمبراطورية البيزنطية في الغرب، والممالك الصليبية التي تأسست في الشام بعد الحملات الصليبية، وقوى محلية في الشرق والشمال. ورغم أن هذه التهديدات لم تكن وجودية في حد ذاتها، إلا أنها كانت تستنزف موارد الدولة وتزيد من إرهاقها.

2. ظهور خطر المغول وزحفهم غرباً

في خضم هذا الضعف والانقسام الذي كان يعيشه العالم الإسلامي، ظهرت على الساحة العالمية قوة جديدة ومدمرة من سهوب آسيا الوسطى[112]: **المغول**. بقيادة قائدهم الفذ **جنكيز خان**، تمكنت القبائل المغولية من التوحد وتأسيس إمبراطورية ضخمة في فترة وجيزة. تميز المغول بقوتهم العسكرية الهائلة، وبراعتهم في فنون الحرب والفروسية، وبقسوتهم ووحشيتهم في التعامل مع أعدائهم.

- **تأسيس الإمبراطورية المغولية:** في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، وحد جنكيز خان القبائل المغولية وبدأ في التوسع شرقاً وغرباً. تمكن المغول من السيطرة على مساحات شاسعة في آسيا، بما في ذلك الصين وآسيا الوسطى.
- **الزحف نحو العالم الإسلامي:** بعد وفاة جنكيز خان، واصل خلفاؤه التوسع. بدأ الزحف المغولي نحو العالم الإسلامي في عهد أبناء جنكيز خان، حيث اجتاحوا بلاد ما وراء النهر وخراسان وبلاد فارس، ودمروا المدن الكبرى وقتلوا أعداداً هائلة من السكان. كانت حملاتهم تتسم بالتخريب والدمار الشامل.
- **حملة هولاكو نحو الغرب:** في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، تولى **هولاكو خان**، حفيد جنكيز خان، قيادة حملة عسكرية ضخمة نحو الغرب، بهدف إخضاع ما تبقى من العالم الإسلامي وبلاد الشام ومصر. كانت هذه الحملة هي التي ستضع حداً للخلافة العباسية في بغداد.

---

[112] **سهوب آسيا الوسطى**:
مساحات شاسعة من الأراضي العشبية المفتوحة والمسطّحة، تمتد عبر كازاخستان، أوزبكستان، تركمانستان، وأجزاء من منغوليا، كانت معبرًا مهمًا للفتوحات الإسلامية، خاصة في العهد الأموي والعباسي، ومسرحًا لتفاعل حضاري بين الإسلام والشعوب التركية والمغولية.

3. حصار بغداد وسقوطها على يد هولاكو عام 656هـ (1258م)

كانت بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، هدفاً رئيسياً لحملة هولاكو[113]. ورغم أنها كانت لا تزال رمزاً للخلافة الإسلامية ومركزاً حضارياً عظيماً، إلا أنها كانت تعاني من الضعف العسكري والإداري، ولم تكن مستعدة لمواجهة جيش المغول الجرار.

- **وصول جيش المغول إلى بغداد:** في أواخر عام 655هـ (1257م)، وصل جيش المغول بقيادة هولاكو إلى مشارف بغداد. كان الخليفة العباسي حينها هو **المستعصم بالله**، وهو خليفة ضعيف لم يكن يمتلك سلطة فعلية، وكان تحت تأثير وزيره مؤيد الدين بن العلقمي (الذي تتهمه بعض الروايات التاريخية بالخيانة والتواطؤ مع المغول، وإن كان هذا محل جدل بين المؤرخين).
- **حصار بغداد:** فرض جيش المغول حصاراً محكماً على بغداد في محرم عام 656هـ (يناير 1258م). كانت بغداد مدينة كبيرة ومحصنة بأسوار، لكنها كانت تفتقر إلى الجيش الكافي والقيادة الموحدة للدفاع عنها بفعالية. حاول الخليفة المستعصم التفاوض مع هولاكو، لكن هولاكو كان مصمماً على إسقاط المدينة.
- **سقوط المدينة:** بعد حصار دام بضعة أسابيع، تمكن المغول من اختراق أسوار بغداد. دخل المغول المدينة في العاشر من صفر عام 656هـ (10 فبراير 1258م)، وبدأوا في عملية تدمير وقتل وتخريب لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. استمرت عمليات القتل والنهب والتدمير لعدة أيام. تم تدمير المكتبات العظيمة (مثل بيت الحكمة)، وإلقاء الكتب في نهر دجلة حتى قيل إن ماء النهر تحول إلى اللون الأسود من حبر الكتب. تم تدمير المساجد والقصور والمباني الحضارية.
- **مقتل الخليفة المستعصم بالله:** تم القبض على الخليفة المستعصم بالله وعائلته وكبار رجال دولته. أمر هولاكو بقتل الخليفة بطريقة مهينة، فقيل إنه لُف في سجادة ودُهس بالخيول، أو أنه قُتل بطرق أخرى تختلف الروايات فيها، لكن المؤكد أنه قُتل بطريقة تمنع إراقة دمه مباشرة على الأرض، حسب معتقدات المغول. بمقتل المستعصم بالله، **انتهت الخلافة العباسية في بغداد**، والتي استمرت لأكثر من خمسة قرون.

---

[113] **هولاكو:**
قائد مغولي، حفيد جنكيز خان، قاد الحملة المغولية على العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري، واشتهر بسقوط **بغداد سنة 656هـ / 1258م**، حيث دمّرها وقتل الآلاف من أهلها، وأسقط الخلافة العباسية، وكان يمثل ذروة **الخطر المغولي** على الأمة الإسلامية حتى تم وقفه في **معركة عين جالوت** على يد المماليك.

4. الآثار المدمرة لسقوط بغداد على العالم الإسلامي

كان سقوط بغداد كارثة حقيقية على العالم الإسلامي، وترك آثاراً مدمرة على جميع المستويات:

- **نهاية الخلافة المركزية:** كان سقوط بغداد يعني نهاية الرمز السياسي والديني الموحد للمسلمين في المشرق. رغم أن الخلافة في بغداد كانت قد فقدت سلطتها الفعلية، إلا أنها كانت لا تزال تمثل وحدة اسمية ومرجعية دينية وسياسية للأمة. بانهيارها، فقد المسلمون هذا الرمز، مما زاد من حالة التفتت والانقسام السياسي في العالم الإسلامي.
- **تدمير مركز حضاري وعلمي عظيم:** كانت بغداد في أوج عظمتها[114] مركزاً عالمياً للعلم والثقافة والحضارة. تدميرها على يد المغول أدى إلى ضياع كنوز علمية وثقافية لا تقدر بثمن، وقتل الآلاف من العلماء والأدباء والمفكرين. شكل هذا ضربة قاصمة للحركة العلمية في العالم الإسلامي، وتأخرت النهضة العلمية في المشرق لقرون.
- **خسائر بشرية هائلة:** قُتل في بغداد أعداد هائلة من السكان (تتفاوت التقديرات بشكل كبير، لكنها بالمئات الآلاف)، مما شكل خسارة بشرية فادحة للأمة.
- **الصدمة النفسية والمعنوية:** كان سقوط بغداد، عاصمة الإسلام ورمز قوته لقرون، صدمة نفسية ومعنوية هائلة للمسلمين في جميع أنحاء العالم. شعر المسلمون بالضعف والهزيمة أمام قوة المغول المدمرة، واهتزت ثقتهم بأنفسهم.
- **تغيير الخريطة السياسية:** أدى سقوط بغداد إلى تغيير جذري في الخريطة السياسية للعالم الإسلامي. ظهرت قوى جديدة (مثل المماليك في مصر والشام) لتتصدى للمغول، وتأسست دول وإمارات جديدة في المناطق التي سيطر عليها المغول.

5. هل ترك العباسيون الجهاد؟ وما تأثير ذلك على السقوط

هنا نأتي إلى نقطة هامة تتعلق بدور الجهاد في أواخر العصر العباسي وعلاقته بالسقوط. القول بأن العباسيين "تركوا الجهاد" بشكل كامل قد يكون تبسيطاً مبالغاً فيه، ولكن من الدقيق القول بأن **الخلافة العباسية المركزية في بغداد قد فقدت قدرتها على قيادة وتنظيم الجهاد الموحد والكبير** الذي كان سمة العصور السابقة، وذلك لعدة أسباب مترابطة:

---

[114] **"في ذروة مجدها"**
أو
"في قمة عظمتها"

- **فقدان السلطة الفعلية:** كما ذكرنا مراراً، لم يعد الخليفة في بغداد يمتلك السلطة العسكرية والسياسية الفعلية. كانت الجيوش والقوة العسكرية في يد القادة الأتراك والبويهيين والسلاجقة الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم. الخليفة كان مجرد رمز، لا يستطيع إصدار الأوامر للجيوش في الأقاليم، ولا يستطيع حشد القوى من مختلف أنحاء الدولة لشن حملات جهادية كبرى ومنسقة.
- **الانقسام السياسي:** مع تفتت الدولة إلى دويلات مستقلة، أصبحت كل دويلة مسؤولة عن الدفاع عن نفسها والجهاد على حدودها. لم يعد هناك جيش عباسي موحد يمثل الأمة كلها ويخضع لقيادة الخليفة. كانت هناك جيوش مملوكية، وجيوش سلجوقية، وجيوش أيوبية، وجيوش في المغرب والأندلس، كل منها يعمل بشكل مستقل.
- **الانشغال بالصراعات الداخلية:** كانت الخلافة في بغداد، وحتى الدويلات الأخرى، منشغلة بالصراعات الداخلية، سواء بين الخلفاء والقادة العسكريين، أو بين الدويلات وبعضها البعض، أو قمع الثورات الداخلية. هذا الانشغال استنزف الطاقات وحولها عن الجهاد الخارجي.
- **تغير مفهوم الجهاد لدى البعض:** ربما أدى ضعف الخلافة المركزية وتغير الظروف إلى تراجع الروح الجهادية الكبرى لدى البعض، أو تحولها إلى جهاد محلي دفاعي فقط.
- **غياب القيادة الموحدة:** كان الجهاد الموحد يتطلب قيادة مركزية قوية وموحدة تستطيع توجيه الأمة وحشد طاقاتها. مع ضعف الخلافة في بغداد، غابت هذه القيادة الموحدة، مما أثر سلباً على القدرة على مواجهة خطر كبير مثل المغول.

التأثير على السقوط: إن فقدان الخلافة العباسية المركزية لقدرتها على قيادة الجهاد الموحد كان **عاملاً رئيسياً في ضعف العالم الإسلامي أمام خطر المغول.** عندما زحف المغول، لم يجدوا أمامهم جيشاً موحداً يمثل الأمة الإسلامية كلها، بل وجدوا دويلات متفرقة، كل منها يدافع عن نفسه بشكل منفصل، أو حتى يتنافس مع جاره. لم تستطع هذه الدويلات المتفرقة الصمود أمام جيش المغول المنظم والقوي. بغداد نفسها سقطت بسهولة نسبية لأنها لم تكن تمتلك جيشاً قوياً يدافع عنها، وكانت تعتمد على جيش صغير وقادة متنافسين[115].

[115] **قادة متنافسين:** شخصيات أو أطراف سياسية تتصارع على النفوذ والسلطة في بغداد.

ومع ذلك، من المهم التأكيد على أن الجهاد لم يتوقف تماماً في العالم الإسلامي. ففي حين ضعفت الخلافة في بغداد عن قيادته، استمرت قوى إسلامية أخرى في القيام بالجهاد على جبهاتها. أبرز مثال على ذلك هو **دولة المماليك**[116] **في مصر والشام**، التي ظهرت كقوة عسكرية قوية، وتصدت لزحف المغول وهزمتهم في معركة عين جالوت (658هـ / 1260م)، وأنقذت ما تبقى من العالم الإسلامي من الدمار الكامل. كما استمر الجهاد في الأندلس، وفي شمال أفريقيا، وفي الهند، وفي جبهات أخرى.

إذاً، لم يكن الأمر تركاً كاملاً للجهاد من قبل جميع المسلمين، بل كان **ضعفاً في القيادة المركزية للخلافة العباسية وقدرتها على توجيه الجهاد الموحد**، مما أدى إلى تفتت الجهود[117]، وجعل العالم الإسلامي أكثر عرضة للغزو الخارجي. هذا الضعف في القيادة والوحدة، بالإضافة إلى العوامل الأخرى المذكورة، هو ما أدى في النهاية إلى سقوط بغداد ونهاية الخلافة العباسية.

6. استمرار اسم الخلافة في القاهرة في ظل المماليك (خلافة صورية)

بعد سقوط بغداد ومقتل الخليفة المستعصم، ظن الكثيرون أن الخلافة قد انتهت إلى الأبد. ولكن، في عام 659هـ (1261م)، قام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في مصر بإحياء اسم الخلافة في القاهرة. فقد أحضر أحد الناجين من البيت العباسي (أحمد بن الظاهر بأمر الله) وبايعه خليفة للمسلمين بلقب "المستنصر بالله".

- **خلافة صورية:** لم تكن هذه الخلافة في القاهرة خلافة حقيقية تمتلك سلطة سياسية أو عسكرية. كان الخلفاء العباسيون في القاهرة مجرد رموز اسمية، لا يملكون من الأمر شيئاً، والسلطة الفعلية كانت بيد سلاطين المماليك. كان دور الخليفة يقتصر على إضفاء الشرعية الدينية على حكم المماليك، والمشاركة في بعض الاحتفالات الرسمية.
- **استمرار الرمز:** رغم كونها صورية، إلا أن استمرار اسم الخلافة في القاهرة لأكثر من قرنين ونصف (حتى الفتح العثماني لمصر عام 923هـ / 1517م) كان مهماً رمزياً للعالم الإسلامي، حيث حافظ على فكرة وجود خليفة للمسلمين، وإن كان دوره محدوداً للغاية.

---

[116] **دولة المماليك:** نظام حكم تأسس في مصر والعراق، حكمه جنود عبيد (مماليك) وكان لهم نفوذ سياسي وعسكري كبير.

[117] **تفتت الجهود:** عدم توحيد القوى وتفرقها مما يضعف النتائج.

وخلاصة القول ، كان سقوط الدولة العباسية وسقوط بغداد على يد المغول نقطة تحول مأساوية في تاريخ الإسلام. لقد كان هذا السقوط نتيجة لتراكم عوامل الضعف الداخلي، والانقسام السياسي، وفقدان الخلافة المركزية لقدرتها على قيادة الأمة وتوجيه الجهاد الموحد. ورغم أن الجهاد استمر في مناطق أخرى، إلا أن غياب القيادة الموحدة جعل العالم الإسلامي عرضة للغزو المدمر. شكل هذا الحدث نهاية لعصر ذهبي في تاريخ الإسلام، ومهد الطريق لظهور قوى جديدة وتغيرات جذرية في المشهد السياسي والحضاري للعالم الإسلامي.

خلاصة الفصل الرابع: الخلافة العباسية: الجهاد بالعلم والسيف

لقد استعرضنا في هذا الفصل حقبة الخلافة العباسية، وهي مرحلة محورية في تاريخ الأمة الإسلامية امتدت لأكثر من خمسة قرون. رأينا كيف قامت هذه الدولة على أنقاض الدولة الأموية، وكيف شهدت في فتراتها الأولى ازدهاراً غير مسبوق في جميع المجالات، قبل أن تعاني من التفتت والضعف لتنتهي بسقوط مدوٍّ لعاصمتها بغداد.

في **المبحث الأول: قيام الدولة العباسية**، تناولنا خلفية الدعوة العباسية وأسباب ظهورها، وكيف استغلت بذكاء حالة الاستياء لدى الموالي وأنصار أهل البيت وضعف أواخر الأمويين. كما بيّنا كيف تم تنظيم هذه الدعوة سراً في خراسان، وكيف قاد أبو مسلم الخراساني الثورة التي أدت في النهاية إلى إسقاط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية في العام 132هـ.

ثم انتقلنا في **المبحث الثاني: بناء الدولة الجديدة وتحولات الحكم**، إلى مرحلة التأسيس والتحول في العصر العباسي. رأينا كيف تم تأسيس بغداد كعاصمة جديدة للدولة، وكيف أثر ذلك على المشهد السياسي والحضاري، ناقلين مركز الثقل إلى الشرق. استعرضنا تطور المؤسسات الإدارية والمالية لتناسب إدارة إمبراطورية واسعة، وكيف استمرت حركة الجهاد العسكري في بعض الجبهات لتأمين الحدود وقمع الثورات.

في **المبحث الثالث: عصر الازدهار الذهبي: النهضة العلمية والحضارية**، سلطنا الضوء على أبرز سمات العصر العباسي، وهو الازدهار العلمي والحضاري غير المسبوق. كما بيّنا دور الخلفاء العظام (خاصة هارون الرشيد والمأمون) في تشجيع العلم والعلماء، وتأسيس بيت الحكمة، ورعاية حركة الترجمة الكبرى التي نقلت علوم الحضارات الأخرى.

استعرضنا النهضة في مختلف العلوم (الطب، الفلك، الرياضيات، الكيمياء، الفلسفة، بالإضافة إلى العلوم الشرعية واللغوية)، وأكدنا على العلاقة بين هذه النهضة العلمية وقوة الدولة، وكيف شكلت نوعاً من **الجهاد المعرفي** الذي يكمل الجهاد العسكري في بناء قوة الأمة.

ولكن، لم تكن مسيرة الدولة العباسية خالية من التحديات. ففي **المبحث الرابع: تحديات الانقسام وتراجع القوة المركزية**، رأينا كيف بدأت الدولة تعاني من الضعف والتفتت[118]. ظهرت الدويلات والإمارات المستقلة في مختلف الأقاليم (مثل الأمويين في الأندلس، الأغالبة، الطولونيون، السامانيون، البويهيون، السلاجقة)، مما أدى إلى تراجع القوة المركزية للخلافة في بغداد. ناقشنا أثر الصراعات الداخلية وضعف بعض الخلفاء، وظهور قوى عسكرية غير عربية سيطرت على مقاليد الحكم أحياناً (الأتراك، البويهيون، السلاجقة)، وكيف أثر هذا الانقسام سلباً على حركة الجهاد الموحد.

أخيراً، في **المبحث الخامس: نهاية الدولة العباسية: سقوط بغداد على يد المغول**، وصلنا إلى الفصل الأخير من قصة الدولة العباسية. استعرضنا الظروف التي أحاطت بالدولة في أواخر أيامها من ضعف وانقسام وتهديدات. كما بيّنا كيف ظهر خطر المغول المدمر وزحفهم غرباً، وكيف تمكن هولاكو من حصار بغداد وإسقاطها عام 656هـ (1258م) في حدث كارثي. تحدثنا عن الآثار المدمرة لسقوط بغداد على العالم الإسلامي، وكيف أن ضعف القيادة المركزية وفقدان القدرة على قيادة الجهاد الموحد كان عاملاً رئيسياً في هذا السقوط. وأشرنا إلى استمرار اسم الخلافة صورياً في القاهرة تحت حكم المماليك.

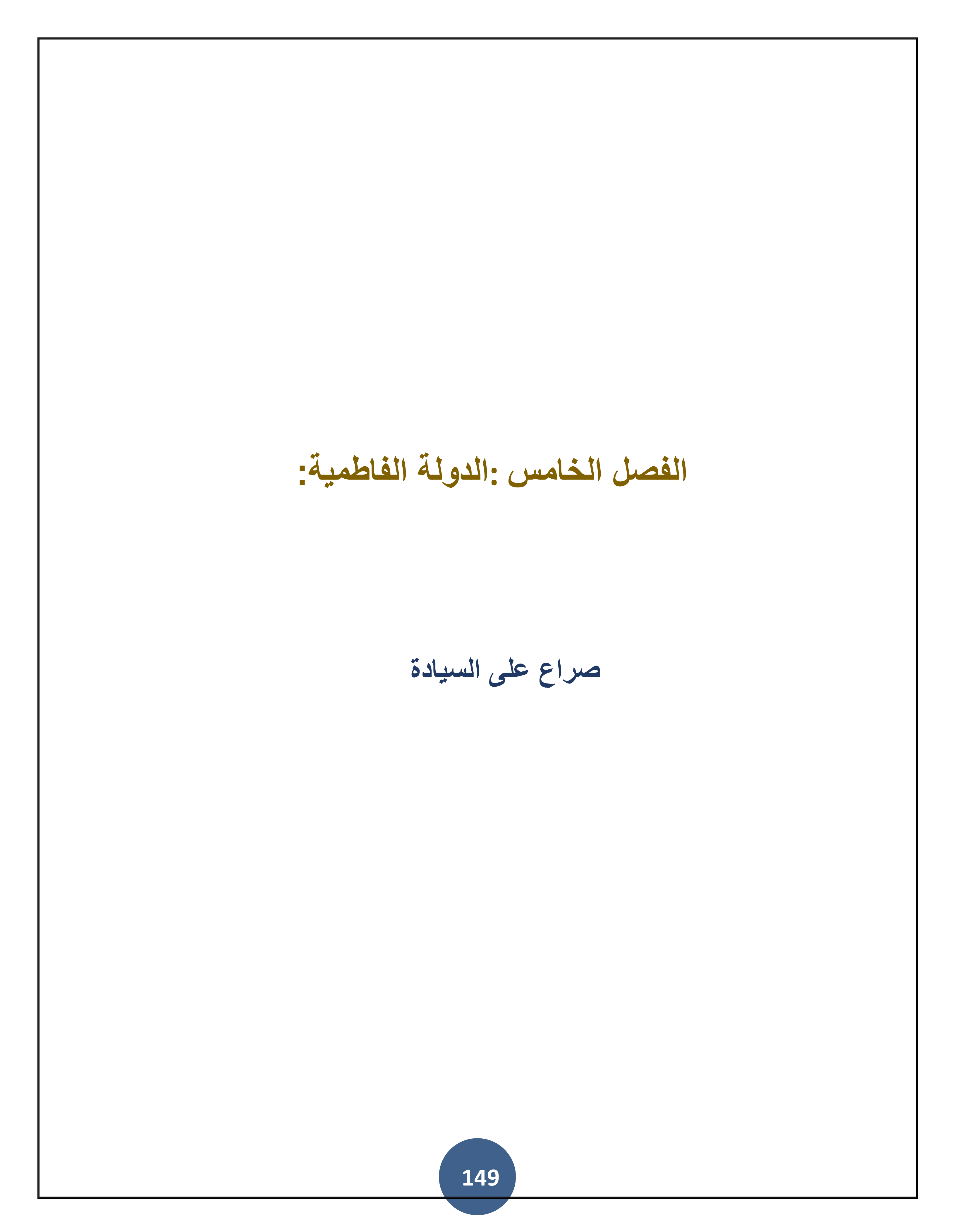
أبرز سمات العصر العباسي: تميز هذا العصر بالانتقال السياسي والحضاري إلى الشرق، والازدهار العلمي والحضاري غير المسبوق، وتطور المؤسسات الإدارية، ولكن أيضاً بالانقسام السياسي وتراجع القوة المركزية في فتراته المتأخرة.

تكامل الجهاد العسكري والعلمي: كان العصر العباسي نموذجاً لتكامل الجهاد العسكري (للدفاع عن الدولة وتأمين حدودها) مع الجهاد العلمي والمعرفي (للبناء الحضاري وإثبات تفوق الأمة في ميادين المعرفة).

[118] **التفتت:** تشتت الجهود أو القوى، مما يؤدي إلى فقدان الوحدة والتنسيق.

عوامل القوة والضعف: كانت عوامل القوة في العصر العباسي تتمثل في قوة الدعوة في البداية، وتأسيس دولة منظمة، والازدهار الاقتصادي، ورعاية العلم والعلماء، والروح الجهادية في تأمين الحدود. أما عوامل الضعف فتمثلت في تحول الخلافة إلى وراثة وما ترتب عليه، واستمرار الصراعات الداخلية، وقضية الموالي، وضعف بعض الخلفاء، وتدخل القوى العسكرية في السياسة، والانقسام إلى دويلات متناحرة.

الدروس المستفادة: من أبرز الدروس المستفادة من العصر العباسي أهمية العلم والمعرفة في بناء قوة الأمة وحضارتها، وأن القوة لا تقتصر على الجانب العسكري. كما أن الوحدة السياسية والاجتماعية، وقوة القيادة المركزية، والعدل والمساواة بين جميع مكونات الأمة، هي أسس ضرورية للحفاظ على قوة الدولة ومواجهة التحديات الداخلية والخارجية. وأن التفتت والانقسام يضعف الأمة ويجعلها عرضة للسقوط أمام الأخطار الخارجية.



الفصل الخامس :الدولة الفاطمية:

صراع على السيادة

مقدمة الفصل الخامس: الدولة الفاطمية: صراع على السيادة

في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية في بغداد تعاني من تراجع في قوتها المركزية وظهور الدويلات المستقلة في أطرافها، شهد العالم الإسلامي ظهور قوة جديدة في أقصى غربه، حملت لواء المعارضة الجذرية للخلافة العباسية، وسعت لإقامة خلافة منافسة على أساس مذهبي مختلف. هذه القوة هي **الدولة الفاطمية**، التي قامت في شمال أفريقيا في أواخر القرن الثالث الهجري (أوائل القرن العاشر الميلادي)، وسرعان ما توسعت لتشمل مصر والشام والحجاز، لتشكل تحدياً حقيقياً لسيادة الخلافة العباسية السنية، وتدخل العالم الإسلامي في مرحلة جديدة من الصراع على النفوذ والسيادة.

لم تكن الدولة الفاطمية مجرد دولة إقليمية أخرى ظهرت في ظل ضعف العباسيين، بل كانت دولة ذات مشروع عالمي، تهدف إلى إسقاط الخلافة العباسية والسيطرة على العالم الإسلامي كله، ونشر مذهبها الشيعي الإسماعيلي[119]. انطلقت الدعوة الفاطمية سراً من المشرق، لتجد أرضاً خصبة لانتشارها في شمال أفريقيا، حيث تمكن دعاتها من كسب الأنصار وإقامة دولتهم.

كانت مسيرة الدولة الفاطمية، التي امتدت لأكثر من قرنين ونصف (296-567هـ / 909-1171م)، مسيرة حافلة بالصراع الدائم على السيادة والنفوذ. صراع داخلي لتثبيت أركان الدولة ومواجهة المعارضات، وصراع خارجي مع القوى المحيطة (خاصة الدولة الأموية في الأندلس، والدولة البيزنطية، ثم السلاجقة الأتراك)، والأهم من ذلك، صراع وجودي مع الخلافة العباسية في المشرق، التي اعتبرها الفاطميون مغتصبة للخلافة.

في هذا الفصل، سنتناول بالدراسة مسيرة الدولة الفاطمية، مركزين على كيفية ظهور دعوتها وانتشارها، وتأسيس دولتها في شمال أفريقيا، ثم غزوها لمصر وتأسيس القاهرة كعاصمة جديدة لها. كما سنسلط الضوء على طبيعة صراعها السياسي والعسكري مع الخلافة العباسية والقوى الأخرى على النفوذ في إفريقيا والشام، وأثر هذا الصراع على العالم الإسلامي.
وأخيراً، سنتطرق إلى التحديات الداخلية التي واجهت الدولة الفاطمية، والتي أدت في نهاية المطاف إلى ضعفها وسقوطها على يد صلاح الدين الأيوبي، لتنتهي بذلك صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي التي تميزت بالصراع على السيادة والمشروعية.

---

[119] **لشيعة الإسماعيليون:** فرقة من الشيعة يعتقدون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، ويختلفون عن باقي الشيعة في بعض العقائد والتقاليد.

المبحث الأول: ظهور الدعوة الفاطمية وتأسيس الدولة في المغرب

في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية في بغداد تعاني من ضعف متزايد وتفتت سياسي، ظهرت في أقصى المغرب الإسلامي حركة دعوية سرية حملت مشروعاً سياسياً ودينياً منافساً، تمكنت من بناء دولة قوية شكلت تحدياً وجودياً للخلافة العباسية. هذه الحركة هي الدعوة الفاطمية، التي مهدت لقيام الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا.

1. أصول الدعوة الفاطمية (الشيعة الإسماعيلية) وسريتها وتنظيمها

تنتسب الدعوة الفاطمية إلى تيار من تيارات **الشيعة الإمامية**، وهو تيار **الشيعة الإسماعيلية**. يؤمن الشيعة الإمامية بأن الخلافة (الإمامة) حق لذرية علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضي الله عنهما، وأنها تنتقل بالوراثة والوصية إلى إمام معصوم من نسلهم. اختلف الشيعة بعد الإمام جعفر الصادق فيمن هو الإمام السابع بعده؛ فذهب جمهور الشيعة (الاثنا عشرية) إلى إمامة موسى الكاظم، بينما ذهبت الإسماعيلية إلى إمامة ابنه **إسماعيل بن جعفر الصادق**، ومن هنا جاء اسمهم "الإسماعيلية".

- **العقيدة الإسماعيلية:** تتميز العقيدة الإسماعيلية بوجود جوانب باطنية[120] وتأويلية للنصوص الدينية، ونظام هرمي للدعوة. يؤمنون بوجود إمام ظاهر (مشهور ومعروف للعامة) وإمام مستور (مختفٍ عن الأنظار لأسباب أمنية). كانت الدعوة الفاطمية في بدايتها تدعو لإمام مستور، وتعمل سراً لتمهيد الظهور له.
- **التنظيم السري:** تميزت الدعوة الإسماعيلية، ومنها الدعوة الفاطمية، بتنظيمها السري المحكم للغاية. كان على رأس الدعوة "الإمام المستور"، وتحته شبكة من "الدعاة" على درجات مختلفة (مثل داعي الدعاة، والداعي المطلق، والداعي المأذون، وغيرهم). كان الدعاة يعملون بسرية تامة، ويتواصلون بأسماء مستعارة، ويستخدمون رموزاً خاصة، ويحرصون على عدم كشف هويتهم الحقيقية أو هوية الإمام المستور، وذلك لحماية الدعوة من ملاحقة السلطات القائمة (العباسيين والولاة التابعين لهم).

[120] **باطنية:** حركة أو مذهب يركز على التفسير الباطني (الخفيف) للنصوص الدينية، معتقداً أن وراء المعاني الظاهرة أسراراً وخفايا.

- **الهدف السياسي والديني:** كان الهدف الأساسي للدعوة الفاطمية هو **إسقاط الخلافة العباسية السنية** التي اعتبروها مغتصبة للخلافة، و**إقامة خلافة شيعية إسماعيلية** على رأسها إمام من نسل فاطمة الزهراء (ومن هنا جاء اسمهم "الفاطميين")، ونشر المذهب الإسماعيلي في العالم الإسلامي. كان لديهم مشروع عالمي لإعادة توحيد الأمة تحت راية إمام معصوم من أهل البيت.

2. انتشار الدعوة في شمال أفريقيا (المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية)

بدأت الدعوة الإسماعيلية نشاطها في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي (اليمن، بلاد فارس، العراق، الشام)، لكنها وجدت أرضاً خصبة لانتشارها في **شمال أفريقيا**، وخاصة في منطقة **المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية** (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب حالياً).

- **لماذا شمال أفريقيا؟** اختار الدعاة الفاطميون شمال أفريقيا لعدة أسباب:
  - **بعدها عن مركز الخلافة العباسية في بغداد:** مما جعل من الصعب على السلطة المركزية مراقبة النشاط الدعوي وقمعها بفعالية.
  - **وجود استياء من حكم الأغالبة:** كانت منطقة إفريقية تحت حكم دولة الأغالبة، وهي إمارة شبه مستقلة اسمياً عن العباسيين. عانى السكان في بعض الفترات من ظلم بعض حكام الأغالبة، ومن الضرائب الباهظة، ومن الصراعات الداخلية. هذا الاستياء العام خلق بيئة مناسبة لتقبل الدعوة الجديدة التي تعد بالعدل والإنصاف.
  - **وجود قبائل بربرية قوية:** كانت شمال أفريقيا موطناً لقبائل بربرية قوية، بعضها لم يكن قد استقر تماماً على مذهب معين، وكان بعضها يحمل عداءً للعرب والسلطة المركزية في المشرق. تمكن الدعاة الفاطميون من كسب تأييد بعض هذه القبائل، وخاصة قبيلة **كتامة** القوية في الجزائر، التي شكلت العماد العسكري للثورة الفاطمية.
  - **جهود الدعاة المهرة:** أرسل الإمام الإسماعيلي المستور دعاة مهرة إلى شمال أفريقيا، كان أبرزهم **أبو عبد الله الشيعي** (الحسين بن أحمد بن محمد). كان أبو عبد الله الشيعي يتمتع بذكاء حاد، وقدرة خطابية مؤثرة، ومعرفة بالمنطقة وسكانها. تمكن من التغلغل بين قبائل كتامة، وكسب ثقتهم، وإقناعهم بالدعوة، وتعبئتهم للثورة ضد حكم الأغالبة.

- **نشاط أبي عبد الله الشيعي:** وصل أبو عبد الله الشيعي إلى المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري، وبدأ نشاطه الدعوي بين قبائل كتامة. تظاهر بالزهد والورع، وأظهر علماً غزيراً، وبدأ يدعو الناس إلى إمام من آل البيت سيظهر قريباً ليملأ الأرض عدلاً. استجاب له عدد كبير من قبائل كتامة، وأصبحوا جيشاً منظماً تحت قيادته.

3. الصراع مع دولة الأغالبة وإسقاطها

بعد أن كسب أبو عبد الله الشيعي تأييد قبائل كتامة وشكل منهم جيشاً قوياً، بدأ في المرحلة الثانية من مشروعه: **الصدام المسلح مع دولة الأغالبة** في إفريقية.

- **بداية الصراع:** بدأ أبو عبد الله الشيعي بشن حملات عسكرية صغيرة ضد قوات الأغالبة في المناطق الجبلية، وحقق انتصارات أولية رفعت من معنويات أنصاره وزادت من أتباعه.
- **المعارك الحاسمة:** تصاعد الصراع بين جيش أبي عبد الله الشيعي وقوات الأغالبة. دارت عدة معارك حاسمة، تمكن فيها جيش كتامة من التغلب على جيوش الأغالبة التي كانت تعاني من الضعف والفساد الداخلي.
- **سقوط القيروان:** في **عام 296هـ (909م)**، تمكن جيش أبي عبد الله الشيعي من دخول مدينة **القيروان**، عاصمة دولة الأغالبة. كانت القيروان من أهم المدن في شمال أفريقيا ورمزاً لحكم الأغالبة. بسقوطها، انهارت دولة الأغالبة بشكل كامل.

4. إعلان قيام الدولة الفاطمية في إفريقية (تونس حالياً) عام 296هـ (909م)

بعد إسقاط دولة الأغالبة، أصبح الطريق ممهداً لإعلان قيام الدولة الجديدة. كان أبو عبد الله الشيعي يدعو لإمام مستور، وقد حان وقت ظهوره.

- **ظهور الإمام المهدي:** بعد السيطرة على إفريقية، أرسل أبو عبد الله الشيعي في طلب الإمام المستور، الذي كان حينها في منطقة سلمية في الشام، ثم فر منها وتنقل سراً حتى وصل إلى سجلماسة في المغرب الأقصى، حيث تم اعتقاله من قبل حاكمها. توجه أبو عبد الله الشيعي بجيشه إلى سجلماسة، وتمكن من تحرير الإمام المستور، وهو **عبيد الله المهدي**[121] (الذي يدعي الفاطميون أنه من نسل فاطمة الزهراء من طريق الحسين بن علي، بينما يشكك في نسبهم بعض المؤرخين السنة).

[121] **عبيد الله المهدي:** مؤسس الدولة الفاطمية وأول خلفائها، ادّعى الانتساب إلى آل البيت، وكان يتبع المذهب الشيعي الإسماعيلي.

- **إعلان الدولة:** في **ربيع الآخر من عام 296هـ (يناير 909م)**، تم إعلان قيام **الدولة الفاطمية** في إفريقية، ومبايعة **عبيد الله المهدي** كأول خليفة فاطمي. كانت هذه اللحظة فارقة في تاريخ العالم الإسلامي، حيث ظهرت خلافة منافسة للخلافة العباسية في بغداد، على أساس مذهبي مختلف.
- **القاعدة الأولى:** كانت إفريقية (تونس حالياً) هي القاعدة الأولى للدولة الفاطمية، ومنها انطلقوا لترسيخ حكمهم في شمال أفريقيا، والتطلع إلى التوسع شرقاً للسيطرة على مصر والشام، وتحقيق مشروعهم العالمي.

لقد كان قيام الدولة الفاطمية نتيجة لجهود دعوية سرية ومنظمة، واستغلال عوامل الضعف في السلطة القائمة، وكسب تأييد القوى المحلية (قبائل كتامة)[122]. شكلت هذه الدولة الجديدة تحدياً كبيراً للخلافة العباسية السنية، وبداية لمرحلة جديدة من الصراع على السيادة والنفوذ في العالم الإسلامي.

---

[122] **قبائل كتامة:** إحدى القبائل البربرية الكبرى في شمال إفريقيا، دعمت قيام الدولة الفاطمية ولعبت دورًا حاسمًا في نشر الدعوة الإسماعيلية.

المبحث الثاني: ترسيخ الحكم في المغرب والتوجه شرقاً

بعد إعلان قيام الدولة الفاطمية في إفريقية عام 296هـ (909م) على يد الإمام المهدي عبيد الله، لم تكن الطريق ممهدة بالكامل أمام الدولة الجديدة. فقد واجه الفاطميون تحديات كبيرة لتثبيت أركان دولتهم في شمال أفريقيا، ومواجهة القوى المعارضة، قبل أن يتجهوا بأنظارهم نحو الشرق، وتحديداً نحو مصر، التي كانت تمثل هدفاً استراتيجياً حيوياً لمشروعهم العالمي.

1. جهود الفاطميين لتثبيت أركان دولتهم في شمال أفريقيا ومواجهة الثورات الداخلية

لم يكن إسقاط دولة الأغالبة يعني نهاية المقاومة في شمال أفريقيا. فقد واجه الفاطميون، بقيادة الإمام المهدي عبيد الله وخلفائه الأوائل، ثورات داخلية متعددة من قوى مختلفة لم تقبل بحكمهم، سواء لأسباب دينية (مثل بقايا الخوارج الذين كانوا منتشرين في المغرب، أو بعض أهل السنة الذين لم يقبلوا بحكم الشيعة الإسماعيلية)، أو لأسباب سياسية وقبلية.

- **مواجهة ثورات الخوارج:** كانت منطقة المغرب الأوسط والأقصى موطناً لبعض فرق الخوارج التي أقامت دويلات وإمارات مستقلة (مثل دولة بني رستم الإباضية في تاهرت). واجه الفاطميون هؤلاء الخوارج في صراعات عسكرية، وتمكنوا من القضاء على بعض دويلاتهم وإخضاع مناطق نفوذهم، ولكن مقاومة الخوارج لم تنتهِ تماماً.
- **مواجهة الثورات السنية:** واجه الفاطميون مقاومة من بعض القبائل والمناطق ذات الغالبية السنية التي لم تقبل بحكمهم المذهبي. كانت هذه الثورات تظهر بين الحين والآخر، وتتطلب جهوداً عسكرية مستمرة لإخمادها.
- **ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري (صاحب الحمار)[123]:** تُعد ثورة أبي يزيد من أخطر الثورات التي واجهت الدولة الفاطمية في بداياتها (333-336هـ / 944-947م). كان أبو يزيد من الخوارج الصفرية، وتمكن من جمع أعداد كبيرة من البربر حوله، وكاد أن يقضي على الدولة الفاطمية في عهد الخليفة القائم بأمر الله. حاصر القيروان والمهدية، وكادت الدولة أن تسقط، لولا صمود المهدية وبراعة الخليفة المنصور بن القائم في قيادة الجيش وهزيمة أبي يزيد في النهاية. أظهرت هذه الثورة مدى قوة الدولة الفاطمية في بداياتها وضرورة ترسيخ حكمها بقوة.

---

[123] **صاحب الحمار:** لقب استخدمه أحد دُعاة الفاطميين للتخفي أثناء نشر الدعوة الإسماعيلية، وكان يتنقل بزيّ بسيط على حمار لإبعاد الشبهات عنه.

- **بناء جيش قوي وموالي:** أدرك الفاطميون ضرورة بناء جيش قوي وموالي لهم بشكل كامل لضمان بقاء دولتهم. اعتمدوا بشكل كبير في البداية على قبائل كتامة البربرية التي شكلت عماد ثورتهم. ومع مرور الوقت، بدأوا في الاعتماد على عناصر أخرى من المرتزقة[124] والمماليك من مختلف الأعراق (مثل الصقالبة، والأتراك، والسودانيين) لتنويع قاعدة جيشهم وتقليل الاعتماد على عنصر واحد.

2. بناء المدن والقواعد العسكرية (مثل المهدية)

لترسيخ حكمهم وتوفير قواعد آمنة لدولتهم، اهتم الفاطميون ببناء المدن والقواعد العسكرية المحصنة في شمال أفريقيا.

- **مدينة المهدية:** تُعد مدينة **المهدية** في تونس من أبرز المدن التي بناها الفاطميون. أمر ببنائها الإمام المهدي عبيد الله عام 300هـ (912م)، واختار لها موقعاً استراتيجياً على شبه جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، مما يجعلها سهلة الدفاع وصعبة الحصار من البر والبحر.
  - كانت المهدية مدينة محصنة بأسوار قوية، وضمت قصر الخليفة، والمسجد الجامع، والمخازن، ودور الصناعة، وميناءً بحرياً مهماً.
  - أصبحت المهدية **عاصمة الدولة الفاطمية الأولى**، ورمزاً لقوتها البحرية والعسكرية في شمال أفريقيا. لعبت دوراً حاسماً في صمود الدولة أمام ثورة أبي يزيد[125].
- **مدن وقواعد أخرى:** إلى جانب المهدية، اهتم الفاطميون بتحصين المدن القائمة (مثل القيروان) وبناء قواعد عسكرية أخرى في المناطق التي سيطروا عليها لضمان الأمن والاستقرار والسيطرة على طرق المواصلات.

---

[124] **المرتزقة:** جنود أو محاربون يُقاتلون مقابل أجر، دون انتماء قومي أو ديني، ويُستَخدَمون غالبًا في الحروب لحساب من يدفع لهم.

[125] **أبو يزيد الخارجي:** قائد ثورة كبرى ضد الدولة الفاطمية في المغرب خلال القرن 10م، كان يتبع المذهب الإباضي، وعُرف بلقب "صاحب الحمار"، وكاد يُسقط الدولة الفاطمية في بداياتها.

3. التوسع غرباً نحو المغرب الأقصى وشرقاً نحو مصر

بعد أن تمكن الفاطميون من ترسيخ حكمهم نسبياً في إفريقية، بدأوا في التوسع لتشمل دولتهم كامل شمال أفريقيا، ثم التطلع إلى الهدف الأكبر: غزو مصر والتوجه نحو المشرق.

- **التوسع غرباً:** وجه الفاطميون حملات عسكرية نحو الغرب، لضم منطقة المغرب الأقصى (المغرب حالياً) إلى دولتهم. واجهوا في هذه الجبهة مقاومة من بعض القبائل البربرية المحلية، ومن دولة الأمويين في الأندلس التي كانت تنافسهم على النفوذ في شمال أفريقيا. تمكن الفاطميون من السيطرة على أجزاء واسعة من المغرب الأقصى، ووصل نفوذهم إلى المحيط الأطلسي، وإن لم يتمكنوا من السيطرة عليها بالكامل بشكل دائم بسبب بعد المسافة عن العاصمة وصعوبة السيطرة على القبائل.
- **التوسع شرقاً نحو مصر:** كان غزو مصر هدفاً استراتيجياً حيوياً للفاطميين منذ بداية دولتهم. كانت مصر تمثل البوابة إلى المشرق، ومركزاً اقتصادياً وثقافياً مهماً، والسيطرة عليها ضرورية لتحقيق مشروعهم العالمي وإسقاط الخلافة العباسية في بغداد.

4. الدوافع السياسية والاقتصادية لغزو مصر

كانت هناك دوافع متعددة، سياسية واقتصادية ودينية، وراء إصرار الفاطميين على غزو مصر:

- **الهدف السياسي والديني الأكبر:** كان الهدف الأسمى للفاطميين هو **إسقاط الخلافة العباسية في بغداد** وإعادة توحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية. كانت مصر تمثل الجسر البري الرئيسي بين شمال أفريقيا والمشرق، والسيطرة عليها ضرورية للانطلاق نحو الشام والعراق.
- **الموقع الاستراتيجي لمصر:** تقع مصر في قلب العالم الإسلامي، وتسيطر على طرق التجارة الرئيسية بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، وبين أفريقيا والمشرق. السيطرة على مصر تعني السيطرة على هذه الطرق الحيوية ومواردها الاقتصادية.
- **الثروة الاقتصادية لمصر:** كانت مصر بلداً غنياً بمواردها الزراعية (وخاصة القمح) وموقعها التجاري. كانت إيرادات مصر المالية ضخمة، والسيطرة عليها ستوفر للدولة الفاطمية الموارد اللازمة لتمويل جيوشها، وبناء أسطولها، ومواجهة خصومها.

- **ضعف حكم الإخشيديين في مصر:** في منتصف القرن الرابع الهجري، كانت مصر تحت حكم الدولة الإخشيدية، وهي إمارة مستقلة اسمياً عن العباسيين. عانت الدولة الإخشيدية في أواخر أيامها من الضعف الداخلي، والصراعات على السلطة، وسوء الإدارة، مما جعلها هدفاً سهلاً للغزو الفاطمي.
- **قرب مصر جغرافياً من إفريقية:** مقارنة بالمسافة إلى بغداد، كانت مصر قريبة نسبياً من إفريقية، مما يسهل عملية الغزو وإرسال الإمدادات.

لهذه الأسباب مجتمعة، أصبحت مصر هي الهدف الاستراتيجي الأهم للدولة الفاطمية بعد ترسيخ حكمها في شمال أفريقيا. بدأ الفاطميون في إرسال حملات عسكرية متتالية لغزو مصر، وإن كانت الحملات الأولى لم تنجح.

شهدت الفترة الأولى من تاريخ الدولة الفاطمية جهوداً مكثفة لترسيخ الحكم في شمال أفريقيا ومواجهة التحديات الداخلية، بالإضافة إلى بناء قواعد قوية مثل المهدية[126]. ومع استقرار الأمور نسبياً، اتجهت أنظار الفاطميين نحو الشرق، وتحديداً نحو مصر، مدفوعين بدوافع سياسية ودينية واقتصادية قوية، تمهيداً لتحقيق مشروعهم العالمي ومواجهة الخلافة العباسية.

---

[126] **المهدية:** مدينة أسسها عبيد الله المهدي سنة 921م (309هـ) في تونس، وجعلها عاصمةً للدولة الفاطمية، وسُميت بهذا الاسم نسبةً إليه.

المبحث الثالث: فتح مصر وتأسيس القاهرة: قلب الدولة الفاطمية

بعد أن تمكن الفاطميون من ترسيخ أقدامهم في شمال أفريقيا وبناء دولتهم هناك، ظلَّت أنظارهم تتجه شرقاً نحو مصر. لم تكن مصر مجرد ولاية أخرى يسعون لضمها، بل كانت هدفاً استراتيجياً حيوياً، يمثل البوابة إلى المشرق، والمركز الاقتصادي والثقافي الذي لا غنى عنه لتحقيق مشروعهم العالمي بإسقاط الخلافة العباسية والسيطرة على العالم الإسلامي. كان فتح مصر حدثاً فاصلاً في تاريخ الدولة الفاطمية، ونقطة تحول نقلت مركز ثقلها من المغرب إلى قلب العالم الإسلامي.

1. الحملات الفاطمية لغزو مصر والصعوبات التي واجهتها

لم يكن فتح مصر مهمة سهلة، فقد حاول الفاطميون غزوها عدة مرات قبل أن يكتب لهم النجاح. واجهت الحملات الفاطمية الأولى صعوبات وتحديات كبيرة حالت دون تحقيق هدفها.

- **الحملة الأولى (301هـ / 914م):** كانت أولى المحاولات الفاطمية لغزو مصر في عهد الإمام المهدي عبيد الله. قاد الجيش الفاطمي حباسة بن يوسف. تمكن الجيش الفاطمي من دخول الفيوم والأشمونين، لكنه واجه مقاومة من جيش الدولة العباسية بقيادة مؤنس الخادم. عانت الحملة الفاطمية من نقص الإمدادات، وعدم معرفة طبيعة البلاد، ومقاومة السكان المحليين الذين لم يكونوا على استعداد لتقبل الحكم الفاطمي بسهولة. انتهت الحملة بالهزيمة وانسحاب الجيش الفاطمي من مصر.
- **الحملة الثانية (307هـ / 919م):** حاول الفاطميون مرة أخرى غزو مصر في عهد الإمام المهدي أيضاً. قاد الجيش هذه المرة ولي العهد القائم بأمر الله (ابن المهدي). كانت هذه الحملة أكبر وأكثر استعداداً، وتمكن الجيش الفاطمي من السيطرة على الإسكندرية والفيوم. لكن مرة أخرى، واجهوا مقاومة شديدة من الجيش العباسي بقيادة مؤنس الخادم، بالإضافة إلى صعوبات في التوغل في عمق البلاد. استمر القتال لعدة أشهر، وعانى الجيش الفاطمي من الإرهاق ونقص المؤن، مما اضطرهم في النهاية إلى الانسحاب من مصر عام 308هـ.
- **الحملات اللاحقة في عهد القائم والمنصور:** استمرت المحاولات الفاطمية لغزو مصر في عهد الخليفة القائم بأمر الله والخليفة المنصور بن القائم، ولكنها لم تنجح في تحقيق اختراق حقيقي أو السيطرة على البلاد بشكل دائم.

- كانت هذه الحملات تصطدم بقوة الدفاعات العباسية، والصعوبات اللوجستية، وعدم الاستقرار الداخلي في شمال أفريقيا الذي كان يشغل الفاطميين (مثل ثورة أبي يزيد).

أظهرت هذه الحملات الأولى أن غزو مصر يتطلب استعداداً أكبر، وتنظيماً أدق، واستغلالاً لظروف ضعف في الجانب المصري، بالإضافة إلى قيادة عسكرية فذة قادرة على تجاوز التحديات.

2. نجاح جوهر الصقلي في فتح مصر عام 358هـ (969م)

بعد هذه المحاولات الفاشلة، جاءت الفرصة المواتية في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (حكم 341-365هـ / 953-975م). كان المعز لدين الله خليفة قوياً وحكيماً، اهتم بتعزيز قوة الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا، وتأمين حدودها، وقمع الثورات الداخلية، والاستعداد جيداً لتحقيق حلم أجداده في غزو مصر.

- **الاستعداد للحملة الحاسمة:** أعد المعز لدين الله حملة عسكرية ضخمة ومجهزة تجهيزاً كاملاً لغزو مصر. تم اختيار القائد المناسب لهذه المهمة الجسيمة: **جوهر الصقلي** (توفي 386هـ / 996م)، وهو قائد عسكري بارع، وإداري كفء، ومن أبرز موالي الفاطميين. زود المعز جوهر بجيش كبير، ومال وفير، وتجهيزات عسكرية ولوجستية ضخمة، بالإضافة إلى تعليمات دقيقة حول كيفية التعامل مع أهل مصر.
- **الحملة والزحف نحو مصر:** في **عام 358هـ (969م)**، انطلق جوهر الصقلي بجيشه من القيروان متجهاً نحو مصر. كان توقيت الحملة مثالياً، حيث كانت الدولة الإخشيدية في مصر تعاني من ضعف شديد، وصراعات داخلية على السلطة بين الأمراء، وسوء إدارة، وتدهور اقتصادي، واستياء عام بين السكان. لم تجد حملة جوهر مقاومة تذكر في طريقها إلى مصر.
- **دخول الفسطاط وتسليم البلاد:** وصل جوهر الصقلي بجيشه إلى مشارف الفسطاط (عاصمة مصر حينها). لم يتمكن حكام مصر الإخشيديون من حشد قوة كافية لمواجهة الجيش الفاطمي. دخل جوهر الصقلي الفسطاط دون قتال كبير، وتم تسليم البلاد له. كان فتح مصر سريعاً وميسراً، ويرجع ذلك بشكل أساسي إلى ضعف الدولة الإخشيدية واستعداد الفاطميين الجيد.

- **التعامل مع أهل مصر:** طبق جوهر الصقلي تعليمات المعز لدين الله في التعامل مع أهل مصر. فقد منحهم الأمان على أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم، ولم يتعرض لأحد بسوء، واحترم عقائدهم (رغم اختلاف المذهب). هذا التعامل الحكيم أسهم في استقرار الأوضاع بسرعة وقبول أهل مصر للحكم الفاطمي نسبياً.

كان فتح مصر على يد جوهر الصقلي إنجازاً عظيماً للدولة الفاطمية، وحقق لهم هدفاً استراتيجياً طالما سعوا إليه، وفتح لهم الباب نحو المشرق.

3. تأسيس مدينة القاهرة لتكون عاصمة جديدة للدولة الفاطمية

بعد فتح مصر، رأى جوهر الصقلي ضرورة بناء عاصمة جديدة للدولة الفاطمية، تكون قريبة من الفسطاط ولكن مستقلة عنها، لتكون مقراً للخليفة الفاطمي وجيشه، ورمزاً للدولة الجديدة في مصر.

- **اختيار الموقع:** اختار جوهر الصقلي موقعاً شمال الفسطاط، يتميز بموقعه الاستراتيجي وسهولة الدفاع عنه.
- **بدء البناء:** في **عام 358هـ (969م)**، بعد فتح مصر مباشرة، أمر جوهر الصقلي ببدء بناء المدينة الجديدة، التي سميت في البداية "المنصورية" (تيمناً بمدينة المنصورية التي بناها الفاطميون في إفريقية)، ثم عُرفت لاحقاً باسم **"القاهرة"**.
- **تصميم المدينة:** تم تصميم القاهرة لتكون مدينة ملكية، تضم قصر الخليفة الفاطمي الفخم (القصر الشرقي الكبير)، والمسجد الجامع (الجامع الأزهر)، ومساكن الجند والخدم، ومرافق الدولة. كانت المدينة محاطة بأسوار قوية لحمايتها.
- **الجامع الأزهر:** من أبرز معالم القاهرة التي بناها الفاطميون هو **الجامع الأزهر**، الذي بدأ بناؤه عام 359هـ (970م). لم يكن الأزهر مجرد مسجد للصلاة، بل كان **جامعة علمية كبرى**، وقبلة لطلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ومركزاً رئيسياً لنشر المذهب الإسماعيلي والدعوة الفاطمية.

أصبحت القاهرة، منذ تأسيسها، **عاصمة الدولة الفاطمية الجديدة**، ومركزاً سياسياً، وإدارياً، وعسكرياً، وثقافياً، ودينياً للإمبراطورية الفاطمية.

4. انتقال مركز الخلافة الفاطمية من المهدية إلى القاهرة وأثر ذلك

كان فتح مصر وتأسيس القاهرة يعني **انتقال مركز ثقل الدولة الفاطمية من المهدية في شمال أفريقيا إلى القاهرة في مصر**. هذا الانتقال كان له آثار عميقة على الدولة الفاطمية وعلى العالم الإسلامي ككل.

- **انتقال الخليفة:** في عام 362هـ (973م)، انتقل الخليفة المعز لدين الله بنفسه من المهدية إلى القاهرة، ومعه حاشيته وأهل بيته وكنوز الدولة. كان هذا الانتقال إعلاناً رسمياً بأن القاهرة أصبحت العاصمة الجديدة للخلافة الفاطمية.
- **الآثار على الدولة الفاطمية:**
  - **تعزيز قوة الدولة:** أصبحت الدولة الفاطمية أقوى بكثير بعد انتقالها إلى مصر. كانت مصر أغنى وأكثر سكاناً وأكثر استقراراً من شمال أفريقيا، مما وفر للدولة الفاطمية الموارد اللازمة لتمويل جيوشها، وبناء أسطولها، ومواجهة خصومها.
  - **التركيز على المشرق:** أصبح اهتمام الفاطميين منصباً بشكل أكبر على المشرق (الشام والحجاز والعراق) لتحقيق مشروعهم العالمي بإسقاط العباسيين.
  - **إضعاف نفوذهم في المغرب:** مع انتقال مركز الثقل إلى مصر، ضعف نفوذ الفاطميين في شمال أفريقيا تدريجياً، وظهرت دويلات مستقلة هناك (مثل الزيريين[127] الذين كانوا ولاة للفاطميين ثم استقلوا).
- **الآثار على العالم الإسلامي:**
  - **ظهور خلافة منافسة قوية:** أصبح العالم الإسلامي يضم ثلاث قوى رئيسية تتنافس على السيادة: الخلافة العباسية السنية في بغداد، والخلافة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية في القاهرة، والإمارة (ثم الخلافة) الأموية السنية في الأندلس. هذا التنافس زاد من حالة الانقسام السياسي والمذهبي في العالم الإسلامي.

---

[127] **الزيريون:** أسرة بربرية من قبيلة صنهاجة، حكمت المغرب الأوسط (الجزائر) تحت راية الفاطميين، ثم استقلوا عنهم لاحقًا وأسّسوا دولتهم في القرن 10م.

- **القاهرة كمركز حضاري جديد:** أصبحت القاهرة، بفضل الفاطميين، مركزاً حضارياً وعلمياً ودينياً منافساً لبغداد وقرطبة. ازدهرت فيها العلوم والفنون والعمارة، وأصبح الأزهر منارة للعلم في العالم.
- **الصراع على الشام:** أصبح الصراع بين الفاطميين والعباسيين (ثم السلاجقة لاحقاً) على السيطرة على بلاد الشام أكثر حدة، حيث كانت الشام تمثل خط الدفاع الأول عن مصر، والطريق إلى الحجاز والعراق.

كان فتح مصر وتأسيس القاهرة حدثاً محورياً في تاريخ الدولة الفاطمية، ونقطة تحول نقلت مركز قوتها إلى قلب العالم الإسلامي. مكنت مصر الفاطميين من تعزيز قوتهم، ومواجهة خصومهم بفعالية أكبر، والتطلع إلى تحقيق مشروعهم العالمي. كما أدى هذا الانتقال إلى ظهور القاهرة كمركز حضاري جديد، وزيادة حدة التنافس والصراع على السيادة في العالم الإسلامي.

المبحث الرابع: الصراع على النفوذ في الشام والشرق: تحدي الخلافة العباسية

بعد أن أحكم الفاطميون سيطرتهم على مصر وجعلوها مركزاً لدولتهم، لم يكتفوا بذلك. فمشروعهم كان أكبر من مجرد دولة إقليمية في شمال أفريقيا ومصر؛ كان هدفهم الأساسي هو **إسقاط الخلافة العباسية السنية في بغداد** والسيطرة على العالم الإسلامي كله، ونشر مذهبهم الشيعي الإسماعيلي. ولتحقيق هذا الهدف، كان عليهم التوجه شرقاً، وتحديداً نحو **بلاد الشام**، التي كانت تمثل خط الدفاع الأول عن مصر، وبوابة العبور إلى الحجاز والعراق، ومسرحاً رئيسياً للصراع على النفوذ والسيادة في العالم الإسلامي.

1. طموح الفاطميين للسيطرة على بلاد الشام ومواجهة القوى المحلية والعباسيين

كانت بلاد الشام (سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن حالياً) ذات أهمية استراتيجية قصوى للفاطميين، لأسباب متعددة:

- **البوابة إلى المشرق:** كانت الشام هي الطريق البري الرئيسي الذي يربط مصر بقلب العالم الإسلامي في المشرق (الحجاز، العراق، بلاد فارس). السيطرة عليها ضرورية للانطلاق نحو الأهداف الكبرى في الشرق.
- **السيطرة على الحجاز:** كانت السيطرة على بلاد الشام تمهد الطريق للسيطرة على الحجاز (مكة والمدينة المنورة)، وهو هدف حيوي للفاطميين لإضفاء الشرعية الدينية على خلافتهم، وإثبات أحقيتهم بقيادة العالم الإسلامي كحراس للحرمين الشريفين، وهو الدور الذي كانت تقوم به الخلافة العباسية.
- **التهديد الأمني لمصر:** كانت الشام تمثل خط الدفاع الأول عن مصر. بقاء الشام في أيدي قوى معادية (سواء كانت تابعة للعباسيين أو مستقلة) كان يشكل تهديداً مباشراً لأمن مصر واستقرارها.
- **مواجهة القوى المحلية والعباسيين:** لم تكن الشام تحت سيطرة مركزية قوية في بداية العصر الفاطمي في مصر. كانت مقسمة بين ولاة تابعين اسمياً للعباسيين، وقوى محلية مستقلة أو شبه مستقلة. كان على الفاطميين مواجهة هذه القوى المحلية، بالإضافة إلى أي محاولة من العباسيين لتعزيز نفوذهم في المنطقة.

لذلك، بدأ الفاطميون، بعد استقرارهم في مصر، في توجيه حملات عسكرية متتالية نحو بلاد الشام، بهدف ضمها إلى دولتهم.

2. حروب النفوذ بين الفاطميين والعباسيين (ثم السلاجقة لاحقاً) للسيطرة على دمشق والمناطق الساحلية

شكلت بلاد الشام مسرحاً لصراع طويل ومرير على النفوذ بين الفاطميين والقوى التي كانت تسيطر على المشرق.

- **الصراع مع القوى التابعة للعباسيين:** في البداية، واجه الفاطميون ولاة وأمراء في الشام كانوا تابعين اسمياً للخلافة العباسية في بغداد، أو كانوا يتمتعون باستقلال ذاتي واسع. كانت دمشق، كونها مدينة كبرى وعاصمة سابقة، هدفاً رئيسياً للفاطميين.
- **حروب السيطرة على المدن الكبرى:** شهدت مدن الشام الكبرى، مثل **دمشق**، **حلب**، **حمص**، **طرابلس**، **عكا**، **بيت المقدس**، صراعات متكررة بين الجيوش الفاطمية والقوى المحلية المدعومة أحياناً من بغداد. كانت السيطرة على هذه المدن تتغير بين الفينة والأخرى حسب قوة الجيوش وتغير التحالفات.
- **ظهور السلاجقة كخصم رئيسي:** في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ظهرت قوة جديدة في المشرق هي **السلاجقة الأتراك**. تمكن السلاجقة من السيطرة على بغداد وبلاد فارس وأجزاء واسعة من الشام والأناضول. كان السلاجقة سنة متعصبين، ورأوا في الفاطميين خصماً مذهبياً وسياسياً رئيسياً. تحول الصراع على الشام ليصبح صراعاً بين الفاطميين (الشيعة الإسماعيلية) والسلاجقة (السنة)، مدعومين اسمياً من الخلافة العباسية.
  - كان الصراع بين الفاطميين والسلاجقة على السيطرة على دمشق وحلب عنيفاً ومستمراً. تمكن السلاجقة في النهاية من السيطرة على معظم بلاد الشام الداخلية (مثل دمشق وحلب)، بينما احتفظ الفاطميون بالسيطرة على بعض المدن الساحلية في جنوب الشام (مثل عسقلان).
- **التأثير على السكان:** عانى سكان بلاد الشام من هذه الحروب المتواصلة، التي أثرت على استقرارهم وأمنهم واقتصادهم.

3. دور الأسطول الفاطمي في البحر الأبيض المتوسط والصراع البحري مع البيزنطيين

لم يقتصر صراع الفاطميين على النفوذ على البر، بل امتد ليشمل البحر الأبيض المتوسط، حيث لعب **الأسطول الفاطمي** دوراً مهماً.

- **وراثة وتطوير الأسطول:** ورث الفاطميون أسطولاً بحرياً قوياً من دولة الأغالبة في شمال أفريقيا. بعد انتقالهم إلى مصر، اهتموا بتطوير هذا الأسطول في موانئ مصر والشام، وجعلوه قوة بحرية ضاربة.
- **تأمين السواحل:** كان الدور الرئيسي للأسطول الفاطمي هو تأمين سواحل الدولة المترامية الأطراف (من شمال أفريقيا إلى الشام) ضد أي هجوم بحري من القوى المعادية، وخاصة الإمبراطورية البيزنطية.
- **الصراع البحري مع البيزنطيين:** كانت الإمبراطورية البيزنطية لا تزال قوة بحرية مهمة في شرق البحر المتوسط. دخل الفاطميون في صراع بحري مستمر مع البيزنطيين للسيطرة على الممرات الملاحية والجزر. تمكن الفاطميون من السيطرة على بعض الجزر مثل **كريت** لفترة من الزمن، وشنوا حملات على سواحل آسيا الصغرى والجزر البيزنطية.
- **دعم الحملات البرية:** استخدم الفاطميون أسطولهم لدعم حملاتهم البرية في الشام، عن طريق نقل الجند والإمدادات بحراً، ومحاصرة المدن الساحلية من البحر.
- **التجارة البحرية:** ساهم الأسطول في حماية طرق التجارة البحرية التي كانت تمر عبر موانئ الدولة الفاطمية، مما عزز من قوتها الاقتصادية.

رغم أن الأسطول الفاطمي لم يتمكن من القضاء على الأسطول البيزنطي بشكل كامل، إلا أنه شكل قوة بحرية مهمة في البحر المتوسط، وساهم في صراع الفاطميين على النفوذ في المنطقة.

4. التحدي الفاطمي للسيادة الدينية والسياسية للخلافة العباسية في العالم الإسلامي

كان الصراع بين الفاطميين والعباسيين صراعاً وجودياً على **السيادة الدينية والسياسية** على العالم الإسلامي. لم يكن الفاطميون مجرد دولة مستقلة، بل كانوا خلافة منافسة تدعي أنها أحق بالخلافة من العباسيين.

- **المطالبة بالخلافة:** ادعى الفاطميون أنهم أحق بالخلافة لكونهم من نسل فاطمة الزهراء، وأنهم الأئمة المعصومون الذين يجب على المسلمين مبايعتهم. هذا الادعاء كان تحدياً مباشراً للشرعية الدينية والسياسية للخلافة العباسية التي كانت تستمد شرعيتها من البيعة والوراثة العباسية.
- **الدعوة الإسماعيلية:** استخدم الفاطميون الدعوة (البروباغندا) لنشر مذهبهم الشيعي الإسماعيلي في جميع أنحاء العالم الإسلامي، بما في ذلك داخل أراضي الدولة العباسية. كان لديهم شبكة من الدعاة السريين الذين يعملون على كسب الأنصار وتقويض سلطة العباسيين. كان الجامع الأزهر في القاهرة مركزاً رئيسياً لهذه الدعوة.
- **السيطرة على الحجاز:** كان السيطرة على مكة والمدينة المنورة هدفاً حيوياً للفاطميين لإثبات أحقيتهم بقيادة العالم الإسلامي. تمكن الفاطميون من السيطرة على الحجاز في فترات مختلفة، وكانوا يقيمون الخطبة باسم الخليفة الفاطمي في الحرمين الشريفين، مما كان يمثل ضربة قوية لهيبة الخلافة العباسية.
- **المنافسة الحضارية:** سعى الفاطميون إلى جعل القاهرة مركزاً حضارياً منافساً لبغداد، لجذب العلماء والتجار وإظهار عظمة دولتهم. ازدهرت القاهرة في عهدهم، وأصبحت من أكبر وأجمل مدن العالم.
- **التأثير على العالم الإسلامي:** أدى هذا التنافس بين الخلافة العباسية والفاطمية إلى انقسام العالم الإسلامي إلى معسكرين رئيسيين، سني وشيعي، مما أثر على وحدة المسلمين وساهم في ضعفهم أمام الأخطار الخارجية اللاحقة (مثل الصليبيين والمغول).

لقد، شكل صراع الفاطميين على النفوذ في الشام والشرق تحدياً كبيراً للخلافة العباسية السنية. سعى الفاطميون للسيطرة على بلاد الشام كبوابة للمشرق وللحجاز، ودخلوا في حروب نفوذ مستمرة مع القوى المحلية والعباسيين ثم السلاجقة. كما بنوا أسطولاً قوياً للسيطرة على البحر المتوسط. كان هذا الصراع يعكس طموح الفاطميين لإقامة خلافة عالمية منافسة للخلافة العباسية، وقد أثر بعمق على المشهد السياسي والمذهبي في العالم الإسلامي.

المبحث الخامس: تحديات داخلية ونهاية الدولة الفاطمية

على الرغم من القوة التي اكتسبتها الدولة الفاطمية بعد سيطرتها على مصر وتأسيس القاهرة، ورغم طموحها الكبير في السيطرة على العالم الإسلامي وتحدي الخلافة العباسية، إلا أن مسيرتها لم تكن خالية من الصعاب. فإلى جانب صراعاتها الخارجية المستمرة على النفوذ في الشام والبحر المتوسط، واجهت الدولة الفاطمية **تحديات داخلية جسيمة** أدت تدريجياً إلى إضعافها من الداخل، وجعلتها عرضة للسقوط في نهاية المطاف. كانت هذه التحديات بمثابة عوامل تآكلت معها قوة الدولة، ومهدت الطريق لنهايتها على يد قوة صاعدة جديدة.

1. الصراعات الداخلية على السلطة: تآكل من داخل القصر والجيش

لم تكن السلطة في الدولة الفاطمية مستقرة دائماً، بل شهدت صراعات داخلية متعددة على مستويات مختلفة، أضعفت من تماسك الدولة ووحدتها.

- **الصراع بين الخلفاء:** رغم أن الخلافة كانت وراثية في البيت الفاطمي، إلا أن عملية انتقال السلطة لم تكن دائماً سلسة. حدثت صراعات بين أبناء الخليفة أو بين أفراد من الأسرة الحاكمة على من يتولى الخلافة، مما أدى إلى اضطرابات سياسية في بعض الفترات.
- **نفوذ الوزراء وتزايد سلطتهم:** مع مرور الوقت، بدأ نفوذ الوزراء في الدولة الفاطمية يتزايد بشكل كبير، خاصة في فترات ضعف بعض الخلفاء. أصبح الوزير هو الحاكم الفعلي للبلاد في كثير من الأحيان، يتحكم في شؤون الدولة، ويعين ويعزل الموظفين، بل ويفرض إرادته على الخليفة. برز وزراء أقوياء مثل **بدر الجمالي** وابنه **الأفضل شاهنشاه**، الذين سيطروا على مقاليد الأمور لفترة طويلة، وحولوا منصب الوزارة إلى منصب وراثي في أسرتهم. هذا التزايد في نفوذ الوزراء أضعف من سلطة الخليفة وقلل من دوره الفعلي في إدارة الدولة.
- **صراعات الجيش وتعدد مكوناته:** كان الجيش الفاطمي يتكون من عناصر متعددة من مختلف الأعراق (بربر، أتراك، سودانيون، صقالبة، وغيرهم). كانت هذه المكونات تتنافس فيما بينها على النفوذ والمكانة داخل الجيش والدولة، مما أدى إلى صراعات داخلية مسلحة بين فصائل الجيش المختلفة.

- كانت هذه الصراعات تضعف من قوة الجيش وتماسكه، وتؤثر على استقرار الدولة، وتستنزف مواردها، وتجعلها عاجزة عن مواجهة التحديات الخارجية بفعالية.

2. الأزمات الاقتصادية والاجتماعية: ضغوط على الدولة والمجتمع

إلى جانب الصراعات السياسية والعسكرية الداخلية، عانت الدولة الفاطمية في فترات مختلفة من أزمات اقتصادية واجتماعية أثرت على استقرارها ورضا رعاياها.

- **الأزمات الاقتصادية:** تعرضت مصر، قلب الدولة الفاطمية، لأزمات اقتصادية متكررة، مثل انخفاض منسوب النيل الذي كان يؤثر على الزراعة (مصدر الثروة الرئيسي)، وسوء الإدارة المالية في بعض الفترات، والضرائب الباهظة التي كانت تُفرض على السكان لتمويل نفقات الدولة والجيش والقصور الفخمة.
- **الأزمات الاجتماعية:** أدت الأزمات الاقتصادية، بالإضافة إلى الصراعات الداخلية وتدخل الجيش في شؤون الحياة اليومية، إلى تفاقم المشكلات الاجتماعية، مثل انتشار الفقر، وزيادة الفوضى وانعدام الأمن في بعض المناطق، وتذمر السكان من الأوضاع المعيشية.
- **التمييز المذهبي:** رغم أن الفاطميين كانوا يدعون إلى المساواة، إلا أنهم كانوا يفضلون أتباع مذهبهم الإسماعيلي في تولي المناصب العليا، مما أثار استياء غالبية السكان في مصر والشام الذين كانوا من أهل السنة. هذا التمييز المذهبي خلق نوعاً من التوتر الاجتماعي وعدم الرضا عن الحكم الفاطمي لدى قطاع كبير من الرعية.

3. ظهور خطر الحملات الصليبية وتأثيره على الدولة الفاطمية في الشام ومصر

في أواخر القرن الخامس الهجري (أواخر القرن الحادي عشر الميلادي)، ظهر خطر خارجي جديد على العالم الإسلامي، كان له تأثير كبير على الدولة الفاطمية: **الحملات الصليبية**.

- **وصول الصليبيين إلى الشام:** بعد أن دعا البابا أوربان الثاني في أوروبا إلى حملة عسكرية لاستعادة بيت المقدس من المسلمين، انطلقت الحملة الصليبية الأولى ووصلت إلى بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري.

- **استغلال ضعف المسلمين:** استغل الصليبيون حالة الانقسام والتناحر بين الدويلات الإسلامية في الشام (بين الفاطميين والسلاجقة والأمراء المحليين) ليتمكنوا من تحقيق انتصارات أولية والسيطرة على مناطق واسعة، وتأسيس ممالك صليبية في الساحل الشامي (مثل مملكة بيت المقدس اللاتينية، وإمارة أنطاكية، وكونتية طرابلس والرها).
- **تأثير الحملات الصليبية على الفاطميين:**
  - **فقدان السيطرة على جنوب الشام:** كانت الدولة الفاطمية تسيطر اسمياً أو فعلياً على بعض المدن الساحلية في جنوب الشام (مثل عسقلان). تمكن الصليبيون من السيطرة على هذه المدن تدريجياً، مما أدى إلى تراجع النفوذ الفاطمي في الشام.
  - **تهديد أمن مصر:** أصبح وجود الممالك الصليبية على حدود مصر الشمالية الشرقية يشكل تهديداً مباشراً لأمن مصر. شن الصليبيون حملات على مصر وحاولوا غزوها، مما اضطر الفاطميين إلى توجيه جزء كبير من جهودهم ومواردهم للدفاع عن مصر.
  - **زيادة التدخلات الخارجية:** أدت حروب الصليبيين إلى زيادة التدخلات الخارجية في شؤون بلاد الشام ومصر، وجعلت المنطقة مسرحاً لصراعات متعددة الأطراف.

4. ضعف الدولة في أواخر عهدها

تراكمت هذه التحديات الداخلية والخارجية على مر الزمن، مما أدى إلى **ضعف الدولة الفاطمية بشكل كبير في أواخر عهدها**.

- **ضعف الخلفاء المتأخرين:** في العقود الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية، جاء خلفاء ضعاف الشخصية، أو صغار السن، أو مرضى، مما زاد من نفوذ الوزراء وتدخلهم في شؤون الحكم.
- **سيطرة الوزراء على السلطة:** أصبح الوزراء هم الحكام الفعليين للبلاد، وكانوا يتصارعون فيما بينهم على السلطة، ويقومون بعزل وتعيين الخلفاء حسب مصالحهم، مما أدى إلى فوضى سياسية واضطراب في الحكم.

- **تدهور الجيش:** أثرت الصراعات الداخلية بين فصائل الجيش المختلفة على قوته وتماسكه. أصبح الجيش أقل كفاءة وأكثر انشغالاً بالصراعات الداخلية بدلاً من الدفاع عن حدود الدولة.
- **الأزمات المتفاقمة:** استمرت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية في التفاقم، مما زاد من استياء السكان وأضعف من دعمهم للدولة.
- **التهديدات المتزامنة:** كانت الدولة الفاطمية الضعيفة تواجه تهديدات متزامنة من عدة جبهات: الصليبيون في الشمال، والقوى السنية في الشام (مثل الزنكيين)[128]، بالإضافة إلى التحديات الداخلية.

5. نهاية الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي عام 567هـ (1171م)

في ظل هذا الضعف الذي وصلت إليه الدولة الفاطمية في مصر، ظهرت قوة جديدة في الشام بقيادة **نور الدين محمود زنكي**، الذي كان يسعى لتوحيد بلاد الشام ومصر لمواجهة الخطر الصليبي.

- **التدخل في شؤون مصر:** في أواخر عهد الدولة الفاطمية، كان الوزراء يتصارعون على السلطة في القاهرة، وكان بعضهم يستنجد بالقوى الخارجية. استغل نور الدين زنكي هذا الوضع للتدخل في شؤون مصر، وأرسل جيوشاً بقيادة قائده **أسد الدين شيركوه** وابن أخيه **صلاح الدين يوسف بن أيوب**.
- **صعود صلاح الدين:** تمكن صلاح الدين من إثبات كفاءته في الصراع على النفوذ في مصر، وبعد وفاة عمه شيركوه، أصبح هو الوزير الفعلي للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله.
- **إسقاط الخلافة الفاطمية:** كان صلاح الدين سنياً، وكان يعمل على إعادة مصر إلى التبعية الاسمية للخلافة العباسية السنية في بغداد، وتوحيد العالم الإسلامي السني لمواجهة الصليبيين. في **عام 567هـ (1171م)**، وفي يوم الجمعة من شهر محرم، أمر صلاح الدين بإسقاط اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة في مساجد مصر، وإقامة الخطبة باسم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله. كان هذا الإجراء بمثابة **إعلان رسمي بنهاية الدولة الفاطمية**.

---

[128] **الزنكيون:** سلالة تركمانية حكمت مناطق في سوريا والعراق في القرنين الـ12 والـ13، واشتهرت بدورها في مقاومة الحملات الصليبية، خاصة على يد نور الدين زنكي.

- **وفاة آخر الخلفاء الفاطميين:** توفي الخليفة الفاطمي الأخير العاضد لدين الله بعد أيام قليلة من إسقاط اسمه من الخطبة، لتنتهي بذلك سلالة الخلفاء الفاطميين في مصر.
- **قيام الدولة الأيوبية:** بعد إسقاط الدولة الفاطمية، أصبح صلاح الدين الأيوبي هو الحاكم الفعلي لمصر، وأسس الدولة الأيوبية، التي وحدت مصر والشام تحت راية سنية، ولعبت دوراً حاسماً في مواجهة الحملات الصليبية واستعادة بيت المقدس.

الجهاد في الدولة الأيوبية

تُعتبر الدولة الأيوبية من أبرز الدول الإسلامية التي برزت في العصور الوسطى، ولا سيما في ميدان الجهاد الذي كان أحد أعمدتها الأساسية. تأسست الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، في وقتٍ كانت فيه الأمة الإسلامية تواجه تهديدات كبيرة من الحملات الصليبية التي غزت أراضيها واحتلت القدس وأجزاء واسعة من بلاد الشام.

بدأت الدولة الأيوبية من مصر، حيث تمكن صلاح الدين من توحيد مصر وسوريا وشبه الجزيرة العربية تحت رايته، وكان هدفه الرئيسي استعادة الأراضي الإسلامية التي احتلها الصليبيون، وفي مقدمتها القدس. لذلك، شكّل الجهاد في الدولة الأيوبية سياسة مركزية ونهجًا ثابتًا في كل مراحل حكمها.

معنى الجهاد في الدولة الأيوبية

في الدولة الأيوبية، لم يكن الجهاد مجرد قتال عسكري فقط، بل كان مفهومًا شاملاً يشمل الدفاع عن الدين، وحماية الأراضي الإسلامية، ونشر العدل وتحقيق الوحدة بين المسلمين. كان الجهاد أيضًا وسيلة لاستعادة الهيبة الإسلامية في وجه الغزاة الذين حاولوا تقسيم العالم الإسلامي وتقويض قوته.

اهتم الأيوبيون بتعبئة الموارد المالية والعسكرية لدعم الجهاد، حيث شُكّلت جيوش قوية ومدربة، وتم بناء القلاع والحصون في مناطق الصراع. كما استُخدمت الخطابة والدعوة لتعبئة المسلمين وتحفيزهم على القتال، وكان العلماء والفقهاء يلعبون دورًا مهمًا في تأصيل الجهاد شرعًا.

الحملات الصليبية والدور الأيوبي

خلال فترة حكم الدولة الأيوبية، كانت الحملات الصليبية تشكل خطرًا دائمًا على الأرض الإسلامية، خصوصًا بعد سقوط القدس عام 1099م بيد الصليبيين. قام صلاح الدين الأيوبي بتنظيم حملات عسكرية ناجحة لاستعادة القدس، وتمكن من تحريرها عام 1187م بعد معركة حطين الشهيرة التي اعتبرها المؤرخون نقطة تحول في الصراع بين المسلمين والصليبيين.

حافظت الدولة الأيوبية على سياستها الجهادية من خلال استمرار القتال ضد الصليبيين، ولم تقتصر فقط على الدفاع بل كانت تنطلق في حملات استباقية لاستعادة الأراضي المفقودة. كما عملت على توحيد القبائل العربية والبربرية والممالك الإسلامية المختلفة تحت راية واحدة، بهدف تقوية الجبهة الإسلامية في مواجهة العدوان الخارجي.

الجهاد في فكر صلاح الدين الأيوبي

كان لصلاح الدين رؤية متقدمة للجهاد، حيث لم ينظر إليه كهدف فردي، بل كمسؤولية جماعية تقع على عاتق كل مسلم. حرص على أن يكون الجهاد مقيدًا بضوابط شرعية، فكان يعامل الأسرى معاملة إنسانية، ويرفض قتل المدنيين، ويحترم المقدسات الدينية، سواء الإسلامية أو المسيحية، خاصة بعد استعادته القدس حيث سمح بحرية العبادة للأديان الأخرى.

كما ربط صلاح الدين الجهاد بالعدالة الاجتماعية، فكان يؤمن بأن استقرار الدولة ونشر العدل من أهم عوامل قوة الجهاد وتحقيق النصر. لذلك حرص على إصلاح الإدارة وتحسين حياة الناس، ما أكسبه شعبية واسعة ودعمًا قويًا من الأمة الإسلامية.

دور الجهاد في تقوية الدولة الأيوبية

أسهم الجهاد في توحيد الصفوف الإسلامية تحت راية الأيوبيين، وفرض هيبة الدولة على القوى المحلية والإقليمية. ساعدت الحملات العسكرية على توسيع حدود الدولة واستعادة مناطق حيوية في بلاد الشام، مصر، واليمن. كما أدت الحروب إلى تطور كبير في فنون الحرب والتنظيم العسكري، وشجعت على بناء التحصينات والقلاع التي لا تزال آثارها موجودة حتى اليوم.

كما كان الجهاد أداة سياسية للدولة الأيوبية، حيث استخدمته للحفاظ على وحدتها الداخلية، وتحقيق التوازن بين القبائل والفصائل المختلفة داخل الدولة. وكانت الدعوة للجهاد وسيلة لتعزيز الولاء للدولة وحثّ الناس على التضحية من أجلها.

الجهاد بعد صلاح الدين

استمر الجهاد في عهد خلفاء صلاح الدين، رغم التحديات التي واجهتها الدولة الأيوبية من الداخل ومن الخارج، مثل الصراعات بين الأمراء، وضغط الصليبيين، وظهور المغول فيما بعد. حافظت الدولة على روح الجهاد، ودافعت عن حدودها بكل ما أوتيت من قوة، وكانت تحاول استعادة المزيد من الأراضي.

لكن مع الوقت، تراجعت قوة الدولة الأيوبية تدريجيًا بسبب عوامل عدة منها الصراعات الداخلية والضغوط الخارجية، مما سمح للقوى الأخرى مثل المماليك بالظهور وملء الفراغ.

يمكن القول إن الجهاد كان القلب النابض للدولة الأيوبية، وسببًا رئيسيًا في بناء وحدتها وقوتها. لم يكن الجهاد عند الأيوبيين مجرد قتال، بل كان مشروعًا حضاريًا لتحقيق العدل، وحماية الهوية الإسلامية، ومواجهة أعداء الأمة. إن إرث الجهاد الأيوبي بقي نموذجًا يُحتذى به في التاريخ الإسلامي، خاصة في مقاومة الاحتلال والدفاع عن الأرض والعقيدة.

خلاصة الفصل الخامس: الدولة الفاطمية: صراع على السيادة

في هذا الفصل، استعرضنا مسيرة الدولة الفاطمية، وهي قوة كبرى ظهرت في شمال أفريقيا وتحدت الخلافة العباسية السنية على السيادة على العالم الإسلامي. كانت مسيرة الفاطميين، الذين ادعوا أحقيتهم بالخلافة لنسبهم إلى فاطمة الزهراء، مسيرة حافلة بالصراع الداخلي والخارجي على النفوذ والمشروعية.

في **المبحث الأول: ظهور الدعوة الفاطمية وتأسيس الدولة في المغرب**، تناولنا أصول الدعوة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية، وكيف تميزت بسريتها وتنظيمها المحكم. بيّنا كيف انتشرت هذه الدعوة في شمال أفريقيا، مستغلةً عوامل الاستياء من حكم الأغالبة، وكيف تمكن دعاتها، وعلى رأسهم أبو عبد الله الشيعي، من كسب تأييد قبائل كتامة البربرية. استعرضنا الصراع المسلح مع دولة الأغالبة وإسقاطها، وإعلان قيام الدولة الفاطمية في إفريقية (تونس) عام 296هـ بقيادة الإمام المهدي عبيد الله.

ثم انتقلنا في **المبحث الثاني: ترسيخ الحكم في المغرب والتوجه شرقاً**، إلى جهود الفاطميين لتثبيت أركان دولتهم الفتية في شمال أفريقيا، ومواجهة الثورات الداخلية المتعددة من قوى مختلفة (خوارج، سنة، قبائل). رأينا كيف اهتم الفاطميون ببناء المدن والقواعد العسكرية المحصنة، مثل مدينة المهدية التي كانت عاصمتهم الأولى. وتناولنا كيف بدأ الفاطميون في التوسع غرباً نحو المغرب الأقصى وشرقاً نحو مصر، مع التركيز على الدوافع السياسية والاقتصادية والدينية القوية التي حركتهم لغزو مصر.

في **المبحث الثالث: فتح مصر وتأسيس القاهرة: قلب الدولة الفاطمية**، استعرضنا الحملات الفاطمية المتكررة لغزو مصر والصعوبات التي واجهتها في البداية. بيّنا كيف تحقق النجاح في النهاية على يد القائد البارع جوهر الصقلي في عام 358هـ (969م)، مستغلاً ضعف الدولة الإخشيدية في مصر. وتناولنا كيف قام جوهر الصقلي بتأسيس مدينة القاهرة لتكون عاصمة جديدة للدولة الفاطمية، وكيف أصبح الجامع الأزهر مركزاً دينياً وعلمياً مهماً. وأخيراً، ناقشنا الأثر العميق لانتقال مركز الخلافة الفاطمية من المهدية إلى القاهرة، وكيف عزز ذلك من قوة الدولة ونقل مركز ثقلها إلى قلب العالم الإسلامي.

وفي **المبحث الرابع: الصراع على النفوذ في الشام والشرق: تحدي الخلافة العباسية**، سلطنا الضوء على طبيعة صراع الفاطميين المستمر على السيادة والنفوذ. رأينا كيف كان هدفهم

الأسمى هو إسقاط الخلافة العباسية، وكيف كانت بلاد الشام مسرحاً رئيسياً لهذا الصراع مع القوى المحلية والعباسيين ثم السلاجقة. استعرضنا حروب النفوذ للسيطرة على المدن الكبرى مثل دمشق، ودور الأسطول الفاطمي في البحر الأبيض المتوسط في الصراع مع البيزنطيين. وأكدنا على أن هذا الصراع كان تحدياً مباشراً للسيادة الدينية والسياسية للخلافة العباسية في العالم الإسلامي.

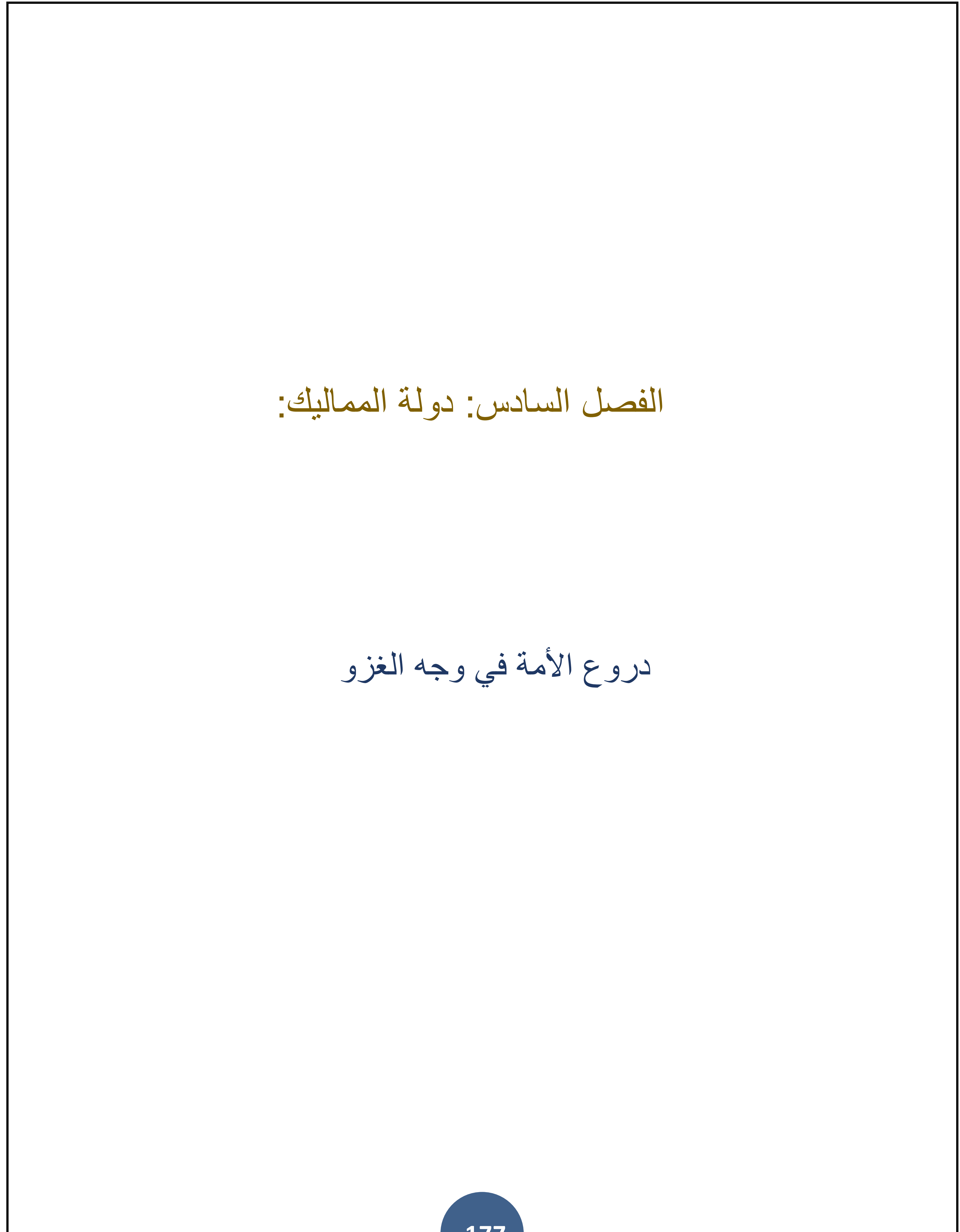
أخيراً، في **المبحث الخامس: تحديات داخلية ونهاية الدولة الفاطمية**، تناولنا عوامل الضعف الداخلية التي نخرت في جسد الدولة الفاطمية، مثل الصراعات الداخلية على السلطة بين الخلفاء والوزراء وفصائل الجيش، بالإضافة إلى الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والتمييز المذهبي الذي أثار استياء غالبية السكان. بيّنا كيف ظهر خطر الحملات الصليبية في الشام وأثر على الدولة الفاطمية، وكيف أدت هذه التحديات المتراكمة إلى ضعف الدولة في أواخر عهدها. وفي النهاية، استعرضنا كيف تمكن صلاح الدين الأيوبي من استغلال هذا الضعف لإنهاء حكم الفاطميين في مصر عام 567هـ (1171م) وإعادة البلاد إلى حظيرة العالم الإسلامي السني.

خلاصة مسيرة الدولة الفاطمية: بدأت كحركة دعوية سرية، تحولت إلى دولة قوية في شمال أفريقيا، ثم سيطرت على مصر وجعلتها مركزاً لإمبراطوريتها، وسعت لتحدي الخلافة العباسية والسيطرة على العالم الإسلامي، قبل أن تضعف وتسقط بسبب تحدياتها الداخلية والخارجية.

طبيعة صراعها على السيادة: كان صراعاً شاملاً، عسكرياً وسياسياً ودينياً ومذهبياً، مع الخلافة العباسية والقوى الأخرى، هدفه إثبات أحقية الفاطميين بالخلافة وقيادة الأمة.

إنجازاتها (خاصة في مصر والقاهرة): رغم طبيعتها المذهبية وصراعاتها، حققت الدولة الفاطمية إنجازات مهمة، أبرزها تأسيس مدينة القاهرة وجعلها مركزاً حضارياً عالمياً، وبناء الجامع الأزهر كمنارة للعلم، وتطوير الأسطول البحري، والازدهار الاقتصادي والحضاري الذي شهدته مصر في عهدهم.

عوامل ضعفها وسقوطها: تمثلت في الصراعات الداخلية على السلطة، تزايد نفوذ الوزراء وتدخل الجيش، الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، التمييز المذهبي، ظهور خطر الحملات الصليبية، وضعف الخلفاء المتأخرين، مما أدى إلى انهيارها أمام القوة الأيوبية الصاعدة.



الفصل السادس: دولة المماليك:

دروع الأمة في وجه الغزو

مقدمة الفصل السادس: دولة المماليك: دروع الأمة في وجه الغزو

بعد سقوط الدولة الأيوبية في مصر والشام في منتصف القرن السابع الهجري (منتصف القرن الثالث عشر الميلادي)، وفي فترة حرجة للغاية من تاريخ العالم الإسلامي، حيث كانت الأمة تواجه أعظم غزوتين في تاريخها الوسيط: **الخطر المغولي المدمر القادم من الشرق، والخطر الصليبي المستمر في بلاد الشام**، ظهرت على مسرح الأحداث قوة جديدة ذات طبيعة عسكرية فريدة، استلمت راية الدفاع عن قلب العالم الإسلامي وتصدت لهذه الأخطار الجسيمة. هذه القوة هي **دولة المماليك**، التي قامت في مصر والشام، ولعبت دوراً محورياً وحاسماً في حماية ما تبقى من العالم الإسلامي من الدمار الكامل.

لم تكن دولة المماليك دولة تقليدية قامت على أساس قبلي أو وراثي في بدايتها، بل قامت على أساس **نظام عسكري فريد** يعتمد على استجلاب[129] الغلمان (المماليك) من مختلف الأصول (خاصة الترك والشركس)، وتربيتهم تربية عسكرية ودينية خاصة، وتدريبهم ليصبحوا نخبة الجيش وقادته. هذا النظام أفرز جيشاً قوياً ومنضبطاً، وولاؤه الأول كان للقائد الذي اشتراه ودربه، ثم للدولة التي خدم فيها.

في هذا العصر، لم يكن الجهاد مجرد سياسة توسعية أو دفاعية، بل كان **ضرورة وجودية وبقاء**. لقد كان بقاء دولة المماليك وقوتها مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقدرتها على حمل لواء الجهاد والتصدي للأعداء الخارجيين الذين كانوا يهددون قلب العالم الإسلامي. كان عليهم أن يكونوا **دروع الأمة** التي تحميها من سهام الغزاة

في هذا الفصل، سنتناول بالدراسة مسيرة دولة المماليك، مركزين على كيفية نشأتها وقيامها في ظل الأخطار المحدقة، ودورها التاريخي في التصدي لأعظم غزوتين واجهتهما الأمة:
الغزو المغولي الذي تم دحره في معركة عين جالوت الأسطورية، والخطر الصليبي الذي تم استئصاله من بلاد الشام. كما سنتطرق إلى دورهم في حماية الحرمين الشريفين، ونظام حكمهم الفريد، والتحديات الداخلية التي واجهتهم، والتي أدت في النهاية إلى سقوط دولتهم. إن فهم عصر المماليك ضروري لإدراك كيف استطاعت الأمة الإسلامية الصمود في وجه أعظم التحديات العسكرية التي واجهتها، وكيف كان الجهاد، بمعناه الدفاعي والبقائي، هو المحرك الرئيسي لهذه المرحلة الهامة.

---

[129] **استجلاب:** طلب أو جلب شيء عن طريق الجهد أو الوسائل المختلفة، وغالبًا ما يستخدم في سياق جذب أو استقدام أشخاص أو موارد.

المبحث الأول: نشأة المماليك وقيام دولتهم: قوة عسكرية في زمن الأخطار

في خضم التحديات الجسيمة التي واجهت العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وخاصة خطر الغزو المغولي المدمر القادم من الشرق والخطر الصليبي المستمر في بلاد الشام ومصر، برزت على الساحة قوة عسكرية جديدة لعبت دوراً حاسماً في حماية قلب العالم الإسلامي والتصدي لهذه الأخطار. هذه القوة هي **المماليك**، الذين لم يكونوا جيشاً تقليدياً، بل نظاماً عسكرياً فريداً تطور ليصبح دولة قوية حكمت مصر والشام لأكثر من قرنين ونصف.

1. أصول المماليك وكيف أصبحوا قوة عسكرية في الدولة الأيوبية

مصطلح "مملوك" (وجمعها مماليك) يعني في الأصل "مملوك" أو "عبد". والمماليك الذين أسسوا الدولة لم يكونوا عبيداً بالمعنى المهين للكلمة، بل كانوا **غلماناً يتم شراؤهم في سن مبكرة** (غالباً من مناطق القوقاز وآسيا الوسطى، مثل الترك والشركس والكرج)، ثم يتم تربيتهم تربية إسلامية خالصة، وتدريبهم تدريباً عسكرياً مكثفاً ليصبحوا جنوداً محترفين في الجيش. كان ولاؤهم الأول للشخص الذي اشتراهم ودربهم (الأستاذ)، ثم للدولة التي خدموا فيها.

- **بداية الظاهرة:** لم تكن ظاهرة استخدام المماليك في الجيش جديدة تماماً في التاريخ الإسلامي؛ فقد استخدمهم العباسيون في فترات ضعفهم، واستخدمهم السلاجقة والأيوبيون قبل ذلك. ولكن في الدولة الأيوبية، وخاصة في عهد السلطان **نجم الدين أيوب** (حكم مصر 637-647هـ / 1240-1249م)، تزايد الاعتماد على المماليك بشكل كبير، وأصبحوا يشكلون جزءاً مهماً من الجيش، بل ونخبة قواته.
- **المماليك البحرية:** اهتم نجم الدين أيوب بشكل خاص بشراء المماليك وتربيتهم في ثكنات خاصة على جزيرة الروضة في نهر النيل بالقاهرة، ولذلك عُرفوا بـ **"المماليك البحرية"**. كان هؤلاء المماليك يتميزون بالولاء الشديد للسلطان نجم الدين أيوب[130]، وبالتدريب العسكري العالي، والخبرة القتالية الكبيرة. أصبحوا يشكلون القوة الضاربة في جيش الدولة الأيوبية في مصر.

---

[130] **نجم الدين أيوب:** والد صلاح الدين الأيوبي، وقائد عسكري كردي بارز، تولى ولاية تكريت ثم أصبح أحد القادة في الدولة الزنكية، وهو مؤسس الأسرة الأيوبية التي أسست دولة قوية في مصر والشام.

2. دورهم في صد الحملة الصليبية السابعة في مصر

أظهر المماليك البحرية كفاءتهم القتالية وولاءهم في مواجهة خطر خارجي كبير هدد مصر مباشرة: **الحملة الصليبية السابعة** التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع.

- **وصول الحملة الصليبية السابعة:** في عام 647هـ (1249م)، وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى مصر، وتمكنت من احتلال مدينة دمياط على ساحل البحر المتوسط. كان السلطان نجم الدين أيوب مريضاً في الشام حينها، وتوفي أثناء سير الأحداث.
- **مواجهة المماليك للصليبيين:** لعب المماليك البحرية دوراً حاسماً في التصدي لهذه الحملة. فبينما كانت الدولة الأيوبية تمر بأزمة انتقال السلطة بعد وفاة السلطان، تحمل المماليك مسؤولية الدفاع عن البلاد.
- **معركة المنصورة (648هـ / 1250م):** كانت معركة المنصورة هي المعركة الفاصلة التي أوقفت زحف الصليبيين نحو القاهرة. أظهر المماليك البحرية، بقيادة أمراء مثل **فارس الدين أقطاي الجمدار** و**ركن الدين بيبرس البندقداري**، شجاعة وبراعة عسكرية فائقة في قتال الصليبيين. تمكنوا من إلحاق هزيمة نكراء بالجيش الصليبي، وقتل عدد كبير منهم، وأسر ملك فرنسا لويس التاسع نفسه.

كان هذا النصر في المنصورة دليلاً قاطعاً على قوة المماليك البحرية وكفاءتهم القتالية، وأظهر أنهم أصبحوا القوة العسكرية الأبرز القادرة على حماية مصر.

3. توليهم السلطة في مصر بعد نهاية الدولة الأيوبية

بعد الانتصار في المنصورة، تزايد نفوذ المماليك البحرية بشكل كبير. وفي ظل ضعف الدولة الأيوبية بعد وفاة نجم الدين أيوب وعدم وجود وريث قوي، استغل المماليك الفرصة لتولي السلطة.

- **مقتل توران شاه:** بعد وفاة نجم الدين أيوب، تولى ابنه توران شاه السلطة، لكنه لم يكن يتمتع بنفس كفاءة أبيه، ودخل في صراع مع أمراء المماليك البحرية الذين شعروا بالتهديد منه. في عام 648هـ (1250م)، قام أمراء المماليك البحرية بقتل توران شاه، ليضعوا بذلك حداً لحكم الأيوبيين في مصر.
- **تولي شجر الدر السلطنة:** بعد مقتل توران شاه، تولت زوجة نجم الدين أيوب، **شجر الدر**، السلطنة لفترة وجيزة. كانت شجر الدر جارية سابقة ثم زوجة سلطان،

- وأظهرت حكمة وقوة في إدارة الأمور في فترة حرجة. ولكن كونها امرأة تتولى السلطنة كان أمراً غير مألوف في ذلك الوقت، واجهت معارضة من بعض الأطراف.
- **تولي عز الدين أيبك السلطنة:** لتجاوز هذه المعارضة، تنازلت شجر الدر عن السلطنة لزوجها المملوكي **عز الدين أيبك التركماني**، الذي كان من أبرز أمراء المماليك البحرية. تم ذلك في عام 648هـ (1250م)، ليُعلن بذلك قيام **دولة المماليك** في مصر رسمياً. ورغم أن شجر الدر كانت لا تزال تتمتع بنفوذ كبير في البداية، إلا أن أيبك أصبح هو السلطان المملوكي الأول.

كان قيام دولة المماليك في مصر تحولاً سياسياً كبيراً، حيث انتقلت السلطة من الأيوبيين إلى طبقة عسكرية جديدة هي المماليك.

4. الطبيعة الفريدة لدولة المماليك

تميزت دولة المماليك بطبيعة فريدة في نظام حكمها وتكوينها، اختلفت عن الدول الإسلامية السابقة التي قامت على أسس قبلية أو وراثية مباشرة.

- **نظام التجنيد وشراء المماليك:** استمرت دولة المماليك في الاعتماد على نظام شراء الغلمان (المماليك) من الخارج، وتربيتهم وتدريبهم ليصبحوا عماد الجيش ونخبة الحكام. كان هذا النظام يضمن تجديد دماء الجيش باستمرار بعناصر قوية ومدربة تدريباً عالياً.
- **عدم وراثة السلطة في البداية:** في الفترة الأولى من حكم المماليك (عهد دولة المماليك البحرية)، لم تكن السلطة تنتقل بالوراثة من الأب إلى الابن بشكل تلقائي. كان السلطان يُختار من بين أمراء المماليك البارزين بناءً على القوة والنفوذ والكفاءة، وإن كان أبناء السلاطين قد يتولون السلطة لفترات قصيرة أحياناً. هذا النظام أدى إلى صراعات داخلية بين الأمراء الطامعين في السلطة، ولكنه أيضاً ضمن أن يصل إلى الحكم في الغالب أقوى وأكفأ الأمراء عسكرياً.
- **الولاء للقائد (الأستاذ):** كان الولاء الأول للمملوك لأستاذه (القائد الذي اشتراه ودربه). شكل هذا الولاء شبكات قوية داخل الجيش والدولة، حيث كان المماليك التابعون لأستاذ واحد يشكلون مجموعة متماسكة تدعم بعضها البعض. هذا النظام كان له إيجابياته في بناء التماسك داخل الفصائل العسكرية، ولكنه كان له سلبياته أيضاً في إثارة الصراعات بين فصائل المماليك المختلفة على السلطة.

- **الطبقة الحاكمة العسكرية:** كانت الطبقة الحاكمة في دولة المماليك هي طبقة عسكرية بحتة. كان السلاطين والأمراء وقادة الجيش من المماليك، بينما كان المدنيون (من العرب وغيرهم) يتولون المناصب الإدارية والدينية والعلمية.

5. الجهاد والتوسع/الانكماش: تثبيت لمركز قوة الأمة

كان قيام دولة المماليك في مصر والشام في هذا التوقيت الحرج **استجابة لضرورة وجود قوة عسكرية قادرة على الجهاد الدفاعي** في مواجهة الأخطار الخارجية المحدقة. لم تقم دولة المماليك في بدايتها بهدف التوسع الجغرافي الكبير، بل كان هدفها الأساسي هو **حماية قلب العالم الإسلامي** (مصر والشام والحجاز) من الغزو المغولي والصليبي.

- **الجهاد الدفاعي:** كان الجهاد في هذه المرحلة جهاداً دفاعياً بالدرجة الأولى. كان على المماليك أن يدافعوا عن وجودهم ووجود العالم الإسلامي في مواجهة قوتين عسكريتين هائلتين.
- **مرحلة تثبيت:** يمثل تأسيس دولة المماليك مرحلة **تثبيت لمركز قوة الأمة** في مصر والشام بعد ضعف الخلافة العباسية وسقوط بغداد. أصبحت مصر والشام، تحت حكم المماليك، هي المعقل الرئيسي للمسلمين القادر على الصمود والمواجهة.
- **لا توسع كبير في البداية:** في السنوات الأولى لقيام دولتهم، لم تشهد دولة المماليك توسعاً جغرافياً كبيراً خارج مصر والشام. كان تركيزهم منصباً على ترسيخ حكمهم الداخلي، وتوحيد مصر والشام تحت رايتهم، والاستعداد لمواجهة الأخطار الخارجية.
- **منع الانكماش:** الأهم من ذلك، أن قيام دولة المماليك ومنعت **انكماش رقعة العالم الإسلامي** بشكل أكبر. فلو لم تقم هذه الدولة وتتصدى للمغول والصليبيين، لربما امتد الغزو إلى مصر وبقية شمال أفريقيا والحجاز، ولتغير وجه التاريخ بشكل جذري.

، نشأت دولة المماليك في مصر والشام كقوة عسكرية فريدة في زمن الأخطار المحدقة. كان دورهم حاسماً في صد الحملة الصليبية السابعة، واستغلوا الفرصة لتولي السلطة بعد نهاية الدولة الأيوبية. تميزت دولتهم بنظام عسكري فريد يعتمد على المماليك أنفسهم. كان قيام هذه الدولة يمثل استجابة لضرورة وجود قوة قادرة على الجهاد الدفاعي، ومرحلة تثبيت لمركز قوة الأمة في قلب العالم الإسلامي، ومنعاً لانكماش رقعته الجغرافية في مواجهة الغزو الخارجي.

المبحث الثاني: عين جالوت: الجهاد الأكبر وكسر شوكة المغول

بعد أن استعرضنا في المبحث الأول نشأة دولة المماليك في مصر كقوة عسكرية صاعدة في زمن الأخطار، ننتقل الآن إلى الحدث الأبرز والأكثر أهمية في تاريخ هذه الدولة، والذي يُعد نقطة تحول حاسمة في تاريخ العالم الإسلامي بأسره: **معركة عين جالوت**. كانت هذه المعركة تجسيداً حقيقياً للجهاد الأكبر، حيث تصدى المسلمون، بقيادة المماليك، لأعظم قوة عسكرية عرفها العالم حينها، وتمكنوا من كسر شوكتها وإنقاذ الحضارة الإسلامية من دمار محقق.

1. خطر الغزو المغولي بعد سقوط بغداد واجتياح الشام

في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، كانت جيوش المغول، بقيادة أحفاد جنكيز خان، تجتاح العالم بسرعة مذهلة وقسوة بالغة. بعد أن دمروا الإمبراطورية الخوارزمية[131] في الشرق، توجهت أنظارهم نحو قلب العالم الإسلامي.

- **سقوط بغداد (656هـ / 1258م):** كانت الضربة الأقسى التي تلقاها العالم الإسلامي هي سقوط بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، على يد جيش المغول بقيادة هولاكو خان. كان سقوط بغداد كارثة بكل المقاييس؛ فقد تم تدمير المدينة، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وإبادة أعداد هائلة من سكانها، وتدمير كنوزها العلمية والثقافية. شكل هذا الحدث صدمة هائلة للمسلمين، وأشعرهم بالضعف والعجز أمام هذه القوة المدمرة التي لا تُقهر.
- **اجتياح بلاد الشام:** بعد سقوط بغداد، واصل جيش المغول زحفه غرباً نحو بلاد الشام. تمكنوا من السيطرة على معظم مدن الشام الكبرى بسهولة نسبية، حيث كانت الدويلات الإسلامية في الشام ضعيفة ومنقسمة وغير قادرة على الصمود أمام جيش المغول المنظم والقوي. سقطت حلب ودمشق ومدن أخرى، وعاث المغول فيها فساداً وتدميراً وقتلاً.

كان خطر المغول يهدد بالقضاء على ما تبقى من العالم الإسلامي، وكان يبدو أن لا قوة على وجه الأرض قادرة على إيقاف زحفهم المدمر. كانت مصر، تحت حكم المماليك الفتية، هي الهدف التالي للمغول.

---

[131] **الإمبراطورية الخوارزمية:** دولة إسلامية نشأت في آسيا الوسطى وبلاد فارس في القرن 12م، بلغت أوجها في عهد علاء الدين محمد، وانهارت بعد الغزو المغولي بقيادة جنكيز خان عام 1220م

2. قرار المماليك بمواجهة المغول في فلسطين

في هذه اللحظة الحرجة، وجد المماليك في مصر أنفسهم أمام مسؤولية تاريخية جسيمة: إما الاستسلام للمغول وقبول مصير بغداد والشام، أو التصدي لهم ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه. كان السلطان المملوكي حينها هو **سيف الدين قطز** (توفي 658هـ / 1260م)، وهو مملوك سابق تولى السلطة في ظروف داخلية مضطربة بعد مقتل سلفه.

- **التهديد المباشر لمصر:** أرسل هولاكو رسالة تهديد إلى قطز في مصر، يطلب منه الاستسلام والخضوع لسلطة المغول، مهدداً إياه بالدمار إذا رفض. أدرك قطز أن الاستسلام ليس خياراً، وأن مصير الإسلام والمسلمين في مصر والشام والحجاز على المحك.
- **حشد القوى وتجاوز الخلافات:** رغم التحديات الداخلية التي واجهها قطز بعد توليه السلطة، ورغم وجود بعض الخلافات بين أمراء المماليك، إلا أنه تمكن من حشد القوى وتوحيد الصفوف لمواجهة الخطر الأكبر. أظهر قطز حكمة وشجاعة في هذه المرحلة، وتمكن من إقناع الأمراء بضرورة التكاتف لمواجهة المغول.
- **الخروج لملاقاة المغول:** اتخذ قطز قراراً جريئاً بالخروج بجيشه من مصر لملاقاة المغول في بلاد الشام، بدلاً من انتظارهم في مصر. كان هذا القرار استراتيجياً حكيماً، حيث سمح للمماليك باختيار أرض المعركة، وتجنب القتال في مصر نفسها، والاستفادة من الدعم المحتمل من سكان بلاد الشام. توجه الجيش المملوكي شمالاً عبر سيناء إلى فلسطين.

3. قيادة سيف الدين قطز والظاهر بيبرس للمعركة

كانت قيادة الجيش المملوكي في معركة عين جالوت بقيادة رجلين يتمتعان بالكفاءة والشجاعة:

- **سيف الدين قطز:** كان هو السلطان والقائد الأعلى للجيش. أظهر قطز إيماناً قوياً، وعزيمة لا تلين، وقدرة على اتخاذ القرارات الصعبة في أحلك الظروف. كان وجوده على رأس الجيش مصدر إلهام للجنود.
- **الظاهر بيبرس البندقداري:** كان من أبرز أمراء المماليك البحرية، وأكثرهم براعة عسكرية وخبرة قتالية. كان بيبرس هو القائد الفعلي للمقدمة والقلب النابض للجيش في المعركة. لعب دوراً حاسماً في التخطيط للمعركة وتنفيذ الخطط القتالية. ورغم وجود بعض التوتر بين قطز وبيبرس قبل المعركة، إلا أنهما تكاتفا لمواجهة الخطر المشترك.

4. تفاصيل معركة عين جالوت (658هـ/1260م) وأهميتها التاريخية

وقعت المعركة الفاصلة في منطقة تُعرف بـ **"عين جالوت"**، وتقع في فلسطين بين بيسان ونابلس. اختار المماليك هذا الموقع بعناية، حيث كانت أرضاً واسعة تسمح للمناورة، وتحيط بها التلال التي يمكن استخدامها في الكمائن، وتتوفر فيها المياه (عين جالوت).

- **الاستعداد للمعركة:** وصل الجيش المملوكي إلى عين جالوت، وقام قطز وبيبرس بوضع الخطة القتالية. كانت الخطة تعتمد على استدراج جيش المغول إلى أرض المعركة، واستخدام الكمائن، والصمود في وجه الهجوم المغولي الأول، ثم شن الهجوم المضاد.
- **أحداث المعركة:** في الخامس والعشرين من رمضان عام 658هـ (الموافق 3 سبتمبر 1260م)، التقى جيش المماليك بجيش المغول بقيادة كتبغا (أحد أبرز قادة هولاكو). بدأ القتال بهجوم عنيف من المغول. صمد الجيش المملوكي صموداً أسطورياً في وجه الهجوم المغولي الذي كان يخشاه الجميع. في لحظة حرجة من المعركة، عندما بدأ بعض أجنحة الجيش المملوكي تتراجع، ألقى السلطان قطز خوذته وصرخ صيحته الشهيرة: **"وا إسلاماه!"**، مما أشعل حماس الجنود وأعاد إليهم الثبات.
- **الكمين والهجوم المضاد:** استخدم المماليك تكتيك الكمين[132] ببراعة. فقد تظاهر جناح من الجيش بالتراجع لاستدراج المغول إلى الكمين، ثم خرجت القوات المختبئة لتطبق على جيش المغول. شن المماليك هجوماً مضاداً عنيفاً، وتمكنوا من إحاطة جيش المغول وإلحاق هزيمة ساحقة بهم.
- **مقتل كتبغا والنصر الحاسم:** انتهت المعركة بمقتل قائد الجيش المغولي كتبغا، وهزيمة جيش المغول وفراره. كان هذا النصر نصراً حاسماً للمسلمين، وغير مجرى التاريخ.

الأهمية التاريخية لمعركة عين جالوت:

- **كسر شوكة المغول:** كانت عين جالوت هي المعركة الأولى التي يُهزم فيها جيش المغول في مواجهة مباشرة في ميدان القتال بعد سلسلة طويلة من الانتصارات المدمرة. لقد كسرت هذه المعركة أسطورة الجيش المغولي الذي لا يُقهر، وأظهرت أنهم يمكن أن يُهزموا.

---

[132] **الكمين:** خطة عسكرية تقوم على إخفاء القوات لمباغتة العدو بشكل مفاجئ، بهدف إلحاق خسائر به أو منعه من التقدم.

- **إنقاذ الحضارة الإسلامية:** أنقذت معركة عين جالوت قلب العالم الإسلامي (مصر والشام والحجاز) من الدمار الذي حل ببغداد والمشرق. لولا هذا النصر، لربما امتد الغزو المغولي إلى مصر وشمال أفريقيا والحجاز، ولتغير وجه التاريخ الإسلامي بشكل جذري.
- **تأمين مستقبل العالم الإسلامي:** أتاحت عين جالوت للعالم الإسلامي فرصة لالتقاط الأنفاس، وإعادة بناء نفسه، واستعادة قوته. شكلت نقطة تحول سمحت للحضارة الإسلامية بالاستمرار والتطور.
- **تعزيز مكانة دولة المماليك:** عززت معركة عين جالوت بشكل كبير من مكانة دولة المماليك وشرعيتها في العالم الإسلامي. أصبح المماليك يُنظر إليهم كأبطال الإسلام وحماة الأمة الذين تصدوا لأعظم خطر واجهها.

5. دحر المغول من بلاد الشام وتأمين الحدود الشرقية

لم يكتفِ المماليك بالنصر في عين جالوت، بل واصلوا ملاحقة فلول جيش المغول ودحرهم من بلاد الشام بالكامل.

- **تحرير بلاد الشام:** بعد عين جالوت، دخل المماليك دمشق وحلب وغيرها من مدن الشام، وطردوا منها الحاميات المغولية. تم تحرير بلاد الشام بالكامل من السيطرة المغولية.
- **تأمين الحدود الشرقية:** أصبح نهر الفرات هو الحد الفاصل بين دولة المماليك في الغرب والدولة الإيلخانية المغولية في الشرق (التي تأسست في بلاد فارس والعراق). استمرت المناوشات والمعارك على الحدود الشرقية لدولة المماليك لعدة عقود، لكن المغول لم يتمكنوا أبداً من استعادة سيطرتهم على بلاد الشام بشكل دائم.

الجهاد والتوسع/الانكماش: من الدفاع إلى التوسع

كانت معركة عين جالوت مثالاً عظيماً على **الجهاد الدفاعي** الذي خاضه المسلمون في سبيل إنقاذ وجودهم وحضارتهم. لم يكن هدف المماليك في هذه المعركة هو التوسع الجغرافي، بل كان هدفهم الأسمى هو الدفاع عن النفس، وعن الأرض، وعن الدين، وعن الأمة في مواجهة خطر وجودي.

ولكن، كان النصر في عين جالوت له أثر مباشر على **توسع نفوذ المماليك**. فبعد دحر المغول من بلاد الشام، أصبحت بلاد الشام جزءاً لا يتجزأ من دولة المماليك، وخضعت لسلطانهم المباشر من القاهرة. هذا يعني أن النصر في عين جالوت لم يكن مجرد دفاع، بل أدى إلى **توسع** رقعة الدولة المماليك لتشمل مصر والشام ككتلة واحدة قوية، بعد أن كانت بلاد الشام تحت التهديد أو السيطرة المغولية. شكل هذا التوسع الجغرافي لدولة المماليك في الشام تأميناً لقلب العالم الإسلامي، ووضعاً جيوسياسياً[133] جديداً استمر لقرون.

كانت معركة عين جالوت نقطة تحول حاسمة في تاريخ الإسلام، حيث تمكن المماليك، بقيادة قطز وبيبرس، من كسر شوكة المغول وإنقاذ الحضارة الإسلامية. كانت هذه المعركة تجسيداً للجهاد الدفاعي في أبهى صوره، وأدت إلى دحر المغول من بلاد الشام وتأمين الحدود الشرقية، بالإضافة إلى توسيع نفوذ المماليك ليشمل بلاد الشام بشكل كامل، مما عزز من مكانتهم كدروع للأمة في وجه الغزو.

---

[133] **جيوسياسيًا:** مصطلح يشير إلى تأثير العوامل الجغرافية (كالحدود، والموقع، والموارد) على السياسات الدولية والعلاقات بين الدول.

المبحث الثالث: استئصال الوجود الصليبي: جهاد التحرير واستعادة الساحل

لم يكن الخطر المغولي هو التحدي الوحيد الذي واجهته دولة المماليك في بداياتها. فإلى جانب هذا الخطر الوجودي القادم من الشرق، كان هناك خطر آخر مستمر ومتربص في الغرب: **الوجود الصليبي** في بلاد الشام. فبعد الحملات الصليبية التي بدأت في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، تمكن الصليبيون من تأسيس ممالك وإمارات في الساحل الشامي، شكلت تهديداً مستمراً للعالم الإسلامي. كان على دولة المماليك، بعد أن تصدت للمغول، أن تتفرغ لمهمة أخرى لا تقل أهمية: **استئصال الوجود الصليبي وطرد الصليبيين من بلاد الشام بشكل كامل**. كانت هذه المرحلة تجسيداً لـ **جهاد التحرير** الذي خاضه المماليك لاستعادة الأراضي الإسلامية المحتلة.

1. بقاء الممالك الصليبية في الساحل الشامي بعد الحملات الصليبية

رغم أن المسلمين تمكنوا من استعادة بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي في عام 583هـ (1187م)، إلا أن الوجود الصليبي في بلاد الشام لم ينتهِ تماماً. فقد استمر الصليبيون في السيطرة على عدد من المدن الساحلية والحصون القوية، وشكلوا ممالك وإمارات صليبية (مثل مملكة بيت المقدس اللاتينية التي انتقلت عاصمتها إلى عكا، وإمارة أنطاكية، وكونتية طرابلس، وكونتية الرها التي سقطت مبكراً).

- **موقعها الاستراتيجي:** كانت هذه الممالك الصليبية تقع على الساحل، مما يسهل عليها التواصل مع أوروبا وتلقي الدعم والإمدادات من الغرب عبر البحر. كما كانت تشكل قواعد انطلاق لشن الهجمات على الأراضي الإسلامية الداخلية.
- **تهديدها المستمر:** شكل وجود الصليبيين تهديداً مستمراً لأمن واستقرار بلاد الشام ومصر. كانوا يغيرون على القوافل التجارية، ويهاجمون المدن والقرى الإسلامية، ويتحالفون أحياناً مع أعداء المسلمين الآخرين (مثل المغول في بعض الفترات).
- **أهميتها الرمزية:** كان بقاء الصليبيين في جزء من بلاد الشام يمثل جرحاً في جسد العالم الإسلامي، وتذكيراً بالاحتلال الأجنبي للأراضي الإسلامية.

كان على الدولة الإسلامية أن تعمل على استعادة هذه الأراضي المحتلة وتطهير بلاد الشام من الوجود الصليبي لضمان أمنها واستقرارها.

2. حملات المماليك المتواصلة ضد الحصون والمدن الصليبية

بعد أن تمكن المماليك من دحر المغول في عين جالوت وتوحيد مصر والشام تحت رايتهم، وجهوا اهتمامهم وطاقتهم نحو استئصال الوجود الصليبي. شن سلاطين المماليك حملات عسكرية متواصلة ومنظمة ضد الحصون والمدن الصليبية المتبقية على الساحل الشامي.

- **استراتيجية الاستنزاف والحصار:** لم تكن حملات المماليك مجرد معارك عابرة، بل كانت جزءاً من استراتيجية طويلة المدى تهدف إلى استنزاف قوة الصليبيين، وعزل مدنهم وحصونهم عن بعضها البعض، وتضييق الخناق عليها تمهيداً لفتحها. استخدم المماليك تكتيكات الحصار المنهجي، واستخدموا آلات الحصار المتطورة (مثل المنجنيقات) لاختراق أسوار المدن والحصون المنيعة.
- **حملات متتالية:** شن سلاطين المماليك حملات متتالية على مدار عقود، تستهدف كل مرة مدينة أو حصناً صليبياً معيناً. كانت هذه الحملات تتم في مواسم محددة من العام، وتُجهز لها الجيوش وتُعبأ لها الموارد اللازمة.
- **استهداف المدن الكبرى:** ركز المماليك على استهداف المدن الساحلية الكبرى التي كانت تمثل مراكز قوة للصليبيين، مثل أنطاكية، طرابلس، وعكا. كان سقوط هذه المدن يعني ضربة قاصمة للوجود الصليبي.

3. دور سلاطين المماليك في هذه الحملات

لعب سلاطين المماليك دوراً قيادياً حاسماً في حملات استئصال الوجود الصليبي. كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم في كثير من الأحيان، ويشرفون على خطط الحصار والقتال، ويُظهرون شجاعة وإصراراً في تحقيق الهدف. من أبرز السلاطين الذين لمعت أسماؤهم في هذه الحملات:

- **الظاهر بيبرس (حكم 658-676هـ / 1260-1277م):** بعد أن لعب دوراً حاسماً في عين جالوت، أصبح الظاهر بيبرس هو السلطان المملوكي الأقوى. كان بيبرس قائداً عسكرياً فذاً، لا يعرف الكلل. شن حملات متواصلة ضد الصليبيين، وتمكن من فتح عدد من المدن والحصون الهامة، مثل **قيسارية، أرسوف، صفد، يافا، وأنطاكية (عام 666هـ / 1268م)**. كان فتح أنطاكية ضربة قاصمة لإمارة أنطاكية الصليبية.
-

- **المنصور قلاوون (حكم 678-689هـ / 1279-1290م):** واصل قلاوون مسيرة الجهاد ضد الصليبيين. كان قائداً حكيماً ومصمماً. تمكن من فتح عدد من الحصون والمدن الهامة، أبرزها **طرابلس (عام 688هـ / 1289م)**، ليضع بذلك حداً لكنتية طرابلس الصليبية.
- **الأشرف خليل بن قلاوون (حكم 690-693هـ / 1291-1293م):** يُعد عهد الأشرف خليل قصيراً، لكنه شهد أعظم إنجاز في حملات استئصال الصليبيين: **فتح عكا (عام 690هـ / 1291م)**. كانت عكا آخر وأقوى معقل للصليبيين في بلاد الشام، وكانت تُعرف بأنها "جوهرة الشرق" بالنسبة لهم. قاد الأشرف خليل حصاراً ضخماً على عكا، واستخدم آلات الحصار بكثافة، وتمكن من اقتحام المدينة بعد قتال عنيف.

4. النتائج النهائية: طرد الصليبيين من بلاد الشام

كان فتح عكا عام 690هـ (1291م) هو الضربة القاضية للوجود الصليبي في بلاد الشام. بعد سقوط عكا، لم يعد لدى الصليبيين القدرة على الصمود في المدن والحصون القليلة المتبقية.

- **سقوط آخر المعاقل:** سقطت آخر المدن والحصون الصليبية المتبقية على الساحل الشامي بسرعة بعد عكا، مثل صيدا، وصور، وعثليت.
- **نهاية الممالك الصليبية:** بحلول عام 691هـ (1292م)، كان الوجود الصليبي العسكري في بلاد الشام قد انتهى بشكل كامل. تم طرد الصليبيين من جميع الأراضي التي احتلوها في الساحل الشامي، ولم يعد لهم أي كيان سياسي أو عسكري في المنطقة.

كان هذا الإنجاز تتويجاً لقرنين[134] من الصراع بين المسلمين والصليبيين، ودليلاً على إصرار المسلمين على استعادة أراضيهم وتحرير مقدساتهم.

---

[134] **لقرنين:** (قرنين من الزمن) تعني فترة زمنية تمتد إلى مئتي عام.

الجهاد والتوسع/الانكماش: جهاد هجومي يؤدي إلى التوسع

على عكس معركة عين جالوت التي كانت تمثل جهاداً دفاعياً لصد الغزو، فإن حملات المماليك ضد الممالك الصليبية تمثل **جهاداً هجومياً** واضحاً. كان الهدف من هذه الحملات هو **تحرير الأراضي الإسلامية المحتلة** التي سيطر عليها الصليبيون في وقت سابق.

- **تحرير الأراضي:** كان المماليك يسعون لاستعادة المدن والحصون التي كانت جزءاً من بلاد الشام الإسلامية قبل الاحتلال الصليبي.
- **التوسع الجغرافي:** أدت هذه الحملات الهجومية إلى **توسع رقعة الدولة المماليك** بشكل مباشر. فبضم المدن الساحلية التي كانت تحت سيطرة الصليبيين، أصبحت هذه المناطق جزءاً لا يتجزأ من دولة المماليك. هذا يعني أن الجهاد الهجومي ضد الصليبيين أدى إلى **توسع** في الأراضي التي تحكمها دولة المماليك، وتأمين كامل الساحل الشامي تحت سيطرتهم.
- **منع عودة الصليبيين:** لم يقتصر دور المماليك على طرد الصليبيين، بل عملوا أيضاً على تدمير تحصينات المدن الساحلية بعد فتحها لمنع الصليبيين من العودة وإعادة احتلالها في المستقبل.

، لعبت دولة المماليك دوراً حاسماً في استئصال الوجود الصليبي من بلاد الشام. شن سلاطين المماليك حملات عسكرية متواصلة ومنظمة ضد الحصون والمدن الصليبية، بقيادة قادة عظام مثل الظاهر بيبرس، قلاوون، والأشرف خليل. كانت هذه الحملات تجسيداً لجهاد التحرير الهجومي، وأدت إلى طرد الصليبيين بشكل كامل من بلاد الشام بحلول عام 691هـ. شكل هذا الإنجاز توسعاً جغرافياً لرقعة الدولة المماليك، وتأميناً لقلب العالم الإسلامي من خطر خارجي استمر لقرنين من الزمان.

المبحث الرابع: حماية الحرمين الشريفين ودور المماليك في العالم الإسلامي

لم يقتصر دور دولة المماليك على صد الغزو المغولي واستئصال الوجود الصليبي في بلاد الشام فحسب، بل امتد ليشمل مسؤولية دينية وسياسية بالغة الأهمية في العالم الإسلامي: **حماية الحرمين الشريفين** في مكة المكرمة والمدينة المنورة. هذه المسؤولية لم تكن مجرد إضافة إلى مهامهم، بل كانت جزءاً أساسياً من شرعيتهم ومكانتهم بين المسلمين، وشكّلت بعداً هاماً من أبعاد الجهاد في عصرهم.

1. سيطرة المماليك على الحجاز وحمايتهم لمكة والمدينة المنورة

بعد أن أحكم المماليك سيطرتهم على مصر والشام، أصبح من الطبيعي أن تمتد سيطرتهم لتشمل منطقة الحجاز، التي كانت تتبع اسمياً للخلافة العباسية في بغداد ثم للدولة الأيوبية.

- **ضم الحجاز:** تمكن المماليك من ضم منطقة الحجاز إلى دولتهم بعد فترة وجيزة من قيامها وتوحيد مصر والشام. لم يكن هذا الضم عملية عسكرية كبرى في الغالب، بل كان انتقالاً للسلطة في ظل ضعف القوى الأخرى في المنطقة.
- **تأمين الأماكن المقدسة:** أصبحت مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهما أقدس مكانين في الإسلام، تحت حماية وسلطة دولة المماليك. تحمل المماليك مسؤولية تأمين المدينتين المقدستين ضد أي تهديد خارجي، وضمان سلامة زوارهما من الحجاج والمعتمرين.
- **الحفاظ على الأمن والنظام:** عمل المماليك على فرض الأمن والنظام داخل الحرمين الشريفين وفي محيطهما، ومنع أي تجاوزات أو فتن قد تعكر صفو العبادة.

2. دورهم في تنظيم وتأمين قوافل الحج

كان الحج إلى بيت الله الحرام ركناً أساسياً من أركان الإسلام، وكان تنظيم وتأمين قوافل الحج القادمة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي مسؤولية عظيمة تقع على عاتق الدولة التي تسيطر على الحجاز. أولى المماليك هذه المهمة اهتماماً بالغاً.

- **تنظيم القوافل:** قام المماليك بتنظيم قوافل الحج الرئيسية التي كانت تنطلق من القاهرة ودمشق. كانت هذه القوافل ضخمة، وتضم آلاف الحجاج والتجار،

- وتتطلب تنظيماً دقيقاً لتوفير المؤن والمياه والأمن على طول الطريق الصحراوي الطويل والشاق إلى الحجاز.
- **تأمين الطرق:** عمل المماليك على تأمين طرق الحج الرئيسية ضد قطاع الطرق والقبائل المتمردة. كانوا يرسلون مع القوافل حاميات عسكرية قوية لحمايتها، ويقيمون المحطات والاستراحات على طول الطريق.
- **رعاية الحجاج:** اهتم المماليك برعاية الحجاج وتوفير الخدمات لهم أثناء إقامتهم في مكة والمدينة، مثل توفير المياه، وترميم المرافق، والإشراف على شؤونهم.
- **أمير الحج:** كان يتم تعيين **"**أمير للحج**"** من كبار الأمراء المماليك لقيادة قافلة الحج والإشراف على شؤون الحجاج، مما يدل على الأهمية الكبرى التي أعطيت لهذه المهمة.

3. المكانة الدينية والسياسية التي اكتسبوها كحماة للأماكن المقدسة

بفضل سيطرتهم على الحرمين الشريفين ودورهم في تنظيم وتأمين الحج، اكتسب المماليك **مكانة دينية وسياسية رفيعة** في العالم الإسلامي.

- **الشرعية الدينية:** كانت حماية الأماكن المقدسة ورعاية الحج تمنح المماليك شرعية دينية قوية في نظر المسلمين في جميع أنحاء العالم، خاصة وأنهم لم يكونوا من قريش أو من نسل النبي صلى الله عليه وسلم. هذا الدور عوضهم عن النقص في الشرعية النسبية مقارنة بالخلفاء الراشدين أو الأمويين والعباسيين الذين كانوا ينتسبون إلى قريش.
- **الاحترام والتقدير:** نال المماليك احترام وتقدير المسلمين في كل مكان لدورهم في حماية المقدسات الإسلامية في زمن كانت فيه الأمة تواجه تحديات كبرى. كانوا يُنظر إليهم كأبطال الإسلام وحماته.
- **النفوذ المعنوي:** منحهم هذا الدور نفوذاً معنوياً كبيراً في العالم الإسلامي. كانت وفود الحجاج العائدة إلى بلدانها تنقل أخبار رعاية المماليك للحرمين، مما يعزز من سمعتهم ومكانتهم.

4. إحياء الخلافة العباسية اسمياً في القاهرة ودلالة ذلك

بعد سقوط بغداد ومقتل الخليفة العباسي على يد المغول، قام سلاطين المماليك في مصر بخطوة سياسية ودينية هامة: **إحياء اسم الخلافة العباسية في القاهرة**.

- **إحضار أحد الناجين:** في عام 659هـ (1261م)، قام السلطان الظاهر بيبرس بإحضار أحد الناجين من البيت العباسي (أحمد بن الظاهر بأمر الله) إلى القاهرة، وبايعه خليفة للمسلمين بلقب "المستنصر بالله".
- **خلافة صورية:** لم تكن هذه الخلافة في القاهرة خلافة حقيقية تمتلك سلطة سياسية أو عسكرية. كان الخلفاء العباسيون في القاهرة مجرد رموز اسمية، لا يملكون من الأمر شيئاً، والسلطة الفعلية كانت بيد سلاطين المماليك. كان دور الخليفة يقتصر على إضفاء الشرعية الدينية على حكم المماليك، والمشاركة في بعض الاحتفالات الرسمية، وتعيين قضاة القضاة.
- **دلالة الإحياء:** كان إحياء اسم الخلافة في القاهرة يحمل دلالات متعددة:
  - **تأكيد الشرعية:** أراد المماليك من خلال ذلك تأكيد شرعية حكمهم في نظر العالم الإسلامي، وإظهار أنهم يحكمون تحت راية الخلافة الإسلامية الشرعية، حتى لو كانت صورية.
  - **تحدي القوى الأخرى:** كان ذلك تحدياً للقوى الأخرى التي ربما كانت تطمح في إحياء الخلافة في مناطق أخرى (مثل الدولة الإيلخانية المغولية التي حكمت العراق وفارس).
  - **الحفاظ على الرمز:** حافظ المماليك على فكرة وجود خليفة للمسلمين كرمز لوحدة الأمة، حتى في ظل التفتت السياسي.

ورغم كونها صورية، إلا أن وجود الخلافة العباسية في القاهرة تحت رعاية المماليك عزز من مكانة القاهرة كمركز للعالم الإسلامي بعد سقوط بغداد، وزاد من هيبة المماليك كحماة للخلافة والأماكن المقدسة.

الجهاد والتوسع/الانكماش: جهاد دفاعي ومعنوي يعزز النفوذ

إن حماية الحرمين الشريفين ودور المماليك في تنظيم وتأمين الحج يمثل شكلاً هاماً من أشكال **الجهاد الدفاعي والمعنوي**.

- **الجهاد الدفاعي:** كان تأمين طرق الحج وحماية المدينتين المقدستين يتطلب جهوداً عسكرية مستمرة لمواجهة قطاع الطرق وأي تهديدات خارجية محتملة. هذا يندرج تحت مفهوم الجهاد الدفاعي عن أراضي المسلمين وحقوقهم الأساسية (الحج).
- **الجهاد المعنوي واكتساب الشرعية:** هذا الدور كان أيضاً شكلاً من أشكال الجهاد المعنوي، حيث كان يهدف إلى تعزيز مكانة الدولة الفاطمية وشرعيتها في قلوب المسلمين، وإظهار أنهم يقومون بمسؤولية دينية عظيمة.
- **لا توسع جغرافي مباشر:** حماية الحجاز لم تؤدِ إلى **توسع جغرافي مباشر** لرقعة دولة المماليك خارج مصر والشام والحجاز نفسه. كانت الحجاز جزءاً من دولتهم، ودورهم كان حمايتها وتأمينها، وليس فتح مناطق جديدة فيها.
- **تعزيز النفوذ المعنوي:** ولكن، هذا الدور عزز بشكل كبير من **نفوذهم المعنوي والسياسي** في العالم الإسلامي. أصبح المماليك يُنظر إليهم كقادة العالم الإسلامي وحماته، مما زاد من هيبتهم وتأثيرهم على الساحة الدولية والإسلامية، حتى وإن لم يوسعوا حدود دولتهم بشكل كبير في هذه الجبهة.

، لعبت دولة المماليك دوراً حيوياً في حماية الحرمين الشريفين وتنظيم وتأمين قوافل الحج. هذا الدور منحهم مكانة دينية وسياسية رفيعة في العالم الإسلامي، وعزز من شرعيتهم وهيبتهم كحماة للأماكن المقدسة. كان هذا الجانب من مهامهم يمثل شكلاً من أشكال الجهاد الدفاعي والمعنوي، الذي لم يؤدِ إلى توسع جغرافي مباشر، ولكنه عزز بشكل كبير من نفوذهم المعنوي في العالم الإسلامي، خاصة بعد إحياء الخلافة العباسية اسمياً في القاهرة تحت رعايتهم.

على الرغم من الدور التاريخي العظيم الذي لعبته دولة المماليك في حماية قلب العالم الإسلامي من الغزو المغولي والصليبي، وعلى الرغم من قوتها العسكرية التي أذهلت العالم في فترات قوتها، إلا أنها لم تكن خالدة. فمثلها مثل سائر الدول والإمبراطوريات، بدأت دولة المماليك تعاني من عوامل ضعف وتدهور داخلية وخارجية تراكمت على مر القرون، حتى أدت في نهاية المطاف إلى انهيارها وسقوطها على يد قوة صاعدة جديدة.

1. التحديات الداخلية: صراع على السلطة وأزمات اقتصادية

عانى نظام حكم المماليك، على الرغم من كفاءته العسكرية في البداية، من تحديات داخلية هيكلية وسياسية واقتصادية أضعفته تدريجياً.

- **طبيعة انتقال السلطة والصراع بين الأمراء:** كان نظام حكم المماليك يعتمد على اختيار السلطان من بين أمراء المماليك البارزين، وليس بالوراثة المباشرة (خاصة في عهد المماليك البحرية). ورغم أن هذا النظام كان يضمن وصول الأكفأ عسكرياً إلى السلطة في بعض الأحيان، إلا أنه كان سبباً رئيسياً في **صراعات داخلية مستمرة على السلطة** بين الأمراء الطامعين. كانت هذه الصراعات تؤدي إلى حروب أهلية قصيرة أو طويلة، واغتيالات للسلاطين، وعدم استقرار سياسي، مما يستنزف موارد الدولة ويضعفها.
- **النزاعات بين فصائل المماليك:** انقسم المماليك إلى فصائل أو بيوتات عسكرية (مثل المماليك البحرية، ثم المماليك البرجية). كانت هذه الفصائل تتنافس فيما بينها على النفوذ والمكانة والسيطرة على المناصب والموارد. أدت هذه النزاعات إلى صراعات مسلحة داخل الجيش والدولة، مما أضعف من تماسك الجيش ووحدته.
- **الأزمات الاقتصادية:** تعرضت دولة المماليك لأزمات اقتصادية متكررة أثرت على استقرارها. من أبرز هذه الأزمات:
  - **الأوبئة:** تعرضت مصر والشام لأوبئة مدمرة (مثل الطاعون الأسود في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي) أدت إلى خسائر بشرية هائلة، وتراجع في عدد السكان، وتأثير سلبي على الزراعة والاقتصاد بشكل عام.

- **تغير طرق التجارة العالمية:** مع نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، بدأت طرق التجارة العالمية تتغير. اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح حول أفريقيا من قبل الأوروبيين أدى إلى تراجع أهمية طرق التجارة البرية والبحرية التي كانت تمر عبر مصر والشام (طريق الحرير، طريق التجارة بين الهند وأوروبا)، مما أثر سلباً على إيرادات الدولة المماليك التي كانت تعتمد بشكل كبير على الضرائب المفروضة على هذه التجارة.
- **الضرائب وسوء الإدارة المالية:** في بعض الفترات، عانت الدولة من سوء الإدارة المالية وفرض الضرائب الباهظة على السكان لتمويل نفقات الجيش والبلاط، مما أدى إلى استياء شعبي.

2. ضعف الجيش في الفترات المتأخرة وتراجع الروح القتالية لدى البعض

كان الجيش هو أساس قوة دولة المماليك، ولكن هذا الجيش بدأ يعاني من الضعف في الفترات المتأخرة من عمر الدولة.

- **تأثير الصراعات الداخلية:** أدت الصراعات المستمرة بين فصائل المماليك على السلطة والنفوذ إلى إضعاف تماسك الجيش ووحدته. كان الجيش ينقسم أحياناً حسب ولاء الأمراء، مما يؤثر على كفاءته القتالية.
- **الاعتماد على الأساليب التقليدية:** استمر الجيش المملوكي في الاعتماد على الأساليب القتالية التقليدية (مثل سلاح الفرسان الثقيل) لفترة طويلة، بينما بدأت القوى الأخرى (خاصة العثمانيين) في تطوير واستخدام الأسلحة النارية (المدافع والبنادق) بشكل فعال. هذا التخلف في التسلح والتكتيكات العسكرية جعل الجيش المملوكي أقل قدرة على مواجهة الجيوش الحديثة.
- **تراجع الروح القتالية لدى البعض:** مع مرور الوقت، ومع تراكم الثروات وتزايد مظاهر الترف لدى بعض الأمراء المماليك، ربما تراجعت الروح القتالية العالية التي تميز بها المماليك الأوائل الذين واجهوا المغول والصليبيين. أصبح البعض أكثر اهتماماً بالثروة والمكانة من الجهاد والتضحية.

3. ظهور قوى جديدة (العثمانيون)

في الوقت الذي كانت فيه دولة المماليك تعاني من عوامل الضعف الداخلية، كانت قوة جديدة صاعدة تظهر في الأناضول: **الدولة العثمانية**. تمكن العثمانيون، وهم قبائل تركية مسلمة، من بناء دولة قوية ومنظمة، وتوسعت على حساب الإمبراطورية البيزنطية (فتحوا القسطنطينية عام 1453م) وإمارات الأناضول. تميز العثمانيون بجيشهم المنظم، واستخدامهم الفعال للأسلحة النارية، وقدرتهم على التوسع والجهاد.

- **التوسع العثماني:** بعد أن أحكم العثمانيون سيطرتهم على البلقان والأناضول، بدأت أنظارهم تتجه نحو الجنوب والشرق، مما وضعهم في مسار تصادمي مع دولة المماليك التي كانت تسيطر على الشام والحجاز واليمن.
- **التنافس على النفوذ:** بدأ التنافس بين المماليك والعثمانيين على النفوذ في بعض المناطق الحدودية، وخاصة في جنوب الأناضول وشمال الشام.

4. الغزو العثماني لمصر والشام ونهاية دولة المماليك

بلغ التنافس بين المماليك والعثمانيين ذروته في بداية القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي)، عندما قرر السلطان العثماني **سليم الأول** غزو دولة المماليك.

- **معركة مرج دابق (922هـ / 1516م):** قاد السلطان سليم الأول جيشه نحو الشام، والتقى بجيش المماليك بقيادة السلطان قانصوه الغوري في معركة مرج دابق شمال حلب. رغم شجاعة المماليك، إلا أنهم لم يتمكنوا من الصمود أمام الجيش العثماني المنظم واستخدامه الفعال للمدفعية والبنادق. انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للمماليك ومقتل السلطان قانصوه الغوري.
- **السيطرة على الشام:** بعد معركة مرج دابق، سيطر العثمانيون على بلاد الشام بسهولة نسبية، حيث لم تعد هناك قوة مملوكية قادرة على الدفاع عنها.
- **معركة الريدانية (923هـ / 1517م):** واصل السلطان سليم الأول زحفه نحو مصر، والتقى بجيش المماليك بقيادة السلطان الجديد طومان باي في معركة الريدانية بالقرب من القاهرة. كانت هذه المعركة هي المعركة الفاصلة التي حسمت مصير دولة المماليك. ورغم صمود طومان باي وشجاعته، إلا أن الجيش المملوكي هُزم مرة أخرى أمام التفوق العسكري العثماني في الأسلحة والتكتيكات.

- **سقوط القاهرة ونهاية الدولة:** بعد معركة الريدانية، دخل العثمانيون القاهرة، وتم القبض على السلطان طومان باي وإعدامه. بسقوط القاهرة في **عام 923هـ (1517م)**، **انتهت دولة المماليك** التي حكمت مصر والشام لأكثر من قرنين ونصف. أصبحت مصر والشام والحجاز واليمن أقاليم تابعة للدولة العثمانية.

الجهاد والتوسع/الانكماش: تراجع القدرة على الجهاد يؤدي إلى الانكماش والسقوط

لقد كانت عوامل الضعف الداخلية التي عانت منها دولة المماليك، وخاصة الصراعات على السلطة والنزاعات بين فصائل المماليك والأزمات الاقتصادية، لها تأثير مباشر وحاسم على **تراجع القدرة على الجهاد الفعال**، وهو ما أدى في النهاية إلى **انكماش قوة الدولة وفقدانها القدرة على الدفاع عن نفسها أمام قوة صاعدة، مما أدى إلى سقوطها**.

يمكن تفصيل العلاقة بين عوامل الضعف الداخلي وتراجع الجهاد والسقوط كالتالي:

1. **الصراعات الداخلية تستنزف الطاقة وتحولها عن الجهاد الخارجي:** كانت النزاعات المستمرة على السلطة بين الأمراء المماليك، والصراعات بين فصائلهم المختلفة، تستنزف جزءاً كبيراً من طاقة الدولة ومواردها البشرية والمالية. بدلاً من توجيه هذه الطاقة نحو الجهاد الخارجي ضد الأعداء (الصليبيين الذين كانوا لا يزالون يمثلون تهديداً، أو قوى أخرى محتملة)، كانت تُستهلك في صراعات داخلية لا طائل منها. كان الأمراء مشغولين بالتنافس على السلطة بدلاً من التخطيط للجهاد وتجهيز الجيوش له. هذا الانشغال الداخلي أضعف من جاهزية الجيش وقدرته على التحرك بفعالية خارج حدود الدولة.
2. **ضعف السلطة المركزية يؤثر على قيادة الجهاد الموحد:** أدت الصراعات الداخلية وتزايد نفوذ الأمراء على حساب السلطان إلى ضعف السلطة المركزية في القاهرة. كانت قيادة الجهاد تتطلب سلطة مركزية قوية قادرة على حشد الجيوش من مختلف أنحاء الدولة، وتنسيق الحملات، وتوفير الإمدادات اللازمة. مع ضعف السلطان وتنافس الأمراء، أصبحت هذه القيادة الموحدة صعبة التحقيق. لم يعد هناك قائد واحد يمتلك القدرة على توجيه الأمة كلها نحو هدف جهادي مشترك بنفس الفعالية التي كانت في عهد سلاطين المماليك الأوائل مثل بيبرس وقلاوون.

3. **الأزمات الاقتصادية تضعف قدرة الدولة على تمويل الجهاد:** كانت الأزمات الاقتصادية المتكررة (الأوبئة، تراجع التجارة، سوء الإدارة) تؤثر سلباً على إيرادات الدولة. كان الجهاد يتطلب أموالاً طائلة لتمويل الجيوش، وشراء الأسلحة، وتوفير الإمدادات، ودفع رواتب الجند. مع تراجع الموارد المالية، أصبحت الدولة أقل قدرة على تمويل حملات جهادية كبرى، أو حتى الحفاظ على جاهزية الجيش وصيانته بشكل كامل.

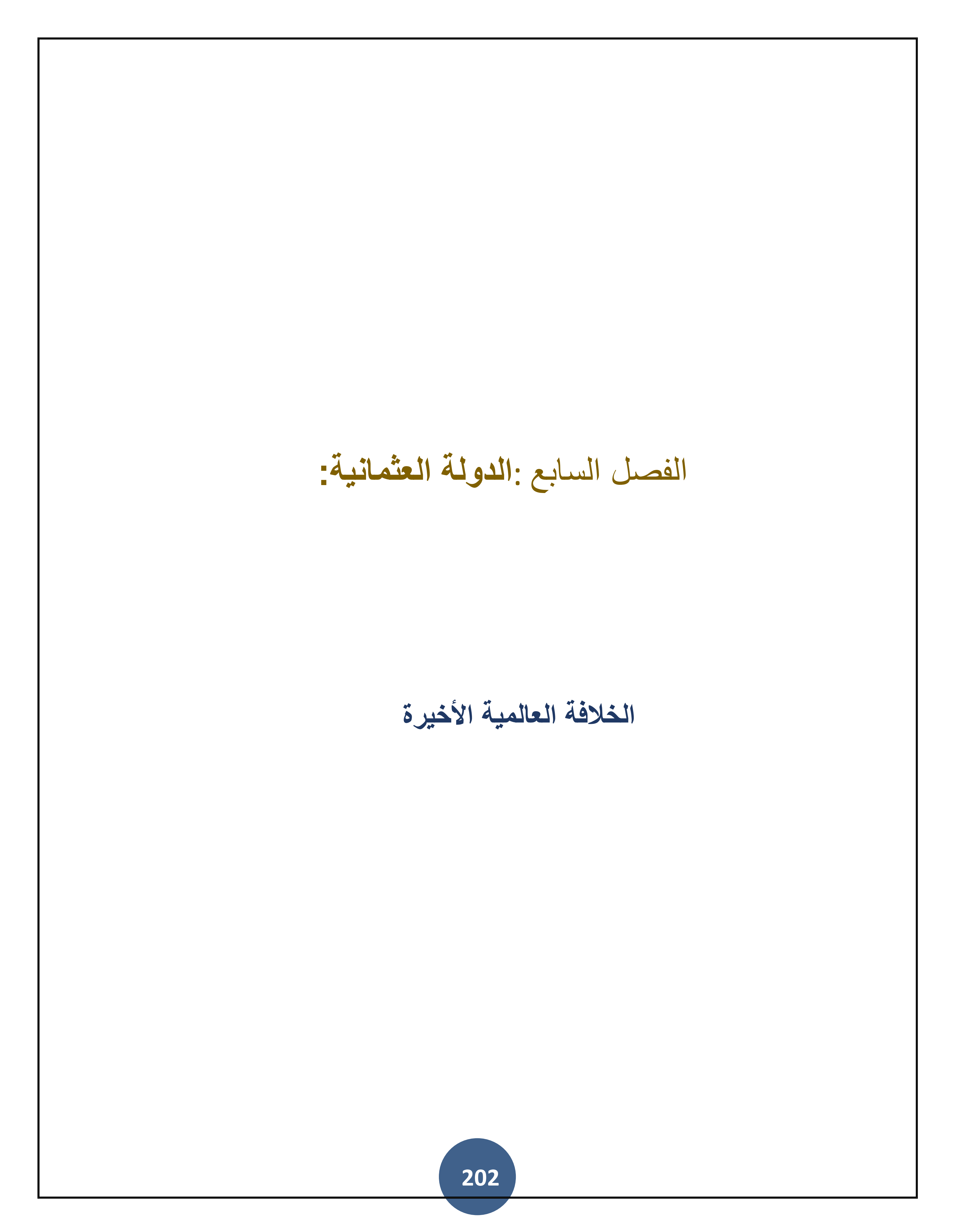
4. **تراجع الروح القتالية يؤثر على فعالية الجيش:** مع مرور الوقت، ومع تراكم الثروات وتغير نمط حياة بعض الأمراء المماليك، ربما تراجعت الروح القتالية العالية التي تميز بها المماليك الأوائل الذين كانوا يعيشون حياة عسكرية صارمة ويركزون على التدريب والجهاد. أصبح بعض الأمراء أكثر اهتماماً بالترف والملذات من التدريب والجهاد والتضحية. هذا التراجع في الروح القتالية أثر على فعالية الجيش في المعارك، وجعله أقل قدرة على الصمود أمام قوة صاعدة مثل العثمانيين الذين كانوا يتمتعون بروح جهادية عالية في بداية دولتهم.

5. **الجمود العسكري وعدم التكيف مع التطورات:** استمر الجيش المملوكي في الاعتماد على الأساليب القتالية التقليدية (مثل سلاح الفرسان الثقيل) ولم يتكيف بسرعة مع التطورات في فنون الحرب التي حدثت في أوروبا والدولة العثمانية، وخاصة استخدام الأسلحة النارية (المدفعية والبنادق). هذا الجمود العسكري وعدم القدرة على تطوير الجيش لمواكبة العصر جعلهم متخلفين عسكرياً أمام قوة مثل العثمانيين، التي كانت تعتمد بشكل كبير على المشاة المجهزين بالبنادق والمدفعية الثقيلة. يمكن اعتبار عدم القدرة على التكيف مع التطورات العسكرية شكلاً من أشكال التراجع عن "جهاد التطوير" الذي يجب أن يصاحب الجهاد القتالي.

6. **فقدان القدرة على التوسع يؤدي إلى الانكماش:** كانت دولة المماليك في فترات قوتها قادرة على الجهاد الهجومي (ضد الصليبيين) مما أدى إلى توسع رقعتها. ولكن مع تراكم عوامل الضعف الداخلية، فقدت الدولة القدرة على شن حملات جهادية هجومية كبرى، بل أصبحت تركز على الجهاد الدفاعي فقط. ومع تفاقم الضعف، فقدت حتى القدرة على الدفاع الفعال عن حدودها وأراضيها، مما أدى إلى **انكماش** رقعتها الجغرافية بفقدان الشام ثم مصر لصالح العثمانيين.

7. **العلاقة السببية بين الضعف الداخلي وتراجع الجهاد والسقوط**: يمكن القول بوضوح أن هناك علاقة سببية قوية بين عوامل الضعف الداخلية في دولة المماليك، وتراجع قدرتها على قيادة الجهاد الفعال (بأبعاده العسكرية والتطويرية والمعنوية)، وسقوطها في النهاية. لم يسقط المماليك لأنهم لم يقاتلوا، فقد قاتلوا بشجاعة في مرج دابق والريدانية، ولكنهم سقطوا لأن بنيتهم الداخلية كانت ضعيفة، وجيشهم لم يكن على نفس المستوى من الكفاءة والتنظيم والتسليح الذي كان عليه في فترات قوتهم، ولأنهم فقدوا القدرة على توحيد الصفوف وحشد الطاقات لمواجهة الخطر الأكبر. كان تراجع القدرة على الجهاد الفعال، نتيجة للضعف الداخلي، هو الذي أدى إلى الانكماش النهائي وسقوط الدولة.

في الختام، سقطت دولة المماليك بعد مسيرة حافلة بالجهاد والدفاع عن الأمة، وذلك نتيجة لتراكم عوامل الضعف الداخلية، وخاصة الصراعات على السلطة، والنزاعات بين فصائل المماليك، والأزمات الاقتصادية، وضعف الجيش وتخلفه العسكري، وتراجع الروح القتالية لدى البعض. هذه العوامل أدت إلى تراجع قدرة الدولة على قيادة الجهاد الفعال، مما جعلها عاجزة عن الصمود أمام قوة صاعدة ومنظمة مثل الدولة العثمانية، التي كانت تتمتع بالقوة الداخلية والتفوق العسكري في ذلك الوقت. كان سقوط دولة المماليك نهاية لعصر مهم في تاريخ الإسلام، وبداية لعصر جديد تحت راية الدولة العثمانية.



الفصل السابع :**الدولة العثمانية:**

الخلافة العالمية الأخيرة

بعد سقوط الخلافة العباسية المركزية في بغداد على يد المغول في منتصف القرن السابع الهجري (منتصف القرن الثالث عشر الميلادي)، وبعد تفتت العالم الإسلامي إلى دويلات وإمارات متناحرة، وبعد ضعف القوى الإسلامية الكبرى التي تصدت للمغول والصليبيين (مثل دولة المماليك التي بدأت تعاني من عوامل الضعف في فتراتها المتأخرة)، كانت الأمة الإسلامية في حاجة ماسة إلى قوة جديدة تجمع شتاتها، وتستعيد هيبتها، وتحمل لواء الجهاد والدفاع عن دار الإسلام. في هذه الظروف الصعبة، وفي منطقة الأناضول (تركيا حالياً)، التي كانت تمثل ثغراً[135] إسلامياً متقدماً على حدود الإمبراطورية البيزنطية، بدأت بذرة دولة جديدة تنمو وتشتد، لتصبح على مر القرون القوة الإسلامية الأبرز، وآخر خلافة عالمية كبرى في التاريخ الإسلامي:

الدولة العثمانية.

نشأت الدولة العثمانية في أواخر القرن السابع الهجري (أواخر القرن الثالث عشر الميلادي) كإمارة صغيرة على حدود الدولة البيزنطية المتهالكة، على يد مؤسسها **عثمان الأول**، الذي ينتمي إلى قبيلة قايي التركية. تميزت هذه الإمارة منذ بداياتها بتبنيها الصريح والفعال لـ **منهج الجهاد (الغزو)** في سبيل الله، كهدف أساسي لوجودها ونمائها. لم يكن الجهاد بالنسبة للعثمانيين مجرد واجب ديني فحسب، بل كان أيضاً **محركاً رئيسياً للتوسع، ومصدراً للثروة والقوة، وعاملاً أساسياً في جذب المؤيدين والمقاتلين** من مختلف الأصول، الذين كانوا يتوافدون للانضمام إلى راية الجهاد العثماني.

على مدار القرون التالية، استمرت الدولة العثمانية في التوسع والنمو بفضل تمسكها بهذا المنهج. عبرت إلى أوروبا (البلقان)، وحققت فتوحات كبرى، ووصلت إلى قلب القارة الأوروبية. بلغت ذروة قوتها ومجدها بفتح القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، على يد السلطان محمد الفاتح، لتصبح الدولة العثمانية وريثة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وتتبوأ مكانة عالمية لا تُدانيها فيها قوة أخرى.

[135] **ثغر إسلامي:** منطقة حدودية كانت تُستخدم كخط دفاع أمامي ضد الأعداء، وتحظى بأهمية عسكرية واستراتيجية في حماية أراضي المسلمين.

ثم امتد نفوذها ليشمل معظم العالم الإسلامي في المشرق العربي وشمال أفريقيا، لتصبح حامية الحرمين الشريفين، وقائدة العالم الإسلامي السني لقرون طويلة.

في هذا الفصل، سنتناول بالدراسة مسيرة الدولة العثمانية، مركزين على كيفية نشأتها وارتباطها بالجهاد في بداياتها، وتوسعها الهائل في أوروبا وفتح القسطنطينية كذروة لجهاد الفتح، ودورها كقائدة للعالم الإسلامي وحامية لمقدساته. كما سنبحث في كيفية ارتباط ازدهار الدولة وقوتها بتمسكها بمنهج الجهاد (بأبعاده العسكرية والإدارية والاقتصادية)، وكيف أن تراجع هذه الروح الجهادية، بالإضافة إلى عوامل الضعف الداخلية والتحديات الخارجية، أدى في النهاية إلى تراجع الدولة وانكماشها وسقوطها. إن قصة الدولة العثمانية هي قصة جهاد متواصل، شكل أساس وجودها وازدهارها واستمرارها لقرون، حتى واجهت تحديات العصر الحديث التي لم تستطع التغلب عليها بنفس الروح والفعالية.

المبحث الأول: البدايات والجهاد في الأناضول: من الإمارة إلى الدولة

لم تظهر الدولة العثمانية من فراغ، بل نشأت في سياق تاريخي معقد، وفي منطقة جغرافية محددة لعبت دوراً حاسماً في توجيه مسارها الأولي. كانت الأناضول (آسيا الصغرى)، حيث بدأت بذرة الدولة العثمانية بالنمو، منطقة حدودية مضطربة، شهدت صراعاً طويلاً بين العالم الإسلامي والإمبراطورية البيزنطية، كما تأثرت بشكل كبير بضعف القوى الإسلامية التي سبقتها والغزو المغولي المدمر. في هذه البيئة، برزت إمارة صغيرة تبنت منهجاً واضحاً، هو **الجهاد (الغزو)**، ليصبح المحرك الأساسي لنشأتها، وتوسعها، وتحولها من مجرد إمارة حدودية إلى دولة قوية مهدت لقيام إمبراطورية عالمية.

1. الظروف التي أحاطت بنشأة الدولة العثمانية في الأناضول

في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، كانت الأناضول تعيش حالة من الفوضى والتشرذم السياسي[136]، وذلك بعد تضافر عاملين رئيسيين:

- **ضعف دولة سلاجقة الروم:** كانت دولة سلاجقة الروم هي القوة الإسلامية الرئيسية في الأناضول قبل ظهور العثمانيين. ولكن هذه الدولة بدأت تعاني من الضعف والتفكك في فتراتها المتأخرة، خاصة بعد هزيمتها أمام المغول في معركة كوسي داغ[137] عام 641هـ (1243م). أدى ضعف السلاجقة إلى ظهور عدد من الإمارات التركية الصغيرة المتناحرة (التي تُعرف بإمارات الأناضول) على أنقاض دولتهم.
- **الغزو المغولي وتأثيره:** كان الغزو المغولي للأناضول مدمراً. فقد أضعف المغول القوى الإسلامية القائمة، وأدخلوا المنطقة في حالة من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي. ورغم أن المغول لم يحكموا الأناضول بشكل مباشر لفترة طويلة، إلا أن تأثيرهم أدى إلى تفاقم حالة التشرذم السياسي.

في ظل هذه الظروف، أصبحت منطقة الأناضول الحدودية مع الإمبراطورية البيزنطية المتهالكة بيئة مناسبة لظهور إمارات حدودية جديدة، تعتمد على القوة العسكرية والجهاد ضد البيزنطيين للبقاء والتوسع.

---

[136] **التشرذم السياسي:** حالة من الانقسام والتفكك بين القوى أو الفصائل السياسية، تؤدي إلى ضعف السلطة المركزية وصعوبة اتخاذ قرارات موحدة.

[137] **معركة كوسي داغ:** معركة وقعت عام 1243م بين المغول وسلاجقة الروم في منطقة الأناضول، انتهت بهزيمة السلاجقة وخضوعهم لسيطرة المغول.

2. دور أرطغرل وعثمان الأول في تأسيس الإمارة وتوجيهها نحو الجهاد (الغزو) على الحدود البيزنطية

تنسب الدولة العثمانية إلى قبيلة قايي التركية، التي هاجرت من آسيا الوسطى[138] ولجأت إلى سلاجقة الروم[139]. منح سلاجقة الروم قبيلة قايي بقيادة **أرطغرل** (والد عثمان الأول) قطعة أرض على الحدود الغربية للأناضول، بالقرب من الحدود البيزنطية، لتكون بمثابة ثغر يحمي حدود دولة السلاجقة من هجمات البيزنطيين.

- **أرطغرل كقائد حدودي:** عاش أرطغرل كقائد حدودي (غازي)، يشارك في الغزوات ضد البيزنطيين. كان دوره يتركز على تأمين المنطقة التي مُنحت لقبيلته، والمشاركة في الدفاع عن حدود دار الإسلام.
- **عثمان الأول وتأسيس الإمارة:** بعد وفاة أرطغرل، تولى ابنه **عثمان الأول** (حكم حوالي 699-726هـ / 1299-1326م) قيادة القبيلة. يُعتبر عثمان الأول هو **المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية**. في عام 699هـ (1299م)، يُعتقد أن عثمان أعلن استقلال إمارته عن سلاجقة الروم (الذين كانوا قد ضعفوا بشكل كبير)، ليؤسس بذلك كياناً سياسياً مستقلاً.
- **توجيه الإمارة نحو الجهاد (الغزو):** أدرك عثمان الأول أن بقاء إمارته الصغيرة ونموها يعتمد بشكل أساسي على **الجهاد (الغزو) ضد الإمبراطورية البيزنطية**. كانت الحدود البيزنطية تمثل جبهة قتال مستمرة، والإمبراطورية البيزنطية كانت تعاني من ضعف داخلي وتدهور عسكري. وجه عثمان إمارته بالكامل نحو هذه الجبهة. لم يكن لديه طموح كبير في قتال الإمارات التركية الإسلامية المجاورة في البداية، بل ركز جهوده على التوسع على حساب الأراضي البيزنطية غير المسلمة.

كان هذا التوجيه نحو الجهاد (الغزو) على الحدود البيزنطية هو القرار الاستراتيجي الأكثر أهمية الذي اتخذه عثمان الأول، والذي شكل هوية الدولة العثمانية في بداياتها.

---

[138] **آسيا الوسطى:** منطقة جغرافية واسعة تقع بين بحر قزوين والصين، تشمل دولًا مثل أوزبكستان، كازاخستان، تركمانستان، قيرغيزستان، وطاجيكستان، وكانت مهدًا لحضارات إسلامية وتركية كبرى

[139] **سلاجقة الروم:** فرع من السلاجقة الأتراك، أسّسوا دولة في الأناضول (تركيا حاليًا) بعد معركة ملاذكرد عام 1071م، واتخذوا من قونية عاصمة لهم، وواجهوا البيزنطيين والصليبيين والمغول

3. كيف كان الجهاد (الغزو) هو المحرك الأساسي للتوسع المبكر للدولة وجذب المؤيدين

كان الجهاد (الغزو) هو القوة الدافعة الرئيسية التي مكنت الإمارة العثمانية الصغيرة من التوسع بسرعة في بداياتها، وجذب إليها المؤيدين والمقاتلين من مختلف الأصول.

- **الدافع الديني:** كان الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام، وتوسيع دار الإسلام، دافعاً دينياً قوياً يحرك المقاتلين المسلمين. كان الانضمام إلى الغزو ضد البيزنطيين يُنظر إليه كعبادة وقربة إلى الله.
- **الفرص الاقتصادية:** كانت الغزوات توفر فرصاً للمقاتلين للحصول على الغنائم من الأراضي المفتوحة. كانت الغنائم توزع على المقاتلين، مما يوفر لهم مصدر رزق ويشجعهم على المشاركة في الحملات.
- **اكتساب الأراضي:** أدت الغزوات إلى اكتساب الإمارة العثمانية لأراضٍ جديدة على حساب البيزنطيين. كانت هذه الأراضي تُمنح للمقاتلين الذين شاركوا في الفتح (نظام الإقطاع العسكري أو التيمار لاحقاً)، مما يوفر لهم مصدر دخل ويضمن ولاءهم للإمارة.
- **جذب الغزاة والمقاتلين:** أصبحت الإمارة العثمانية، بفضل نشاطها الجهادي المستمر ونجاحاتها في الغزو، مقصداً للعديد من المقاتلين المسلمين (الغزاة) من مختلف أنحاء الأناضول والعالم الإسلامي، الذين كانوا يبحثون عن فرصة للمشاركة في الجهاد والحصول على الغنائم. كان هؤلاء الغزاة يشكلون قوة عسكرية إضافية عززت من قدرة الإمارة على التوسع.
- **ضعف البيزنطيين:** استغل العثمانيون ضعف الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تعاني من مشاكل داخلية وخارجية. كانت الحدود البيزنطية ضعيفة، ولم تكن هناك مقاومة منظمة وقوية في وجه الغزوات العثمانية المبكرة.
- **التعامل مع السكان:** اتبع العثمانيون سياسة حكيمة في التعامل مع سكان الأراضي البيزنطية المفتوحة، حيث منحوا غير المسلمين الأمان على أرواحهم وأموالهم وكنائسهم بموجب الجزية، مما أسهم في استقرار المناطق المفتوحة وتقبل السكان للحكم العثماني.

كانت هذه العوامل مجتمعة، مدفوعة بمنهج الجهاد (الغزو)، هي التي مكنت الإمارة العثمانية الصغيرة من التوسع بسرعة في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري، على حساب الأراضي البيزنطية في شمال غرب الأناضول.

الجهاد والازدهار/التوسع: أساس قيام الدولة وقوتها الأولية

في هذه المرحلة المبكرة جداً من تاريخ الدولة العثمانية، كان **الجهاد (الغزو) هو أساس قيام الدولة وسبب توسعها الأولي واكتسابها القوة التي مهدت لازدهارها اللاحق.**

- **أساس القيام:** لم تقم الإمارة العثمانية على أساس قبلي بحت أو على أساس وراثة سلطة سابقة، بل قامت على أساس **الجهاد على الحدود**. كان هذا المنهج هو الذي أعطاها هويتها وشرعيتها في بداياتها.
- **سبب التوسع الأولي:** كان الغزو المستمر على حساب الأراضي البيزنطية هو الذي أدى إلى **توسع رقعة الإمارة** من مجرد قطعة أرض صغيرة إلى إمارة أكبر تضم مدناً وحصوناً.
- **اكتساب القوة:** من خلال الجهاد، تمكن العثمانيون من بناء جيش قوي ومتمرس، واكتساب خبرات قتالية، وجذب المؤيدين والمقاتلين، وتوفير الموارد الاقتصادية من الغنائم والأراضي المفتوحة. كل هذه العوامل ساهمت في **اكتساب الإمارة للقوة** التي جعلتها تتفوق على الإمارات التركية المجاورة وتصبح القوة الصاعدة في الأناضول.
- **التمهيد للازدهار اللاحق:** هذه القوة الأولية التي اكتسبتها الإمارة بفضل الجهاد في بداياتها هي التي مهدت الطريق للازدهار السياسي والاقتصادي والعسكري الذي شهدته الدولة العثمانية في مراحلها اللاحقة، عندما تحولت من إمارة إلى دولة ثم إلى إمبراطورية عالمية.

لم يكن هناك "ازدهار" بالمعنى الكامل في هذه المرحلة المبكرة جداً، ولكن كان هناك **اكتساب للقوة** و**توسع جغرافي** كانا نتيجة مباشرة للجهاد (الغزو)، وشكلا الأساس الذي بُني عليه الازدهار والتوسع الأكبر في المستقبل. الجهاد كان هو الوقود الذي أشعل شرارة الدولة العثمانية ودفعها نحو النمو..

المبحث الثاني: التوسع في البلقان وتأسيس القوة الأوروبية: جهاد الفتح في أوروبا

بعد أن تمكنت الإمارة العثمانية من ترسيخ أقدامها في شمال غرب الأناضول بفضل منهج الجهاد (الغزو) على الحدود البيزنطية، لم تتوقف طموحاتها عند هذا الحد. كانت الخطوة التالية، والتي شكلت نقطة تحول كبرى في تاريخها وفي تاريخ أوروبا، هي **عبور العثمانيين إلى القارة الأوروبية** وبدء حملات الفتح المنظمة في منطقة **البلقان**. هذا التوسع الهائل في أوروبا لم يكن ليتحقق لولا التمسك بمنهج الجهاد، الذي أصبح في هذه المرحلة "جهاد الفتح في أوروبا"، وشكل دافعاً رئيسياً وشرعية لهذه التوسعات التي حولت الدولة العثمانية من مجرد إمارة حدودية إلى قوة أوروبية كبرى.

1. عبور العثمانيين إلى أوروبا (الروملي) وبداية الفتوحات في البلقان

كانت الإمبراطورية البيزنطية لا تزال تسيطر على بعض المناطق في الأناضول وعلى أجزاء واسعة من البلقان. كانت منطقة البلقان مقسمة بين ممالك وإمارات مسيحية مختلفة (صرب، بلغار، يونان، ألبان، وغيرهم)، وكانت هذه الكيانات تعاني من صراعات داخلية وتنافس فيما بينها، مما أضعفها وجعلها عرضة للغزو.

- **العبور الأول:** يُعتقد أن أول عبور عثماني منظم إلى أوروبا (التي عرفها العثمانيون بـ **"الروملي"**[140]، أي أرض الروم) كان في عهد السلطان **أورخان غازي** (ابن عثمان الأول، حكم 726-761هـ / 1326-1360م). استغل العثمانيون الصراعات الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية، وتمكنوا من الحصول على موطئ قدم في شبه جزيرة غاليبولي الأوروبية في منتصف القرن الثامن الهجري (منتصف القرن الرابع عشر الميلادي).
- **بداية الفتوحات المنظمة:** بعد الحصول على هذا الموطئ، بدأ العثمانيون في شن حملات الفتح المنظمة في منطقة البلقان. كانت هذه المنطقة ذات أهمية استراتيجية كبرى، وتوفر فرصاً واسعة للتوسع على حساب القوى المسيحية غير الموحدة.

[140] **الروملي:** (أي البيزنطيين) "أرض الروم" ويعني ،اسم أطلقه العثمانيون على المناطق الأوروبية التي كانت تحت حكمهم، خاصة في البلقان.

2. أبرز الفتوحات في هذه المنطقة ودورها في توسيع رقعة الدولة بشكل هائل

شهدت منطقة البلقان سلسلة من الفتوحات العثمانية السريعة والمظفرة على مدى قرن ونصف تقريباً، والتي أدت إلى توسيع رقعة الدولة بشكل هائل وجعلها قوة أوروبية رئيسية.

- **فتح أدرنة (حوالي 762هـ / 1361م):** تُعد مدينة **أدرنة (أدريانوبل)** من أهم المدن البيزنطية في تراقيا الأوروبية. كان فتحها إنجازاً كبيراً، حيث أصبحت عاصمة للدولة العثمانية لفترة طويلة قبل فتح القسطنطينية. شكل فتح أدرنة قاعدة انطلاق رئيسية للفتوحات العثمانية في البلقان.
- **معركة ماريتسا (771هـ / 1371م):** انتصر العثمانيون في هذه المعركة على تحالف من الأمراء الصرب، مما أضعف المقاومة الصربية وفتح الطريق أمام التوسع العثماني في مقدونيا وتراقيا.
- **معركة قوصوه (كوسوفو الأولى) (791هـ / 1389م):** كانت معركة قوصوه من المعارك الحاسمة في تاريخ البلقان. واجه فيها السلطان مراد الأول جيشاً كبيراً من الصرب وحلفائهم. انتهت المعركة بانتصار عثماني كبير، رغم استشهاد السلطان مراد الأول. أضعفت هذه المعركة القوة الصربية بشكل نهائي ومهدت لسيطرة العثمانيين على معظم الأراضي الصربية.
- **معركة نيقوبولس (800هـ / 1396م):** بعد التوسع العثماني في البلقان، دعا البابا بونيفاس التاسع إلى حملة صليبية جديدة لوقف زحف العثمانيين. تشكل جيش صليبي كبير من فرسان من مختلف أنحاء أوروبا. واجه السلطان بايزيد الأول هذا الجيش في معركة نيقوبولس (في بلغاريا حالياً)، وحقق نصراً ساحقاً على الصليبيين. كان هذا النصر دليلاً على قوة الجيش العثماني وضعف القوى الأوروبية الموحدة في مواجهته، وعزز من هيبة الدولة العثمانية في أوروبا.
- **معركة فارنا (848هـ / 1444م):** بعد فترة من الاضطراب الداخلي في الدولة العثمانية، حاول تحالف أوروبي جديد طرد العثمانيين من البلقان. واجه السلطان مراد الثاني هذا التحالف في معركة فارنا (في بلغاريا حالياً)، وحقق نصراً حاسماً آخر على القوى الأوروبية.

أدت هذه الفتوحات المتتالية إلى ضم مناطق شاسعة في البلقان (بلغاريا، صربيا، البوسنة، ألبانيا، اليونان، وغيرها) إلى الدولة العثمانية. أصبحت الدولة تسيطر على مساحات واسعة في جنوب شرق أوروبا، وتجاوزت في رقعتها الجغرافية معظم الدول الأوروبية الأخرى في ذلك الوقت.

3. قيادة السلاطين الأوائل لهذه الفتوحات

لعب سلاطين الدولة العثمانية الأوائل دوراً قيادياً حاسماً في هذه الفتوحات الكبرى في البلقان. كانوا قادة عسكريين بارعين، يتمتعون بالشجاعة، والبصيرة السياسية، والقدرة على تنظيم الجيوش وتوجيهها.

- **أورخان غازي:** هو الذي حقق أول عبور إلى أوروبا ووضع الأساس للتوسع في البلقان.
- **مراد الأول[141] (حكم 761-791هـ):** يُعد مراد الأول من أعظم سلاطين الدولة العثمانية الأوائل. كان قائداً عسكرياً فذاً، قاد العديد من الفتوحات الهامة في البلقان، ووطد أركان الدولة، ونظم الجيش والإدارة. استشهد في معركة قوصوه، ليصبح أول سلطان عثماني يستشهد في المعركة.
- **بايزيد الأول[142] (حكم 791-805هـ / 1389-1402م):** يُعرف بـ"الصاعقة" لسرعته في الحركة. واصل بايزيد الأول فتوحاته في البلقان والأناضول، وحقق نصراً كبيراً في معركة نيقوبولس على الحملة الصليبية. ورغم هزيمته وأسره لاحقاً على يد تيمورلنك في معركة أنقرة، إلا أن دوره في توسيع الدولة كان كبيراً.

هؤلاء السلاطين، وغيرهم من القادة العسكريين العثمانيين الأوائل، كانوا يمثلون روح الجهاد والقيادة التي دفعت الدولة نحو التوسع والازدهار.

---

[141] **مراد الأول:** ثالث سلاطين الدولة العثمانية (1362–1389م)، وهو ابن السلطان أورخان بن عثمان، شهد عصره توسع الدولة في البلقان وتأسيس مؤسسات إدارية وعسكرية هامة.

[142] **بايزيد الأول:** رابع سلاطين الدولة العثمانية (1389–1402م)، ابن مراد الأول، لُقّب بـ"الصاعقة" لسرعة تحركاته العسكرية، هزم الصليبيين في نيقوبوليس، وهُزم لاحقًا أمام تيمورلنك في معركة أنقرة وأُسر حتى وفاته.

4. كيف شكل الجهاد (الغزو ضد القوى المسيحية) دافعاً رئيسياً وشرعية لهذه التوسعات

كان الجهاد (الغزو) ضد القوى المسيحية في أوروبا هو **الدافع الرئيسي والشرعية الأساسية** التي استندت إليها الدولة العثمانية في توسعاتها في البلقان.

- **الدافع الديني:** كان الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام، وتوسيع دار الإسلام على حساب دار الكفر (ممالك أوروبا المسيحية)، دافعاً دينياً قوياً يحرك السلاطين والقادة والجنود المسلمين. كان يُنظر إلى هذه الفتوحات كعبادة عظيمة وقربة إلى الله، وأن من يُقتل فيها فهو شهيد. هذا الدافع الديني كان يوفر حافزاً معنوياً هائلاً للمقاتلين.
- **الشرعية السياسية:** اكتسب السلاطين العثمانيون شرعية سياسية كبيرة في نظر المسلمين في الأناضول والعالم الإسلامي بفضل قيادتهم للجهاد ضد القوى المسيحية. كانوا يُنظر إليهم كحماة لدار الإسلام، وكقادة يحققون وعد الله بنصر دينه. هذا الدعم من المسلمين عزز من سلطتهم ومكنهم من حشد الجيوش والموارد اللازمة للفتوحات.
- **الفرص الاقتصادية:** كانت الغزوات توفر فرصاً اقتصادية كبيرة من خلال الحصول على الغنائم، والسيطرة على الأراضي الزراعية الغنية في البلقان، وفرض الضرائب (الخراج والجزية) على السكان غير المسلمين. هذه الموارد الاقتصادية كانت ضرورية لتمويل الجيش، وبناء الدولة، وتوزيع العطاءات على المقاتلين، مما يشجعهم على مواصلة الجهاد.
- **جذب المقاتلين (الغزاة):** كما في المرحلة الأولى، استمرت الإمارة العثمانية في جذب أعداد كبيرة من المقاتلين المسلمين (الغزاة) من مختلف الأصول الذين كانوا يبحثون عن فرصة للمشاركة في الجهاد والحصول على الغنائم. كان هؤلاء الغزاة يشكلون قوة عسكرية إضافية عززت من قدرة الدولة على التوسع.

الجهاد والازدهار/التوسع: توسع ضخم وقوة أوروبية وازدهار متزايد

كان الجهاد في البلقان له آثار عميقة ومباشرة على الدولة العثمانية من حيث **الازدهار والتوسع:**

- **توسع جغرافي ضخم:** أدى الجهاد (الغزو) في البلقان إلى **توسع جغرافي ضخم وهائل** لرقعة الدولة العثمانية. في غضون فترة قصيرة نسبياً، أصبحت الدولة تسيطر على مساحات واسعة جداً في جنوب شرق أوروبا، لتصبح من أكبر الدول في القارة.

- **تأسيس قوة أوروبية كبرى:** هذا التوسع في البلقان لم يقتصر على مجرد إضافة أراضٍ، بل جعل الدولة العثمانية **قوة أوروبية كبرى** لا يمكن تجاهلها. أصبحت الدولة لاعباً رئيسياً في السياسة الأوروبية، وتدخلت في شؤون الممالك الأوروبية، وأصبحت تهديداً مباشراً لبعضها.
- **توفير موارد بشرية واقتصادية:** وفرت الأراضي المفتوحة في البلقان للدولة العثمانية **موارد بشرية** كبيرة (من خلال تجنيد بعض السكان المحليين في الجيش، وإسلام أعداد كبيرة منهم) و**موارد اقتصادية** ضخمة (من خلال الضرائب على الأراضي والتجارة). هذه الموارد عززت بشكل كبير من قوة الدولة وقدرتها على تمويل جيوش أكبر وشن حملات أوسع.
- **عامل في الازدهار المتزايد:** كان هذا التوسع الجغرافي الكبير، واكتساب الموارد البشرية والاقتصادية، وتعزيز المكانة السياسية، عوامل رئيسية ساهمت في **الازدهار المتزايد** الذي شهدته الدولة العثمانية في هذه المرحلة والمراحل اللاحقة. لم يكن الازدهار مجرد نتيجة للجهاد، ولكنه كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالتوسع الذي حققه الجهاد، والذي وفر للدولة الأسس اللازمة للنمو والازدهار.

، كان عبور العثمانيين إلى أوروبا وبدء فتوحاتهم في البلقان نقطة تحول حاسمة في تاريخهم. كان الجهاد (الغزو ضد القوى المسيحية) هو الدافع الرئيسي والشرعية الأساسية لهذه التوسعات الهائلة التي قادها سلاطين عظام. أدى هذا الجهاد إلى توسع جغرافي ضخم، وجعل الدولة قوة أوروبية كبرى، ووفر لها موارد بشرية واقتصادية عززت من ازدهارها المتزايد. شكلت هذه المرحلة ذروة لجهاد الفتح في أوروبا، ومهدت الطريق للفتح الأعظم.

المبحث الثالث: الفتح العظيم للقسطنطينية: ذروة الجهاد ورمز السيادة العالمية

بعد أن وطّد العثمانيون أقدامهم في الأناضول وتوسعوا بشكل كبير في البلقان، وأصبحوا قوة أوروبية كبرى، لم يبقَ أمامهم سوى هدف واحد، كان يمثل حلماً إسلامياً قديماً، وتحدياً استراتيجياً كبيراً، ورمزاً للسيادة العالمية: **مدينة القسطنطينية**، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الألفية. كان فتح هذه المدينة هو ذروة الجهاد العثماني، والحدث الذي نقل الدولة العثمانية إلى مصاف الإمبراطوريات العالمية الكبرى، ورسّخ مكانتها كقائدة للعالم الإسلامي.

1. الأهمية الاستراتيجية والتاريخية والدينية لمدينة القسطنطينية

كانت القسطنطينية، التي أسسها الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول عام 330م، مدينة ذات أهمية استراتيجية وتاريخية ودينية لا تُضاهى.

- **الأهمية الاستراتيجية:** تقع القسطنطينية على مضيق البوسفور، الذي يربط البحر الأسود ببحر مرمرة ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط. موقعها الجغرافي جعلها نقطة تحكم حيوية على طرق التجارة والمواصلات بين أوروبا وآسيا، وبين البحر الأسود والمتوسط. كانت المدينة محصنة تحصيناً طبيعياً وبشرياً فريداً، محاطة بالبحر من ثلاث جهات، ومحمية بأسوار برية وبحرية عظيمة جعلتها عصية على الفتح لقرون طويلة.
- **الأهمية التاريخية:** كانت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)، ووريثة الإمبراطورية الرومانية القديمة. كانت تمثل استمراراً لحضارة عريقة، ورمزاً للقوة والمجد. السيطرة عليها كانت تعني وراثة هذا الإرث التاريخي واكتساب الهيبة المرتبطة به.

- **الأهمية الدينية:** كانت القسطنطينية مركزاً رئيسياً للمسيحية الشرقية (الأرثوذكسية)، وتضم كنائس عظيمة مثل آيا صوفيا. بالنسبة للمسلمين، كانت المدينة تمثل رمزاً للقوة المسيحية الكبرى التي واجهها الإسلام منذ بداياته. كما أن فتحها كان مرتبطاً بـ **بشارة نبوية شريفة**. فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش".**[143] هذه البشارة جعلت فتح القسطنطينية حلماً يراود المسلمين وقادتهم على مر العصور، وسعى لتحقيقه العديد من الخلفاء والقادة قبل العثمانيين، لكنهم لم يوفقوا.

كانت هذه الأهمية المتعددة للقسطنطينية تجعلها هدفاً رئيسياً للدولة العثمانية، التي كانت ترى في فتحها تحقيقاً للبشارة النبوية، وتأميناً لدولتها التي أصبحت تسيطر على الأناضول والبلقان وتحيط بالقسطنطينية من كل جانب تقريباً، واكتساباً لمكانة عالمية لا مثيل لها.

2. الاستعدادات الكبرى التي قام بها السلطان محمد الفاتح لفتح المدينة

كان تحقيق حلم فتح القسطنطينية يتطلب قائداً استثنائياً يتمتع بالعزيمة، والبصيرة، والقدرة على التخطيط والتنفيذ. وجد العثمانيون هذا القائد في شخص السلطان **محمد الثاني** (حكم 855-886هـ / 1451-1481م)، الذي عُرف لاحقاً بـ **"محمد الفاتح"**. كان محمد الفاتح شاباً طموحاً، متعلماً، ومؤمناً بالبشارة النبوية، ومصمماً على تحقيق هذا الفتح العظيم.

- **التخطيط الدقيق:** بدأ محمد الفاتح في التخطيط لفتح القسطنطينية منذ توليه السلطنة. لم يترك شيئاً للصدفة، بل درس تاريخ محاولات الفتح السابقة، ونقاط قوة وضعف المدينة ودفاعاتها.
- **بناء قلعة روملي حصار:** من أبرز استعداداته بناء قلعة ضخمة على الجانب الأوروبي من مضيق البوسفور، مقابل قلعة أناضول حصار التي بناها جده بايزيد الأول على الجانب الآسيوي. اكتمل بناء قلعة **روملي حصار** في وقت قياسي (حوالي 4 أشهر) عام 856هـ (1452م). كان الهدف من بناء هذه القلعة هو **التحكم الكامل في مضيق البوسفور**، ومنع وصول أي إمدادات أو مساعدات إلى القسطنطينية من البحر الأسود.

---

[143] رواه **الإمام أحمد** في *المسند* (حديث رقم 23462).
ورواه **الحاكم** في *المستدرك* (ج4/ص422)، وقال: *هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه*.
صححه **الذهبي** في التلخيص، وكذلك **السيوطي** في *الجامع الصغير*.

- **إعداد الجيش وتجهيزه:** حشد محمد الفاتح جيشاً ضخماً لفتح القسطنطينية، يُقدر عدده بعشرات الآلاف من المقاتلين، من مختلف فصائل الجيش العثماني (الإنكشارية[144]، السباهية[145]، المشاة، الفرسان، المتطوعون). اهتم بتدريب الجيش وتجهيزه بأحدث الأسلحة والعتاد.

- **صناعة المدافع الضخمة:** أدرك محمد الفاتح أن أسوار القسطنطينية المنيعة لا يمكن اختراقها بالأسلحة التقليدية. لذلك، أولى اهتماماً خاصاً لـ **صناعة المدافع الضخمة** غير المسبوقة في ذلك العصر. استعان بمهندسين وخبراء في صناعة المدافع، وتمكن من صناعة مدافع عملاقة قادرة على إطلاق قذائف ثقيلة قادرة على تدمير الأسوار. كان المدفع الأكبر، المعروف بـ "المدفع السلطاني" أو "المدفع العثماني"، من عجائب الهندسة العسكرية في ذلك الوقت.

- **إعداد الأسطول البحري:** أعد محمد الفاتح أسطولاً بحرياً كبيراً لمحاصرة المدينة من جهة البحر، ومنع وصول الإمدادات إليها، ومواجهة الأسطول البيزنطي وحلفائه الأوروبيين.

- **التأمين السياسي:** قبل البدء في الحصار، قام محمد الفاتح بتأمين حدوده وعقد اتفاقيات مع القوى المجاورة (مثل الممالك الأوروبية وإمارات الأناضول) لضمان عدم تعرضه لهجوم من الخلف أثناء انشغاله بحصار القسطنطينية.

كانت هذه الاستعدادات الكبرى والمتكاملة دليلاً على عبقرية محمد الفاتح التخطيطية والعسكرية، وعزمه على تحقيق الفتح مهما كلف الأمر.

3. تفاصيل حصار القسطنطينية وفتحها عام 857هـ (1453م)

بدأ حصار القسطنطينية في السادس والعشرين من ربيع الأول عام 857هـ (الموافق 6 أبريل 1453م). استمر الحصار لسبعة وخمسين يوماً، وشهد أحداثاً وتكتيكات عسكرية فريدة.

- **نصب المدافع وقصف الأسوار:** قام العثمانيون بنصب مدافعهم الضخمة أمام أسوار القسطنطينية البرية، وبدأوا في قصفها بشكل متواصل. أحدثت المدافع العثمانية العملاقة ثغرات وتصدعات في الأسوار التي صمدت لقرون.

---

[144] **الإنكشارية:** فرقة نخبة من جنود المشاة في الجيش العثماني، تأسست في القرن الرابع عشر، وكانوا مخلصين للسلطان ويمتنعون عن امتلاك أملاك خاصة، وكان لهم دور كبير في الفتوحات والحفاظ على النظام الداخلي للدولة.

[145] **السباهية:** جنود فرس في الجيش العثماني، كانوا مرتزقة أو جنودًا مأجورين يشكلون جزءًا كبيرًا من القوة العسكرية، وكان لهم دور مهم في الحروب والحفاظ على النظام.

- **محاولة اختراق القرن الذهبي:** كانت القسطنطينية محمية من جهة القرن الذهبي (الخليج الذي يفصل بين المدينة وشمالها) بسلسلة حديدية ضخمة تمنع دخول السفن. كانت هذه السلسلة تشكل تحدياً كبيراً للأسطول العثماني.
- **نقل السفن براً:** في خطوة عسكرية جريئة وغير متوقعة، أمر محمد الفاتح بنقل عدد من سفن أسطوله براً، عبر البر، من مضيق البوسفور إلى داخل القرن الذهبي، متجاوزاً بذلك السلسلة الحديدية. تم ذلك عن طريق بناء طريق خشبي دهن بالشحم والزيت، وسحب السفن عليه بواسطة الثيران والرجال. كانت هذه العملية إنجازاً هندسياً وعسكرياً مذهلاً، فاجأ البيزنطيين وأضعف من دفاعاتهم البحرية.
- **الهجوم النهائي وسقوط المدينة:** بعد أسابيع من الحصار والقصف ومحاولات الاقتحام، أمر محمد الفاتح بالهجوم النهائي الشامل على المدينة في فجر يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى عام 857هـ (الموافق 29 مايو 1453م). شاركت في الهجوم جميع فصائل الجيش العثماني. بعد قتال عنيف على الأسوار وفي شوارع المدينة، تمكن الجيش العثماني من اختراق الدفاعات وسقطت المدينة.
- **دخول محمد الفاتح المدينة:** دخل السلطان محمد الفاتح المدينة فاتحاً، وتوجه مباشرة إلى كنيسة آيا صوفيا، وأمر بتحويلها إلى مسجد، وأقام فيها أول صلاة جمعة، معلناً بذلك دخول المدينة في حظيرة الإسلام.

كان فتح القسطنطينية نصراً عظيماً للمسلمين، ونهاية للإمبراطورية البيزنطية التي دامت لأكثر من ألف عام.

4. أهمية هذا الفتح كتحقيق لبشارة نبوية وذروة للجهاد العثماني

كان فتح القسطنطينية يحمل أهمية دينية وتاريخية كبرى للمسلمين، وخصوصاً للعثمانيين.

- **تحقيق البشارة النبوية:** رأى المسلمون في هذا الفتح تحقيقاً مباشراً لبشارة النبي صلى الله عليه وسلم. هذا الأمر منح الفتح شرعية دينية عظيمة، وزاد من مكانة السلطان محمد الفاتح في قلوب المسلمين كـ"الأمير" الذي بشر به النبي.
- **ذروة الجهاد العثماني:** شكل فتح القسطنطينية **ذروة الجهاد العسكري العثماني** في مرحلة الفتح والتوسع. كان تتويجاً لقرون من الجهاد على الحدود البيزنطية، وتحقيقاً لأكبر هدف استراتيجي سعى إليه العثمانيون. أظهر هذا الفتح مدى قوة الجيش العثماني، وبراعته في فنون الحصار والقتال، وإصراره على تحقيق أهدافه الجهادية.

- **رمز للسيادة الإسلامية:** أصبح فتح القسطنطينية رمزاً لعودة القوة والهيبة للعالم الإسلامي بعد فترة من الضعف والتفتت. أظهر أن المسلمين لا يزالون قادرين على تحقيق إنجازات عسكرية كبرى وتحدي القوى العظمى في العالم.

5. أثر الفتح على الدولة العثمانية (عاصمة جديدة، هيبة عالمية) وعلى العالم

كان لفتح القسطنطينية آثار عميقة ودائمة على الدولة العثمانية وعلى العالم بأسره.

- **عاصمة جديدة للدولة العثمانية:** بعد الفتح، نقل محمد الفاتح عاصمة دولته من أدرنة إلى القسطنطينية، التي أُطلق عليها اسم **إسلامبول** (مدينة الإسلام) أو **استانبول** لاحقاً. أصبحت استانبول عاصمة للدولة العثمانية لقرون طويلة، ومركزاً سياسياً، وإدارياً، واقتصادياً، وحضارياً عالمياً.
- **هيبة عالمية ومكانة دولية:** منح فتح القسطنطينية الدولة العثمانية هيبة عالمية ومكانة دولية رفيعة. أصبحت الدولة العثمانية تُنظر إليها كقوة عظمى لا يُستهان بها، وأصبحت لاعباً رئيسياً في السياسة الأوروبية والعالمية.
- **مركز للتجارة والحضارة:** أصبحت استانبول، بحكم موقعها الاستراتيجي، مركزاً رئيسياً للتجارة بين الشرق والغرب، مما أسهم في ازدهار الدولة العثمانية اقتصادياً. كما أصبحت مركزاً حضارياً يجمع بين عناصر الحضارة الإسلامية والبيزنطية، وشاهداً على عظمة الدولة.
- **تأثير على أوروبا:** كان سقوط القسطنطينية صدمة كبيرة لأوروبا المسيحية، وأثر على مسار التاريخ الأوروبي. فقد أدى إلى هجرة العديد من العلماء البيزنطيين إلى أوروبا الغربية، مما ساهم في إحياء العلوم الكلاسيكية وبدء عصر النهضة الأوروبية. كما دفع الدول الأوروبية إلى البحث عن طرق تجارية جديدة إلى الشرق بعد سيطرة العثمانيين على طرق التجارة التقليدية، مما كان سبباً في عصر الكشوف الجغرافية.

الجهاد والازدهار/التوسع: ذروة الجهاد تؤدي إلى توسع استراتيجي وسيادة عالمية وازدهار

كان فتح القسطنطينية تجسيداً لـ **ذروة الجهاد العسكري العثماني** في مرحلة الفتح. لم يكن مجرد معركة، بل كان مشروعاً جهادياً متكاملاً تطلب تخطيطاً دقيقاً، واستعدادات ضخمة، وقيادة فذة، وروحاً قتالية عالية.

- **توسع استراتيجي حيوي:** أدى هذا الفتح إلى **توسع استراتيجي حيوي** للدولة العثمانية، حيث سيطرت على موقع جغرافي لا مثيل له، وأزالت العائق الأكبر الذي كان يفصل بين أراضيها في الأناضول والبلقان. هذا التوسع لم يكن مجرد إضافة أراضٍ، بل كان تعزيزاً هائلاً لقوة الدولة وقدرتها على الحركة والتأثير.
- **ترسيخ سيادة الدولة ومكانتها العالمية:** بفتح القسطنطينية، **ترسخت سيادة الدولة العثمانية** على المنطقة، وأصبحت القوة المهيمنة في شرق البحر المتوسط وجنوب شرق أوروبا. اكتسبت الدولة **مكانة عالمية** كقوة عظمى لا يمكن تجاوزها، وأصبح سلاطينها يُنظر إليهم كأباطرة.
- **تعزيز الازدهار:** ساهم فتح القسطنطينية في **تعزيز ازدهار الدولة العثمانية** بشكل كبير. فقد أصبحت استانبول عاصمة عالمية، ومركزاً للتجارة العالمية، وملتقى للحضارات، مما أدى إلى ازدهار اقتصادي وثقافي وعمراني لا مثيل له. كان الجهاد (الفتح) هنا هو الذي فتح الباب لهذا الازدهار المتزايد، من خلال السيطرة على موقع استراتيجي وموارد ضخمة.

، كان فتح القسطنطينية ذروة الجهاد العثماني، وتحقيقاً لحلم إسلامي قديم، وحدثاً غيّر وجه التاريخ. لقد كان هذا الفتح نتيجة مباشرة للجهاد العسكري المنظم والفعال، وأدى إلى توسع استراتيجي حيوي، وترسيخ سيادة الدولة ومكانتها العالمية كقوة عظمى، وتعزيز ازدهارها كمركز للتجارة والحضارة. لولا هذا الجهاد، لما تحقق هذا الفتح، ولما وصلت الدولة العثمانية إلى هذه المكانة العالمية.

المبحث الرابع: قيادة العالم الإسلامي وحماية الحرمين: الجهاد كمسؤولية عالمية

بعد أن رسخت الدولة العثمانية أقدامها في الأناضول والبلقان، وحققت الفتح العظيم للقسطنطينية، لم تتوقف طموحاتها عند هذا الحد. بل اتجهت أنظارها نحو قلب العالم الإسلامي في المشرق العربي، الذي كان تحت حكم دولة المماليك. كان هدف العثمانيين هو توحيد العالم الإسلامي تحت راية واحدة، وتولي مسؤولية حماية الأماكن المقدسة، وإعادة إحياء مفهوم الخلافة العالمية بعد ضعفها وتفتتها. في هذه المرحلة، اتخذ الجهاد العثماني بعداً جديداً، ليصبح **مسؤولية عالمية** تتجاوز حدود الدولة لتشمل حماية العالم الإسلامي بأسره وقيادته.

1. سيطرة العثمانيين على العالم الإسلامي في المشرق (الشام، مصر، الحجاز، اليمن) بعد إسقاط دولة المماليك

في بداية القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي)، كانت دولة المماليك في مصر والشام تعاني من عوامل الضعف التي ذكرناها سابقاً. في المقابل، كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها، بقيادة سلاطين أقوياء وجيش منظم ومجهز بأحدث الأسلحة. رأى العثمانيون في ضعف المماليك فرصة لتحقيق هدفهم الاستراتيجي في السيطرة على العالم الإسلامي في المشرق.

- **قيادة السلطان سليم الأول[146] للفتوحات:** كان السلطان **سليم الأول** (حكم 918-926هـ / 1512-1520م) هو السلطان الذي قاد هذه الفتوحات الكبرى. كان سليم الأول قائداً عسكرياً حازماً وطموحاً، ومصمماً على توسيع نفوذ الدولة العثمانية وتأمين حدودها الشرقية والجنوبية.
- **معركة مرج دابق (922هـ / 1516م):** قاد سليم الأول جيشه نحو الشام، والتقى بجيش المماليك بقيادة السلطان قانصوه الغوري في معركة مرج دابق شمال حلب. حقق العثمانيون نصراً حاسماً بفضل تفوقهم في استخدام المدفعية و والبنادق، مما أدى إلى انهيار الجيش المملوكي ومقتل السلطان قانصوه الغوري.

[146] **سليم الأول:** تاسع سلاطين الدولة العثمانية (حكم 1512–1520م)، لُقّب بـ"ياووز" (أي الشجاع أو الصارم)، وسّع الدولة شرقًا بهزيمته الصفويين في جالديران، وجنوبًا بضم مصر والشام بعد معركة مرج دابق، وأصبح أول سلطان عثماني يحمل لقب "خليفة المسلمين".

- **السيطرة على الشام:** بعد مرج دابق، سيطر العثمانيون على بلاد الشام بسهولة نسبية، حيث لم تعد هناك قوة مملوكية قادرة على الدفاع عنها. دخل سليم الأول دمشق واستقبل بالترحاب من قبل بعض أهلها.
- **معركة الريدانية (923هـ / 1517م):** واصل سليم الأول زحفه نحو مصر، والتقى بجيش المماليك بقيادة السلطان الجديد طومان باي في معركة الريدانية بالقرب من القاهرة. كانت هذه المعركة هي المعركة الفاصلة التي حسمت مصير دولة المماليك. ورغم شجاعة طومان باي، إلا أن الجيش المملوكي هُزم مرة أخرى أمام التفوق العسكري العثماني.
- **سقوط مصر وضم الحجاز واليمن:** بعد معركة الريدانية، دخل العثمانيون القاهرة، وتم إعدام طومان باي. بسقوط مصر، أصبحت بلاد الشام والحجاز واليمن تابعة للدولة العثمانية. لم يقاوم شريف مكة[147] (حاكم الحجاز) السلطة العثمانية، بل أعلن ولاءه للسلطان سليم الأول، وسلم مفاتيح مكة والمدينة له. كما امتد النفوذ العثماني ليشمل اليمن.

بهذه الفتوحات السريعة والمظفرة، تمكن العثمانيون من السيطرة على قلب العالم الإسلامي في المشرق العربي، لتصبح دولتهم تضم أقدس الأماكن الإسلامية وأغنى الأقاليم العربية.

2. تولي العثمانيين مسؤولية حماية الحرمين الشريفين وتنظيم الحج، ودلالة ذلك الدينية والسياسية

كانت السيطرة على الحجاز تعني تولي العثمانيين مسؤولية دينية وسياسية بالغة الأهمية: **حماية الحرمين الشريفين** في مكة المكرمة والمدينة المنورة، و**تنظيم وتأمين قوافل الحج** القادمة من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

- **حماية الأماكن المقدسة:** أصبح السلاطين العثمانيون يُلقبون بـ **"**خادم الحرمين الشريفين**"**، وهو لقب كان يحمله سلاطين المماليك قبلهم. تحمل العثمانيون مسؤولية تأمين المدينتين المقدستين ضد أي تهديد خارجي، والحفاظ على الأمن والنظام داخلهما.
- **تنظيم وتأمين قوافل الحج:** أولى العثمانيون اهتماماً بالغاً بتنظيم وتأمين قوافل الحج الرئيسية التي كانت تنطلق من عواصم الولايات الكبرى (مثل القاهرة ودمشق).

---

[147] **شريف مكة:** لقب يُطلق على الحاكم المحلي لمكة المكرمة، وكان غالبًا من نسل الحسن بن علي، وتولّى هذا المنصب تحت مظلة الخلافات الإسلامية المختلفة، بما فيها العباسية والعثمانية، وتمتع بمكانة دينية وسياسية بارزة.

- كانوا يرسلون مع القوافل حاميات عسكرية قوية، ويقيمون المحطات والاستراحات على طول الطرق، ويوفرون الخدمات للحجاج. هذا الدور كان حيوياً لتمكين المسلمين من أداء فريضة الحج بأمان.
- **الدلالة الدينية والسياسية:** كانت حماية الحرمين الشريفين وتنظيم الحج تمنح السلاطين العثمانيين **شرعية دينية قوية جداً** في نظر المسلمين في جميع أنحاء العالم. كانوا يُنظر إليهم كقادة العالم الإسلامي وحماة مقدساته، مما عزز من مكانتهم وهيبتهم بشكل لا يضاهى. هذه المكانة الدينية كانت تدعم سلطتهم السياسية وتزيد من نفوذهم المعنوي في العالم الإسلامي.

3. مطالبة العثمانيين بالخلافة ودورهم كقادة للعالم الإسلامي السني

بعد سقوط بغداد، ظل اسم الخلافة العباسية موجوداً صورياً في القاهرة تحت رعاية المماليك. بعد إسقاط دولة المماليك، انتقل هذا الرمز إلى العثمانيين.

- **انتقال رمز الخلافة:** يُعتقد أن آخر الخلفاء العباسيين الصوريين في القاهرة، المتوكل على الله الثالث، قد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم الأول في القاهرة، أو أن سليم الأول أخذ منه البيعة. ورغم أن هذا الانتقال قد يكون رمزياً في البداية، إلا أنه كان مهماً سياسياً ودينياً.
- **المطالبة بالخلافة:** بدأ السلاطين العثمانيون في المطالبة بلقب "الخليفة" بشكل صريح، واعتبروا أنفسهم خلفاء المسلمين وورثة الخلافة الإسلامية العالمية. استندوا في ذلك إلى سيطرتهم على معظم العالم الإسلامي، وحمايتهم للحرمين الشريفين، وكونهم أقوى دولة إسلامية في العالم.
- **قيادة العالم الإسلامي السني:** أصبح العثمانيون، بحكم قوتهم وسيطرتهم على الأماكن المقدسة وادعائهم بالخلافة، هم **قادة العالم الإسلامي السني** لقرون طويلة. كانت معظم الدول الإسلامية السنية الأخرى تعترف بفضل العثمانيين وتُظهر لهم الاحترام، وإن لم تكن تابعة لهم بشكل مباشر. كانوا يمثلون وحدة المسلمين في وجه التحديات الخارجية.

4. الجهاد العثماني في جبهات أخرى كجزء من هذه المسؤولية العالمية

لم يقتصر الجهاد العثماني على الفتوحات في أوروبا أو السيطرة على المشرق العربي. بل استمر العثمانيون في خوض معارك وجهاد في جبهات متعددة، كجزء من مسؤوليتهم كقادة للعالم الإسلامي وحماة له.

- **البحر الأبيض المتوسط:** استمر الأسطول العثماني في السيطرة على معظم حوض البحر الأبيض المتوسط، وخاض معارك بحرية كبرى ضد القوى الأوروبية (مثل إسبانيا والبندقية). كان هذا الجهاد البحري يهدف إلى تأمين السواحل الإسلامية، وحماية طرق التجارة، ومواجهة القرصنة الأوروبية.
- **المحيط الهندي:** امتد النفوذ العثماني إلى البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي، حيث واجهوا القوى الأوروبية (خاصة البرتغاليين) الذين بدأوا في الوصول إلى هذه المناطق. كان هذا الجهاد البحري في المحيط الهندي يهدف إلى حماية طرق التجارة الإسلامية، ومساعدة المسلمين في جنوب شرق آسيا، ومنع القوى الأوروبية من السيطرة على هذه المناطق.
- **ضد الصفويين[148]:** واجه العثمانيون الدولة الصفوية الشيعية في بلاد فارس في صراعات عسكرية ومذهبية طويلة. كان هذا الصراع يمثل جهاداً ضد قوة إسلامية أخرى، لكنه كان يُنظر إليه من قبل العثمانيين كضرورة لحماية حدودهم الشرقية، ومنع انتشار المذهب الشيعي في أقاليمهم السنية، والسيطرة على طرق التجارة البرية.
- **في أوروبا الشرقية والوسطى:** استمر الجهاد العثماني في أوروبا، حيث وصلوا إلى أسوار فيينا مرتين، وسيطروا على أجزاء واسعة من المجر والبلقان. كان هذا الجهاد يهدف إلى توسيع رقعة دار الإسلام، ونشر الإسلام في أوروبا، وتأمين الحدود الشمالية للدولة.

كانت هذه الجبهات المتعددة تعكس مدى اتساع مسؤولية الدولة العثمانية كقوة عالمية، وكيف كان الجهاد جزءاً لا يتجزأ من سياستها الخارجية والدفاعية.

[148] **الصفويون:** سلالة شيعية حكمت إيران من 1501م إلى 1736م، أسّست دولة قوية اتخذت المذهب الشيعي الإثني عشري مذهبًا رسميًا، وكان أول ملوكها الشاه إسماعيل الصفوي، ودخلوا في صراعات مع العثمانيين والبرتغاليين والمغول.

الجهاد والازدهار/التوسع: توسع هائل، ضم أقاليم غنية، وشرعية معززة تؤدي إلى ازدهار غير مسبوق

كان لهذا التوسع الهائل الذي حققه العثمانيون وسيطرتهم على العالم الإسلامي في المشرق، بالإضافة إلى دورهم كحماة للحرمين الشريفين وقادة للعالم الإسلامي، آثار عميقة ومباشرة على الدولة العثمانية من حيث **الازدهار والتوسع**:

1. **توسع جغرافي هائل:** أدت الفتوحات في المشرق إلى **توسع جغرافي هائل** لرقعة الدولة العثمانية. أصبحت الدولة تمتد من حدود النمسا وبولندا في أوروبا إلى اليمن وعمان في الجزيرة العربية، ومن الجزائر في شمال أفريقيا إلى القوقاز والعراق. كانت أكبر إمبراطورية في العالم في ذلك الوقت.
2. **ضم أقدس الأماكن وأغنى الأقاليم:** هذا التوسع ضم إلى الدولة العثمانية **أقدس الأماكن في الإسلام** (مكة والمدينة المنورة)، مما منحها مكانة دينية لا تُضاهى. كما ضم إليها **أغنى الأقاليم** من حيث الموارد الزراعية (مصر) والموقع التجاري (مصر والشام والحجاز). هذه الموارد الاقتصادية الهائلة عززت بشكل كبير من قوة الدولة وقدرتها على تمويل جيوشها، وبناء مشاريع عمرانية ضخمة، ودعم الاقتصاد، وتوزيع العطاءات على الناس.
3. **حامية العالم الإسلامي (شكل من أشكال الجهاد العالمي):** أصبحت الدولة العثمانية هي **حامية العالم الإسلامي** من الأخطار الخارجية (مثل القوى الأوروبية الصاعدة). هذا الدور، الذي يمكن اعتباره شكلاً من أشكال الجهاد العالمي، منحها هيبة واحتراماً في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وجعل المسلمين في المناطق الأخرى ينظرون إليها كمركز للقوة والأمل.
4. **شرعية معززة:** حماية الحرمين الشريفين وقيادة العالم الإسلامي السني عزز بشكل كبير من **شرعية حكم السلاطين العثمانيين** في نظر المسلمين. هذه الشرعية الدينية والسياسية القوية كانت أساساً لاستقرار الدولة وقدرتها على حكم إمبراطورية مترامية الأطراف تضم شعوباً متنوعة.
5. **تعزيز الازدهار بشكل غير مسبوق:** كل هذه العوامل مجتمعة (التوسع الجغرافي الهائل، ضم الأقاليم الغنية، حماية المقدسات، الشرعية المعززة، قيادة العالم الإسلامي) ساهمت بشكل مباشر في **الازدهار غير المسبوق** الذي شهدته الدولة العثمانية في القرون التالية (خاصة في عهد سليمان القانوني).

لم يكن الازدهار مجرد نتيجة للجهاد، ولكنه كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالتوسع الذي حققه الجهاد، والذي وفر للدولة الأسس اللازمة للنمو والقوة والازدهار في جميع المجالات (الاقتصادية، الإدارية، العمرانية، الثقافية). لولا هذا الجهاد، لما وصلت الدولة العثمانية إلى هذه المكانة العالمية، ولما شهدت هذا الازدهار العظيم.

، شكلت سيطرة العثمانيين على العالم الإسلامي في المشرق وتوليهم مسؤولية حماية الحرمين الشريفين نقطة تحول كبرى في تاريخهم. كان هذا التوسع الهائل وقيادة العالم الإسلامي تجسيداً لـ "الجهاد كمسؤولية عالمية". أدى هذا الدور إلى توسع جغرافي ضخم، وضم أقدس الأماكن وأغنى الأقاليم، وتعزيز شرعية الدولة وهيبتها، مما ساهم بشكل مباشر في الازدهار غير المسبوق الذي شهدته الدولة العثمانية في القرون التالية، لتصبح آخر خلافة عالمية كبرى في التاريخ الإسلامي.

بعد قرون من القوة والازدهار والتوسع، وبعد أن بلغت الدولة العثمانية أوج عظمتها وسيطرتها على مساحات شاسعة من العالم، بدأت عوامل الضعف والتدهور تظهر تدريجياً في جسدها. لم يكن هذا التراجع مفاجئاً، بل كان عملية طويلة ومعقدة، تزامنت مع صعود قوى جديدة في أوروبا، وتغير في موازين القوى العالمية، وتحديات داخلية لم تستطع الدولة التغلب عليها بفعالية. في هذه المرحلة، تحول مسار الدولة العثمانية من التوسع والازدهار إلى التراجع والانكماش، وطُرح السؤال الهام: **هل تراجع الجهاد؟** وهل كان هذا التراجع سبباً في ضعف الدولة وسقوطها؟

1. عوامل الضعف الداخلية التي بدأت تظهر في الدولة العثمانية

رغم الهيبة الخارجية والقوة العسكرية التي احتفظت بها الدولة العثمانية لفترة طويلة، إلا أن بذور الضعف الداخلية بدأت تنمو وتؤثر على تماسك الدولة وفعاليتها.

- **مشاكل في نظام الحكم والإدارة:** بدأ نظام الحكم يعاني من بعض المشاكل، مثل ضعف بعض السلاطين المتأخرين، وتزايد نفوذ الحريم والقادة العسكريين في شؤون الحكم، وانتشار الفساد في بعض مستويات الإدارة، وصعوبة تطبيق الإصلاحات اللازمة لمواكبة التغيرات.
- **تدهور الجيش ونظام الانكشارية:** كان الجيش العثماني، وخاصة فرقة الانكشارية (التي كانت في البداية من أقوى فرق الجيش وأكثرها انضباطاً)، يبدأ في التدهور. أصبح الانكشارية يتدخلون في شؤون السياسة، ويقاومون الإصلاحات العسكرية، وتراجعت كفاءتهم القتالية مقارنة بالجيوش الأوروبية الحديثة. كما بدأ نظام التجنيد والتدريب يعاني من مشاكل.
- **الأزمات الاقتصادية:** عانت الدولة العثمانية من أزمات اقتصادية متكررة. أثرت الكشوف الجغرافية وتغير طرق التجارة العالمية على إيرادات الدولة التي كانت تعتمد على الضرائب المفروضة على التجارة المارة عبر أراضيها. كما أدت الحروب المتتالية إلى استنزاف الموارد المالية، وعانت الدولة من التضخم وتدهور العملة في بعض الفترات.

- **التحديات الاجتماعية:** استمرت التحديات الاجتماعية، مثل التوترات بين مختلف القوميات والأعراق والأديان داخل الدولة المترامية الأطراف، والتي استغلتها القوى الخارجية لإثارة الاضطرابات.

2. التحديات الخارجية المتزايدة من القوى الأوروبية الصاعدة

تزامنت عوامل الضعف الداخلية في الدولة العثمانية مع صعود قوى جديدة في أوروبا، كانت تتمتع بالقوة العسكرية والاقتصادية والتنظيمية المتزايدة.

- **صعود القوى الأوروبية الكبرى:** بدأت دول أوروبية مثل النمسا، روسيا، فرنسا، وبريطانيا تزداد قوة وتأثيراً، وتتطلع إلى التوسع على حساب الدولة العثمانية. دخلت الدولة العثمانية في حروب متتالية مع هذه القوى الأوروبية، وكانت هذه الحروب تستنزف مواردها وتؤدي إلى خسارة أراضٍ.
- **التنافس الاستعماري:** بدأت القوى الأوروبية تتنافس فيما بينها على السيطرة على أجزاء من الدولة العثمانية الضعيفة، والتي أُطلق عليها لقب "الرجل المريض". كانت هذه القوى تتدخل في شؤون الدولة الداخلية، وتدعم الحركات الانفصالية، وتسعى لتقسيم تركتها.

3. فشل الدولة في مواكبة التطورات العلمية والعسكرية والصناعية في أوروبا بنفس الوتيرة

ربما كان أحد أهم أسباب تراجع الدولة العثمانية هو **فشلها في مواكبة التطورات السريعة التي حدثت في أوروبا** في العصر الحديث، وخاصة في مجالات العلم، والتكنولوجيا، والصناعة، والأساليب العسكرية.

- **الثورة العلمية والصناعية في أوروبا:** شهدت أوروبا ثورة علمية وصناعية كبرى أدت إلى تطورات هائلة في التكنولوجيا، والصناعة، والاقتصاد. تمكنت الدول الأوروبية من بناء جيوش حديثة تعتمد على الأسلحة النارية المتطورة، وتطوير اقتصادات صناعية قوية، وتطوير أنظمة إدارية أكثر كفاءة.
- **الجمود النسبي في الدولة العثمانية:** لم تتمكن الدولة العثمانية من مواكبة هذه التطورات بنفس السرعة والفعالية. كان هناك جمود نسبي في الحركة العلمية والصناعية مقارنة بأوروبا. لم يتم تبني التكنولوجيا الحديثة بنفس السرعة، وظلت بعض المؤسسات (مثل الجيش) تعتمد على الأساليب التقليدية لفترة طويلة.

- **فشل محاولات الإصلاح:** رغم أن بعض السلاطين والمسؤولين العثمانيين أدركوا ضرورة الإصلاح لمواجهة التحديات الأوروبية، إلا أن محاولات الإصلاح (مثل التنظيمات) واجهت مقاومة داخلية من القوى المحافظة التي كانت تخشى التغيير، ولم تكن دائماً شاملة وفعالة بما يكفي.

4. تأثير هذا الضعف على القدرة على مواصلة الجهاد الفعال والدفاع عن حدود الدولة

كان لعوامل الضعف الداخلية وفشل الدولة في مواكبة التطورات الخارجية تأثير مباشر وحاسم على **قدرتها على مواصلة الجهاد الفعال والدفاع عن حدودها المترامية الأطراف**.

- **تراجع القدرة العسكرية:** أدى تدهور الجيش وعدم مواكبته للتطورات العسكرية في أوروبا إلى تراجع قدرته القتالية. أصبح الجيش العثماني أقل قدرة على الصمود أمام الجيوش الأوروبية الحديثة في المعارك الكبرى.
- **ضعف القدرة على شن حملات هجومية:** فقدت الدولة العثمانية القدرة على شن حملات جهادية هجومية كبرى تهدف إلى توسيع رقعة دار الإسلام، كما كانت تفعل في عصور قوتها. أصبح تركيزها منصباً على الجهاد الدفاعي.
- **صعوبة الدفاع عن الحدود:** مع اتساع حدود الدولة وتزايد قوة الأعداء، أصبحت مهمة الدفاع عن هذه الحدود صعبة للغاية. لم يعد الجيش العثماني قادراً على حماية جميع الجبهات بفعالية.
- **فقدان الهيبة:** أثر ضعف الدولة وتراجعها العسكري على هيبتها في نظر الأعداء والأصدقاء على حد سواء.

5. الحروب المتتالية وفقدان الأراضي (الانكماش)

نتيجة لعوامل الضعف الداخلية وتزايد التحديات الخارجية وتراجع القدرة على الجهاد الفعال، دخلت الدولة العثمانية في سلسلة من **الحروب المتتالية** مع القوى الأوروبية، والتي أدت في معظمها إلى هزائم و**فقدان لأراضٍ واسعة**، مما يعني **انكماشاً** مستمراً لرقعة الدولة.

- **حروب مع النمسا وروسيا:** خاضت الدولة العثمانية حروباً طويلة ومريرة مع الإمبراطورية النمساوية والإمبراطورية الروسية، خاصة للسيطرة على مناطق البلقان وشمال البحر الأسود. أدت هذه الحروب إلى خسارة العثمانيين لأراضٍ واسعة في هذه المناطق.

- **فقدان السيطرة على شمال أفريقيا:** فقدت الدولة العثمانية سيطرتها الفعلية على معظم ولاياتها في شمال أفريقيا (الجزائر، تونس، ليبيا) لصالح القوى الأوروبية الاستعمارية (فرنسا، إيطاليا).
- **فقدان أراضٍ في البلقان:** استمرت القوى الأوروبية وحركات الاستقلال المحلية في البلقان في انتزاع الأراضي من الدولة العثمانية.
- **فقدان أراضٍ في المشرق العربي:** في أواخر أيامها، فقدت الدولة العثمانية سيطرتها على معظم ولاياتها العربية في المشرق، سواء بسبب الثورات الداخلية المدعومة من الخارج، أو بسبب الاحتلال المباشر من قبل القوى الأوروبية خلال الحرب العالمية الأولى.

كانت هذه الحروب المتتالية وفقدان الأراضي دليلاً واضحاً على تراجع قوة الدولة وعدم قدرتها على مواصلة الجهاد الدفاعي بفعالية.

6. سقوط الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى

بلغت عملية تراجع الدولة العثمانية ذروتها في أوائل القرن العشرين. دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى (1914-1918م) إلى جانب ألمانيا ودول المركز. كانت الحرب كارثية على الدولة العثمانية المنهكة.

- **الهزيمة في الحرب:** تعرضت الدولة العثمانية لهزائم عسكرية في جبهات متعددة، وفقدت السيطرة على معظم أراضيها المتبقية في المشرق العربي.
- **احتلال استانبول وتقسيم الدولة:** بعد نهاية الحرب وهزيمة دول المركز، تم احتلال استانبول من قبل قوات الحلفاء، وتم توقيع معاهدات (مثل معاهدة سيفر ثم لوزان) أدت إلى تقسيم ما تبقى من أراضي الدولة العثمانية بين القوى المنتصرة.
- **إلغاء السلطنة والخلافة:** في عام 1922م، تم إلغاء السلطنة العثمانية. وفي عام 1924م، تم **إلغاء الخلافة العثمانية** رسمياً، ليضع ذلك حداً لآخر خلافة عالمية كبرى في التاريخ الإسلامي، ونهاية لدولة دامت حوالي ستة قرون.

الجهاد والتوسع/الانكماش: تراجع القدرة على الجهاد الشامل يؤدي إلى الانكماش والسقوط

هنا نصل إلى النقطة الجوهرية في هذا المبحث: العلاقة بين تراجع الدولة وانكماشها وضعفها الداخلي وعدم قدرتها على مواصلة الجهاد بفعالية.

يمكن القول بوضوح أن **تراجع الدولة العثمانية وانكماشها وسقوطها كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بضعفها الداخلي وعدم قدرتها على مواصلة الجهاد (بمعناه الشامل: العسكري، العلمي، الإداري، الاقتصادي) بفعالية في مواجهة التحديات الجديدة التي فرضها العصر الحديث**. هذا الضعف وعدم القدرة على الجهاد الشامل أديا إلى فقدان الأراضي وتراجع الازدهار.

لنفصل هذه العلاقة:

1. **الجهاد العسكري:** في عصور القوة، كان الجهاد العسكري (الغزو) هو المحرك الرئيسي للتوسع. كانت الدولة تمتلك جيشاً قوياً ومنظماً ومجهزاً بأحدث الأسلحة في عصره. ولكن مع تدهور الجيش العثماني وفشله في مواكبة التطورات العسكرية في أوروبا (خاصة في الأسلحة النارية والتكتيكات)، تراجعت قدرته على الجهاد الهجومي بشكل كامل، بل أصبحت قدرته على الجهاد الدفاعي ضعيفة أيضاً. لم يعد الجيش العثماني قادراً على حماية حدود الدولة المترامية الأطراف من هجمات القوى الأوروبية الصاعدة. هذا الضعف في الجهاد العسكري أدى مباشرة إلى **فقدان الأراضي** في الحروب المتتالية، وبالتالي إلى **انكماش رقعة الدولة**.
2. **الجهاد العلمي والمعرفي:** في عصور الازدهار (مثل العصر العباسي وفترات قوة الدولة العثمانية المبكرة)، كان هناك نوع من "الجهاد المعرفي" الذي تمثل في تشجيع العلم، والترجمة، والبحث، والتطوير. هذا الجهاد المعرفي كان يوفر للدولة الأسس اللازمة للتطور في جميع المجالات، بما في ذلك الجانب العسكري والاقتصادي. ولكن مع تراجع الحركة العلمية في الدولة العثمانية مقارنة بأوروبا في العصر الحديث، فشلت الدولة في مواكبة التطورات العلمية والتكنولوجية والصناعية. لم يتم تبني الاختراعات الجديدة بنفس السرعة، وظلت الدولة تعتمد على أساليب إنتاج وتكنولوجيا قديمة. هذا التراجع في "الجهاد العلمي" أثر سلباً على قدرة الدولة على التطور في الجوانب الأخرى، وخاصة الجانب العسكري والصناعي.

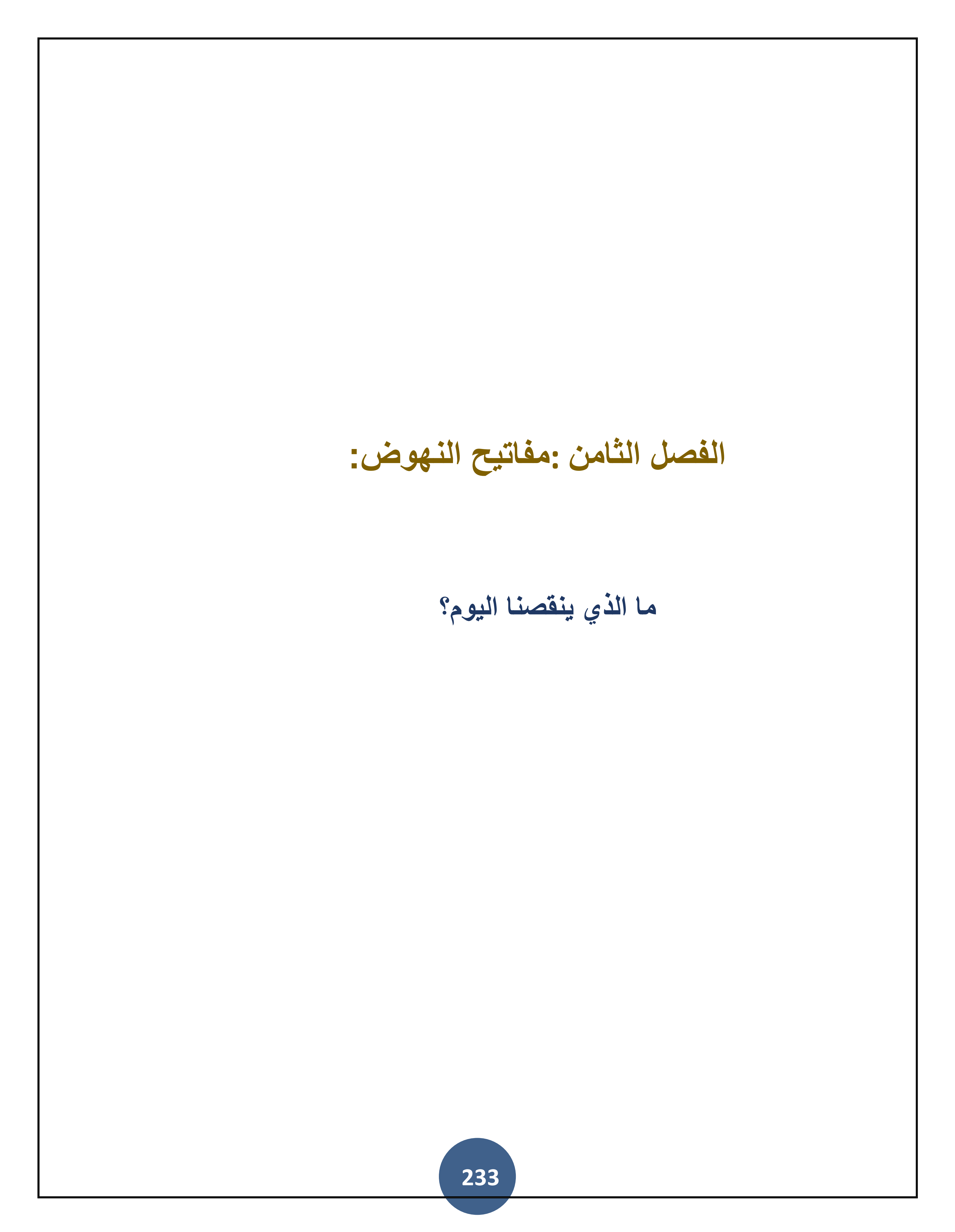
3. **الجهاد الإداري والتنظيمي:** كان بناء الدولة العثمانية وإدارة إمبراطورية بهذا الحجم يتطلب جهاداً إدارياً وتنظيمياً كبيراً. تم تطوير المؤسسات، وتنظيم الدواوين، وتطبيق القوانين. ولكن مع مرور الوقت، بدأت مشاكل في نظام الحكم والإدارة تظهر (فساد، تدهور في كفاءة الموظفين، مقاومة للإصلاحات). هذا الضعف في "الجهاد الإداري والتنظيمي" أثر على فعالية الدولة في جمع الضرائب، وإدارة الموارد، وتطبيق القوانين، والحفاظ على الأمن والاستقرار الداخلي. أدى هذا الضعف الإداري إلى إضعاف الدولة ككل وجعلها أقل قدرة على مواجهة التحديات.

4. **الجهاد الاقتصادي:** كان الجهاد الاقتصادي يتمثل في تنمية الموارد، وتنظيم التجارة، وتطوير الصناعة والزراعة. في عصور القوة، كانت الدولة العثمانية تتمتع باقتصاد قوي يعتمد على التجارة والزراعة. ولكن مع تغير طرق التجارة العالمية، وعدم مواكبة الثورة الصناعية في أوروبا، وتراكم الديون، عانت الدولة من أزمات اقتصادية متكررة. هذا الضعف في "الجهاد الاقتصادي" أثر على قدرة الدولة على تمويل جيشها، وتطوير بنيتها التحتية، وتلبية احتياجات سكانها، مما زاد من ضعفها وجعلها عرضة للتدخلات الخارجية.

5. **تراجع الروح الجهادية الشاملة:** ربما أدى تراكم عوامل الضعف الداخلية، وتغير الظروف، وتأثير الأفكار الجديدة، إلى تراجع في الروح الجهادية الشاملة لدى بعض شرائح المجتمع والدولة. لم يعد الجهاد بنفس القوة الدافعة والهدف المشترك الذي كان عليه في عصور القوة المبكرة. هذا التراجع في الروح الجهادية الشاملة أثر على الإصرار على المقاومة، وعلى الرغبة في التضحية، وعلى القدرة على التكيف مع التحديات الجديدة.

النتيجة: إن ضعف الدولة العثمانية في هذه الجوانب المتعددة (العسكرية، العلمية، الإدارية، الاقتصادية)، والذي يمكن اعتباره تراجعاً عن "الجهاد الشامل" الذي قامت عليه الدولة وازدهرت به، أدى إلى فقدانها القدرة على مواجهة التحديات المتزايدة التي فرضها العصر الحديث والقوى الأوروبية الصاعدة. هذا العجز عن الجهاد الفعال، بأبعاده المتكاملة، أدى مباشرة إلى **فقدان الأراضي** في الحروب المتتالية (الانكماش)، و**تراجع الازدهار** الاقتصادي والحضاري، وفي النهاية إلى **سقوط الدولة** بشكل كامل. لم يسقط العثمانيون لأنهم لم يؤمنوا بالجهاد كفريضة، ولكنهم سقطوا لأنهم لم يتمكنوا من ممارسة الجهاد بفعالية وشمولية في مواجهة التحديات الجديدة التي فرضها العصر الحديث، والتي تطلبت جهاداً ليس فقط بالسيف، بل أيضاً بالعلم، والصناعة، والتنظيم، والاقتصاد، والتكيف السريع مع التغيير.

في الختام، شهدت الدولة العثمانية في العصر الحديث تراجعاً مستمراً في قوتها، وانتقلت من مرحلة التوسع والازدهار إلى مرحلة الانكماش والسقوط. كان هذا التراجع نتيجة لتراكم عوامل الضعف الداخلية، وفشلها في مواكبة التطورات السريعة في أوروبا، وتزايد التحديات الخارجية. لقد كان ضعف الدولة وعدم قدرتها على مواصلة الجهاد الفعال، بأبعاده الشاملة (العسكري، العلمي، الإداري، الاقتصادي)، هو العامل الرئيسي الذي أدى إلى فقدانها لأراضيها وتراجع ازدهارها وسقوطها في نهاية المطاف، لتنتهي بذلك قصة آخر خلافة عالمية كبرى في التاريخ الإسلامي.



الفصل الثامن :مفاتيح النـهوض:

ما الذي ينقصنا اليوم؟

مقدمة الفصل الثامن: مفاتيح النهوض: ما الذي ينقصنا اليوم؟

بعد أن طوينا صفحات تاريخ الدول الإسلامية الكبرى التي تعاقبت على قيادة الأمة، من فجر الخلافة الراشدة المباركة، مروراً بعصور القوة والتوسع في الدولة الأموية، وعصر الازدهار العلمي والحضاري في الدولة العباسية، ودور المماليك كدروع للأمة في مواجهة الأخطار، وصولاً إلى الدولة العثمانية كآخر خلافة عالمية كبرى، نصل الآن إلى محطة هامة وحاسمة في رحلتنا التاريخية هذه. إن دراسة التاريخ ليست مجرد سرد للأحداث أو تتبع لسير الرجال والدول، بل هي في جوهرها **استخلاص للعبر والدروس**، وفهم لسنن الله في قيام الأمم وسقوطها، وفي نهضتها وتراجعها.

لقد قدمت لنا مسيرة هذه الدول الإسلامية السابقة نماذج حية وتجارب غنية، تضمنت فترات قوة وعظمة، وفترات ضعف وتراجع، وفترات ازدهار وتحديات. إن تحليل عوامل القوة التي مكنت هذه الدول من البناء والتوسع والتأثير، وعوامل الضعف التي أدت إلى تراجعها وتفتتها وسقوطها، يُعد أمراً ضرورياً وحيوياً. فالتاريخ ليس مجرد ماضٍ مضى وانقضى، بل هو مرآة للحاضر، ومنارة للمستقبل.

في هذا الفصل ، سنتوقف وقفة تأمل وتحليل، لنبحث في **مفاتيح النهوض** التي كانت حاضرة في عصور القوة، ولنحلل **أسباب السقوط** التي أدت إلى التراجع. سنحاول استخلاص العوامل المشتركة التي كانت سبباً في نهوض الدول ونجاحها، والعوامل التي كانت سبباً في ضعفها وسقوطها، بناءً على ما استعرضناه من تجارب تاريخية. والهدف الأسمى من هذا التحليل ليس مجرد فهم الماضي، بل هو البحث عن **ما الذي ينقصنا اليوم** كأمة، وما هي الدروس التي يجب أن نستلهمها من تاريخنا العظيم لمواجهة تحديات العصر الحديث، والعمل على تحقيق النهوض المنشود في واقعنا المعاصر. إن مفاتيح المستقبل غالباً ما تكون مخبأة في صفحات الماضي، وعلينا أن نبحث عنها بوعي وبصيرة.

المبحث الأول: الجهاد كركيزة للنهوض وعامل في السقوط: دروس من مسيرة الدول السابقة

عند النظر في تاريخ الدول الإسلامية الكبرى التي استعرضناها في الفصول السابقة، من الخلافة الراشدة الفتية إلى الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، يبرز مفهوم **الجهاد** كعنصر محوري ومتكرر، لا يمكن فهم مسيرة هذه الدول بمعزل عنه. لم يكن الجهاد مجرد فريضة دينية تُؤدى في أوقات معينة، بل كان **ركيزة أساسية من ركائز هذه الأمم، ومحركاً رئيسياً لوجودها، ونمائها، وتأثيرها، وعاملاً حاسماً في تحديد مسيرتها ومصيرها**. إن دراسة العلاقة بين الجهاد، بأبعاده المتعددة والشاملة، وبين مراحل صعود هذه الدول وقوتها وازدهارها، ومراحل ضعفها وتراجعها وسقوطها، تقدم دروساً قيمة وعميقة حول طبيعة القوة والضعف، والنهوض والسقوط في تاريخ الأمة الإسلامية، وهي دروس لا تزال ذات صلة بالواقع المعاصر.

1. الجهاد كعنصر أساسي في بناء الدول الإسلامية الأولى وتوسعها وازدهارها: وقود الحركة والحيوية

في المراحل الأولى من تاريخ الإسلام، كان الجهاد، بمعناه الواسع والشامل، هو القوة الدافعة التي أدت إلى قيام الدولة الإسلامية وتثبيت أركانها وتوسيع رقعتها بشكل غير مسبوق. لم يكن الأمر يتعلق بالجهاد العسكري وحده، بل بتكامل الجهاد في جميع جوانب الحياة الفردية والجماعية.

- **الخلافة الراشدة: الجهاد التأسيسي والدفاعي والتوسعي:**
    - في عهد النبوة، كان الجهاد هو الذي مكن المسلمين من بناء مجتمعهم الجديد في المدينة المنورة. لم يكن هذا الجهاد قتالياً في البداية، بل كان **جهاد نفس** على التمسك بالعقيدة في مكة، و**جهاد دعوي** لتبليغ الرسالة، و**جهاد بناء** للمجتمع الأول في المدينة. ثم جاء **الجهاد القتالي** كضرورة للدفاع عن هذا الكيان الوليد في مواجهة قريش والقبائل المعادية (بدر، أحد، الخندق)، ولتأمين طرق التجارة، ولإزالة العوائق التي تحول دون انتشار الدعوة. كان هذا الجهاد العسكري، المدعوم بجهاد النفس والدعوة والبناء، هو الذي مكن الدولة الإسلامية من البقاء والنمو في أصعب الظروف.

- في عهد أبي بكر الصديق، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، واجهت الدولة الإسلامية أخطر تحدٍ داخلي: **حروب الردة**. كان الجهاد ضد المرتدين ضرورة وجودية للحفاظ على كيان الدولة الموحد وعقيدة الأمة. كان هذا الجهاد، بقيادة أبي بكر الحازمة وإيمان الصحابة الراسخ، هو الذي أعاد توحيد الجزيرة العربية تحت راية الإسلام، وأظهر أن الأمة الإسلامية لن تتنازل عن عقيدتها ووحدتها.

- في عهدي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، تحول الجهاد ليصبح المحرك الرئيسي لـ **الفتوحات الكبرى** التي أدت إلى بناء إمبراطورية مترامية الأطراف في فترة زمنية قصيرة جداً. كان هذا الجهاد العسكري يهدف إلى إزالة القوى الكبرى (البيزنطيين والفرس) التي كانت تسيطر على العالم وتحول دون وصول دعوة الإسلام إلى شعوبها، ولتحرير هذه الشعوب من الظلم والطغيان الذي كانت تعيشه. كان هذا الجهاد مدعوماً بـ **جهاد إداري وتنظيمي** لبناء مؤسسات الدولة الجديدة في الأقاليم المفتوحة، و**جهاد اقتصادي** لتنظيم بيت المال وتوزيع الثروات المكتسبة من الفتوحات، و**جهاد دعوي** لنشر الإسلام بين السكان المحليين. كان الجهاد في هذه المرحلة يمثل قمة القوة والحيوية والفعالية للأمة، وكان عاملاً أساسياً في ازدهار الدولة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً.

- **الدولة الأموية: الجهاد التوسعي كسياسة دولة:**

    - بعد فترة الفتنة الداخلية، تمكن الأمويون من إعادة توجيه طاقة الأمة نحو الخارج، مستأنفين بذلك مسيرة الجهاد التوسعي. كان الجهاد (الغزو) هو المحرك الرئيسي لـ **التوسع الهائل** الذي شهدته الدولة الأموية، وصولاً إلى الأندلس غرباً وحدود الصين شرقاً. لم يكن هذا التوسع عشوائياً، بل كان سياسة دولة منظمة، مدفوعة بالرغبة في نشر الإسلام وتبليغ رسالته العالمية.

    - كان الجهاد في هذا العصر يوفر **الشرعية السياسية** للسلاطين الأمويين، ويجذب المقاتلين (الغزاة) من مختلف الأصول الذين كانوا يبحثون عن فرصة للمشاركة في الجهاد والحصول على الغنائم. كما كان يوفر **الموارد الاقتصادية** الضخمة من الأراضي المفتوحة والضرائب المفروضة عليها، مما ساهم في تمويل الدولة وجيشها.

- كان ازدهار الدولة الأموية وقوتها وهيبتها مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقدرتها على مواصلة هذا الجهاد التوسعي وتنظيم شؤون الإمبراطورية المترامية الأطراف. كان الجهاد في هذا العصر يمثل استمراراً لروح الحركة والحيوية التي بدأت في العصر الراشد.

- **الدولة العباسية (في فتراتها الأولى): الجهاد العلمي والمعرفي كبعد جديد:**

  - رغم أن وتيرة الفتوحات الكبرى لم تكن بنفس سرعة العصر الأموي، إلا أن الجهاد استمر في العصر العباسي لتأمين الحدود وقمع الثورات الداخلية. ولكن الأهم من ذلك، أن العصر العباسي شهد بروزاً لـ **الجهاد العلمي والمعرفي** كبعد أساسي من أبعاد قوة الدولة.

  - أدرك العباسيون الأوائل أن قوة الدولة لا تقتصر على السيف والجيش، بل تشمل قوة العقل والمعرفة. كانت النهضة العلمية والحضارية غير المسبوقة في بغداد، والتي تمثلت في حركة الترجمة الكبرى، وتأسيس بيت الحكمة، وازدهار العلوم المختلفة، نوعاً من **الجهاد المعرفي** الذي يهدف إلى استيعاب علوم الحضارات الأخرى، ونقدها، وتطويرها، والإسهام في بناء حضارة إنسانية عالمية.

  - هذا التكامل بين الجهاد العسكري (وإن كان دفاعياً في الغالب لتأمين الحدود) والجهاد العلمي والمعرفي ساهم في ازدهار الدولة العباسية في فترات قوتها، وجعلها مركزاً عالمياً للعلم والثقافة، وأظهر أن الإسلام دين يدعو إلى العلم والتفكر.

- **دولة المماليك: الجهاد الدفاعي كضرورة وجودية:**

  - قامت دولة المماليك في فترة حرجة للغاية، وكان دورها الأساسي هو **الجهاد الدفاعي** في مواجهة أعظم خطرين هددَا العالم الإسلامي: الغزو المغولي المدمر القادم من الشرق، والخطر الصليبي المستمر في بلاد الشام ومصر.

  - كان بقاء الدولة وقوتها مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقدرتها على حمل لواء الجهاد والتصدي لهذه الأخطار. انتصارهم في عين جالوت على المغول كان تجسيداً لـ **الجهاد الدفاعي** الذي أنقذ قلب العالم الإسلامي. واستئصال الوجود الصليبي من بلاد الشام كان تجسيداً لـ **جهاد التحرير الهجومي** لاستعادة الأراضي المحتلة.

- شكلت هذه الانتصارات الجهادية أساس قوتهم وشرعيتهم ومكانتهم كـ"دروع الأمة" وحماة لدار الإسلام في زمن الأخطار. كان الجهاد في هذا العصر ضرورة وجودية للبقاء، وكان هو الذي منح دولة المماليك هيبتها ومكانتها التاريخية.

- **الدولة العثمانية (في فتراتها الأولى): الجهاد كمنهج للنشأة والتوسع:**

  - نشأت الدولة العثمانية على أساس **الجهاد (الغزو)** على الحدود البيزنطية. كان هذا المنهج هو المحرك الأساسي لتوسعها المبكر في الأناضول ثم في البلقان. كان الجهاد يوفر لها المقاتلين من مختلف الأصول (الغزاة)، والموارد الاقتصادية من الغنائم والأراضي المفتوحة، والشرعية السياسية والدينية في نظر المسلمين.

  - كان الجهاد في هذه المرحلة هو الوقود الذي أشعل شرارة الدولة العثمانية ودفعها نحو النمو السريع. بلغ الجهاد العثماني ذروته بفتح القسطنطينية، الذي كان تتويجاً لقرون من الجهاد، ورمزاً لسيادة الدولة ومكانتها العالمية كقوة عظمى. كان ازدهار الدولة العثمانية وقوتها وهيبتها مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتمسكها بهذا المنهج الجهادي في فتراتها الأولى والوسطى، والذي أدى إلى توسع جغرافي هائل وضم أقاليم غنية ومواقع استراتيجية حيوية.

2. كيف ارتبط ضعف الجهاد وتراجع فعاليته بالصراعات الداخلية، وتوقف الفتوحات، وفقدان الأراضي، وتراجع قوة الدول وسقوطها: تآكل داخلي وعجز عن المواجهة

على النقيض من ذلك، يمكن ملاحظة أن **ضعف الجهاد (بمعناه الشامل) وتراجع فعاليته لم يكن مجرد نتيجة لضعف الدول، بل كان عاملاً رئيسياً يتفاعل مع عوامل الضعف الأخرى ليؤدي إلى تراجع قوة الدول وسقوطها**. عندما تضعف الأمة في ممارسة الجهاد بأبعاده المتكاملة، تبدأ عوامل التآكل الداخلي بالظهور، وتفقد الدولة قدرتها على مواجهة التحديات.

- **أواخر الأمويين: استنزاف الطاقة في الفتنة:**
  - رغم استمرار الفتوحات في أواخر عهدهم، إلا أن الفتنة الداخلية التي بدأت بمقتل عثمان ثم الصراع بين علي ومعاوية، ثم ظهور الخوارج والزبيريين، كانت بمثابة نزيف داخلي استنزف طاقة الدولة ومواردها البشرية والمالية. هذه الطاقة التي كان يمكن توجيهها نحو الجهاد الخارجي الموحد، استُهلكت في صراعات داخلية مريرة.
  - عندما ضعفت السلطة المركزية وتزايدت الصراعات الداخلية، فقدت الدولة القدرة على توجيه الجهاد بنفس القوة والفعالية التي كانت في السابق. لم يعد هناك جيش موحد يخضع لقيادة واحدة قوية. هذا الضعف في الجهاد الموحد، نتيجة للصراعات الداخلية، ساهم في ضعف الدولة وسقوطها في النهاية على يد العباسيين الذين استغلوا هذا الضعف والتشرذم.
- **أواخر العباسيين: تفتت القيادة وضعف الجهاد الموحد:**
  - بعد فترة الازدهار الأولى، بدأت الدولة العباسية تعاني من ضعف السلطة المركزية في بغداد، والانقسام السياسي إلى دويلات وإمارات مستقلة ومتناحرة. كما تزايد نفوذ القوى العسكرية غير العربية (الأتراك، البويهيون، السلاجقة) وسيطرتها على مقاليد الحكم أحياناً.
  - هذا الضعف الداخلي وتفتت السلطة أثر بشكل مباشر على القدرة على قيادة الجهاد الموحد. توقفت الفتوحات الكبرى التي كانت تهدف إلى توسيع رقعة دار الإسلام. أصبح الجهاد في الغالب جهاداً محلياً تقوم به الدويلات المستقلة للدفاع عن نفسها، أو جهاداً دفاعياً على الحدود، أو حتى صراعات مسلحة بين الدويلات الإسلامية نفسها.
  - هذا التفتت في الجهود الجهادية، بالإضافة إلى ضعف الجيش في بغداد وعدم قدرته على مواكبة التطورات، جعل العالم الإسلامي المشرقي عرضة للغزو الخارجي المدمر (المغول). كان ضعف الجهاد الموحد، نتيجة لعوامل الضعف الداخلية، سبباً رئيسياً في عدم القدرة على الصمود أمام الخطر المغولي وسقوط بغداد، وفقدان جزء كبير من العالم الإسلامي لسيادته.

- **أواخر المماليك: تراجع القدرة على الجهاد الشامل:**
  - رغم دورهم العظيم في صد المغول والصليبيين في فترات قوتهم، بدأت دولة المماليك تعاني من صراعات داخلية مستمرة على السلطة بين الأمراء وفصائل المماليك، وأزمات اقتصادية (أوبئة، تغير طرق التجارة)، وضعف في الجيش وعدم مواكبته للتطورات العسكرية الحديثة (خاصة الأسلحة النارية).
  - هذه العوامل الداخلية أدت إلى **تراجع القدرة على الجهاد الفعال** بأبعاده المختلفة. تراجعت القدرة على الجهاد الهجومي (بعد استئصال الصليبيين لم يعد هناك أهداف توسعية واضحة)، وتراجعت القدرة على الجهاد التطويري (عدم مواكبة التطور العسكري والتقني)، وتراجعت الروح القتالية لدى البعض بسبب الانشغال بالثروة والصراع الداخلي.
  - لم يعد الجيش المملوكي بنفس الكفاءة والقوة والتماسك التي كان عليها في السابق. هذا الضعف في الجهاد الشامل، بالإضافة إلى التحديات الأخرى، جعلهم عاجزين عن الصمود أمام قوة صاعدة ومنظمة ومجهزة بأحدث الأسلحة مثل الدولة العثمانية. أدى هذا العجز عن الجهاد الفعال إلى **فقدانهم لأراضيهم** (الشام ومصر) في المعارك الحاسمة، وبالتالي إلى **سقوط دولتهم** (انكماش وسقوط).
- **أواخر العثمانيين: فشل في الجهاد الشامل في مواجهة العصر الحديث:**
  - بعد قرون من القوة والازدهار، بدأت الدولة العثمانية تعاني من ضعف داخلي هيكلي (مشاكل في نظام الحكم، تدهور الجيش، أزمات اقتصادية، تحديات اجتماعية). الأهم من ذلك، أنها **فشلت في مواكبة التطورات السريعة التي حدثت في أوروبا في العصر الحديث** في مجالات العلم، والتكنولوجيا، والصناعة، والأساليب العسكرية، والتنظيم الإداري والاقتصادي.
  - هذا الفشل يمكن اعتباره **تراجعاً عن "الجهاد الشامل"** الذي قامت عليه الدولة وازدهرت به. لم تستطع الدولة العثمانية ممارسة الجهاد العلمي والمعرفي بنفس فعالية أوروبا، مما أدى إلى تخلفها التقني والصناعي. لم تستطع ممارسة الجهاد الإداري والاقتصادي بنفس الكفاءة، مما أدى إلى فساد وأزمات اقتصادية. ولم تستطع ممارسة الجهاد العسكري بنفس الفعالية بسبب تدهور الجيش وعدم تحديثه.

- هذا الضعف في الجهاد الشامل أثر بشكل مباشر على قدرتها على مواصلة الجهاد الفعال والدفاع عن حدودها. تراجعت القدرة العسكرية، وفقدت الدولة القدرة على شن حملات هجومية كبرى، بل أصبحت تخسر الأراضي في الحروب المتتالية مع القوى الأوروبية الصاعدة.
- كان تراجع القدرة على الجهاد الفعال، نتيجة للضعف الداخلي وعدم مواكبة العصر، هو العامل الرئيسي الذي أدى إلى **فقدان الأراضي** (الانكماش المستمر) و**تراجع الازدهار** الاقتصادي والحضاري، وفي النهاية إلى **سقوط الدولة** بشكل كامل بعد الحرب العالمية الأولى. لم يسقط العثمانيون لأنهم لم يؤمنوا بالجهاد كفريضة، ولكنهم سقطوا لأنهم لم يتمكنوا من ممارسة الجهاد بفعالية وشمولية في مواجهة التحديات الجديدة التي فرضها العصر الحديث، والتي تطلبت جهاداً ليس فقط بالسيف، بل أيضاً بالعلم، والصناعة، والتنظيم، والاقتصاد، والتكيف السريع مع التغيير.

3. التأكيد على أن الجهاد لم يكن مجرد عنف، بل منهج حياة للدولة والأمة يضمن حيويتها وقدرتها على التحدي والبقاء: الجهاد الشامل كسر الوجود والحيوية

من خلال استعراض مسيرة هذه الدول، يتضح أن مفهوم **الجهاد** في تاريخ الإسلام لم يكن مقتصراً على القتال المسلح (الجهاد العسكري) فحسب، بل كان **منهج حياة متكامل وشامل للدولة والأمة**، يشمل أبعاداً متعددة مترابطة تضمن حيويتها وقدرتها على التحدي، والمواجهة، والبقاء، والنهوض، والازدهار. إن فهم الجهاد بهذا المعنى الشامل هو مفتاح فهم عوامل القوة والضعف في تاريخنا.

- **الجهاد العسكري:** هو الأساس في حماية دار الإسلام، والدفاع عن النفس، وإزالة العوائق المادية أمام تبليغ الدعوة، وتأمين الحدود من الأعداء المتربصين. كان ضرورياً لقيام الدول وتوسعها والحفاظ على وجودها في مواجهة التحديات العسكرية الخارجية. عندما يضعف هذا الجانب من الجهاد، تصبح الأمة عرضة للغزو وفقدان الأراضي.
- **الجهاد الدعوي:** هو تبليغ رسالة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ونشر قيمه ومبادئه السمحة بين الناس، سواء داخل دار الإسلام أو خارجها. كان هذا الجهاد هو الذي يفتح القلوب ويدخل الناس في دين الله طواعية، وهو أساس قوة الأمة المعنوية وتماسكها الداخلي، وقدرتها على استيعاب الشعوب الجديدة في نسيجها. عندما يضعف هذا الجانب، تضعف الروح الإيمانية، وتظهر الانقسامات المذهبية والاجتماعية.
- **الجهاد العلمي والمعرفي:** هو طلب العلم، ونشره، والبحث والتطوير، والإسهام في بناء الحضارة الإنسانية، ومواكبة التطورات العلمية والتقنية في العالم. كان هذا الجهاد يوفر للأمة القوة المعرفية والتقنية اللازمة للتطور في جميع المجالات (بما في ذلك الجانب العسكري والاقتصادي)، ويُعلي من شأنها بين الأمم، ويجعلها قادرة على التنافس الحضاري. عندما يضعف هذا الجانب، تتخلف الأمة عن ركب التقدم، وتصبح عاجزة عن مواجهة التحديات التقنية والعسكرية الحديثة.
- **الجهاد الإداري والتنظيمي:** هو بناء مؤسسات الدولة القوية والفعالة، وتطبيق العدل بين جميع الرعية، ومحاربة الفساد بجميع أشكاله، وتنظيم شؤون الرعية، وإدارة الموارد بكفاءة وشفافية. كان هذا الجهاد يضمن استقرار الدولة الداخلي، ورضا الرعية، وقدرتها على إدارة إمبراطورية مترامية الأطراف.

- عندما يضعف هذا الجانب، ينتشر الفساد، وتظهر المظالم، ويزداد الاستياء الشعبي، وتضعف السلطة المركزية، مما يمهد لظهور الثورات والانقسامات.
- **الجهاد الاقتصادي:** هو تنمية الموارد الطبيعية والبشرية، وتنظيم التجارة والصناعة والزراعة، وتحقيق الاكتفاء الذاتي قدر الإمكان، وتوفير الرخاء للمجتمع، وتوزيع الثروات بعدل. كان هذا الجهاد يوفر للدولة الموارد المالية اللازمة لتمويل جيشها، وبناء مشاريع تنموية، ودعم التعليم والصحة، ويُعزز من قوتها الاقتصادية وقدرتها على الصمود أمام الأزمات. عندما يضعف هذا الجانب، تعاني الدولة من الأزمات الاقتصادية، وينتشر الفقر والبطالة، وتضعف قدرتها على تمويل جيشها ومشاريعها، مما يؤثر على قوتها الشاملة.
- **جهاد النفس:** هو مجاهدة النفس على التمسك بالعقيدة والأخلاق الإسلامية، والتغلب على الشهوات والأنانية وحب الدنيا، والارتقاء بالجانب الروحي للفرد والمجتمع. كان هذا الجهاد هو الأساس الذي يبني الفرد المسلم القوي الملتزم، وهو الذي يضمن تماسك المجتمع وقوته المعنوية والأخلاقية، وقدرته على التضحية والبذل في سبيل المصلحة العليا للأمة. عندما يضعف هذا الجانب، تنتشر الأنانية، وحب الدنيا، والفساد الأخلاقي، وتضعف الروح القتالية والتضحية، مما يؤثر على قوة الأمة من الداخل.

العلاقة بين ضعف الجهاد الشامل والسقوط:

عندما بدأت الدول الإسلامية تعاني من الضعف، لم يكن هذا الضعف مقتصراً على الجانب العسكري فحسب، بل كان ضعفاً في هذه الأبعاد المتكاملة للجهاد.

- **ضعف الجهاد الإداري والاقتصادي** أدى إلى فساد وسوء إدارة وأزمات اقتصادية، مما أضعف الدولة من الداخل وقوض أسسها المادية.
- **ضعف الجهاد العلمي والمعرفي** أدى إلى التخلف التقني وعدم القدرة على مواكبة التطورات العالمية، مما جعل الأمة عاجزة عن المنافسة في ميادين القوة الحديثة.
- **ضعف جهاد النفس** أدى إلى انتشار الأنانية، وحب الدنيا، والصراعات الداخلية، وتراجع الروح القتالية والتضحية، مما قوض التماسك الاجتماعي والمعنوي للأمة.
- **ضعف الجهاد الدعوي** أثر على قدرة الأمة على تبليغ رسالتها والحفاظ على تماسكها المذهبي والاجتماعي، وفتح الباب أمام الانقسامات الداخلية.

- **ضعف الجهاد العسكري** (غالباً ما يكون نتيجة لعوامل الضعف الأخرى) أدى إلى عدم القدرة على الدفاع عن الحدود ومواجهة الأعداء، مما أدى إلى فقدان الأراضي والتعرض للغزو.

عندما تضعف هذه الأبعاد المتكاملة للجهاد، وتتراجع فعاليتها، تفقد الدولة والأمة حيويتها وقدرتها على التحدي والبقاء. يصبح الجيش ضعيفاً وغير قادر على الدفاع، وتصبح الإدارة فاسدة وغير قادرة على التنظيم، ويصبح الاقتصاد منهكاً وغير قادر على التمويل، ويصبح المجتمع منقسماً وغير قادر على التكاتف، وتصبح الأمة متخلفة وغير قادرة على مواكبة العصر.

هذا الضعف في الجهاد الشامل هو الذي يمهد الطريق لظهور الصراعات الداخلية بشكل أكبر (لأن الطاقة لا تُوجه نحو الخارج في جهاد نافع)، وتوقف الفتوحات (لأن القدرة على الهجوم والتوسع تضعف)، وفقدان الأراضي (لأن القدرة على الدفاع تتراجع)، وفي النهاية، تراجع قوة الدولة وسقوطها.

لم تسقط الدول الإسلامية الكبرى لأنها كانت تمارس الجهاد، بل سقطت عندما ضعفت قدرتها على ممارسة الجهاد بفعالية وشمولية في مواجهة التحديات المتغيرة التي فرضتها العصور المختلفة. كان الجهاد في عصور القوة محركاً للنهوض والتوسع والازدهار. وفي عصور الضعف، كان تراجع القدرة على الجهاد الشامل سبباً في الانكماش والسقوط. هذا الدرس التاريخي العميق يضع الجهاد، بأبعاده المتكاملة، في صلب أي حديث عن عوامل النهوض والسقوط في تاريخ الأمة الإسلامية، ويؤكد أن قوة الأمة وحيويتها وبقاءها مرهون بقدرتها على ممارسة هذا الجهاد الشامل في كل زمان ومكان.

كما، يظهر تاريخ الدول الإسلامية السابقة بوضوح أن الجهاد، بمعناه الشامل الذي يتجاوز القتال ليشمل الأبعاد الدعوية، والعلمية، والإدارية، والاقتصادية، وجهاد النفس، كان ركيزة أساسية للنهوض، والتوسع، والازدهار. وفي المقابل، ارتبط ضعف هذا الجهاد الشامل وتراجع فعاليته بظهور الصراعات الداخلية، وتوقف الفتوحات، وفقدان الأراضي، وتراجع قوة الدول وسقوطها. هذا الدرس التاريخي العميق يضع الجهاد، بأبعاده المتكاملة، في صلب أي حديث عن عوامل النهوض والسقوط في تاريخ الأمة الإسلامية، ويؤكد أن قوة الأمة وحيويتها وبقاءها مرهون بقدرتها على ممارسة هذا الجهاد الشامل في كل زمان ومكان.

المبحث الثاني: العدل، الشورى، والمساواة وتأثير الانقلابات العسكرية: أسس الحكم الراشد وعوامل الضعف

إلى جانب الجهاد بأبعاده الشاملة كركيزة للنهوض، كانت هناك مبادئ أساسية شكلت جوهر الحكم في فترات القوة والازدهار في تاريخ الدول الإسلامية، وغيابها أو ضعف تطبيقها كان سبباً رئيسياً في الاضطراب الداخلي وتراجع قوة الدول. هذه المبادئ هي **العدل**، **الشورى**، **والمساواة**. لقد كانت هذه المبادئ ليست مجرد شعارات، بل هي أسس مستمدة من الشريعة الإسلامية، شكلت **أسس الحكم الراشد وعوامل الاستقرار** في الدولة الإسلامية الأولى، وكان الابتعاد عنها سبباً في ظهور المظالم، والاستياء الشعبي، والصراعات الداخلية التي أضعفت الدول وساهمت في سقوطها. يضاف إلى ذلك، ظاهرة **الانقلابات العسكرية** التي شكلت عاملاً آخر من عوامل الضعف وعدم الاستقرار.

1. تحليل دور مبادئ العدل، الشورى، والمساواة في بناء الدولة الإسلامية الأولى وقوتها الداخلية (عهد الخلفاء الراشدين كنموذج)

يُعد عهد الخلفاء الراشدين (أبي بكر، عمر، عثمان، علي) هو النموذج الأبرز والأكثر تجسيداً لتطبيق مبادئ العدل، الشورى، والمساواة في الحكم. لقد كانت هذه المبادئ هي التي بنت قوة الدولة الإسلامية الأولى من الداخل، وزادت من تماسك المجتمع، ومكنتها من تحقيق الإنجازات العظيمة التي شهدناها في الفصول السابقة.

- **العدل:**
  - **مفهومه وتطبيقه:** العدل في الإسلام هو إعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الأمور في نصابها، والحكم بين الناس بالحق دون تمييز. في عهد الراشدين، كان العدل أساس الحكم في جميع المستويات. كان الخلفاء أنفسهم يلتزمون بالعدل في أقوالهم وأفعالهم وقراراتهم.
  - **العدل في القضاء:** كان القضاء مستقلاً ونزيهاً، لا يفرق بين حاكم ومحكوم، أو قوي وضعيف، أو مسلم وغير مسلم. كان الخليفة نفسه يخضع للقضاء إذا اشتكى عليه أحد الرعية.

- قصص عمر بن الخطاب في عدله مع الفلاح القبطي الذي اشتكى ابن عمرو بن العاص، أو علي بن أبي طالب في قضائه بينه وبين يهودي في شيء فقده، هي أمثلة حية على أن العدل كان فوق الجميع. كان الولاة والقضاة يُحاسبون بشدة إذا حادوا عن العدل.
- **العدل في الإدارة:** كان الخلفاء يوصون ولاتهم وعمالهم بتطبيق العدل في ولاياتهم، ورعاية شؤون الرعية، وعدم ظلم أحد. كان عمر بن الخطاب يتفقد أحوال رعيته بنفسه، ويحاسب الولاة على أي شكوى تصل إليهم، بل وكان يعزل الولاة إذا ثبتت عليهم مظلمة أو تجاوز.
- **العدل في توزيع الثروات:** كان بيت المال يُدار بشفافية وعدل. كانت الثروات المكتسبة من الفتوحات (الغنيمة والفيء) توزع على المسلمين وفق أسس معينة (مثل السبق في الإسلام والمشاركة في الجهاد)، ولكن مع الحرص على تحقيق العدالة الاجتماعية وتوفير الحقوق للفقراء والمساكين من المسلمين وغير المسلمين. سعى علي بن أبي طالب في بداية خلافته إلى تحقيق المساواة الكاملة في العطاء، متأسياً بمنهج أبي بكر وعمر.
- **أثره على قوة الدولة:** تطبيق العدل أدى إلى رضا الرعية عن الحكم، وزيادة تماسك المجتمع، وشعور الناس بالأمن والطمأنينة، مما عزز من قوة الدولة الداخلية ووحدتها، وجعلها قادرة على مواجهة التحديات الخارجية. كما كان عدل المسلمين عاملاً جاذباً للشعوب المفتوحة، التي كانت تعاني من الظلم في الإمبراطوريات السابقة، فرأت في حكم المسلمين خلاصاً من الظلم وقبولاً للحكم الإسلامي.

- **الشورى:**
  - **مفهومها وتطبيقها:** الشورى هي استشارة أهل الرأي والحكمة والخبرة في الأمور التي تهم الأمة، وعدم الاستبداد بالرأي. في عهد الراشدين، كانت الشورى منهجاً راسخاً في صناعة القرار، وليست مجرد شكلية.
  - **في اختيار الحاكم:** بدأت الخلافة ببيعة أبي بكر في السقيفة، التي كانت اختياراً مبنياً على التشاور بين المهاجرين والأنصار. وعندما أوصى أبو بكر لعمر، استشار كبار الصحابة. واختيار عثمان تم عبر مجلس الشورى الذي حدده عمر.

وفي عهد علي، تمت البيعة بعد مشاورات بين الصحابة. هذا التداول للسلطة عبر الشورى أرسى مبدأً أساسياً في الحكم الإسلامي.

- **في إدارة شؤون الدولة:** كان الخلفاء الراشدون، وخاصة عمر بن الخطاب، يستشيرون كبار الصحابة وأهل الحل والعقد في القضايا الهامة المتعلقة بتوجيه الجيوش، وسن التشريعات، وإدارة الأقاليم، والتعامل مع الأزمات. لم يتخذ عمر قراراً مهماً إلا بعد مشاورة أهل الرأي.
- **أثرها على قوة الدولة:** تطبيق الشورى أدى إلى شعور الأمة بالمشاركة في قيادة شؤونها، وزيادة شرعية القرارات المتخذة، وتجنب الأخطاء الناتجة عن الاستبداد بالرأي، وزيادة تلاحم الناس مع قيادتهم. هذا المبدأ كان له دور كبير في حشد الأمة للجهاد والبناء، لأنهم كانوا يشعرون بملكيتهم للقرار.

- **المساواة:**
  - **مفهومها وتطبيقه:** المساواة في الإسلام تعني أن جميع الناس سواسية أمام شرع الله، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولا تمييز على أساس العرق، أو اللون، أو النسب، أو الطبقة الاجتماعية. في عهد الراشدين، تم تطبيق هذا المبدأ بشكل كبير.
  - **المساواة أمام القانون والقضاء:** الجميع سواسية أمام القانون والقضاء، كما ذكرنا في العدل.
  - **المساواة في الحقوق والواجبات:** كان المسلمون متساوين في الحقوق والواجبات الأساسية. غير المسلمين (أهل الذمة) كانت لهم حقوق وعليهم واجبات محددة بموجب العهود، وكانوا يُعاملون بعدل وإنصاف.
  - **المساواة في الفرص:** كانت الفرص متاحة للمسلمين بناءً على الكفاءة والتقوى، وليس على أساس النسب أو العرق.
  - **أثرها على قوة الدولة:** تطبيق مبدأ المساواة أدى إلى زيادة تماسك المجتمع، والقضاء على العصبيات القبلية والعرقية التي كانت سائدة في الجاهلية، وشعور جميع مكونات المجتمع بالانتماء إلى الدولة الإسلامية.

- كان هذا المبدأ جذاباً جداً للشعوب المفتوحة التي كانت تعاني من التمييز الطبقي والعرقي في الإمبراطوريات السابقة، فرأت في حكم المسلمين خلاصاً من الظلم وقبولاً للحكم الإسلامي.

باختصار، كانت مبادئ العدل، الشورى، والمساواة هي **أسس الحكم الراشد** في الدولة الإسلامية الأولى، وكانت عوامل رئيسية في بناء **القوة الداخلية** للدولة، وزيادة تماسك المجتمع، وتحقيق الاستقرار الذي مكن الأمة من الانطلاق نحو الفتوحات والبناء الحضاري.

2. كيف أدى الابتعاد عن هذه المبادئ أو ضعف تطبيقها إلى ظهور المظالم، والاستياء الشعبي، والصراعات الداخلية، مما أضعف الدول وساهم في سقوطها

مع مرور الوقت، وبعد انتهاء عصر الخلافة الراشدة، بدأت بعض الدول الإسلامية تعاني من الابتعاد عن هذه المبادئ الإسلامية الأساسية أو ضعف تطبيقها بشكل كامل. كان لهذا الابتعاد آثار سلبية خطيرة، أدت إلى ظهور المظالم، والاستياء الشعبي، والصراعات الداخلية، مما أضعف هذه الدول وساهم في سقوطها في نهاية المطاف.

- **الابتعاد عن الشورى وتحول الحكم إلى وراثة:**
  - **المشكلة:** بدأ هذا الابتعاد بشكل واضح في العصر الأموي، عندما قام معاوية بن أبي سفيان بأخذ البيعة لابنه يزيد ولياً للعهد، محولاً بذلك نظام الحكم من الشورى والاختيار إلى الملك الوراثي. ورغم أن هذا كان يهدف إلى تحقيق الاستقرار بعد فترة الفتنة، إلا أنه كان مخالفاً للمنهج الذي سار عليه الخلفاء الراشدون، وفتح باباً لم يكن موجوداً من قبل.
  - **الآثار السلبية:** أدى تحول الحكم إلى وراثة إلى **صراعات داخلية على السلطة** داخل البيت الحاكم نفسه (بين أبناء الخلفاء وإخوتهم)، وإلى **ظهور معارضات سياسية ودينية** ترفض هذا التحول وتطالب بالعودة إلى الشورى أو ترى أحقية غير الأمويين في الحكم (مثل معارضة الزبيريين والعلويين). هذه الصراعات والمعارضات استنزفت طاقة الدولة وأضعفت من شرعيتها في نظر قطاع كبير من الأمة.

- **أمثلة:**
  - **في العصر الأموي:** الصراع الذي حدث بعد وفاة معاوية وتولي يزيد، وثورة الحسين بن علي في كربلاء التي كانت رفضاً لبيعة يزيد، وثورة عبد الله بن الزبير التي استمرت لسنوات وأدت إلى انقسام الدولة الأموية إلى خليفتين متنافسين. هذه الأحداث كانت نتيجة مباشرة للتحول إلى الوراثة والابتعاد عن مبدأ الشورى في اختيار الحاكم.
  - **في العصر العباسي:** استمرت صراعات الوراثة والانقلابات الداخلية بين أفراد البيت العباسي (مثل الحرب بين الأمين والمأمون) في إضعاف الدولة المركزية، مما أتاح الفرصة لظهور الدويلات المستقلة.
  - **في عصر المماليك:** رغم أن النظام لم يكن وراثياً بالكامل في البداية، إلا أن الصراع على السلطة بين الأمراء كان مستمراً وشديداً، مما أدى إلى عدم الاستقرار السياسي وإضعاف الدولة من الداخل.
  - **في العصر العثماني:** رغم أن النظام كان وراثياً، إلا أن صراعات الإخوة على السلطة (خاصة في الفترات المبكرة والمتأخرة) كانت تضعف الدولة.

- **الابتعاد عن المساواة وظهور التمييز (قضية الموالي في العصر الأموي كمثال بارز):**
  - **المشكلة:** رغم أن الإسلام جاء ليساوي بين الناس، إلا أن بعض الممارسات في العصر الأموي أدت إلى ظهور نوع من التمييز بين العرب والموالي (غير العرب المسلمين). كان العرب يُفضلون في بعض الأحيان في العطاء والمناصب القيادية، وفي بعض الحالات استمر بعض الولاة في فرض الجزية على الموالي الذين أسلموا للحفاظ على إيرادات الدولة.
  - **الآثار السلبية:** أدى هذا التمييز إلى **استياء شعبي واسع** بين الموالي الذين كانوا يشكلون غالبية سكان الأقاليم المفتوحة. شعر الموالي بالظلم وعدم المساواة، مما دفعهم إلى الانضمام إلى الحركات المعارضة للأمويين (مثل ثورات الخوارج، ودعم الدعوة العباسية). شكل هذا الاستياء قاعدة شعبية واسعة استغلتها الدعوة العباسية بذكاء، وكان عاملاً رئيسياً في سقوط الدولة الأموية.

- **أمثلة:**
  - **في العصر الأموي:** استياء الموالي في خراسان والعراق من التمييز ضدهم في العطاء والمناصب، ومن استمرار فرض الجزية على بعض من أسلم منهم، كان سبباً رئيسياً في نجاح الدعوة العباسية التي رفعت شعار المساواة.
  - **في العصر الفاطمي:** رغم أنهم كانوا شيعة، إلا أنهم في بعض الفترات فضلوا أتباع مذهبهم الإسماعيلي في تولي المناصب العليا، مما أثار استياء غالبية السكان في مصر والشام الذين كانوا من أهل السنة، وساهم في عدم رضاهم عن الحكم الفاطمي.
  - **في العصر العثماني:** رغم أن الدولة العثمانية كانت تستوعب مختلف القوميات والأعراق، إلا أن ظهور النزعات القومية في أواخر عهدها، وشعور بعض القوميات بالتمييز، كان عاملاً في ضعف الدولة وظهور الحركات الانفصالية.

- **ضعف تطبيق العدل وظهور المظالم:**
  - **المشكلة:** مع تراجع الوازع الديني لدى بعض الحكام والولاة في العصور اللاحقة، ومع اتساع رقعة الدولة وصعوبة الرقابة المركزية، بدأ تطبيق العدل يضعف في بعض الأحيان، وظهرت المظالم على الرعية (سواء كانت مظالم مالية بفرض ضرائب جائرة، أو مظالم إدارية، أو تجاوزات من قبل بعض الولاة، أو عدم المساواة أمام القانون).
  - **الآثار السلبية:** أدى ظهور المظالم إلى **استياء شعبي عميق**، وفقدان الرعية للثقة في السلطة الحاكمة. كان الاستياء الشعبي من الظلم عاملاً رئيسياً في إشعال الثورات والتمردات ضد السلطة المركزية أو الولاة المحليين. كما أن غياب العدل يؤدي إلى تفكك المجتمع وتراجع تماسك الدولة من الداخل.

- **أمثلة:**
  - **في أواخر العصر الأموي:** ظلم بعض الولاة (مثل الحجاج بن يوسف في العراق) أدى إلى استياء واسع وثورات متكررة.
  - **في العصر العباسي:** ثورة الزنج في جنوب العراق كانت ناتجة عن مظالم اجتماعية واقتصادية عميقة (استعباد، ظروف عمل قاسية). كما أن ظلم بعض الولاة في الأقاليم البعيدة كان سبباً في تمردها أو استقلالها.
  - **في عصر المماليك:** عانى السكان في بعض الفترات من الضرائب الباهظة وسوء الإدارة، مما أدى إلى استياء شعبي.
  - **في العصر العثماني:** في فترات الضعف، انتشر الفساد والظلم في بعض الولايات، مما أدى إلى استياء السكان وظهور الحركات المعارضة.

3. الانقلابات العسكرية وتأثيرها على ضعف الدول: قوة السيف تطغى على شرعية الحكم

إلى جانب الابتعاد عن مبادئ العدل والشورى والمساواة في انتقال السلطة وإدارة الحكم، شكلت ظاهرة **الانقلابات العسكرية**، أي وصول القوة العسكرية إلى سدة الحكم عن طريق القوة بدلاً من الشرعية المستمدة من الشورى أو البيعة أو حتى الوراثة المستقرة، عاملاً آخر من عوامل الضعف وعدم الاستقرار في تاريخ بعض الدول الإسلامية، خاصة في فترات ضعف السلطة المركزية.

- **طبيعة الانقلاب العسكري:** الانقلاب العسكري هو استيلاء مجموعة من العسكريين على السلطة بالقوة، متجاوزين بذلك القنوات الشرعية أو الدستورية لانتقال الحكم. يعتمد الانقلاب على قوة السلاح والسيطرة على مؤسسات الدولة الحيوية (الجيش، الشرطة، وسائل الاتصال) لفرض واقع سياسي جديد.
- **آثار الانقلابات العسكرية على ضعف الدول:**
  - **زعزعة الشرعية:** يؤدي الانقلاب العسكري إلى زعزعة شرعية الحكم. فالسلطة لا تُستمد من رضا الأمة أو اختيارها (الشورى/البيعة)، بل من قوة السيف. هذا يفتح الباب أمام معارضات داخلية وخارجية ترفض هذا الحكم وتعمل على إسقاطه، مما يؤدي إلى عدم الاستقرار السياسي المستمر.

- **إضعاف المؤسسات المدنية:** غالباً ما تؤدي الانقلابات العسكرية إلى إضعاف أو تهميش المؤسسات المدنية (كالقضاء، والإدارة، والمجالس النيابية إذا وجدت) لصالح المؤسسة العسكرية. يصبح القرار السياسي والعسكري متركزاً في يد مجموعة صغيرة من القادة العسكريين، مما يؤثر على كفاءة الإدارة ويفتح الباب للاستبداد.
- **الصراعات داخل المؤسسة العسكرية:** نظام الحكم القائم على الانقلاب يفتح الباب لصراعات داخل المؤسسة العسكرية نفسها. فالقادة العسكريون الآخرون قد يرون أنهم أحق بالسلطة، مما يؤدي إلى محاولات انقلاب مضادة، واغتيالات، وتصفيات داخلية، مما يضعف الجيش ويؤثر على انضباطه وولائه.
- **تحويل موارد الدولة لخدمة السلطة:** غالباً ما تُوجه موارد الدولة لخدمة السلطة القائمة وتأمينها، بدلاً من توجيهها للتنمية الاقتصادية أو الاجتماعية أو الجهاد الخارجي. يصبح هم الحاكم العسكري هو البقاء في السلطة بأي ثمن، حتى لو كان ذلك على حساب مصلحة البلاد والعباد.
- **العزلة الدولية:** قد تؤدي الانقلابات العسكرية إلى عزلة الدولة دولياً، وعدم اعتراف الدول الأخرى بالحكومة الانقلابية، وفرض عقوبات عليها، مما يؤثر سلباً على اقتصادها ومكانتها.

- **مثال محمد علي باشا في مصر:**

- **خلفية الصعود:** ظهر محمد علي باشا في مصر في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، في فترة كانت فيها مصر تعاني من الفوضى السياسية والصراع على السلطة بين المماليك والعثمانيين والقوى المحلية، بعد خروج الحملة الفرنسية. كان محمد علي قائداً عسكرياً في الجيش العثماني الذي أُرسل لاستعادة مصر.
- **الوصول إلى السلطة:** تمكن محمد علي من استغلال الفوضى ودعم بعض القوى المحلية (مثل العلماء والأعيان) للوصول إلى منصب والي مصر عام 1805م، بموافقة اسمية من الباب العالي العثماني. ولكن تثبيت سلطته لم يتم إلا عبر **استخدام القوة العسكرية** والقضاء على خصومه، وأبرزهم مذبحة القلعة عام 1811م التي قضى فيها على قوة المماليك كطبقة حاكمة.

- كان وصوله إلى السلطة وتثبيتها يعتمد بشكل أساسي على قوته العسكرية وبراعته السياسية في التخلص من المنافسين.
- **التحديث العسكري والإداري:** يُنسب لمحمد علي باشا جهود كبيرة في تحديث مصر وبناء دولة قوية على النمط الأوروبي. قام ببناء جيش حديث على الطراز الأوروبي، وأنشأ المصانع، وطور الزراعة، وأرسل البعثات التعليمية إلى أوروبا. كان هذا التحديث مدفوعاً برغبته في بناء دولة قوية ومستقلة.
- **الطبيعة العسكرية للحكم وأثرها:** رغم جهود التحديث، إلا أن حكم محمد علي كان **حكماً عسكرياً استبدادياً** في جوهره. لم يعتمد على الشورى أو المشاركة الشعبية في الحكم، بل على سلطته المطلقة وقوة جيشه الذي بناه بنفسه. كان هذا النموذج من الحكم، الذي وصل إلى السلطة بالقوة العسكرية وقام على أساسها، يمثل ابتعاداً عن مبادئ الحكم الراشد التي رأيناها في العصور الأولى. ورغم أنه حقق قوة ظاهرية لمصر في عهده، إلا أن **طبيعة حكمه العسكرية والاستبدادية** لم تضع أسساً راسخة لحكم مستقر يعتمد على رضا الشعب ومشاركته. كما أن اعتماده على القوة العسكرية في الداخل والخارج (حروبه التوسعية) جعله في صراع دائم مع القوى الأخرى (خاصة الدولة العثمانية والقوى الأوروبية)، مما أدى في النهاية إلى تقييد طموحاته وإضعاف دولته من قبل القوى الأوروبية الكبرى. يمكن القول إن صعوده بالقوة العسكرية، رغم ما صاحبه من تحديث، لم يؤسس لنظام حكم مستقر وشرعي على المدى الطويل يعتمد على أسس غير عسكرية، وربما ساهم في ترسيخ فكرة أن القوة العسكرية هي الطريق إلى السلطة في السياق المصري لاحقاً.

العلاقة بين الابتعاد عن المبادئ وضعف الدول:

إن الابتعاد عن مبادئ العدل، الشورى، والمساواة، بالإضافة إلى ظاهرة الانقلابات العسكرية التي تقوض الشرعية وتزعزع الاستقرار، يؤدي إلى:

1. **فقدان الشرعية:** عندما يشعر الناس بأن الحكم غير عادل أو غير قائم على اختيارهم (الشورى)، أو أنه وصل إلى السلطة بالقوة (الانقلاب)، تضعف شرعية هذا الحكم في نظرهم، ويصبحون أقل استعداداً للولاء له أو التضحية من أجله.

2. **ظهور الاستياء والمظالم:** يؤدي غياب العدل والمساواة إلى ظهور المظالم والتمييز، مما يولد استياءً شعبياً عميقاً يمكن أن يتحول إلى معارضة وثورة. كما أن الحكم العسكري غالباً ما يكون أقل استجابة لمطالب الشعب واحتياجاته.
3. **زيادة الصراعات الداخلية:** يؤدي غياب الشورى والعدالة في توزيع السلطة والموارد إلى زيادة التنافس والصراعات الداخلية على السلطة بين الطامعين، كما أن المظالم تدفع المظلومين إلى التمرد. الانقلابات العسكرية تفتح الباب لصراعات داخل المؤسسة العسكرية نفسها ولمحاولات انقلاب مضادة.
4. **ضعف التماسك الاجتماعي:** الحكم العسكري قد يعتمد على قمع المعارضة بدلاً من احتوائها، مما يزيد من الانقسام والتوتر في المجتمع.
5. **إضعاف المؤسسات المدنية:** يؤدي تركيز السلطة في يد العسكريين إلى إضعاف المؤسسات المدنية التي تُعد أساساً للحكم الرشيد والاستقرار على المدى الطويل.

هذه الآثار السلبية مجتمعة (فقدان الشرعية، الاستياء الشعبي، الصراعات الداخلية، ضعف التماسك الاجتماعي، إضعاف المؤسسات المدنية) تضعف الدولة بشكل كبير من الداخل، وتجعلها أقل قدرة على مواجهة التحديات الخارجية، وتساهم بشكل مباشر في تراجع قوتها وسقوطها في نهاية المطاف. إن طغيان قوة السيف على شرعية الحكم هو طريق مؤكد إلى الضعف والتراجع على المدى الطويل.

الخلاصة، كانت مبادئ العدل، الشورى، والمساواة هي أسس الحكم الراشد وعوامل الاستقرار والقوة الداخلية في الدولة الإسلامية الأولى في عهد الخلفاء الراشدين. ولكن مع مرور الوقت، أدى الابتعاد عن هذه المبادئ أو ضعف تطبيقها، بالإضافة إلى ظاهرة الانقلابات العسكرية التي تقوض الشرعية وتزعزع الاستقرار، إلى ظهور المظالم، والاستياء الشعبي، والصراعات الداخلية، مما أضعف الدول وساهم في سقوطها. هذا يؤكد أن قوة الدولة لا تُقاس فقط بقوتها العسكرية أو اتساع رقعتها الجغرافية، بل تُقاس أيضاً بمدى التزامها بالمبادئ التي تضمن العدل والاستقرار الداخلي ورضا الرعية، وأن طغيان قوة السيف على شرعية الحكم هو طريق مؤكد إلى الضعف والتراجع على المدى الطويل.

إلى جانب الجهاد بأبعاده الشاملة، ومبادئ العدل والشورى والمساواة كأركان للحكم الرشيد، يبرز **العلم والمعرفة** كعامل حيوي آخر من عوامل النهوض والقوة في تاريخ الدول الإسلامية. لم ينظر الإسلام إلى العلم على أنه مجرد ترف فكري أو نشاط فردي، بل اعتبره فريضة وضرورة لبناء الفرد والمجتمع والدولة. كانت الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها منارة للعلم والمعرفة في العالم، وكان تشجيع العلم والعلماء جزءاً لا يتجزأ من سياسة الدول القوية، بينما أدى التخلف العلمي والتقني إلى ضعف الدول وعجزها عن مواكبة العصر ومواجهة التحديات الجديدة.

1. دور العلم والمعرفة في بناء الحضارة الإسلامية وازدهارها (العصر العباسي الذهبي كنموذج)

شهدت الحضارة الإسلامية في عصور قوتها، وخاصة في العصر العباسي الأول، ازدهاراً علمياً غير مسبوق، جعلها مركزاً عالمياً للمعرفة، ومقصداً لطلاب العلم من كل مكان.

- **الحث على العلم في الإسلام:** حثت نصوص القرآن والسنة على طلب العلم والتفكر والتدبر، ورفعت من شأن العلماء. آيات مثل ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (الزمر: 9) وأحاديث مثل "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[149] كانت بمثابة حافز ديني قوي للمسلمين لطلب العلم في جميع مجالاته.
- **العصر العباسي الذهبي:** يُعد العصر العباسي الأول (خاصة من عهد المنصور إلى المأمون) هو ذروة الازدهار العلمي في الحضارة الإسلامية. في بغداد، عاصمة الخلافة، تم تأسيس **بيت الحكمة**، الذي لم يكن مجرد مكتبة، بل كان مؤسسة علمية متكاملة للترجمة، والبحث، والتأليف، والتدريس، والمناظرة.

---

[149] رواه **ابن ماجه** في *سننه* (حديث رقم 224).
ورواه أيضًا **البيهقي** في *شعب الإيمان*.
حسنه بعض العلماء وضعفه آخرون، لكن معناه **صحيح ومقبول** إجمالًا، خاصة في باب **العلوم الشرعية الواجبة**.

- **حركة الترجمة الكبرى:** شهد هذا العصر حركة ترجمة غير مسبوقة، حيث تم ترجمة آلاف الكتب من اللغات اليونانية، والفارسية، والهندية، والسريانية في مختلف العلوم والفلسفة. لم يكتفِ المسلمون بالترجمة، بل قاموا بدراسة هذه الأعمال، ونقدها، وتصحيحها، وتطويرها، والإضافة إليها إضافات جوهرية.
- **النهضة في مختلف العلوم:** برز علماء مسلمون عظماء في جميع فروع العلم:
  - **الطب:** الرازي، ابن سينا، ابن النفيس.
  - **الفلك:** البَتَّاني[150]، أبو معشر البلخي[151]، ابن الشاطر[152].
  - **الرياضيات:** الخوارزمي (مؤسس علم الجبر)، أبو كامل شجاع بن أسلم (تطوير الجبر)، أبو الوفاء البوزجاني (حساب المثلثات).
  - **الكيمياء:** جابر بن حيان (مؤسس الكيمياء التجريبية).
  - **الفلسفة:** الكندي، الفارابي، ابن سينا، ابن رشد.
  - **الجغرافيا:** الإدريسي، ابن بطوطة.
  - **العلوم الشرعية واللغوية:** شهدت ازدهاراً كبيراً أيضاً مع تدوين السنة، وظهور المذاهب الفقهية، وتأليف المعاجم ووضع قواعد اللغة.

2. كيف كان تشجيع العلم والعلماء عاملاً في قوة الدولة وتأثيرها العالمي

لم يكن هذا الازدهار العلمي مجرد ظاهرة ثقافية، بل كان عاملاً أساسياً في قوة الدولة وتأثيرها على الساحة العالمية.

- **رعاية الخلفاء والأمراء:** لعب الخلفاء العباسيون الأوائل (خاصة المنصور، هارون الرشيد، المأمون) دوراً حاسماً في تشجيع العلم والعلماء. أنفقوا بسخاء على المؤسسات العلمية، وقدموا الرواتب والمكافآت للعلماء والمترجمين. هذا الدعم من أعلى مستوى في الدولة كان حافزاً قوياً للحركة العلمية.

---

[150] **البَتَّاني:** (858–929م) فلكي ورياضياتي عربي، يُعد من أبرز علماء الفلك في العصر العباسي، صحّح جداول بطليموس وابتكر حسابات دقيقة لحركة الشمس والقمر، وله تأثير كبير في الفلك الأوروبي.

[151] **أبو معشر البلخي:** عالم فلك ورياضيات وفيلسوف مسلم (توفي 886م)، من أشهر من كتب في علم النجوم عند المسلمين، وكان لأعماله تأثير كبير في أوروبا اللاتينية خلال العصور الوسطى.

[152] **ابن الشاطر:** (1304–1375م) فلكي ومهندس مسلم دمشقي، طوّر أدوات فلكية دقيقة، وصحّح نماذج حركة الكواكب، وتُعد نظرياته قريبة جدًا من نموذج كوبرنيكوس الذي ظهر لاحقًا في أوروبا.

- **العلم كأداة للقوة:**
  - **القوة العسكرية:** ساهمت العلوم مثل الرياضيات والفلك والهندسة في تطوير القدرات العسكرية (صناعة آلات الحصار، الملاحة البحرية، بناء القلاع والحصون).
  - **الإدارة والاقتصاد:** ساهمت علوم الرياضيات والحساب في تطوير الأنظمة المالية والإدارية للدولة، وتنظيم جمع الضرائب، وإدارة الموارد.
  - **الصحة العامة:** ساهم علم الطب في تحسين صحة المجتمع وجيشه، ومواجهة الأوبئة.
  - **الهيبة والمكانة العالمية:** أصبحت الدولة الإسلامية، بفضل ازدهارها العلمي والحضاري، تتمتع بمكانة وهيبة عظيمة بين الأمم. كانت بغداد وقرطبة والقاهرة مراكز علمية عالمية تجذب الطلاب والعلماء من جميع أنحاء العالم، مما يعكس قوة الدولة وتفوقها الحضاري.
- **العلم كشكل من أشكال الجهاد:** يمكن اعتبار هذا الازدهار العلمي والحضاري نوعاً من **الجهاد المعرفي والحضاري**. فالمسلمون لم يكتفوا بالجهاد العسكري لفتح البلاد، بل قاموا بجهاد معرفي لاستيعاب علوم الحضارات الأخرى، ونقدها، وتطويرها، والإضافة إليها، وتقديم إسهامات أصيلة للبشرية. كان هذا الجهاد يهدف إلى إثبات أن الإسلام دين يدعو إلى العلم والتفكر، وأنه قادر على بناء حضارة عالمية تستفيد من كل ما هو نافع، وأن قوة الأمة لا تقتصر على السيف، بل تشمل أيضاً قوة العقل والمعرفة.

3. كيف أدى التخلف العلمي والتقني مقارنة بالقوى الأخرى إلى ضعف الدول وعدم قدرتها على مواكبة العصر ومواجهة التحديات الجديدة (أواخر العثمانيين)

على النقيض من عصور الازدهار، بدأت بعض الدول الإسلامية في فترات تراجعها تعاني من **التخلف العلمي والتقني** مقارنة بالقوى الأخرى الصاعدة في العالم، وكان هذا التخلف عاملاً رئيسياً في ضعف هذه الدول وعدم قدرتها على مواكبة العصر ومواجهة التحديات الجديدة، وارتبط ارتباطاً وثيقاً بضعف الجهاد وتوقف الفتوحات.

- **التخلف العلمي والتقني في العصور المتأخرة:** بعد فترة الازدهار في العصر العباسي الأول، بدأت الحركة العلمية في العالم الإسلامي تعاني من بعض الجمود النسبي مقارنة بالحركة العلمية التي بدأت تنشط في أوروبا (خاصة في العصور الوسطى المتأخرة

وبداية عصر النهضة). ورغم استمرار الإنتاج العلمي في بعض المجالات، إلا أن وتيرة التطور لم تكن بنفس سرعة التطور في أوروبا.

- **العصر العثماني المتأخر كمثال:** يُعد العصر العثماني المتأخر مثالاً واضحاً على كيف أدى التخلف العلمي والتقني إلى ضعف الدولة. في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تشهد الثورة العلمية والصناعية، وتطوراً هائلاً في التكنولوجيا (خاصة في صناعة الأسلحة، والملاحة، والإنتاج الصناعي)، كانت الدولة العثمانية تعاني من جمود نسبي في هذه المجالات.
    - **التخلف العسكري والتقني:** كان هذا التخلف واضحاً بشكل خاص في المجال العسكري. بينما كانت الجيوش الأوروبية تطور وتستخدم المدافع والبنادق الحديثة بشكل فعال، ظل الجيش العثماني يعتمد على الأساليب والأسلحة التقليدية لفترة طويلة. عندما حاول العثمانيون تحديث جيشهم، كانوا متأخرين عن الركب، ولم يتمكنوا من اللحاق بالقوى الأوروبية. هذا التخلف العسكري والتقني أثر بشكل مباشر على قدرة الدولة على الدفاع عن حدودها ومواجهة الجيوش الأوروبية الحديثة.
    - **التخلف الصناعي والاقتصادي:** لم تواكب الدولة العثمانية الثورة الصناعية التي حدثت في أوروبا. ظلت تعتمد على الزراعة والتجارة التقليدية كمصادر رئيسية للثروة، بينما كانت الدول الأوروبية تبني اقتصادات صناعية قوية. هذا التخلف الصناعي والاقتصادي أضعف من قدرة الدولة على تمويل جيشها، وتطوير بنيتها التحتية، وتلبية احتياجات سكانها.
- **الربط بضعف الجهاد ووقف الفتوحات:**
    - **العلم كجزء من الجهاد الشامل:** كما ذكرنا في المبحث الأول، كان الجهاد في عصور القوة يشمل بعداً علمياً ومعرفياً هاماً. كان تشجيع العلم والبحث والتطوير جزءاً من "الجهاد الشامل" الذي يضمن حيوية الأمة وقوتها. عندما تراجع هذا الجانب من الجهاد، وضعفت الحركة العلمية والتقنية، أثر ذلك سلباً على قدرة الأمة على ممارسة الجهاد بأبعاده الأخرى.
    - **التخلف العلمي يؤثر على الجهاد العسكري:** أدى التخلف العلمي والتقني مباشرة إلى **تراجع القدرة على الجهاد العسكري الفعال**. لم يعد الجيش العثماني قادراً على مواجهة الجيوش الأوروبية المتفوقة تكنولوجياً بنفس الكفاءة.

- هذا الضعف العسكري، الناتج جزئياً عن التخلف العلمي، أدى إلى **توقف الفتوحات الكبرى** التي كانت سمة العصور السابقة. لم تعد الدولة قادرة على شن حملات هجومية واسعة لتوسيع رقعة دار الإسلام.
- **توقف الفتوحات يؤثر على موارد الجهاد:** كانت الفتوحات في عصور القوة توفر موارد اقتصادية ضخمة (غنائم، ضرائب على الأراضي المفتوحة) كانت تمول الجهاد نفسه وتساهم في ازدهار الدولة. عندما توقفت الفتوحات بسبب ضعف القدرة العسكرية، فقدت الدولة هذا المصدر الهام للتمويل، مما زاد من أزماتها الاقتصادية وأثر على قدرتها على تمويل الجيش وتحديثه، ليصبح حلقة مفرغة من الضعف.
- **التخلف يؤدي إلى فقدان الأراضي (الانكماش):** مع تزايد قوة الدول الأوروبية المتفوقة علمياً وتقنياً وعسكرياً، ومع ضعف الدولة العثمانية في هذه المجالات، لم تعد قادرة على الدفاع عن حدودها المترامية الأطراف. أدى ذلك إلى **فقدان الأراضي** في الحروب المتتالية مع هذه القوى (الانكماش)، مما قلل من موارد الدولة ورقعتها الجغرافية.
- **تراجع الازدهار:** كان الازدهار في عصور القوة مرتبطاً بالتوسع الذي حققه الجهاد (بما في ذلك الجهاد العلمي الذي يدعم التطور الاقتصادي). عندما تراجع الجهاد (بأبعاده المختلفة) وتوقفت الفتوحات وبدأت الدولة تفقد الأراضي، تراجع الازدهار الاقتصادي والحضاري أيضاً.

إذاً، يمكن القول إن التخلف العلمي والتقني في العصور المتأخرة لم يكن مجرد عرض من أعراض ضعف الدولة، بل كان **عاملاً رئيسياً ومسبباً لهذا الضعف**، وارتبط ارتباطاً وثيقاً بتراجع القدرة على ممارسة الجهاد بفعالية، وخاصة الجهاد العسكري والتطويري. هذا التراجع في الجهاد بأبعاده المتكاملة، بما في ذلك البعد العلمي، هو الذي أدى إلى توقف الفتوحات، وفقدان الأراضي (الانكماش)، وتراجع الازدهار، وفي النهاية، سقوط الدولة.

، كان العلم والمعرفة عاملاً حيوياً في بناء الحضارة الإسلامية وازدهارها في عصور القوة، وشكل نوعاً من الجهاد المعرفي الذي دعم قوة الدولة وتأثيرها العالمي. ولكن في العصور المتأخرة، أدى التخلف العلمي والتقني مقارنة بالقوى الأخرى إلى ضعف الدول، وخاصة الدولة العثمانية، وعدم قدرتها على مواكبة العصر ومواجهة التحديات الجديدة. ارتبط هذا التخلف ارتباطاً وثيقاً بتراجع القدرة على ممارسة الجهاد بفعالية، وخاصة الجهاد العسكري والتطويري، مما أدى إلى توقف الفتوحات، وفقدان الأراضي (الانكماش)، وتراجع الازدهار، وساهم بشكل كبير في سقوط الدولة. هذا يؤكد أن العلم والمعرفة ليسا مجرد ترف، بل هما قوة أساسية، والجهاد في سبيل تحصيلهما وتطويرهما ضرورة لبقاء الأمة ونهضتها.

المبحث الرابع: الوحدة والتكاتف في مواجهة التحديات

إلى جانب الجهاد بأبعاده الشاملة، ومبادئ الحكم الراشد كالعدل والشورى والمساواة، والعلم والمعرفة كركيزة حضارية، يبرز عامل آخر لا يقل أهمية في تحديد مسار الدول والأمم: **الوحدة والتكاتف**. إن قوة الأمة وتماسكها الداخلي، وقدرتها على تجاوز الخلافات والاصطفاف في وجه التحديات، كانت دائماً عاملاً حاسماً في فترات النهوض والصمود، بينما كان الانقسام والتشرذم سبباً رئيسياً في الضعف والتراجع والسقوط.

1. كيف كانت وحدة الأمة وتكاتفها عاملاً حاسماً في مواجهة الأخطار الكبرى

في أحلك اللحظات وأشد التحديات التي واجهت الأمة الإسلامية في تاريخها، كانت الوحدة والتكاتف هما مفتاح الصمود والانتصار. عندما توحدت الصفوف وتجاوزت الخلافات، تمكن المسلمون من تحقيق إنجازات عظيمة والتغلب على أخطار كبرى كادت تعصف بكيانهم.

- **حروب الردة:** بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، واجهت الدولة الإسلامية الفتية في المدينة المنورة تحدياً وجودياً تمثل في ارتداد بعض القبائل عن الإسلام وامتناعها عن أداء الزكاة. كان هذا التحدي يهدد بتقويض الدولة الإسلامية من أساسها. في هذه اللحظة الحرجة، تجلت **وحدة الصحابة وتكاتفهم** خلف قيادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. رغم اختلاف وجهات النظر في البداية حول كيفية التعامل مع المرتدين، إلا أن الصحابة اصطفوا خلف قرار أبي بكر الحازم بخوض الجهاد ضد المرتدين. هذه الوحدة والتماسك مكنت الجيش الإسلامي من خوض معارك صعبة في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وإعادة توحيدها تحت راية الإسلام في فترة وجيزة. لولا هذه الوحدة في القيادة والصف، لربما تفككت الدولة الإسلامية في مهدها.
- **الفتوحات الإسلامية الأولى:** كانت الفتوحات الكبرى في عهدي عمر وعثمان إنجازاً هائلاً لم يكن ليتحقق لولا **وحدة القيادة وتكاتف الجيوش** التي انطلقت من المدينة المنورة. كانت الجيوش الإسلامية، رغم قلة عددها مقارنة بجيوش الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، تتمتع بوحدة الصف، والولاء للقيادة، والهدف المشترك (الجهاد في سبيل الله). كان القادة يعملون بتنسيق وتكامل، والجنود يقاتلون بروح واحدة.

- هذه الوحدة في العقيدة والقيادة والهدف مكنتهم من التغلب على جيوش أكبر وأكثر عدداً، وفتح أقاليم واسعة. لم تكن الفتوحات مجرد قوة عسكرية، بل كانت تجسيداً لوحدة أمة تتحرك بهدف واحد.
- **معركة عين جالوت:** في منتصف القرن السابع الهجري، واجه العالم الإسلامي أعظم خطر خارجي في تاريخه الوسيط: الغزو المغولي المدمر. بعد سقوط بغداد واجتياح الشام، كان يبدو أن لا قوة تستطيع إيقاف زحف المغول. في هذه اللحظة العصيبة، تجلت **وحدة الصف بين أمراء المماليك** في مصر، رغم الخلافات الداخلية التي كانت موجودة بينهم. أدرك السلطان سيف الدين قطز والأمير الظاهر بيبرس وبقية الأمراء أن الخطر المغولي يهدد الجميع، وأن بقاء الأمة يتوقف على تكاتفهم. تجاوزوا خلافاتهم واصطفوا تحت راية واحدة لمواجهة المغول. هذه الوحدة في القرار والقيادة والقتال في معركة عين جالوت (658هـ/1260م) هي التي مكنت الجيش المملوكي من الصمود في وجه الهجوم المغولي، وتحقيق النصر التاريخي الذي كسر شوكة المغول وأنقذ قلب العالم الإسلامي. لولا هذا التكاتف في هذه اللحظة الحرجة، لربما كان مصير مصر والشام كغيرها من الأقاليم التي اجتاحها المغول.

2. كيف أدى الانقسام السياسي والمذهبي والعرقي إلى ضعف الأمة وجعلها عرضة للغزو الخارجي

على الجانب الآخر، كان الانقسام والتشرذم، سواء كان سياسياً (تعدد الدول والإمارات)، أو مذهبياً (صراعات بين المذاهب والفرق)، أو عرقياً (العصبيات القبلية والعرقية)، عاملاً رئيسياً في إضعاف الأمة من الداخل، وتفتيت قوتها، وجعلها عرضة للغزو والاحتلال من قبل القوى الخارجية.

- **سقوط بغداد:** في الوقت الذي زحف فيه المغول نحو المشرق الإسلامي، كانت الخلافة العباسية في بغداد تعاني من ضعف شديد وتفتت سياسي. كانت الأقاليم الإسلامية مقسمة إلى دويلات وإمارات مستقلة (مثل الأيوبيين في الشام ومصر، والسلاجقة في الأناضول، وغيرها). لم تكن هناك قيادة مركزية موحدة قادرة على حشد قوى العالم الإسلامي لمواجهة الخطر المغولي المشترك. كانت الدويلات منشغلة بصراعاتها الداخلية أو تنافسها مع بعضها البعض،

- ولم تتعاون بفعالية لمواجهة الغزو. هذا الانقسام والتشرذم هو الذي مكن جيش المغول المنظم والقوي نسبياً من اجتياح الأقاليم الإسلامية تباعاً، وسقوط بغداد بسهولة نسبية، لأنها لم تجد الدعم الكافي من بقية العالم الإسلامي الممزق.
- **سقوط الأندلس:** تُعد قصة سقوط الأندلس مثالاً صارخاً على كيف أدى الانقسام إلى الضعف والسقوط. بعد فترة من القوة والازدهار تحت حكم الدولة الأموية في الأندلس، تفككت الدولة إلى عدد من الممالك الصغيرة المتناحرة تُعرف بـ **"دول الطوائف"**. كانت هذه الممالك تتصارع فيما بينها، وتستعين أحياناً بالممالك المسيحية في الشمال ضد بعضها البعض. استغلت الممالك المسيحية في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية هذا الانقسام والتشرذم الإسلامي لتبدأ في حملات عسكرية متواصلة لانتزاع الأراضي من المسلمين (حركة الاسترداد). كانت هذه الممالك المسيحية، رغم أنها لم تكن أقوى من مجموع دول الطوائف مجتمعة، أكثر وحدة وتنظيماً. هذا الانقسام والتناحر بين دول الطوائف هو الذي مكن الممالك المسيحية من التوسع تدريجياً، حتى سقطت معظم المدن الإسلامية الكبرى، ولم يبقَ للمسلمين سوى مملكة غرناطة التي سقطت في النهاية عام 1492م، لتنتهي بذلك قصة الوجود الإسلامي في الأندلس.
- **ضعف المماليك والعثمانيين في فترات التراجع:** في الفترات المتأخرة من عمر دولة المماليك والدولة العثمانية، ساهمت عوامل الانقسام الداخلية في إضعاف الدولتين وجعلهما عرضة للسقوط.
    - **في دولة المماليك:** كانت الصراعات المستمرة على السلطة بين أمراء المماليك وفصائلهم المختلفة (البحرية والبرجية) سبباً رئيسياً في عدم الاستقرار السياسي وإضعاف الجيش من الداخل. هذا الانقسام الداخلي أثر على قدرة الدولة على مواجهة التحديات الخارجية (مثل الغزو العثماني).
    - **في الدولة العثمانية:** في فترات ضعفها، عانت الدولة العثمانية من تحديات مرتبطة بتنوع قومياتها وأعراقها وأديانها. استغلت القوى الأوروبية هذا التنوع لإثارة النزعات القومية وتشجيع الحركات الانفصالية داخل الدولة، مما أدى إلى تفتت أجزاء من الإمبراطورية. كما أن الصراعات الداخلية على السلطة والفساد في بعض الأحيان أضعف من تماسك الدولة وقدرتها على مواجهة التحديات الخارجية المتزايدة.

العلاقة بين الانقسام والضعف:

إن الانقسام السياسي، والمذهبي، والعرقي يؤدي إلى:

1. **تفتيت القوة:** بدلاً من أن تكون قوة الأمة موحدة وموجهة نحو هدف واحد، تتفتت إلى قوى صغيرة متناحرة تستهلك طاقتها في صراعات داخلية.
2. **ضعف القدرة على المواجهة:** تصبح الكيانات المنقسمة أضعف بكثير من أن تواجه قوة خارجية موحدة ومنظمة. يسهل على العدو أن يهزمها الواحدة تلو الأخرى.
3. **استغلال الأعداء:** يستغل الأعداء حالة الانقسام والتناحر بين المسلمين لتحقيق مصالحهم، سواء كان ذلك بالتحالف مع طرف ضد طرف آخر، أو بالتدخل المباشر في شؤونهم.
4. **فقدان الهيبة:** يؤثر الانقسام على هيبة الأمة ومكانتها في نظر العالم، ويجعلها تبدو ضعيفة وغير قادرة على حماية نفسها ومصالحها.

هذه الآثار السلبية مجتمعة (تفتيت القوة، ضعف القدرة على المواجهة، استغلال الأعداء، فقدان الهيبة) تضعف الأمة بشكل كبير من الداخل والخارج، وتجعلها عرضة للغزو والاحتلال وفقدان السيادة. لم تسقط الدول الإسلامية الكبرى فقط بسبب قوة الأعداء، بل سقطت في كثير من الأحيان لأنها كانت منقسمة وممزقة من الداخل، مما سهل على الأعداء تحقيق أهدافهم.

(والخلاصة)، تظهر مسيرة الدول الإسلامية بوضوح أن الوحدة والتكاتف كانا عاملاً حاسماً في فترات القوة والنهوض والصمود في مواجهة الأخطار الكبرى، بينما كان الانقسام السياسي والمذهبي والعرقي سبباً رئيسياً في الضعف والتراجع وجعل الأمة عرضة للغزو الخارجي وفقدان الأراضي. إن استعادة الوحدة والتكاتف، وتجاوز عوامل الفرقة، يُعد مطلباً أساسياً وأولوية قصوى لأي محاولة جادة للنهوض في واقعنا المعاصر.

بعد رحلتنا عبر صفحات تاريخ الدول الإسلامية الكبرى، وتحليل عوامل قوتها وضعفها، وأسباب نهوضها وسقوطها، نصل الآن إلى محطة التطبيق العملي واستخلاص الدروس المستفادة لواقعنا المعاصر. إن الهدف الأسمى من دراسة التاريخ ليس مجرد المعرفة المجردة، بل هو فهم الماضي للاستنارة به في الحاضر والمستقبل. إن الأمة الإسلامية اليوم تواجه تحديات جسيمة على جميع المستويات، والبحث عن **مفاتيح النهوض** أصبح ضرورة ملحة. هذه المفاتيح ليست جديدة، بل هي كامنة في تاريخنا، وعلينا أن نستلهمها ونكيفها لمواجهة تحديات العصر الحديث.

1. تلخيص لأبرز عوامل النهوض من تاريخ الدول الإسلامية السابقة

من خلال تحليل مسيرة الدول الإسلامية الكبرى التي استعرضناها (الخلافة الراشدة، الأمويون، العباسيون، الفاطميون، المماليك، العثمانيون)، يمكننا استخلاص مجموعة من العوامل المشتركة التي كانت حاضرة بقوة في فترات النهوض والازدهار، وغابت أو ضعفت في فترات التراجع والسقوط. هذه العوامل هي بمثابة **مفاتيح القوة والحيوية** التي مكنت هذه الدول من البناء والتوسع والتأثير:

- **الجهاد الشامل:** كما بيّنا في المبحث الأول، لم يكن الجهاد مقتصراً على القتال، بل كان منهج حياة متكامل يشمل الجهاد العسكري (للدفاع عن دار الإسلام وإزالة العوائق أمام الدعوة)، والجهاد الدعوي (لتبليغ الرسالة بالحكمة)، والجهاد العلمي والمعرفي (لطلب العلم وتطويره وبناء الحضارة)، والجهاد الإداري والتنظيمي (لبناء مؤسسات الدولة القوية والعادلة)، والجهاد الاقتصادي (لتنمية الموارد وتحقيق الرخاء)، وجهاد النفس (للترقي الروحي والأخلاقي). كان تكامل هذه الأبعاد هو الذي يضمن حيوية الأمة وقدرتها على التحدي والبقاء.
- **العدل:** كان تطبيق العدل أساس الحكم الراشد وعاملاً رئيسياً في استقرار الدولة الداخلي ورضا الرعية. العدل في القضاء، في الإدارة، في توزيع الثروات، وفي التعامل مع جميع مكونات المجتمع (مسلمين وغير مسلمين) كان يضمن تماسك المجتمع ويمنع ظهور المظالم التي تؤدي إلى الثورات والاضطرابات.

- **الشورى:** كانت الشورى في اتخاذ القرارات، وخاصة في اختيار الحاكم وإدارة شؤون الدولة في العصور الأولى، تمنح الحكم شرعية، وتزيد من مشاركة الأمة في قيادة شؤونها، وتجنب الاستبداد بالرأي، وتزيد من تلاحم الناس مع قيادتهم.
- **المساواة:** تطبيق مبدأ المساواة بين جميع المسلمين بغض النظر عن أعراقهم أو أصولهم، والمساواة أمام القانون، كان يقضي على العصبيات ويزيد من تماسك المجتمع وشعوره بالانتماء المشترك. كما أن التعامل العادل مع غير المسلمين (أهل الذمة) كان يسهم في استقرار الدولة وتنوعها.
- **العلم والمعرفة:** كان تشجيع العلم والعلماء، والاستثمار في المؤسسات العلمية، والانفتاح على معارف الحضارات الأخرى مع نقدها وتطويرها، عاملاً حيوياً في بناء الحضارة الإسلامية وازدهارها. كان العلم قوة تدعم الدولة في جميع المجالات (العسكرية، الإدارية، الاقتصادية)، وتمنحها مكانة وهيبة عالمية.
- **الوحدة والتكاتف:** كانت وحدة الأمة وتكاتفها خلف قيادة واحدة، وتجاوز الخلافات الداخلية (السياسية، المذهبية، العرقية) في مواجهة الأخطار الخارجية، عاملاً حاسماً في الصمود والانتصار في أحلك اللحظات (مثل حروب الردة، الفتوحات، عين جالوت).

هذه العوامل الستة (الجهاد الشامل، العدل، الشورى، المساواة، العلم، الوحدة) هي بمثابة **مفاتيح النهوض** التي استخلصناها من تاريخ الدول الإسلامية القوية.

2. تحليل لما ينقص الأمة الإسلامية اليوم من هذه العوامل لمواجهة تحديات العصر الحديث

عند مقارنة واقع الأمة الإسلامية اليوم بهذه المفاتيح التاريخية للنهوض، نجد أن هناك نقصاً واضحاً وتحديات كبيرة في تطبيق هذه العوامل بفعالية لمواجهة تحديات العصر الحديث.

- **الجهاد الشامل:**
  - **الجهاد العسكري:** تعاني الأمة اليوم من تفتت القوة العسكرية، وعدم القدرة على توحيد الجيوش، والاعتماد على القوى الخارجية في التسليح والتخطيط في كثير من الأحيان. هناك صراعات مسلحة داخلية بين أبناء الأمة الواحدة، وضعف في القدرة على الدفاع عن الأراضي والمقدسات في مواجهة الاحتلال والعدوان الخارجي. مفهوم الجهاد العسكري أصبح مشوهاً لدى البعض، يُمارس بعنف وتطرف يضر بالأمة أكثر مما ينفعها.

- **الجهاد الدعوي:** رغم وجود جهود دعوية فردية ومؤسسية، إلا أنها تواجه تحديات كبيرة من حيث التنسيق، والفعالية في تبليغ الرسالة السمحة في عصر العولمة ووسائل الإعلام الحديثة، ومواجهة حملات التشويه والعداء ضد الإسلام والمسلمين.
- **الجهاد العلمي والمعرفي:** تعاني الأمة اليوم من تخلف علمي وتقني وصناعي كبير مقارنة بالدول المتقدمة. هناك ضعف في الإنفاق على البحث العلمي والتطوير، وهجرة للعقول والكفاءات، ونظم تعليمية تحتاج إلى تطوير جذري لمواكبة متطلبات العصر. هذا التخلف العلمي يجعل الأمة تابعة للغير في كثير من جوانب الحياة الحديثة.
- **الجهاد الإداري والتنظيمي:** تعاني الكثير من الدول في العالم الإسلامي من ضعف في المؤسسات الإدارية، وانتشار الفساد، والبيروقراطية المعقدة، وسوء الإدارة للموارد. هذا يؤثر على قدرة الدول على تحقيق التنمية، وتوفير الخدمات للمواطنين، والحفاظ على الاستقرار الداخلي.
- **الجهاد الاقتصادي:** تعاني الأمة من التبعية الاقتصادية للقوى الكبرى، وضعف في الإنتاج المحلي، والاعتماد على الموارد الطبيعية (النفط والغاز) بدلاً من بناء اقتصادات متنوعة ومستدامة، وارتفاع معدلات الفقر والبطالة في العديد من الدول.
- **جهاد النفس:** هناك ضعف في التمسك بالقيم والأخلاق الإسلامية في كثير من جوانب الحياة العامة والخاصة، وانتشار للأنانية، وحب الدنيا، والفساد الأخلاقي، مما يؤثر على تماسك المجتمع وقوته المعنوية.

- **العدل، الشورى، والمساواة:**
  - **العدل:** تعاني الكثير من المجتمعات الإسلامية من ضعف في تطبيق العدل في القضاء والإدارة وتوزيع الثروات. هناك مظالم وانتهاكات لحقوق الإنسان في بعض الأحيان، وشعور بعدم المساواة بين المواطنين، مما يولد استياءً شعبياً ويؤثر على الاستقرار الداخلي.

- **الشورى:** غياب المشاركة الشعبية الحقيقية في صناعة القرار، والاستبداد بالرأي في كثير من الأحيان، وعدم وجود آليات فعالة للمساءلة والمحاسبة، يؤثر على شرعية الأنظمة الحاكمة ويضعف من تلاحم الناس مع قياداتهم.
- **المساواة:** رغم أن الإسلام ينص على المساواة، إلا أن هناك تمييزاً على أسس مختلفة (عرقية، مذهبية، طبقية، سياسية) في بعض المجتمعات، مما يؤثر على التماسك الاجتماعي ويولد توترات داخلية.

- **الوحدة والتكاتف:**
  - تعاني الأمة اليوم من **انقسام سياسي ومذهبي وعرقي وجغرافي عميق**. هناك دول متناحرة، وصراعات مذهبية، وعصبيات قومية وعرقية، وتدخلات خارجية تزيد من الفرقة. هذا الانقسام يفتت قوة الأمة، ويجعلها عاجزة عن مواجهة التحديات المشتركة بفعالية، ويجعلها عرضة للاستغلال والتدخل من قبل القوى الخارجية.

باختصار، ما ينقص الأمة الإسلامية اليوم هو **التطبيق الفعال والمتكامل لمفاتيح النهوض التاريخية** في سياق تحديات العصر الحديث. ليس المشكلة في المبادئ نفسها، بل في ضعف القدرة على ترجمتها إلى واقع عملي على مستوى الفرد والمجتمع والدولة.

3. رؤية مستقبلية لكيفية استلهام دروس الماضي لتحقيق النهوض المنشود في العصر الحالي

إن تحقيق النهوض المنشود في العصر الحالي يتطلب **تجديد المسيرة** بناءً على استلهام دروس الماضي وتكييفها مع تحديات الواقع. لا يمكن استنساخ نماذج الماضي بحذافيرها، ولكن يمكن استلهام المبادئ والقيم والآليات التي أدت إلى النهوض في السابق وتطبيقها بروح العصر.

- **تجديد مفهوم الجهاد الشامل:** يجب إعادة فهم وتفعيل مفهوم الجهاد بأبعاده الشاملة في واقعنا المعاصر. هذا يعني:
  - **الجهاد العسكري:** بناء قوة عسكرية موحدة وقادرة على الدفاع عن الأمة وأراضيها ومقدساتها، مع الالتزام بأخلاق الحرب في الإسلام، ونبذ العنف والتطرف الذي يشوه صورة الجهاد.

- **الجهاد الدعوي:** تطوير آليات الدعوة لتصل إلى جميع الناس في عصر العولمة، باستخدام وسائل الإعلام الحديثة، وتقديم صورة الإسلام السمحة والمعتدلة، ومواجهة حملات التشويه بالحجة والبيان.
- **الجهاد العلمي والمعرفي:** الاستثمار الضخم في البحث العلمي والتطوير، وتطوير نظم التعليم لتشجع على الإبداع والتفكير النقدي، ومواكبة التطورات التقنية والصناعية في العالم، والعمل على تحقيق الاكتفاء الذاتي في المجالات الحيوية.
- **الجهاد الإداري والتنظيمي:** العمل على بناء مؤسسات دولة حديثة تتسم بالكفاءة والشفافية والمساءلة، ومحاربة الفساد بكل حزم، وتطبيق القانون على الجميع دون تمييز.
- **الجهاد الاقتصادي:** بناء اقتصادات قوية ومتنوعة ومستدامة، وتشجيع الاستثمار والإنتاج، وتحقيق العدالة في توزيع الثروات، ومكافحة الفقر والبطالة.
- **جهاد النفس:** التركيز على التربية الأخلاقية والروحية للفرد والمجتمع، وتعزيز القيم الإسلامية السمحة، ومكافحة الأنانية وحب الدنيا، وبناء مجتمع متماسك ومتعاون.

- **تطبيق مبادئ العدل والشورى والمساواة:** يجب العمل الجاد على ترسيخ هذه المبادئ في نظم الحكم والمجتمع. هذا يعني:
  - **العدل:** إقامة قضاء مستقل ونزيه، وتطبيق القانون على الجميع، ومكافحة الظلم بجميع أشكاله، وضمان حقوق جميع المواطنين بغض النظر عن انتماءاتهم.
  - **الشورى:** تطوير آليات للمشاركة الشعبية الفعالة في صناعة القرار (بما يتناسب مع طبيعة العصر)، وتعزيز دور المؤسسات التمثيلية، وضمان حرية التعبير والرأي في إطار القيم الإسلامية.
  - **المساواة:** القضاء على جميع أشكال التمييز، وتكافؤ الفرص لجميع المواطنين بناءً على الكفاءة، وتعزيز مبدأ المواطنة المتساوية.
- **تحقيق الوحدة والتكاتف:** يجب العمل على تجاوز عوامل الفرقة والانقسام التي تعاني منها الأمة.

- هذا يعني:
  - **الحوار والتفاهم:** تعزيز الحوار والتفاهم بين مختلف المذاهب والأعراق والقوميات داخل الأمة، ونبذ التعصب والفرقة.
  - **التعاون والتنسيق:** تعزيز التعاون والتنسيق بين الدول الإسلامية في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية لمواجهة التحديات المشتركة.
  - **نبذ التدخلات الخارجية:** العمل على إنهاء التدخلات الخارجية في شؤون الدول الإسلامية، والتي غالباً ما تزيد من الفرقة والانقسام.

إن مفاتيح النهوض موجودة في تاريخنا، ولكن تحقيقها في واقعنا يتطلب إرادة قوية، وقيادة حكيمة، وجهداً متواصلاً على جميع المستويات. يتطلب الأمر ثورة شاملة في العقول والنفوس والمؤسسات. إن استلهام دروس الماضي، وخاصة مفهوم الجهاد بأبعاده الشاملة، وتطبيق مبادئ الحكم الراشد، وتحقيق الوحدة والتكاتف، هو الطريق الوحيد لتحقيق النهوض المنشود في العصر الحالي، واستعادة الأمة لمكانتها التي تستحقها بين الأمم.

المبحث السادس: مفاتيح النهوض اليوم: استخلاص العبر وتجديد المسيرة

بعد أن استعرضنا في الفصول السابقة مسيرة الدول الإسلامية الكبرى، من نشأتها إلى سقوطها، وحللنا في المباحث السابقة من هذا الفصل عوامل القوة والضعف، وأسباب النهوض والسقوط، نصل الآن إلى خلاصة هذه الرحلة التاريخية، ونستخلص منها الدروس والعبر التي لا غنى عنها لأمتنا في سعيها نحو النهوض المنشود في العصر الحالي. إن التاريخ، كما قال ابن خلدون،[153] "خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة هذا العمران من الأحوال، من التوحش والتأنس، والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر، من قيام دولة بعد دولة، وملة بعد ملة، وما ينتحلونه من الأعمال والمكاسب والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال". ودراسة هذا الخبر ليست غاية في ذاتها، بل هي وسيلة لفهم الحاضر واستشراف المستقبل.

من كل ما سبق، ومن تجارب الدول التي مرت بنا، نستخلص حقيقة عميقة، تتكرر عبر العصور، وتؤكدها الأحداث، وهي أن **مفاتيح النهوض الحقيقية للأمة الإسلامية تكمن في ثلاثة عناصر أساسية مترابطة: البحث عن قيادة تطبق الشريعة الإسلامية، وإعلاء راية الجهاد في سبيل الله، وسيادة العدل**. هذه العناصر الثلاثة لم تكن مجرد سمات عابرة في تاريخنا، بل كانت **ركائز أساسية** قامت عليها الدول القوية، وبها ازدهرت، وبغيابها أو ضعفها تراجعت وسقطت. ولن تقوم الأمة ولن تستعيد مكانتها بمجرد الغناء الفاحش، أو البحث خلف ملذات الدنيا، أو التنافس على حطامها، فهذه كلها مظاهر ضعف لا قوة.

أولاً: قيادة تطبق الشريعة الإسلامية:

إن أول مفتاح من مفاتيح النهوض هو وجود قيادة ربانية، واعية، حكيمة، تلتزم بتطبيق شريعة الله عز وجل في حكمها وإدارتها لشؤون الأمة. فالشريعة الإسلامية ليست مجرد مجموعة من العبادات الفردية، بل هي منهج حياة شامل، ودستور كامل ينظم جميع جوانب الحياة، بما في ذلك الحكم، والاقتصاد، والاجتماع، والعلاقات الدولية.

[153] **ابن خلدون:** (1332–1406م) مؤرخ وفيلسوف عربي مسلم، يُعد مؤسس علم الاجتماع، وأشهر أعماله "المقدمة" التي تناول فيها قوانين قيام الدول وسقوطها وتحليل الظواهر الاجتماعية والتاريخية

- **الشريعة مصدر الشرعية والقوة:** في عهد الخلفاء الراشدين، كانت الشريعة هي المرجع الأعلى والأساس الذي يُستمد منه الحكم والتشريع. كان الخلفاء يطبقون أحكام الله في القضاء، والإدارة، وتوزيع الثروات، والتعامل مع الرعية.

- هذا الالتزام بالشريعة منح حكمهم شرعية عظيمة في قلوب المسلمين، وجعل الأمة تلتف حولهم وتطيعهم في المنشط والمكره،[154] لأنهم كانوا يرون فيهم تطبيقاً لشرع الله الذي يؤمنون به. هذه الشرعية المستمدة من الشريعة كانت مصدراً للقوة الداخلية والتماسك.

- **الشريعة إطار للعدل والمساواة:** كما رأينا في المبحث الثاني، فإن مبادئ العدل والمساواة هي جزء لا يتجزأ من الشريعة الإسلامية. القيادة التي تطبق الشريعة تسعى بالضرورة إلى تحقيق العدل بين الرعية، والقضاء على الظلم والتمييز. وهذا بدوره يؤدي إلى رضا الناس، واستقرار المجتمع، ومنع ظهور المظالم التي تثير الثورات والاضطرابات.

- **الابتعاد عن الشريعة يضعف الشرعية ويفتح باب الفساد:** عندما تبتعد القيادة عن تطبيق الشريعة، أو تنتقي منها ما يناسب مصالحها، تفقد حكمها الشرعية في نظر قطاع من الأمة، ويفتح باب للفساد، والظلم، والتمييز، لأن المرجع لم يعد هو شرع الله الثابت، بل أهواء البشر المتغيرة. هذا الضعف في الشرعية والفساد يؤدي إلى استياء شعبي، وصراعات داخلية، وتراجع في تماسك الدولة، كما رأينا في فترات ضعف الدول السابقة.

قال الله تعالى: **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** (المائدة: 44). هذه الآية، وغيرها، تؤكد على وجوب الحكم بما أنزل الله.

قال الإمام مالك رحمه الله: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها". وأول هذه الأمة صلح بتطبيق كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

إن البحث عن قيادة تطبق الشريعة ليس مجرد مطلب ديني، بل هو ضرورة سياسية واجتماعية لبناء دولة قوية ومستقرة وعادلة، تستمد شرعيتها من مرجعيتها الربانية.

---

[154] **وتطيعهم في المنشط والمكره:** أي تلتزم بطاعة ولاة الأمر في جميع الأحوال، سواء في وقت الراحة والرضا (المنشط) أو في وقت الشدة والكراهية (المكره)، ما لم يأمروا بمعصية.

ثانياً: إعلاء راية الجهاد في سبيل الله:

كما بيّنا في المبحث الأول، كان الجهاد، بمعناه الشامل الذي يتجاوز القتال ليشمل جميع مجالات الحياة، هو **الوقود الذي أشعل شرارة الدول الإسلامية، ودفعها نحو التوسع والازدهار، وضمن بقاءها في مواجهة الأخطار**. ولن تقوم الأمة ولن تستعيد مكانتها وهيبتها إلا بإعادة إعلاء راية الجهاد في سبيل الله، وفهمها فهماً صحيحاً شاملاً.

- **الجهاد العسكري: حماية الوجود وإزالة العوائق:** الجهاد القتالي هو فريضة للدفاع عن دار الإسلام، وحماية الأراضي والمقدسات، وإزالة العوائق المادية التي تحول دون وصول دعوة الإسلام إلى الناس. في عصور القوة، كان الجهاد العسكري المنظم والفعال هو الذي مكن المسلمين من بناء إمبراطوريات مترامية الأطراف، والتصدي لأعظم الأخطار (كالمغول والصليبيين). عندما ضعف هذا الجانب من الجهاد، أصبحت الأمة عرضة للغزو وفقدان الأراضي، كما رأينا في أواخر المماليك والعثمانيين.
- **الجهاد العلمي والمعرفي: قوة العقل والحضارة:** الجهاد في طلب العلم ونشره وتطويره هو أساس بناء الحضارة وقوة الأمة في ميادين المعرفة والتكنولوجيا. في العصر العباسي الذهبي، كان هذا الجهاد العلمي هو الذي جعل الحضارة الإسلامية منارة للعالم. في العصر الحديث، أدى التخلف في هذا الجانب إلى ضعف الأمة وعجزها عن مواكبة التطورات العالمية.
- **الجهاد الإداري والاقتصادي: بناء الدولة القوية:** الجهاد في بناء مؤسسات الدولة العادلة والفعالة، ومحاربة الفساد، وتنمية الموارد الاقتصادية، هو الذي يضمن قوة الدولة الداخلية وقدرتها على الصمود.
- **جهاد النفس والدعوة: بناء الفرد والمجتمع:** الجهاد في تزكية النفس والتمسك بالأخلاق الإسلامية، والجهاد في تبليغ الدعوة بالحكمة، هما أساس بناء الفرد المسلم القوي والمجتمع المتماسك الذي يحمل رسالة الإسلام.

قال الله تعالى: **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** (الحج: 78). هذه الآية تأمر بالجهاد الشامل في سبيل الله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: **"الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة"** [155]هذا الحديث يؤكد على استمرارية فريضة الجهاد.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا"** [156]هذا الحديث النبوي الشريف يربط ربطاً مباشراً بين ترك الجهاد والذل الذي يصيب الأمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الجهاد فرض لازم لا بد منه، ومن تركه فقد عصى الله ورسوله".

إن ترك الجهاد، بأبعاده المختلفة، أو ضعفه، يؤدي إلى ذل الأمة، وفقدانها لأراضيها، وتسلط الأعداء عليها، وتراجع مكانتها وهيبتها، كما رأينا في فترات ضعف الدول السابقة. ولن تقوم الأمة ولن تستعيد عزتها إلا بإعادة إعلاء راية الجهاد الشامل، والعمل بمقتضاه في جميع مجالات الحياة.

ثالثاً: سيادة العدل:

العدل هو أساس الملك، وهو الركيزة التي لا يمكن لأي دولة أن تقوم وتستمر بدونها. القيادة التي تطبق الشريعة تسعى إلى العدل، والجهاد يهدف إلى إقامة العدل في الأرض، والعدل هو الذي يضمن استقرار الدولة الداخلي وتماسك المجتمع.

- **العدل أساس الاستقرار ورضا الرعية:** كما رأينا في المبحث الثاني، كان تطبيق العدل في عهد الراشدين هو الذي ضمن رضا الرعية، وشعورهم بالأمن والطمأنينة، وولاءهم للدولة. العدل في القضاء والإدارة وتوزيع الثروات يمنع ظهور المظالم التي تثير الاستياء الشعبي وتؤدي إلى الثورات والاضطرابات الداخلية التي تضعف الدولة من الداخل.
- **الظلم يؤدي إلى الخراب والسقوط:** على العكس، عندما ينتشر الظلم، وتظهر المظالم، ويُفرق بين الناس، يفقد الناس الثقة في السلطة، ويزداد الاستياء، وتظهر المعارضات، مما يؤدي إلى صراعات داخلية تضعف الدولة وتجعلها عرضة للسقوط. قال ابن خلدون: "الظلم مؤذن بخراب العمران".

---

[155] (رواه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الغزو مع أئمة الجور، رقم الحديث 2532. وصححه الألباني).

[156] (رواه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث ابن عمر رضي الله عنهما، رقم الحديث 4915. وقال الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته: صحيح).

- **العدل في التعامل مع الجميع:** العدل المطلوب ليس فقط بين المسلمين، بل بين جميع مكونات المجتمع، مسلمين وغير مسلمين. هذا العدل هو الذي يجعل غير المسلمين يشعرون بالأمن والطمأنينة في ظل الحكم الإسلامي، ويساهم في استقرار الدولة وتنوعها.

قال الله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** (النحل: 90). هذه الآية هي من أجمع الآيات في الأمر بالخير والنهي عن الشر، ويأتي العدل في مقدمة ما أمر الله به.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: **"سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل..."**[157]. هذا الحديث يدل على عظم مكانة الإمام العادل عند الله.

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **"العدل أساس الملك"**. هذه المقولة المأثورة تلخص العلاقة الجوهرية بين العدل وبقاء الدولة وقوتها.

إن سيادة العدل ليست مجرد مطلب أخلاقي، بل هي ضرورة سياسية واجتماعية واقتصادية لبناء دولة قوية ومستقرة، تستمد قوتها من رضا رعيها وتماسك مجتمعها.

الخلاصة النهائية: مفاتيح النهوض في تكامل القيادة، والجهاد، والعدل

من كل ما سبق، نستخلص أن النهوض المنشود للأمة الإسلامية اليوم لن يتحقق بمجرد امتلاك الثروات المادية (الغناء الفاحش)، أو الانغماس في ملذات الدنيا، أو التنافس على حطامها، فهذه كلها مظاهر ضعف وتراجع، كما رأينا في فترات ضعف الدول السابقة التي بدأت تعاني من الترف والفساد وتراجع الروح القتالية.

إن مفاتيح النهوض الحقيقية تكمن في **التكامل بين هذه العناصر الثلاثة الأساسية:**

1. **قيادة ربانية واعية تطبق الشريعة:** تكون مرجعيتها شرع الله، وتسعى لتحقيق مصالح الأمة وفقاً لها، وتستمد شرعيتها من التزامها بالشريعة ورضا الأمة.
2. **إعلاء راية الجهاد في سبيل الله بأبعاده الشاملة:** جهاد عسكري للدفاع عن الأمة، وجهاد علمي ومعرفي للتطور والنهوض، وجهاد إداري واقتصادي للبناء والتنمية، وجهاد دعوي لتبليغ الرسالة، وجهاد نفس لتزكية الفرد والمجتمع.

---

[157] (رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم الحديث 660. ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم الحديث 1031)

3. **سيادة العدل المطلق:** تطبيق العدل بين جميع مكونات المجتمع، والقضاء على الظلم والفساد، وضمان المساواة وتكافؤ الفرص، مما يضمن الاستقرار الداخلي وتماسك المجتمع.

هذه العناصر الثلاثة مترابطة ومتكاملة. القيادة التي تطبق الشريعة هي الأقدر على إعلاء راية الجهاد الشامل وتوجيهه التوجيه الصحيح، وهي الأقدر على إقامة العدل بين الرعية. والجهاد الشامل، عندما يُمارس بفعالية، يوفر للدولة القوة والموارد اللازمة لإقامة العدل وتثبيت أركان الحكم الرشيد. والعدل هو الذي يضمن تماسك المجتمع ورضا الرعية، مما يدعم القيادة ويُعزز من قدرة الأمة على الجهاد.

إن تاريخ الدول الإسلامية هو شاهد على هذه الحقيقة. الدول التي قامت على هذه الأسس، وتمسكت بها في فترات قوتها، ازدهرت وتوسعت وتركت بصمات عظيمة في التاريخ. والدول التي ابتعدت عن هذه الأسس، أو ضعفت في تطبيقها، عانت من الصراعات الداخلية، وفقدان الأراضي، وتراجع المكانة، وسقطت في النهاية.

إن البحث عن قائد يجمع بين هذه الصفات، والعمل على تفعيل الجهاد الشامل في واقعنا، والسعي الدؤوب لإقامة العدل في جميع جوانب الحياة، ليس مجرد أمنيات، بل هي **ضرورات حتمية** لتحقيق النهوض المنشود في العصر الحالي. إن مفاتيح النهوض موجودة في تاريخنا، وعلينا أن نلتقطها، ونستلهمها، ونعمل بها بجد وإخلاص، لعل الله أن يغير حالنا ويُعيد لأمتنا عزتها ومكانتها.

في ختام تحليلنا لمفاتيح النهوض وعوامل السقوط في تاريخ الدول الإسلامية، نقف عند حقيقة جوهرية شكلت دائماً أساس وجود الأمة وقوتها، وهي حقيقة **وحدة الأمة الإسلامية**. هذه الوحدة ليست مجرد رابطة عرقية أو جغرافية، بل هي رابطة عقيدية وإيمانية، نص عليها القرآن الكريم، وشكلت واقعاً تاريخياً ملموساً لقرون طويلة، قبل أن تتعرض لعوامل التفتيت والانقسام التي أدت إلى ما نراه اليوم من ضعف وهوان. إن فهم هذه الوحدة، واستيعاب أسباب تفتتها، هو خطوة أساسية نحو البحث عن سبل النهوض في العصر الحالي.

قال الله تعالى في كتابه العزيز، وهو يصف حال الأمة الإسلامية:

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 92)

هذه الآية الكريمة تحمل دلالة عميقة وواضحة على طبيعة الأمة الإسلامية. إنها ليست أمماً متعددة متفرقة، بل هي **أمة واحدة**. الرابط الذي يجمعها ليس رابط الدم أو الأرض بالدرجة الأولى، بل هو رابط العقيدة والإيمان برب واحد هو الله سبحانه وتعالى، وعبادته وحده لا شريك له. هذه الوحدة هي أساس وجود الأمة، وهي مصدر قوتها وتماسكها.

تفسير الآية عند المفسرين:

لقد تناول المفسرون هذه الآية بالشرح والتوضيح، مؤكدين على معنى الوحدة الإيمانية والعقيدية للأمة الإسلامية.

- **الإمام الطبري في "جامع البيان عن تأويل آي القرآن":** يذكر الطبري أن معنى قوله تعالى "وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً" أي: "وإن هذه ملتكم أيها الناس ملة واحدة، وهي الإسلام". ويقول إن الله يخاطب الأمة الإسلامية، ويخبرهم أن دينهم الذي هم عليه هو دين واحد، لا اختلاف فيه في أصوله وجوهره، وأن ربهم واحد، فيجب عليهم أن يعبدوه وحده. يؤكد الطبري على أن الوحدة هنا هي وحدة الدين والملة.

- **الإمام القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن":** يفسر القرطبي قوله تعالى "وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً" بأنها "دينكم دين واحد، وهو الإسلام". ويضيف أن الأنبياء جميعاً جاءوا بدين واحد في أصوله، وهو التوحيد والإيمان بالله وعبادته. وأن الأمة التي اتبعت هؤلاء الأنبياء هي في الحقيقة أمة واحدة في عقيدتها الأساسية، وإن اختلفت الشرائع في بعض التفاصيل قبل الإسلام. أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهي أمة واحدة في الدين والشرع.
- **الإمام ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم":** يذكر ابن كثير أن معنى الآية "وإنما دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له". ثم يضيف: "ولهذا قال تعالى: (وأنا ربكم فاعبدون) أي: فجميعكم أيها الأنبياء وأممكم، اعبدوني دون من سواي". يؤكد ابن كثير على أن الوحدة هنا هي وحدة الدين الذي جاء به جميع الأنبياء، وأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي امتداد لهذه الأمة الواحدة في عقيدة التوحيد.
- **الإمام السعدي في "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان":** يقول السعدي في تفسيره للآية: "أي: هذه الأمة المذكورة من إبراهيم إلى محمد، كلهم على دين واحد، وملة واحدة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له". ويضيف: "ولهذا قال: (وأنا ربكم فاعبدون) فكما أن ربكم واحد، فاجعلوا عملكم وعبادتكم لربكم الواحد". يؤكد السعدي على أن الوحدة تشمل الأمة الإسلامية الحالية وامتدادها التاريخي في أمم الأنبياء السابقين في أصل الدين.
- **الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره:** يتميز تفسير الشيخ الشعراوي ببساطته وعمقه وربطه بين النص القرآني وواقع الأمة. في تفسيره لهذه الآية، يؤكد الشيخ الشعراوي على أن الأمة الإسلامية هي أمة واحدة لأن إلهها واحد، وقبلتها واحدة، وكتابها واحد، ونبيها واحد. يرى أن هذه الوحدة ليست اختيارية، بل هي حقيقة فرضها الله على الأمة. ويشرح أن الانقسام الذي نراه بين المسلمين اليوم هو انقسام في "الأداء" وليس في "الأمة" نفسها. الأمة في حقيقتها واحدة، ولكن المسلمين قد يختلفون ويتفرقون في تطبيقهم لهذا المنهج الواحد. يحذر الشيخ الشعراوي من خطورة الفرقة والاختلاف، ويؤكد أن قوة الأمة تكمن في وحدتها وتمسكها بما يجمعها.

الوحدة التاريخية للأمة قبل الانقسام:

لقرون طويلة من تاريخ الإسلام، عاشت الأمة الإسلامية واقعاً تاريخياً كان أقرب إلى تجسيد هذه الوحدة التي نصت عليها الآية الكريمة. رغم وجود دول وإمارات متعددة في بعض الفترات (كما رأينا في عصر الدويلات)، إلا أن الشعور بالانتماء إلى **أمة واحدة** كان قوياً وملموساً.

- **الخلافة كرمز للوحدة:** حتى في فترات ضعف الخلافة المركزية، كان وجود خليفة (سواء في بغداد، أو القاهرة، أو استانبول) يمثل رمزاً لوحدة الأمة، ومرجعية دينية وسياسية، وإن كانت صورية في بعض الأحيان. كان المسلمون في جميع أنحاء العالم ينظرون إلى الخليفة كقائد رمزي لهم.
- **وحدة المرجعيات الدينية:** كانت المذاهب الفقهية الكبرى (الحنفية، المالكية، الشافعية، الحنبلية) منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكان العلماء يتنقلون بين الأقطار المختلفة لطلب العلم ونشره. كان هناك وحدة في المرجعيات الدينية الأساسية، رغم وجود بعض الاختلافات الفقهية.
- **وحدة اللغة والثقافة:** كانت اللغة العربية هي لغة العلم والأدب والإدارة في معظم أنحاء العالم الإسلامي، حتى في المناطق غير العربية. هذه اللغة المشتركة ساهمت في وحدة الثقافة والتواصل بين المسلمين.
- **حركة الحج وطلب العلم:** كانت رحلات الحج وطلب العلم تجمع المسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي في مكة والمدينة والمراكز العلمية الكبرى (مثل بغداد والقاهرة ودمشق). هذه التجمعات كانت تعزز من الشعور بالوحدة والانتماء المشترك.
- **التجارة والتواصل:** كانت طرق التجارة البرية والبحرية تربط بين مختلف أقاليم العالم الإسلامي، مما يسهل التواصل بين المسلمين ويعزز من التبادل الاقتصادي والثقافي.

كان هذا الواقع التاريخي، رغم وجود بعض الصراعات السياسية بين الدول، يعكس شعوراً عميقاً بالانتماء إلى **أمة واحدة** تتجاوز الحدود الجغرافية والسياسية. كان المسلم في الأندلس يشعر بالانتماء إلى أخيه المسلم في بلاد ما وراء النهر، والعكس صحيح.

سايكس بيكو وتقسيم الأمة إلى دويلات:

ولكن هذا الواقع التاريخي بدأ يتغير بشكل جذري في العصر الحديث، خاصة بعد ضعف الدولة العثمانية وسقوطها. كان من أبرز عوامل هذا التغيير **اتفاقية سايكس بيكو**.[158]

- **خلفية الاتفاقية:** كانت اتفاقية سايكس بيكو اتفاقية سرية وُقعت في مايو 1916م بين بريطانيا وفرنسا (بموافقة روسيا القيصرية لاحقاً) خلال الحرب العالمية الأولى. كانت تهدف إلى تقسيم مناطق نفوذ الدولة العثمانية في المشرق العربي بعد هزيمتها المتوقعة في الحرب.
- **بنود الاتفاقية وتأثيرها:** نصت الاتفاقية على تقسيم المشرق العربي إلى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية، وإقامة دول أو كيانات سياسية تحت سيطرة هذه القوى الاستعمارية. تم رسم حدود مصطنعة لا تعكس الواقع التاريخي أو الاجتماعي أو العرقي أو المذهبي للمنطقة. تم تقسيم بلاد الشام والعراق إلى دول منفصلة (سوريا، لبنان، العراق، الأردن، فلسطين).
- **نسيان أننا أمة واحدة:** كانت اتفاقية سايكس بيكو، وما تلاها من فرض الانتداب والاحتلال الأوروبي، هي البداية الفعلية لـ **تقسيم العالم الإسلامي في المشرق إلى دويلات قومية** ذات حدود مصطنعة. تم التركيز على الهويات الوطنية والإقليمية الضيقة، وتم إضعاف الشعور بالانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة. عملت القوى الاستعمارية على تعزيز هذه الهويات القومية وإذكاء الخلافات بين أبناء الأمة الواحدة لضمان سيطرتها.

لقد كانت هذه الاتفاقية، وما تلاها من سياسات استعمارية، ضربة قاصمة لوحدة الأمة الإسلامية، وساهمت بشكل كبير في نسيان الكثيرين لحقيقة أنهم **أمة واحدة** يجمعها دين واحد ورب واحد ونبي واحد وقبلة واحدة.

---

[158] **سايكس بيكو:** اتفاقية سرية أبرمت عام 1916 بين بريطانيا وفرنسا (وبموافقة روسيا) لتقسيم أراضي الدولة العثمانية في المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى، ومثّلت بداية رسم الحدود الحديثة للمنطقة.

الأخوة مع فلسطين وغزة وجميع المسلمين:

رغم الانقسامات السياسية والجغرافية التي فرضت على الأمة، إلا أن رابطة **الأخوة الإسلامية** تظل حقيقة إيمانية عميقة، وهي من أقوى الروابط التي تجمع بين المسلمين في جميع أنحاء العالم. هذه الأخوة ليست مجرد شعار، بل هي واجب شرعي ومسؤولية متبادلة بين أبناء الأمة الواحدة.

- **واجب الأخوة:** قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (الحجرات: 10). هذه الآية تؤكد على أن الإيمان هو أساس الأخوة بين المسلمين. هذه الأخوة تقتضي المحبة، والنصرة، والتعاون، والتكافل، والتناصح، والدفاع عن بعضهم البعض.
- **فلسطين وغزة كجزء من الأمة:** إن ما يحدث في فلسطين وغزة اليوم هو مثال صارخ على كيف أن أبناء الأمة الواحدة يتعرضون للظلم والعدوان والحصار. إن المسلمين في جميع أنحاء العالم يشعرون بالألم لما يحدث لإخوانهم في فلسطين وغزة، وذلك بسبب رابطة الأخوة الإيمانية التي تجمعهم. إن نصرة فلسطين وغزة ليست قضية فلسطينية أو عربية فقط، بل هي قضية إسلامية تهم كل مسلم في العالم، وهي واجب تقتضيه الأخوة الإسلامية.
- **الأمة الإسلامية اليوم:** تُقدر أعداد المسلمين في العالم اليوم بحوالي **ملياري نسمة**، منتشرين في جميع قارات العالم. هناك أكثر من **50 دولة ذات أغلبية مسلمة**، بالإضافة إلى وجود أقليات مسلمة كبيرة في العديد من الدول الأخرى. هذه الأمة الضخمة، بأعدادها ومواردها ومواقعها الاستراتيجية، تمتلك إمكانيات هائلة إذا استعادت وحدتها وتكاتفها.

مرحلة الذل والهوان التي نحن فيها:

للأسف الشديد، تعيش الأمة الإسلامية اليوم مرحلة من **الذل والهوان** لم تشهد مثلها في عصور قوتها وازدهارها. تتجلى مظاهر هذا الذل والهوان في:

- **الضعف السياسي والعسكري:** الدول الإسلامية في معظمها ضعيفة سياسياً وعسكرياً، وغير قادرة على حماية نفسها ومصالحها ومقدساتها. هناك تبعية للقوى الكبرى، وتدخلات خارجية في شؤونها الداخلية، وصراعات بينها تزيد من ضعفها.
- **التبعية الاقتصادية:** تعاني الكثير من الدول الإسلامية من التبعية الاقتصادية للقوى الغربية، وضعف في الإنتاج والتنمية، والاعتماد على الموارد الطبيعية التي تُستنزف لصالح الغير.
- **التخلف العلمي والتقني:** هناك فجوة كبيرة بين العالم الإسلامي والدول المتقدمة في مجالات العلم والتكنولوجيا والصناعة. هذا التخلف يجعل الأمة تابعة للغير في جميع جوانب الحياة الحديثة.
- **التفتت والانقسام:** تعاني الأمة من انقسام سياسي ومذهبي وعرقي عميق، يمنعها من التكاتف لمواجهة التحديات المشتركة.
- **فقدان الهيبة والمكانة:** فقدت الأمة الإسلامية الكثير من هيبتها ومكانتها في العالم، وأصبحت قضاياها العادلة تُهمش، وأبناؤها يتعرضون للظلم والاضطهاد في بعض الأحيان دون أن تجد من ينصرها بفعالية.
- **الاحتلال والعدوان:** لا تزال بعض الأراضي الإسلامية محتلة، ويتعرض المسلمون في بعض المناطق للعدوان والقتل والتشريد، كما نرى في فلسطين وغيرها، دون أن تتمكن الأمة من تقديم النصرة الفعالة لهم.

إنّ ما نعيشه اليوم من ذلّ وهوان هو نتيجة مباشرة لنسياننا لحقيقة أنّنا أمة واحدة، ولبُعدنا عن تطبيق المبادئ التي تجمعنا. التي نصت عليها الآية الكريمة ودلت عليها مسيرة الدول الإسلامية القوية. عندما تخلت الأمة عن وحدتها، وتفرقت كلمتها، وضعفت في ممارسة الجهاد الشامل، وابتعدت عن العدل والشورى والمساواة، أصابها الضعف والتراجع، وأصبحت لقمة سائغة للأعداء.

إن الآية الكريمة **﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾** ليست مجرد وصف لحال الأمة، بل هي **توجيه إلهي** بضرورة التمسك بهذه الوحدة، وجعل العبودية لله وحده هي الرابط الذي يجمعها. إن استعادة الوحدة، والعودة إلى تطبيق مبادئ الإسلام الشاملة، وإعلاء راية الجهاد بأبعاده المتكاملة، هي الطريق الوحيد للخروج من مرحلة الذل والهوان، وتحقيق النهوض المنشود، واستعادة الأمة لمكانتها التي تستحقها بين الأمم. إن قوة الأمة في وحدتها، وضعفها في فرقتها.

خلاصة الفصل الثامن: مفاتيح النهوض: ما الذي ينقصنا اليوم؟

في هذا الفصل الختامي من رحلتنا التاريخية، توقفنا عند محطة التأمل واستخلاص العبر من مسيرة الدول الإسلامية الكبرى. لم تكن هذه الرحلة مجرد سرد للأحداث، بل كانت بحثاً في سنن الله في قيام الأمم وسقوطها، وفي عوامل القوة والضعف التي حكمت مسيرة حضارتنا. ومن كل ما استعرضناه في الفصول السابقة، وفي مباحث هذا الفصل الثامن، تتجلى لنا بوضوح **مفاتيح النهوض الحقيقية** التي كانت سبباً في عظمة الأمة في عصورها الذهبية، كما تتضح لنا **أسباب السقوط** التي أدت إلى تراجعها وهوانها.

لقد بيّنا في المبحث الأول كيف كان **الجهاد**، بأبعاده الشاملة (العسكري، الدعوي، العلمي، الإداري، الاقتصادي، جهاد النفس)، هو **ركيزة أساسية** في بناء الدول الإسلامية الأولى، ومحركاً رئيسياً لتوسعها وازدهارها، وضامناً لبقائها في مواجهة الأخطار. ورأينا كيف ارتبط ضعف هذا الجهاد وتراجع فعاليته بالصراعات الداخلية، وتوقف الفتوحات، وفقدان الأراضي، وتراجع قوة الدول وسقوطها.

وفي المبحث الثاني، أكدنا على أن **العدل، والشورى، والمساواة** كانت **أسس الحكم الراشد** وعوامل الاستقرار والقوة الداخلية في عهد الخلفاء الراشدين. وكيف أن الابتعاد عن هذه المبادئ أو ضعف تطبيقها أدى إلى ظهور المظالم، والاستياء الشعبي، والصراعات الداخلية التي أضعفت الدول وساهمت في سقوطها.

كما أشرنا في المبحث نفسه إلى أن ظاهرة **الانقلابات العسكرية**، التي تمثل وصول القوة العسكرية إلى سدة الحكم عن طريق القوة بدلاً من الشرعية المستمدة من الأمة، شكلت عاملاً آخر من عوامل الضعف وعدم الاستقرار، حيث تقوض الشرعية وتثير الصراعات الداخلية وتضعف المؤسسات المدنية.

وفي المبحث الثالث، استعرضنا دور **العلم والمعرفة** كعامل حيوي في بناء الحضارة الإسلامية وازدهارها، وكيف كان تشجيع العلم والعلماء عاملاً في قوة الدولة وتأثيرها العالمي. وبيّنا كيف أدى التخلف العلمي والتقني مقارنة بالقوى الأخرى إلى ضعف الدول وعدم قدرتها على مواكبة العصر ومواجهة التحديات الجديدة، وارتبط ذلك بضعف الجهاد وتوقف الفتوحات.

وفي المبحث الرابع، أكدنا على أن **الوحدة والتكاتف** كانا عاملاً حاسماً في مواجهة الأخطار الكبرى، وكيف أن الانقسام السياسي والمذهبي والعرقي أدى إلى ضعف الأمة وجعلها عرضة للغزو الخارجي وفقدان الأراضي.

وفي المبحث الخامس، لخصنا هذه العوامل كـ **مفاتيح للنهوض**، وحللنا ما ينقص الأمة الإسلامية اليوم من هذه المفاتيح لمواجهة تحديات العصر الحديث، مقدمين رؤية مستقبلية لكيفية استلهام دروس الماضي لتحقيق النهوض.

وفي المبحث السادس، استخلصنا أن مفاتيح النهوض تكمن في تكامل **القيادة الربانية التي تطبق الشريعة، وإعلاء راية الجهاد الشامل، وسيادة العدل المطلق.**

وأخيراً، في المبحث السابع، وقفنا عند حقيقة جوهرية هي أن **الأمة الإسلامية أمة واحدة** كما نص القرآن الكريم: ﴿**وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء: 92). بيّنا كيف كانت هذه الوحدة واقعاً تاريخياً ملموساً لقرون، وكيف جاءت عوامل التفتيت والانقسام، وعلى رأسها اتفاقية سايكس بيكو، لتقسم الأمة إلى دويلات وتضعف الشعور بالانتماء المشترك، مما أدى إلى مرحلة الذل والهوان التي نعيشها اليوم، رغم كثرة عدد المسلمين وانتشارهم في بقاع الأرض.

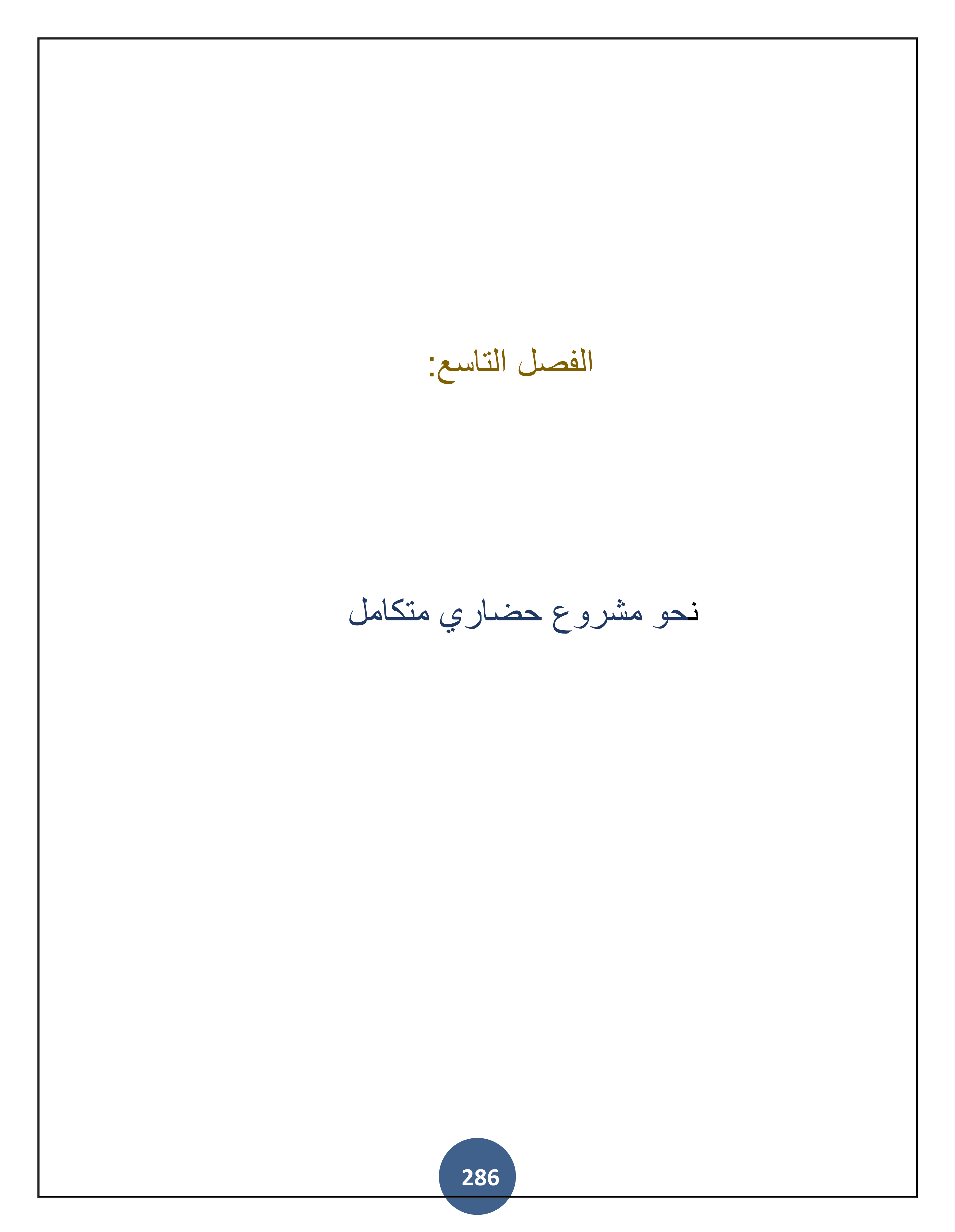
من كل ما سبق، نستلهم أن **النهوض المنشود للأمة الإسلامية اليوم لن يتحقق إلا بالعودة الصادقة إلى هذه المفاتيح التاريخية، وتطبيقها بروح العصر، مع التركيز على نقاط جوهرية:**

1. **وحدة الأمة الإسلامية تحت قائد واحد:** إن تفتت الأمة إلى دويلات متناحرة هو من أبرز أسباب ضعفها وهوانها. إن استعادة الوحدة، ولو في شكل من أشكال التعاون والتكاتف القوي الذي يمهد لوحدة أكبر، تحت قيادة واعية وحكيمة ومستمدة لشرعيتها من الأمة، هو خطوة أساسية نحو استعادة القوة. هذا القائد يجب أن يكون جامعاً للأمة، ساعياً لتوحيد صفوفها وكلمتها.

2. **إعلان الجهاد لتحرير الأقصى وجمع شمل الأمة:** إن قضية فلسطين والقدس والمسجد الأقصى هي قضية مركزية للأمة الإسلامية، وهي تجسيد لمرحلة الذل والهوان التي نعيشها. إن تحرير الأقصى ليس مجرد هدف سياسي، بل هو واجب ديني، وهو رمز لاستعادة الأمة لعزتها ومكانتها. هذا التحرير، وجمع شمل الأمة، لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله، بجميع أبعاده الشاملة: الجهاد العسكري المنظم والموحد لتحرير الأراضي المحتلة، والجهاد السياسي والدبلوماسي، والجهاد الاقتصادي لدعم الصامدين والمقاومين، والجهاد الإعلامي لكشف الحقائق، والأهم من ذلك، جهاد النفس لتربية جيل مؤمن مستعد للتضحية والبذل.

3. **إقامة العدل ودحر الانقلابات والخلافات:** لا يمكن لأي نهوض أن يستمر بدون أساس راسخ من العدل. يجب العمل على إقامة العدل المطلق في جميع جوانب الحياة، والقضاء على الظلم والفساد. كما يجب دحر ظاهرة الانقلابات العسكرية التي تقوض الشرعية وتزرع الفوضى، والعمل على حل الخلافات الداخلية بين أبناء الأمة بالحوار والتفاهم والتناصح، ونبذ التعصب المذهبي والعرقي، وتجاوز المصالح الضيقة لصالح المصلحة العليا للأمة الواحدة.

إن هذه العناصر الثلاثة (القيادة الواحدة، الجهاد الشامل لتحرير الأقصى وجمع الشمل، إقامة العدل ودحر الانقلابات والخلافات) هي بمثابة خارطة طريق للنهوض المنشود. إنها ليست مجرد أمنيات، بل هي واجبات شرعية، وضرورات تاريخية، ومفاتيح أثبتت فعاليتها عبر العصور. إن قوة الأمة في وحدتها وجهادها وعدلها، وضعفها في فرقتها وتخاذلها وظلمها. والعودة إلى هذه الأسس هي الطريق الوحيد للخروج من مرحلة الذل والهوان، واستعادة الأمة لمكانتها التي أرادها الله لها كأمة واحدة، شاهدة على الناس.



الفصل التاسع:

نحو مشروع حضاري متكامل

مقدمة الفصل التاسع: نحو مشروع حضاري متكامل

بعد رحلتنا المعمقة عبر صفحات تاريخ الدول الإسلامية الكبرى، من فجر الإسلام وقيام دولته الأولى، مروراً بعصور القوة والتوسع والازدهار، وصولاً إلى فترات الضعف والتراجع والسقوط، وبعد أن حللنا في الفصل السابق عوامل النهوض والسقوط واستخلصنا منها الدروس والعبر، نصل الآن إلى مرحلة حاسمة ومفصلية في مسار هذا الكتاب. إن استخلاص العبر من التاريخ ليس **غاية في حد ذاته**، بل هو **وسيلة** ضرورية وحيوية. فالتاريخ، بكنوزه من التجارب والخبرات، هو بمثابة المختبر الذي يمكننا من خلاله فهم سنن الله في المجتمعات والأمم، وتحديد مكامن القوة والضعف، ليس من أجل البكاء على الأطلال أو مجرد استعادة أمجاد الماضي، بل من أجل وضع **خطة عمل منهجية وعملية للمستقبل**.

إن الأمة الإسلامية اليوم، بما تملكه من إرث حضاري عظيم، وموارد بشرية ومادية هائلة، وموقع جغرافي استراتيجي، ولكن أيضاً بما تواجهه من تحديات داخلية وخارجية جسيمة، تحتاج حاجة ماسة إلى **النهوض**. وهذا النهوض لا يمكن أن يكون مجرد رد فعل على الأزمات، أو محاولة لتقليد الآخرين، أو الاعتماد على حلول جزئية ومبتورة. إن النهوض الحقيقي يتطلب **مشروعاً حضارياً متكاملاً وشاملاً**، يعيد للأمة حيويتها، ويستعيد دورها الريادي في العالم، ويقدم للبشرية نموذجاً إيجابياً مستمداً من قيم الإسلام الخالدة.

هذا المشروع الحضاري المتكامل يجب أن يعتمد على **دروس الماضي** التي استخلصناها من تجارب الدول الإسلامية السابقة، فيأخذ منها عوامل القوة والنجاح (كالجهاد الشامل، العدل، الشورى، المساواة، العلم، الوحدة)، ويتجنب أسباب الضعف والسقوط (كالظلم، الاستبداد، الانقسام، التخلف العلمي، تراجع الروح الجهادية). كما يجب أن يكون هذا المشروع قادراً على مواجهة **تحديات الحاضر والمستقبل** المعقدة، وأن ينطلق بروح جديدة، تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتستثمر في طاقات الأمة الشابة، وتتبنى الابتكار والإبداع، وتعمل برؤية استراتيجية طويلة المدى.

في هذا الفصل، سنحاول أن نضع ملامح لهذا المشروع الحضاري المتكامل، مقترحين خطة عملية قابلة للتطبيق، تعتمد على البناء من القاعدة، وترسيخ أسس الحكم الرشيد، وقيادة التقدم العلمي والاقتصادي، وتحقيق وحدة الصف، واستعادة الدور الحضاري العالمي. إنها دعوة للعمل والبناء، مستلهمين من تاريخنا العظيم، ومتطلعين إلى مستقبل تستعيد فيه الأمة مكانتها اللائقة بين الأمم، وتؤدي دورها كشاهد على الناس.

إن الحديث عن مشروع حضاري متكامل، وإعادة إحياء دور الأمة عالمياً، واستعادة مكانتها اللائقة بين الأمم، قد يبدو للبعض حلماً بعيد المنال في ظل التحديات الجسيمة التي تواجهها الأمة اليوم. قد ينصب التفكير مباشرة نحو القوة العسكرية، أو النفوذ السياسي الدولي، أو الثروة الاقتصادية الهائلة. ورغم أهمية هذه الجوانب كأركان لأي نهوض، إلا أن التاريخ، وخاصة تاريخنا الإسلامي الذي استعرضناه، يعلمنا درساً أساسياً لا يمكن تجاوزه: **أن أي نهوض حقيقي ومستدام يبدأ من الداخل، ومن القاعدة، من بناء الإنسان، والأسرة، والمجتمع المحلي**. إنها **الثورة الداخلية** التي تسبق أي تغيير خارجي مؤثر، وهي **أساس المشروع الحضاري** الذي نسعى إليه. لا يمكن بناء صرح عظيم على قاعدة هشة أو متصدعة.

إن التركيز على الفرد، والأسرة، والمجتمع المحلي كأول لبنات النهوض ليس تهميشاً لدور الدولة أو القيادة، بل هو إدراك بأن هذه اللبنات هي التي تشكل نسيج الأمة الحقيقي. الدولة القوية لا تُبنى إلا على مجتمع قوي، والمجتمع القوي لا يُبنى إلا على أسر قوية، والأسر القوية لا تُبنى إلا على أفراد أقوياء. لذلك، يجب أن ينطلق مشروعنا الحضاري من هذه القاعدة الصلبة.

1. تفعيل "جهاد النفس" كمنطلق للتغيير الفردي والأخلاقي:

إن أول خطوة في الثورة الداخلية هي **إصلاح الفرد المسلم**. وهذا الإصلاح يبدأ من تفعيل مفهوم **"جهاد النفس"**. جهاد النفس هو أعظم أنواع الجهاد وأصعبها، وهو مجاهدة الإنسان لنفسه الأمارة بالسوء، وتزكيتها، والارتقاء بها لتكون نفساً مطمئنة، ملتزمة بأوامر الله ونواهيه، متحلية بأخلاق الإسلام الفاضلة.

- **الفرد هو اللبنة الأولى:** لا يمكن لمجتمع فاسد أن يُنتج دولة صالحة، ولا يمكن لأسر مفككة أن تُبنى عليها أمة متماسكة. لذلك، يجب أن يكون الفرد هو نقطة الانطلاق. الفرد المسلم القوي هو الذي يجمع بين قوة الإيمان، وسلامة العقيدة، وصحة العبادة، وحسن الخلق، والعلم النافع، والعمل الصالح، والوعي بمسؤولياته تجاه نفسه وأسرته ومجتمعه وأمته.

- **مواجهة الآفات الداخلية:** جهاد النفس يعني مواجهة الآفات الداخلية التي تعصف بالفرد المسلم اليوم، مثل الأنانية، وحب الدنيا، والكسل، واليأس، والإحباط، والتبعية الفكرية والثقافية ، وضعف الوازع الديني، وتراجع القيم الأخلاقية. هذه الآفات تضعف الفرد من الداخل وتجعله عاجزاً عن المساهمة الفعالة في بناء مجتمعه وأمته.
- **التزكية والتربية:** يتطلب تفعيل جهاد النفس برامج مكثفة للتزكية والتربية الإيمانية والأخلاقية، تعتمد على فهم صحيح للإسلام، وتطبيق عملي لتعاليمه في الحياة اليومية. يجب أن تُركز هذه البرامج على بناء الشخصية المسلمة المتوازنة، التي تجمع بين الالتزام الديني، والكفاءة الدنيوية، والوعي بمسؤولياتها الحضارية.
- **العلم النافع:** جهاد النفس يتطلب أيضاً طلب العلم النافع، سواء كان علماً شرعياً يُبصر الفرد بدينه ومسؤولياته، أو علماً دنيوياً يُمكنه من المساهمة في بناء مجتمعه وتطويره. الجهل هو أرض خصب للآفات الداخلية والتبعية الخارجية.

إن الفرد المسلم الذي نجح في جهاد نفسه هو القادر على أن يكون لبنة صالحة في بناء الأسرة والمجتمع، وهو القادر على حمل مسؤوليات المشروع الحضاري والمساهمة فيه بفعالية وإخلاص.

2. بناء الأسرة المسلمة الواعية والمنتجة:

الأسرة هي النواة الأساسية للمجتمع، وهي المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الفرد قيمه وأخلاقه ويتشكل وعيه. لا يمكن لأي مشروع حضاري أن ينجح إذا كانت الأسرة مفككة أو ضعيفة أو غير قادرة على أداء دورها التربوي والاجتماعي. لذلك، يجب أن يكون بناء الأسرة المسلمة الواعية والمنتجة ركيزة أساسية في خطة النهوض.

- **الأسرة هي الحصن:** في عصر التحديات الفكرية والثقافية التي تواجه الأمة، تُعد الأسرة المسلمة الواعية هي الحصن الأول الذي يحمي الأبناء من الانحرافات الفكرية والأخلاقية، ويغرس فيهم قيم الإسلام ومبادئه، ويعزز فيهم الانتماء للأمة.
- **التربية الإيمانية والأخلاقية:** يجب أن تُركز الأسرة على التربية الإيمانية والأخلاقية للأبناء، وتعليمهم القرآن الكريم والسنة النبوية، وغرس حب الله ورسوله في قلوبهم، وتربيتهم على الصدق، والأمانة، والبر، والإحسان، والمسؤولية.
- **الوعي بالتحديات:** يجب أن تكون الأسرة واعية بالتحديات التي تواجه الأمة، وقادرة على تحصين الأبناء ضد الأفكار الهدامة، والشبهات، وحملات التشويه ضد الإسلام.

- **الإنتاجية والمساهمة:** يجب أن تكون الأسرة المسلمة ليست مجرد وحدة استهلاكية، بل وحدة منتجة ومساهمة في بناء المجتمع. يمكن للأسرة أن تساهم في الإنتاج الاقتصادي (خاصة في المشاريع الصغيرة والمتوسطة)، وفي العمل التطوعي، وفي نشر الوعي، وفي رعاية الأيتام والمساكين، وفي غرس حب العمل والإنتاج في الأبناء.
- **الترابط الأسري:** يجب تعزيز الروابط الأسرية، واحترام الوالدين، وصلة الأرحام، والتكافل بين أفراد الأسرة، فهذه كلها عوامل تزيد من تماسك المجتمع ككل.

إن بناء أسرة مسلمة واعية، قادرة على التربية السليمة، ومساهمة في بناء المجتمع، هو استثمار حقيقي في مستقبل الأمة، وهو أساس لا غنى عنه لأي مشروع حضاري.

3. تعزيز دور المؤسسات المجتمعية في التربية والتكافل والتنمية المحلية:

إلى جانب الفرد والأسرة، يلعب المجتمع المحلي ومؤسساته دوراً حيوياً في بناء القاعدة الصلبة للمشروع الحضاري. في كثير من الأحيان، تكون المؤسسات المجتمعية (غير الحكومية) أكثر قرباً من الناس وأكثر قدرة على تلبية احتياجاتهم المباشرة والمساهمة في تنمية مجتمعاتهم المحلية.

- **المساجد:** المسجد هو قلب المجتمع المسلم، ولم يكن دوره في التاريخ مقتصراً على العبادة فحسب، بل كان مركزاً للتعليم، والتربية، والاجتماع، وحل المشكلات، وتعبئة الطاقات. يجب إعادة تفعيل دور المسجد ليكون منارة للعلم الشرعي والتربية الإيمانية، ومركزاً للأنشطة المجتمعية الهادفة، ومكاناً لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم على المستوى المحلي.
- **الجمعيات الخيرية والمؤسسات الإغاثية:** تلعب هذه المؤسسات دوراً حيوياً في تحقيق التكافل الاجتماعي، ورعاية الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل، وتقديم المساعدات الإغاثية في أوقات الأزمات والكوارث. يجب دعم هذه المؤسسات وتطويرها لتكون أكثر فعالية وشفافية وقدرة على الوصول إلى المستحقين.
- **المؤسسات التعليمية الأهلية (المدارس والجامعات):** يمكن للمؤسسات التعليمية الأهلية التي تلتزم بالمنهج الإسلامي الصحيح أن تلعب دوراً مهماً في تقديم تعليم نوعي يجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويربي جيلاً واعياً ومؤهلاً علمياً وأخلاقياً، وقادراً على الإسهام في نهضة الأمة. يجب دعم هذه المؤسسات وتشجيعها وتطوير مناهجها لتواكب متطلبات العصر.

- **المؤسسات التنموية المحلية:** يمكن للمؤسسات المجتمعية أن تساهم في مشاريع التنمية المحلية، مثل توفير فرص العمل، ودعم المشاريع الصغيرة، وتطوير البنية التحتية المحلية، ونشر الوعي الصحي والبيئي، وحل المشكلات الاجتماعية على المستوى المحلي.
- **دور الأوقاف:** يمكن تفعيل دور الأوقاف الإسلامية لدعم هذه المؤسسات المجتمعية وتمويل أنشطتها، كما كان الحال في عصور الازدهار حيث لعبت الأوقاف دوراً كبيراً في دعم التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية.

إن تعزيز دور هذه المؤسسات المجتمعية، وتوفير الدعم اللازم لها، وتنسيق جهودها، هو استثمار في بناء القاعدة المجتمعية الصلبة التي لا غنى عنها لأي مشروع نهضوي.

4. نشر الوعي بأهمية العمل والإنتاج والإتقان كجزء من المشروع الحضاري:

لا يمكن لأي حضارة أن تقوم وتزدهر بدون عمل جاد، وإنتاج فعال، وإتقان في جميع المجالات. لقد كان العمل والإنتاج والإتقان من القيم الأساسية في الحضارة الإسلامية في عصور قوتها. يجب إعادة غرس هذه القيم في نفوس أبناء الأمة، واعتبارها جزءاً لا يتجزأ من المشروع الحضاري والجهاد الشامل.

- **العمل عبادة:** يجب التأكيد على أن العمل الصالح، الذي يهدف إلى عمارة الأرض وتحقيق مصالح الناس، هو عبادة يُثاب عليها المسلم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: **"لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه"**[159] هذا الحديث يحث على العمل والكسب الحلال والتعفف عن المسألة.
- **الإنتاج بدلاً من الاستهلاك:** تعاني الأمة اليوم من كونها أمة استهلاكية بالدرجة الأولى، تعتمد على استيراد معظم احتياجاتها من الخارج. يجب تحويل الأمة من أمة مستهلكة إلى أمة منتجة، قادرة على تلبية احتياجاتها الأساسية، والمساهمة في الإنتاج العالمي. يتطلب ذلك تشجيع الصناعة، والزراعة، والتجارة، والاستثمار في المشاريع الإنتاجية.
- **الإتقان والجودة:** الإتقان في العمل هو من تعاليم الإسلام الأساسية. قال النبي صلى الله عليه وسلم: **"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"**[160]

---

[159] (رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم الحديث 1471).
[160] (رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في المعاش، رقم الحديث 5312. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم الحديث 1807).

- يجب إعادة غرس ثقافة الإتقان والجودة في جميع مجالات العمل، سواء كان عملاً يدوياً، أو فكرياً، أو إدارياً، أو فنياً.
- **ريادة الأعمال والابتكار:** يجب تشجيع ريادة الأعمال والابتكار في جميع المجالات، وتوفير البيئة المناسبة للشباب المسلم لإنشاء مشاريع جديدة، وتطوير أفكار مبتكرة، والمساهمة في التقدم الاقتصادي والتقني للأمة.
- **العمل التطوعي:** العمل التطوعي في خدمة المجتمع، والمساهمة في المشاريع الخيرية والتنموية، هو أيضاً جزء هام من العمل الصالح والمساهمة في بناء المشروع الحضاري.

إن نشر الوعي بأهمية العمل والإنتاج والإتقان، وتوفير الفرص للشباب المسلم للمساهمة في هذه المجالات، هو استثمار في بناء القوة الاقتصادية والاجتماعية للأمة، وهو أساس لا غنى عنه لأي نهوض حقيقي.

خلاصة المبحث:

إن هذا المبحث يركز على **البناء من القاعدة**، وهو **أساس أي مشروع حضاري متكامل**. لا يمكن للأمة أن تنهض وتستعيد مكانتها إذا كان الفرد ضعيفاً، والأسرة مفككة، والمجتمع المحلي مهمشاً، وقيم العمل والإنتاج والإتقان غائبة. إن الثورة الداخلية، التي تبدأ من جهاد النفس، وتنتقل إلى بناء الأسرة الواعية والمنتجة، وتعزيز دور المؤسسات المجتمعية في التربية والتكافل والتنمية المحلية، ونشر الوعي بأهمية العمل والإنتاج والإتقان، هي الخطوة الأولى والأهم في مسار النهوض. إنها القاعدة الصلبة التي سيُبنى عليها صرح المشروع الحضاري المتكامل. بدون هذه القاعدة المتينة، ستظل أي محاولة للنهوض مجرد جهود سطحية أو ردود فعل مؤقتة، لن تؤدي إلى التغيير الجذري والمستدام الذي تحتاجه الأمة. إن العودة إلى بناء الإنسان والمجتمع، بروح إسلامية أصيلة وواعية بمتطلبات العصر، هو مفتاح البدء في تجديد المسيرة نحو المستقبل المنشود.

المبحث الثاني: إرساء قواعد الحكم الرشيد والعدل: بيئة النهوض المستقرة

إذا كانت الثورة الداخلية وبناء المجتمع من القاعدة هما الأساس الذي لا غنى عنه لأي مشروع حضاري، فإن هذا الأساس يحتاج إلى بيئة حاضنة مستقرة وعادلة لكي ينمو ويزدهر. هذه البيئة لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال **إرساء قواعد الحكم الرشيد والعدل**. لقد تعلمنا من تاريخ الدول الإسلامية أن قوة الدولة واستقرارها الداخلي لا تُقاس فقط بقوتها العسكرية أو ثروتها الاقتصادية، بل بمدى التزامها بالمبادئ الإسلامية في الحكم والإدارة، وبقدرتها على تحقيق العدل بين الرعية، وضمان مشاركتهم في شؤونهم، ومحاربة الفساد الذي ينخر في جسد الدولة والمجتمع. إن بناء هذه البيئة السياسية والإدارية المستقرة والعادلة هو ركيزة أساسية في مشروع النهوض المتكامل.

1. العمل على تطبيق مبادئ العدل، والشورى، والمساواة في نظم الحكم والإدارة المعاصرة

إن مبادئ العدل، والشورى، والمساواة ليست مجرد مفاهيم نظرية أو قيم أخلاقية فحسب، بل هي أسس عملية يجب أن تُترجم إلى نظم حكم وإدارة فعالة في واقعنا المعاصر. لقد كانت هذه المبادئ هي التي بنت قوة الدولة الإسلامية الأولى، وكان الابتعاد عنها سبباً في ضعف الدول اللاحقة. لذلك، فإن أي مشروع نهضوي جاد يجب أن يضع تطبيق هذه المبادئ في صلب أولوياته.

- **تطبيق العدل في العصر الحديث:** العدل يعني إعطاء كل ذي حق حقه، وتطبيق القانون على الجميع دون تمييز، ومحاربة الظلم بجميع أشكاله. في نظم الحكم والإدارة المعاصرة، يتطلب تطبيق العدل ما يلي:
  - **المساواة أمام القانون:** يجب أن يكون جميع المواطنين، حكاماً ومحكومين، أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، سواسية أمام القانون. لا حصانة لأحد فوق القانون، ولا تمييز في تطبيقه.
  - **العدل في توزيع الحقوق والواجبات:** يجب أن تُوزع الحقوق (كالحق في التعليم، والصحة، والعمل، والعيش الكريم) والواجبات (كالضرائب، والخدمة الوطنية) بعدل وإنصاف بين جميع المواطنين، دون تمييز على أساس العرق، أو الدين، أو الجنس، أو الطبقة الاجتماعية، أو الانتماء السياسي.

- **العدل في الإدارة:** يجب أن تتسم الإدارة العامة بالشفافية، والنزاهة، والكفاءة، والبعد عن المحسوبية والواسطة. يجب أن تُمنح الفرص في الوظائف والمناصب بناءً على الكفاءة والجدارة، لا على أساس الولاء الشخصي أو الانتماءات الضيقة. يجب أن تكون الإجراءات الإدارية واضحة ومبسطة، وأن تُعامل جميع المراجعين بعدل واحترام.
- **العدل في توزيع الثروات والموارد:** يجب أن تُدار ثروات البلاد ومواردها بعدل وشفافية، وأن تُوجه لخدمة مصالح جميع المواطنين، لا لمصلحة فئة قليلة. يجب أن تُكافح الاحتكارات والاستغلال، وأن تُوضع سياسات اقتصادية تهدف إلى تحقيق التنمية الشاملة وتقليل الفجوات بين الطبقات.
- **العدل في التعامل مع غير المسلمين:** يجب أن يُعامل غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية بعدل وإنصاف، وأن تُصان حقوقهم الشرعية، وأن يُسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية بحرية في إطار القانون. هذا العدل في التعامل مع الأقليات هو من صميم تعاليم الإسلام، وهو عامل أساسي في استقرار المجتمع وتماسكه.

- **تطبيق الشورى في العصر الحديث:** الشورى هي استشارة أهل الرأي والخبرة في الأمور التي تهم الأمة. في نظم الحكم المعاصرة، يمكن تطبيق مبدأ الشورى من خلال آليات ومؤسسات متنوعة:
  - **المجالس التمثيلية المنتخبة:** يمكن أن تُجسد المجالس النيابية أو البرلمانات المنتخبة إرادة الأمة وتعبر عن رأيها في القضايا الهامة. يجب أن تكون هذه المجالس حقيقية، تتمتع بسلطة تشريعية ورقابية فعالة، وأن تُجرى انتخاباتها بنزاهة وشفافية.
  - **المؤسسات الاستشارية المتخصصة:** يمكن إنشاء مجالس ومؤسسات استشارية تضم خبراء ومتخصصين في مختلف المجالات لتقديم المشورة للحكومة في القضايا الفنية والاقتصادية والاجتماعية.
  - **استطلاع الرأي العام:** يمكن استخدام وسائل استطلاع الرأي العام الحديثة للتعرف على توجهات الرأي العام في القضايا الهامة، وأخذها في الاعتبار عند اتخاذ القرارات.

- **حرية التعبير والإعلام:** يجب أن تُكفل حرية التعبير والإعلام المسؤولة، في إطار القيم الإسلامية، لتمكين المواطنين من التعبير عن آرائهم ومناقشة القضايا العامة، مما يُعد جزءاً أساسياً من الشورى المجتمعية.
- **المشاركة الشعبية في صنع القرار:** يجب تطوير آليات لزيادة مشاركة المواطنين في صنع القرار على المستوى المحلي والوطني، من خلال اللجان الشعبية، والمجالس المحلية المنتخبة، والجمعيات الأهلية.

- **تطبيق المساواة في العصر الحديث:** المساواة تعني أن جميع المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات أمام القانون، بغض النظر عن أعراقهم، أو أصولهم، أو ألوانهم، أو طبقاتهم الاجتماعية. في العصر الحديث، يتطلب تطبيق المساواة ما يلي:
  - **المساواة في المواطنة:** يجب أن يُعامل جميع المواطنين على قدم المساواة في الحقوق والواجبات، وأن يكون الانتماء للوطن هو الأساس الذي يجمعهم، دون تمييز على أساس الانتماءات الفرعية.
  - **تكافؤ الفرص:** يجب أن تُتاح الفرص للجميع على قدم المساواة في التعليم، والصحة، والعمل، والمشاركة السياسية، بناءً على الكفاءة والجدارة، لا على أساس المحسوبية أو الانتماءات الضيقة.
  - **مكافحة التمييز:** يجب سن قوانين وسياسات تُكافح جميع أشكال التمييز (العنصري، الديني، المذهبي، الجنسي، الطبقي) في جميع مجالات الحياة.
  - **العدالة الاجتماعية:** المساواة لا تعني بالضرورة التطابق الكامل في الدخل أو الثروة، ولكنها تعني توفير حد أدنى من الحياة الكريمة للجميع، وتقليل الفجوات الكبيرة بين الطبقات، وتوفير شبكات الأمان الاجتماعي للمحتاجين.

2. مكافحة الفساد بجميع أشكاله كأولوية قصوى

يُعد الفساد من أخطر الأمراض التي تنخر في جسد الدول والمجتمعات، ويقوض أسس الحكم الرشيد والعدل. لقد كان الفساد عاملاً رئيسياً في ضعف وسقوط العديد من الدول الإسلامية عبر التاريخ. لذلك، فإن مكافحة الفساد بجميع أشكاله يجب أن تكون **أولوية قصوى** في أي مشروع نهضوي.

- **أشكال الفساد:** يتخذ الفساد أشكالاً متعددة، منها:
  - **الفساد المالي:** مثل الرشوة، والاختلاس، والتهرب الضريبي، وغسيل الأموال، والاستيلاء على المال العام.
  - **الفساد الإداري:** مثل المحسوبية، والواسطة، وسوء استخدام السلطة، والتلاعب بالإجراءات، وتأخير المعاملات لتحقيق مصالح شخصية.
  - **الفساد السياسي:** مثل شراء الذمم، والتزوير في الانتخابات، واستغلال النفوذ لتحقيق مكاسب سياسية غير مشروعة، والتحكم في القضاء والإعلام لخدمة مصالح فئة حاكمة.
  - **الفساد الأخلاقي:** مثل انتشار الرذيلة، وتراجع القيم الأخلاقية في المجتمع، وضعف الوازع الديني.
- **آثار الفساد المدمرة:** يؤدي الفساد إلى آثار مدمرة على الدولة والمجتمع:
  - **إضعاف الدولة:** يقوض الفساد أسس الدولة، ويضعف مؤسساتها، ويقلل من كفاءتها، ويجعلها عاجزة عن أداء مهامها.
  - **تراجع الاقتصاد:** يؤثر الفساد سلباً على الاقتصاد، حيث يقلل من الاستثمار، ويزيد من التكاليف، ويُعيق التنمية، ويؤدي إلى هجرة رؤوس الأموال.
  - **انتشار الظلم والاستياء:** يؤدي الفساد إلى انتشار الظلم والمظالم، حيث تُمنح الحقوق لغير مستحقيها، وتُهدر موارد الدولة، مما يولد استياءً شعبياً عميقاً وفقداناً للثقة في السلطة.
  - **تفكك المجتمع:** يقوض الفساد القيم الأخلاقية في المجتمع، ويزيد من الفوارق بين الطبقات، ويؤدي إلى تفكك النسيج الاجتماعي.

- **ضعف القدرة على الجهاد:** الفساد يستنزف موارد الدولة ويضعف من تماسك جيشها ومؤسساتها، مما يؤثر سلباً على قدرتها على ممارسة الجهاد بأبعاده المختلفة.

- **مكافحة الفساد كأولوية:** يجب أن تكون مكافحة الفساد عملية شاملة ومستمرة، تتطلب إرادة سياسية حقيقية من أعلى مستوى في الدولة، وتفعيل دور المؤسسات الرقابية (مثل هيئات مكافحة الفساد، والجهاز المركزي للمحاسبات)، وتعزيز استقلال القضاء، وتفعيل دور المجتمع المدني والإعلام في كشف الفساد ومحاسبة الفاسدين، وسن قوانين رادعة تجرم الفساد بجميع أشكاله. يجب أن تكون هناك ثقافة مجتمعية ترفض الفساد وتُحاربه.

3. تعزيز سيادة القانون واستقلال القضاء

إن سيادة القانون واستقلال القضاء هما حجر الزاوية في بناء بيئة النهوض المستقرة والعادلة. لا يمكن تحقيق العدل والمساواة ومكافحة الفساد بدون نظام قانوني قوي ونظام قضائي نزيه ومستقل.

- **سيادة القانون:** تعني أن القانون هو المرجع الأعلى في الدولة، وأن الجميع يخضعون له، حكاماً ومحكومين. لا أحد فوق القانون. يتطلب تعزيز سيادة القانون ما يلي:
  - **وضوح القوانين وثباتها:** يجب أن تكون القوانين واضحة، ومفهومة، ومستقرة، وغير متضاربة، وأن تُنشر ليطلع عليها الجميع.
  - **تطبيق القانون على الجميع:** يجب أن يُطبق القانون على جميع المواطنين دون تمييز أو استثناء، مهما كانت مكانتهم أو نفوذهم.
  - **احترام القانون:** يجب أن تُغرس ثقافة احترام القانون في المجتمع، وأن يُنظر إليه كأداة لتحقيق العدل والنظام، لا كقيد على الحريات.

- **استقلال القضاء:** يعني أن القضاء مستقل عن السلطتين التنفيذية والتشريعية، وأن القضاة لا يخضعون لأي ضغوط أو تأثيرات عند إصدار أحكامهم. يتطلب تعزيز استقلال القضاء ما يلي:

- **حصانة القضاة:** يجب أن يتمتع القضاة بالحصانة التي تحميهم من أي ضغوط أو تهديدات تؤثر على نزاهتهم واستقلالهم.
- **عدم التدخل في عمل القضاء:** يجب أن تمتنع السلطتان التنفيذية والتشريعية عن التدخل في عمل القضاء أو التأثير على أحكامه.
- **ضمانات المحاكمة العادلة:** يجب أن تُكفل جميع ضمانات المحاكمة العادلة للمتقاضين، بما في ذلك الحق في الدفاع، والمساواة أمام المحكمة، والعلنية في الجلسات.
- **تأهيل القضاة:** يجب أن يتم اختيار القضاة بناءً على الكفاءة والنزاهة، وتوفير التدريب المستمر لهم، وضمان حصولهم على رواتب ومزايا تليق بمكانتهم وتُبعدهم عن الحاجة.

إن تعزيز سيادة القانون واستقلال القضاء هو ضمانة أساسية لتحقيق العدل، وحماية الحقوق والحريات، ومكافحة الفساد، وتوفير بيئة مستقرة وجاذبة للاستثمار والتنمية.

4. تطوير آليات للمشاركة الشعبية الفعالة والمساءلة

إن الحكم الرشيد لا يقوم على الاستبداد، بل على مشاركة الأمة في شؤونها، ومساءلة المسؤولين عن أدائهم. لذلك، يجب تطوير آليات للمشاركة الشعبية الفعالة والمساءلة لضمان أن يكون الحكم معبراً عن إرادة الأمة ومسؤولاً أمامها.

- **المشاركة الشعبية الفعالة:** يمكن تحقيق المشاركة الشعبية من خلال آليات متنوعة:
  - **الانتخابات النزيهة والشفافة:** يجب أن تُجرى الانتخابات في جميع المستويات (البرلمانية، المحلية، الرئاسية إذا كانت الأنظمة تسمح بذلك) بنزاهة وشفافية كاملة، وأن تُكفل حرية الترشح والانتخاب، وأن تُحترم نتائجها.
  - **تعزيز دور المجتمع المدني:** يجب تشجيع قيام منظمات المجتمع المدني المستقلة (الجمعيات، النقابات، المؤسسات الأهلية) التي تعبر عن مصالح فئات مختلفة من المجتمع وتساهم في التنمية والمراقبة.
  - **حرية تكوين الأحزاب السياسية:** يجب أن تُكفل حرية تكوين الأحزاب السياسية التي تعبر عن توجهات سياسية مختلفة في إطار القانون والقيم الإسلامية، وأن تُتاح لها الفرصة للمشاركة في الحياة السياسية.

- **الاستفتاءات الشعبية:** يمكن اللجوء إلى الاستفتاءات الشعبية في القضايا المصيرية التي تهم الأمة لاتخاذ القرارات بناءً على إرادة الشعب.

- **المساءلة والمحاسبة:** يجب أن يكون المسؤولون، من أعلى مستوى إلى أدنى مستوى، مسؤولين أمام الأمة عن أدائهم، وأن يُحاسبوا على أي تقصير أو تجاوز أو فساد. يتطلب تحقيق المساءلة ما يلي:
  - **دور رقابي فعال للمجالس التمثيلية:** يجب أن تتمتع المجالس النيابية بسلطة رقابية حقيقية على الحكومة ومؤسسات الدولة، وأن يكون لها الحق في استجواب المسؤولين وسحب الثقة منهم إذا لزم الأمر.
  - **دور رقابي للمؤسسات المستقلة:** يجب أن تتمتع المؤسسات الرقابية المستقلة (مثل هيئات مكافحة الفساد، والأجهزة الرقابية المالية) بالصلاحيات اللازمة لمراقبة أداء الحكومة والمؤسسات ومحاسبة المقصرين والفاسدين.
  - **دور رقابي للإعلام:** يجب أن يتمتع الإعلام بالحرية المسؤولة في كشف الفساد والتقصير، ومناقشة القضايا العامة، ونقل صوت المواطنين إلى المسؤولين.
  - **حق المواطنين في التظلم والشكوى:** يجب أن تُتاح للمواطنين آليات فعالة للتظلم والشكوى من أي ظلم أو تجاوز يتعرضون له، وأن تُنظر في شكواهم بجدية ونزاهة.

إن تطوير آليات للمشاركة الشعبية الفعالة والمساءلة هو ضمانة أساسية لضمان أن يكون الحكم معبراً عن إرادة الأمة ومسؤولاً أمامها، وللحيلولة دون الاستبداد والفساد، ولتعزيز ثقة المواطنين في مؤسسات دولتهم.

5. نبذ الانقلابات العسكرية والحلول غير الشرعية، والعمل على الانتقال السلمي للسلطة

لقد أظهر تاريخ الدول الإسلامية، وخاصة في فترات ضعفها، أن ظاهرة الانقلابات العسكرية والحلول غير الشرعية للانتقال السلطة كانت عاملاً رئيسياً في زعزعة الاستقرار، وإضعاف الدولة، وإثارة الصراعات الداخلية. لذلك، فإن أي مشروع نهضوي جاد يجب أن ينبذ هذه الظاهرة بشكل قاطع، وأن يعمل على ترسيخ مبدأ الانتقال السلمي للسلطة وفقاً لآليات شرعية ودستورية.

- **خطورة الانقلابات العسكرية:** كما بيّنا في المبحث السابق، فإن الانقلابات العسكرية تقوض شرعية الحكم، وتفتح الباب لصراعات داخل المؤسسة العسكرية نفسها ولمحاولات انقلاب مضادة، وتضعف المؤسسات المدنية، وتؤدي إلى عدم الاستقرار السياسي المستمر. إنها حلول ظاهرها القوة وباطنها الضعف والخراب على المدى الطويل.
- **الحلول غير الشرعية:** تشمل الحلول غير الشرعية للانتقال السلطة أي وسيلة تعتمد على القوة أو التزوير أو الالتفاف على الإرادة الشعبية والآليات الشرعية والدستورية. هذه الحلول تؤدي إلى نفس الآثار السلبية للانقلابات العسكرية من حيث زعزعة الشرعية وإثارة الصراعات.
- **أهمية الانتقال السلمي للسلطة:** إن الانتقال السلمي للسلطة، سواء كان عبر الانتخابات النزيهة، أو وفقاً لآليات دستورية واضحة، هو ضمانة أساسية لاستقرار الدولة واستمراريتها. عندما يعلم الجميع أن هناك آلية واضحة وشرعية للانتقال السلطة، يقل اللجوء إلى العنف والقوة، وتُوجه الطاقة نحو العمل السياسي السلمي والبناء.
- **ترسيخ ثقافة احترام الشرعية:** يجب العمل على ترسيخ ثقافة مجتمعية وسياسية تحترم الشرعية الدستورية، وتنبذ العنف كوسيلة للوصول إلى السلطة أو تغييرها، وتؤمن بأن التغيير يجب أن يتم عبر القنوات السلمية والشرعية.
- **دور المؤسسة العسكرية:** يجب أن تلتزم المؤسسة العسكرية بدورها الدستوري في حماية الوطن وحدوده، وأن تظل بعيدة عن التدخل في الحياة السياسية وصراعات السلطة. يجب أن يكون ولاؤها للوطن والأمة، لا لفئة أو شخص معين.

إن نبذ الانقلابات العسكرية والحلول غير الشرعية، والعمل على ترسيخ مبدأ الانتقال السلمي للسلطة، هو شرط أساسي لبناء بيئة سياسية مستقرة وآمنة، تُمكّن المجتمع من التركيز على التنمية والبناء والنهوض، بدلاً من الانغماس في صراعات السلطة المدمرة.

بعد أن تناولنا في المبحث الأول ضرورة الثورة الداخلية وبناء المجتمع كقاعدة صلبة للمشروع الحضاري، وفي المبحث الثاني أهمية إرساء قواعد الحكم الرشيد والعدل كبيئة حاضنة للنهوض، ننتقل الآن إلى ركيزة أساسية أخرى لا غنى عنها لأي أمة تسعى للقوة والازدهار في العصر الحديث: **قيادة التقدم العلمي والاقتصادي**. لقد تعلمنا من تاريخنا، وخاصة من العصر العباسي الذهبي، أن العلم والمعرفة هما أساس بناء الحضارة والقوة. كما تعلمنا من فترات التراجع، وخاصة في أواخر الدولة العثمانية، أن التخلف العلمي والتقني والاقتصادي مقارنة بالقوى الأخرى يؤدي إلى الضعف والتبعية وفقدان السيادة. لذلك، فإن أي مشروع نهضوي جاد يجب أن يضع الاستثمار في العلم والاقتصاد في صلب أولوياته، باعتبارهما **محرك القوة والازدهار** في عالم اليوم.

إن قوة الدول في العصر الحديث لا تُقاس فقط بمساحتها الجغرافية أو عدد سكانها، بل تُقاس بمدى تقدمها العلمي والتكنولوجي، وقوة اقتصادها، وقدرتها على الابتكار والإنتاج. إن الأمة الإسلامية، التي كانت في يوم من الأيام منارة للعلم والحضارة، يجب أن تستعيد هذا الدور، وأن تصبح منتجاً للمعرفة والتكنولوجيا، لا مجرد مستهلك لها. وهذا يتطلب خطة عمل منهجية وطويلة المدى تركز على الاستثمار الاستراتيجي في هذين المجالين الحيويين.

1. الاستثمار الاستراتيجي والضخم في البحث العلمي والتطوير والابتكار

إن البحث العلمي والتطوير (R&D) والابتكار هي المحركات الرئيسية للتقدم في العصر الحديث. الدول التي تستثمر بكثافة في هذه المجالات هي التي تقود العالم في التكنولوجيا، والصناعة، والاقتصاد، وحتى في القوة العسكرية. إن أي مشروع نهضوي للأمة الإسلامية يجب أن يضع **الاستثمار الاستراتيجي والضخم** في البحث العلمي والتطوير والابتكار على رأس أولوياته.

- **لماذا الاستثمار الضخم؟** إن حجم التحديات التي تواجه الأمة في مجالات مثل الصحة، والبيئة، والطاقة، والأمن الغذائي والمائي، بالإضافة إلى الحاجة إلى اللحاق بالركب العالمي في التكنولوجيا والصناعة، يتطلب استثماراً يفوق الاستثمارات الحالية بكثير. يجب أن تُخصص نسبة كبيرة من الناتج المحلي الإجمالي للدول الإسلامية للبحث العلمي والتطوير، وأن يتم زيادة هذا الإنفاق بشكل تدريجي ومستمر.

- **لماذا الاستثمار الاستراتيجي؟** يجب أن يكون الاستثمار في البحث العلمي والتطوير استراتيجياً وموجهاً نحو المجالات التي تخدم أولويات الأمة واحتياجاتها، وتوفر لها ميزة تنافسية في المستقبل. يمكن التركيز على مجالات مثل الطاقة المتجددة، والتكنولوجيا الحيوية، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وعلوم المواد، والزراعة المستدامة، وإدارة الموارد المائية. يجب أن تُحدد هذه المجالات بناءً على دراسات معمقة للاحتياجات والإمكانيات.
- **دعم الابتكار وريادة الأعمال:** يجب أن يُصاحب الاستثمار في البحث العلمي والتطوير دعم قوي للابتكار وريادة الأعمال. يجب توفير البيئة المناسبة للمبتكرين ورواد الأعمال لتحويل أفكارهم إلى منتجات وخدمات ومشاريع ناجحة. يتطلب ذلك توفير التمويل اللازم (رأس المال المخاطر)، وتسهيل الإجراءات القانونية والإدارية، وتوفير البنية التحتية اللازمة (حاضنات الأعمال، مسرعات النمو)، وتشجيع التعاون بين الجامعات والمراكز البحثية والقطاع الخاص.
- **بناء القدرات البشرية:** إن الاستثمار في البحث العلمي والتطوير والابتكار يتطلب بناء قدرات بشرية مؤهلة. يجب توفير فرص التعليم والتدريب المتقدم للشباب المسلم في المجالات العلمية والتقنية، وتشجيعهم على التخصص في المجالات البحثية المتقدمة، وتوفير البيئة المناسبة لهم للعمل والإبداع داخل دولهم لمنع هجرة العقول.
- **التعاون البحثي بين الدول الإسلامية:** يجب تعزيز التعاون بين الجامعات والمراكز البحثية في الدول الإسلامية، وتبادل الخبرات والمعلومات، وتنفيذ مشاريع بحثية مشتركة، وتأسيس شبكات بحثية إقليمية ودولية. هذا التعاون يمكن أن يُعزز من القدرات البحثية للأمة ككل ويُقلل من التكاليف.

إن الاستثمار الاستراتيجي والضخم في البحث العلمي والتطوير والابتكار هو استثمار في مستقبل الأمة، وهو الذي سيُمكنها من قيادة التقدم التكنولوجي والصناعي، وتقليل تبعيتها للغير، وتحقيق الازدهار الاقتصادي، وتعزيز قوتها الشاملة.

2. تطوير نظم التعليم لتشجع على التفكير النقدي والإبداع وريادة الأعمال

إن جودة التعليم هي أساس بناء القدرات البشرية اللازمة للتقدم العلمي والاقتصادي. تعاني الكثير من نظم التعليم في العالم الإسلامي اليوم من مشاكل هيكلية، وتركز على الحفظ والتلقين بدلاً من تشجيع التفكير النقدي والإبداع. إن أي مشروع نهضوي يجب أن يضع **تطوير نظم التعليم** في صلب أولوياته، لكي تُخرج أجيالاً قادرة على التفكير، والابتكار، وريادة الأعمال.

- **التحول من التلقين إلى التفكير النقدي:** يجب أن تتحول نظم التعليم من التركيز على الحفظ والتلقين إلى تشجيع الطلاب على التفكير النقدي، والتحليل، والتقييم، وإبداء الرأي المستنير. يجب أن تُصمم المناهج وطرق التدريس لتعزز هذه المهارات الأساسية التي لا غنى عنها في عالم اليوم.

- **تشجيع الإبداع والابتكار:** يجب أن تُوفر البيئة التعليمية المحفزة للإبداع والابتكار. يجب تشجيع الطلاب على طرح الأسئلة، وتحدي الأفكار التقليدية (في إطار القيم الإسلامية)، وتجربة حلول جديدة للمشكلات. يجب توفير الموارد اللازمة (المختبرات، ورش العمل) لدعم الأنشطة الإبداعية والمشاريع الابتكارية للطلاب.

- **غرس ثقافة ريادة الأعمال:** يجب أن تُغرس ثقافة ريادة الأعمال في نفوس الطلاب منذ سن مبكرة. يجب تعريفهم بمفهوم ريادة الأعمال، وتشجيعهم على التفكير في إنشاء مشاريعهم الخاصة، وتزويدهم بالمهارات اللازمة (التخطيط، التسويق، إدارة الأعمال) لتحويل أفكارهم إلى مشاريع ناجحة. يمكن إدراج مواد دراسية عن ريادة الأعمال في المناهج، وتنظيم مسابقات ومبادرات لدعم المشاريع الطلابية.

- **التركيز على العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات (STEM):** يجب إعطاء أولوية خاصة لتعليم العلوم الأساسية والتطبيقية (الرياضيات، الفيزياء، الكيمياء، الأحياء، علوم الحاسوب، الهندسة). هذه المجالات هي أساس التقدم التكنولوجي والصناعي. يجب توفير المعلمين المؤهلين، والمختبرات المجهزة، والمناهج الحديثة في هذه المجالات.

- **ربط التعليم بسوق العمل:** يجب أن تُربط مخرجات نظم التعليم باحتياجات سوق العمل. يجب أن تُراجع المناهج والبرامج التعليمية بشكل دوري لتتوافق مع متطلبات سوق العمل المتغيرة، وأن يتم تعزيز التعاون بين المؤسسات التعليمية والقطاع الخاص لتوفير فرص التدريب والتوظيف للطلاب.

إن تطوير نظم التعليم لتُخرج أجيالاً قادرة على التفكير النقدي والإبداع وريادة الأعمال هو استثمار طويل الأجل في مستقبل الأمة، وهو الذي سيُوفر لها الكفاءات اللازمة لقيادة التقدم العلمي والاقتصادي في المستقبل.

3. بناء قاعدة صناعية وتكنولوجية متقدمة وتقليل التبعية

لا يمكن لأمة أن تكون قوية ومستقلة في العصر الحديث إذا كانت تابعة للغير في احتياجاتها الأساسية وفي التكنولوجيا التي تستخدمها. لذلك، يجب أن يهدف المشروع الحضاري إلى **بناء قاعدة صناعية وتكنولوجية متقدمة** تُمكن الأمة من تلبية احتياجاتها وتقليل تبعيتها للغير.

- **توطين الصناعات الاستراتيجية:** يجب العمل على توطين الصناعات الاستراتيجية التي تخدم الأمن القومي والاقتصادي للأمة، مثل الصناعات الدفاعية، وصناعات الأدوية والمستلزمات الطبية، وصناعات الطاقة (خاصة الطاقة المتجددة)، وصناعات التكنولوجيا المتقدمة (مثل الإلكترونيات، والبرمجيات، والاتصالات).
- **التركيز على الصناعات ذات القيمة المضافة العالية:** يجب التحول من الاعتماد على تصدير المواد الخام إلى تصدير منتجات صناعية ذات قيمة مضافة عالية. يتطلب ذلك الاستثمار في الصناعات التحويلية، وتطوير القدرات التكنولوجية اللازمة.
- **تشجيع الصناعات الصغيرة والمتوسطة:** تلعب الصناعات الصغيرة والمتوسطة دوراً حيوياً في توفير فرص العمل، وتحقيق التنمية المحلية، وتعزيز القدرة التنافسية للاقتصاد. يجب توفير الدعم اللازم لهذه الصناعات، وتسهيل حصولها على التمويل والتدريب والأسواق.
- **تطوير البنية التحتية الصناعية والتكنولوجية:** يجب الاستثمار في تطوير البنية التحتية اللازمة لدعم الصناعة والتكنولوجيا، مثل المناطق الصناعية المتخصصة، ومراكز البحث والتطوير الصناعي، وشبكات الاتصالات المتقدمة.
- **تقليل التبعية في التكنولوجيا الحيوية:** يجب العمل على تطوير القدرات الذاتية في التكنولوجيا الحيوية، وخاصة في مجالات مثل الهندسة الوراثية، والزراعة الحديثة، وصناعة الأدوية، لتقليل التبعية للشركات الأجنبية في هذه المجالات الحيوية.

إن بناء قاعدة صناعية وتكنولوجية متقدمة هو الذي سيُمكن الأمة من تحقيق الأمن الاقتصادي، وتوفير فرص العمل، وتعزيز قدرتها على المساومة في العلاقات الدولية، وتقليل تبعيتها للغير في احتياجاتها الأساسية والتكنولوجيا التي تستخدمها.

4. تنمية الموارد الاقتصادية وتنويع مصادر الدخل وتحقيق الأمن الغذائي والمائي

تمتلك الدول الإسلامية موارد اقتصادية هائلة (نفط، غاز، معادن، أراضٍ زراعية، سواحل بحرية، مواقع سياحية، موارد بشرية). ولكن هذه الموارد ليست مُستغلة بالكامل، وهناك اعتماد كبير على بعض الموارد (مثل النفط والغاز) كمصادر رئيسية للدخل، مما يجعل الاقتصادات عرضة لتقلبات الأسعار العالمية. إن أي مشروع نهضوي يجب أن يهدف إلى **تنمية هذه الموارد وتنويع مصادر الدخل** لتحقيق اقتصاد قوي ومستدام، مع التركيز بشكل خاص على **تحقيق الأمن الغذائي والمائي**.

- **تنويع مصادر الدخل:** يجب تقليل الاعتماد على النفط والغاز كمصادر رئيسية للدخل، وتنمية قطاعات اقتصادية أخرى مثل الصناعة، والزراعة، والسياحة، والخدمات، والتكنولوجيا. هذا التنويع يجعل الاقتصادات أكثر استقراراً وأقل عرضة للصدمات الخارجية.
- **الاستثمار في الزراعة لتحقيق الأمن الغذائي:** تعاني الكثير من الدول الإسلامية من نقص في الإنتاج الغذائي واعتماد كبير على الاستيراد. يجب الاستثمار بشكل كبير في تطوير القطاع الزراعي، واستخدام التقنيات الحديثة، وتنمية الأراضي الصالحة للزراعة، ودعم المزارعين، لزيادة الإنتاج وتحقيق الأمن الغذائي للأمة. إن القدرة على إطعام النفس هي أساس السيادة والاستقلال.
- **إدارة الموارد المائية وتحقيق الأمن المائي:** تعاني العديد من الدول الإسلامية من شح في الموارد المائية. يجب إعطاء أولوية قصوى لإدارة الموارد المائية بكفاءة، واستخدام التقنيات الحديثة في الري، وتحلية المياه، ومعالجة مياه الصرف الصحي، وحماية مصادر المياه من التلوث. تحقيق الأمن المائي هو ضرورة وجودية للأمة.
- **تنمية قطاع السياحة الحلال:** تمتلك الدول الإسلامية مواقع تاريخية ودينية وثقافية وجغرافية فريدة يمكن أن تُستغل لتنمية قطاع سياحي كبير، مع الالتزام بالضوابط الشرعية (السياحة الحلال). يمكن أن يكون هذا القطاع مصدراً هاماً للدخل وفرص العمل.

- **تشجيع الاستثمار:** يجب توفير البيئة المناسبة لجذب الاستثمارات المحلية والأجنبية في القطاعات الإنتاجية والخدمية، من خلال تبسيط الإجراءات، وتوفير الضمانات القانونية، ومكافحة الفساد.

إن تنمية الموارد الاقتصادية وتنويع مصادر الدخل وتحقيق الأمن الغذائي والمائي هي أساس بناء اقتصاد قوي ومستدام، وهو الذي سيُوفر للدولة الموارد اللازمة لتمويل المشاريع النهضوية، وتحسين مستوى معيشة المواطنين، وتعزيز قوة الأمة الشاملة.

5. تعزيز التجارة البينية بين الدول الإسلامية وتشكيل تكتلات اقتصادية قوية

رغم أن الدول الإسلامية تشكل سوقاً استهلاكياً ضخماً وتتمتع بموارد اقتصادية متنوعة، إلا أن التجارة البينية بينها لا تزال محدودة مقارنة بتجارتها مع الدول غير الإسلامية. إن تعزيز التجارة البينية وتشكيل تكتلات اقتصادية قوية بين الدول الإسلامية يمكن أن يُعزز من قوتها الاقتصادية ويُقلل من تبعيتها للغير.

- **إزالة العوائق التجارية:** يجب العمل على إزالة العوائق الجمركية وغير الجمركية التي تُعيق التجارة بين الدول الإسلامية، وتسهيل حركة السلع والخدمات ورؤوس الأموال بينها.
- **تطوير البنية التحتية للربط:** يجب الاستثمار في تطوير البنية التحتية التي تربط بين الدول الإسلامية، مثل الطرق، والسكك الحديدية، والموانئ، والمطارات، وشبكات الاتصالات.
- **تشجيع الاستثمار المشترك:** يجب تشجيع الاستثمارات المشتركة بين رجال الأعمال والمؤسسات في الدول الإسلامية في المشاريع التي تخدم مصالح الجميع.
- **تأسيس مناطق تجارة حرة وتكتلات اقتصادية:** يمكن العمل على تأسيس مناطق تجارة حرة بين مجموعات من الدول الإسلامية، أو تشكيل تكتلات اقتصادية أكبر على غرار التكتلات الاقتصادية الناجحة في مناطق أخرى من العالم. هذه التكتلات يمكن أن تزيد من القوة التفاوضية للدول الإسلامية في العلاقات الاقتصادية الدولية.
- **توحيد المواصفات والمعايير:** يمكن العمل على توحيد المواصفات والمعايير للمنتجات والخدمات بين الدول الإسلامية لتسهيل التجارة البينية وزيادة جودة المنتجات.

- **تعزيز دور المؤسسات المالية الإسلامية:** يمكن تعزيز دور البنوك الإسلامية والمؤسسات المالية الإسلامية الأخرى في تمويل التجارة البينية والاستثمارات المشتركة.

إن تعزيز التجارة البينية وتشكيل تكتلات اقتصادية قوية بين الدول الإسلامية هو خطوة أساسية نحو تحقيق التكامل الاقتصادي، وزيادة القوة التفاوضية للأمة في الاقتصاد العالمي، وتقليل تبعيتها للغير.

المبحث الرابع: نحو وحدة الصف والعمل المشترك: تجاوز الانقسام والتحديات

بعد أن تناولنا في المباحث السابقة ضرورة الثورة الداخلية وبناء المجتمع كقاعدة صلبة للمشروع الحضاري، وأهمية إرساء قواعد الحكم الرشيد والعدل كبيئة حاضنة للنهوض، وقيادة التقدم العلمي والاقتصادي كمحرك للقوة والازدهار، نصل الآن إلى تحدٍ آخر لا يقل خطورة، بل ربما هو الأخطر في واقع الأمة الإسلامية اليوم: **تحدي الانقسام والتشرذم**. لقد تعلمنا من تاريخنا أن الوحدة كانت مفتاح الصمود والانتصار في أحلك اللحظات، وأن الانقسام كان سبباً رئيسياً في الضعف والتراجع والسقوط، كما رأينا في سقوط بغداد والأندلس وضعف الدول في فترات متأخرة. لذلك، فإن أي مشروع نهضوي جاد يجب أن يضع **نحو وحدة الصف والعمل المشترك** كأولوية قصوى، وأن يعمل على تجاوز الانقسام والتحديات التي تفتت قوة الأمة.

إن الأمة الإسلامية اليوم، رغم كثرة عددها وانتشارها الجغرافي، تعاني من انقسامات عميقة على مستويات مختلفة: انقسامات سياسية بين الدول، انقسامات مذهبية، انقسامات عرقية وقومية، انقسامات طبقية واجتماعية. هذه الانقسامات تفتت قوة الأمة، وتُضعف من قدرتها على مواجهة التحديات المشتركة، وتجعلها عرضة للتدخلات الخارجية والاستغلال. إن بناء الجبهة الداخلية للأمة، وتوحيد صفوفها، وتنسيق جهودها، هو شرط أساسي لاستعادة قوتها ومكانتها.

1. تعزيز الحوار والتفاهم بين مختلف المذاهب والأعراق والقوميات داخل الأمة

إن التنوع المذهبي والعرقي والقومي داخل الأمة الإسلامية هو حقيقة تاريخية وجغرافية. هذا التنوع يمكن أن يكون مصدر قوة إذا تم التعامل معه بحكمة وتسامح، ويمكن أن يكون سبباً في الفرقة والضعف إذا تم استغلاله لإثارة العصبيات والنزاعات. لذلك، فإن الخطوة الأولى نحو وحدة الصف هي **تعزيز الحوار والتفاهم** بين مختلف مكونات الأمة.

- **الحوار المذهبي:** هناك اختلافات فقهية ومذهبية بين المسلمين، وهذا أمر طبيعي وموجود منذ عصور الإسلام الأولى. ولكن يجب أن تظل هذه الاختلافات في إطار الاحترام المتبادل، وأن تُدار بالحوار العلمي الهادئ، وأن تُنبذ لغة التكفير والتخوين والتحريض بين أبناء المذهب الواحد أو بين المذاهب المختلفة.

- يجب التركيز على المشتركات الكبرى التي تجمع المسلمين (التوحيد، القرآن، السنة، الأركان الأساسية للإسلام) بدلاً من التركيز على نقاط الاختلاف. يمكن تفعيل دور المؤسسات الدينية المعتدلة والعلماء الربانيين في الدعوة إلى الوحدة ونبذ الفرقة المذهبية.
- **التفاهم العرقي والقومي:** الأمة الإسلامية تتكون من شعوب وأعراق وقوميات مختلفة (عرب، ترك، فرس، بربر، ماليز، أفارقة، وغيرهم). هذه التنوع هو مصدر غنى للأمة. ولكن يجب أن تُنبذ العصبيات القبلية والعرقية والقومية التي تتعارض مع مبدأ الأخوة الإسلامية والمساواة بين المسلمين. يجب التأكيد على أن الرابطة الإيمانية هي الأقوى والأبقى، وأن التفاضل بين الناس بالتقوى لا بالعرق أو النسب. يجب تعزيز التبادل الثقافي والفني والأدبي بين مختلف القوميات لزيادة التفاهم والتقدير المتبادل.
- **الحوار بين المكونات الاجتماعية:** هناك أيضاً انقسامات طبقية واجتماعية في بعض المجتمعات الإسلامية. يجب العمل على تقليل هذه الفجوات من خلال تطبيق العدل الاجتماعي، وتوزيع الثروات بشكل عادل، وتوفير فرص متساوية للجميع. كما يجب تعزيز الحوار بين مختلف فئات المجتمع (الشباب، المرأة، الأقليات، الريف، الحضر) لفهم احتياجاتهم وتطلعاتهم ومعالجة مشاكلهم.

إن تعزيز ثقافة الحوار والتسامح والاحترام المتبادل بين مختلف مكونات الأمة هو أساس بناء الثقة وتجاوز الانقسامات الداخلية.

2. تفعيل دور المؤسسات الإسلامية المشتركة (منظمة التعاون الإسلامي وغيرها) لتكون أكثر فعالية وتأثيراً

رغم وجود مؤسسات إسلامية مشتركة على المستوى الدولي والإقليمي (مثل منظمة التعاون الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، الأزهر الشريف كمؤسسة علمية عالمية)، إلا أن دورها لا يزال محدوداً في كثير من الأحيان، وتأثيرها لا يرقى إلى مستوى التحديات التي تواجه الأمة. يجب العمل على **تفعيل دور هذه المؤسسات** لتكون أدوات حقيقية للتعاون والتنسيق والعمل المشترك.

- **إعادة هيكلة وتطوير:** يجب إعادة هيكلة هذه المؤسسات وتطوير آليات عملها لتكون أكثر كفاءة وفعالية وشفافية. يجب أن تُمنح الصلاحيات اللازمة لاتخاذ قرارات مؤثرة وتنفيذها.
- **التمويل الكافي:** يجب توفير التمويل الكافي لهذه المؤسسات لتمكينها من تنفيذ برامجها ومشاريعها.
- **الاستقلال عن التأثيرات السياسية الضيقة:** يجب أن تعمل هذه المؤسسات بشكل مستقل عن التأثيرات السياسية الضيقة للدول الأعضاء، وأن تكون قراراتها مبنية على المصلحة العليا للأمة الإسلامية ككل.
- **التركيز على الأولويات المشتركة:** يجب أن تُركز هذه المؤسسات على الأولويات المشتركة للأمة، مثل دعم القضايا الإسلامية المركزية، ومكافحة الإسلاموفوبيا، وتعزيز التعاون الاقتصادي والعلمي والثقافي، وتقديم المساعدات الإنسانية في مناطق الأزمات.
- **تمثيل الأمة بفعالية:** يجب أن تكون هذه المؤسسات قادرة على تمثيل الأمة الإسلامية بفعالية على الساحة الدولية، والدفاع عن مصالحها وقضاياها العادلة.
- **تفعيل دور الأزهر الشريف:** يُعد الأزهر الشريف منارة علمية تاريخية، ويمكن تفعيل دوره بشكل أكبر في نشر المنهج الإسلامي المعتدل، وتخريج علماء ربانيين، ومواجهة الأفكار المتطرفة، وتعزيز الحوار بين المذاهب، وتقديم الاستشارات الشرعية للمؤسسات الإسلامية في العالم.

إن تفعيل دور المؤسسات الإسلامية المشتركة، وجعلها أدوات حقيقية للتعاون والعمل المشترك، هو خطوة أساسية نحو تجاوز الانقسام وبناء جبهة موحدة للأمة.

3. تنسيق الجهود السياسية والاقتصادية والعسكرية لمواجهة التحديات المشتركة

إن التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية اليوم (مثل الاحتلال، العدوان، التدخلات الخارجية، الإرهاب، التخلف الاقتصادي) هي تحديات مشتركة لا يمكن لأي دولة إسلامية أن تواجهها بمفردها بفعالية. لذلك، يجب **تنسيق الجهود السياسية والاقتصادية والعسكرية** بين الدول الإسلامية لمواجهة هذه التحديات بشكل جماعي ومنظم.

- **التنسيق السياسي:** يجب تنسيق المواقف السياسية للدول الإسلامية في المحافل الدولية (مثل الأمم المتحدة) للدفاع عن القضايا الإسلامية العادلة، ومواجهة حملات التشويه ضد الإسلام والمسلمين، والضغط على القوى الدولية لاتخاذ مواقف أكثر إنصافاً تجاه قضايا الأمة.
- **التنسيق الاقتصادي:** كما ذكرنا في المبحث السابق، يجب تعزيز التعاون الاقتصادي بين الدول الإسلامية، وتشكيل تكتلات اقتصادية قوية، وتنسيق السياسات الاقتصادية لمواجهة الأزمات الاقتصادية العالمية، وتحقيق الأمن الغذائي والمائي المشترك، وتقليل التبعية الاقتصادية للغير.
- **التنسيق العسكري:** رغم حساسية هذا الجانب، إلا أن التنسيق العسكري بين الدول الإسلامية ضروري لمواجهة التحديات الأمنية المشتركة، مثل مكافحة الإرهاب، وحماية الحدود، والمشاركة في عمليات حفظ السلام، والدفاع عن الأراضي والمقدسات الإسلامية. يمكن البدء بتعزيز التدريبات العسكرية المشتركة، وتبادل الخبرات، وتنسيق المواقف في القضايا الأمنية المشتركة. بناء قوة عسكرية ردعية موحدة للأمة هو هدف استراتيجي طويل المدى.
- **مواجهة التحديات المشتركة:** يجب أن تُوجه هذه الجهود المنسقة لمواجهة التحديات المشتركة بفعالية. على سبيل المثال، يمكن تنسيق الجهود لمواجهة حملات الإسلاموفوبيا، أو لدعم اللاجئين والنازحين في العالم الإسلامي، أو للتصدي للتغيرات المناخية التي تؤثر على العديد من الدول الإسلامية.

إن تنسيق الجهود السياسية والاقتصادية والعسكرية بين الدول الإسلامية هو ضرورة حتمية لمواجهة التحديات المشتركة بفعالية، وهو الذي سيُعزز من قوة الأمة وقدرتها على التأثير على الساحة الدولية.

4. دعم القضايا الإسلامية المركزية (مثل فلسطين والقدس) بجهد موحد ومنظم

هناك قضايا إسلامية مركزية تُمثل جرحاً في جسد الأمة، وتُعد اختباراً حقيقياً لوحدتها وتكاتفها. على رأس هذه القضايا تأتي قضية **فلسطين والقدس والمسجد الأقصى**. إن دعم هذه القضايا بجهد موحد ومنظم من قبل جميع الدول الإسلامية هو واجب شرعي ومطلب سياسي.

- **فلسطين والقدس قضية الأمة:** فلسطين والقدس ليستا قضية عربية أو فلسطينية فقط، بل هي قضية إسلامية تهم كل مسلم في العالم. المسجد الأقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.
- **الجهد الموحد:** يجب أن تتجاوز الدول الإسلامية خلافاتها السياسية وتتوحد في موقفها تجاه قضية فلسطين والقدس. يجب أن يكون هناك موقف سياسي موحد في المحافل الدولية، ودعم اقتصادي موحد للشعب الفلسطيني، ودعم إغاثي وإنساني موحد للمتضررين، ودعم سياسي ودبلوماسي موحد لإنهاء الاحتلال وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.
- **دعم المقاومة المشروعة:** يجب دعم المقاومة المشروعة للشعب الفلسطيني ضد الاحتلال بجميع أشكالها، في إطار الشرع والقانون الدولي.
- **نبذ التطبيع الذي يضر بالقضية:** يجب أن تُراجع بعض الدول الإسلامية سياسات التطبيع مع الكيان المحتل، والتي تُضعف من الموقف العربي والإسلامي الموحد وتضر بالقضية الفلسطينية.
- **قضايا إسلامية أخرى:** إلى جانب فلسطين والقدس، هناك قضايا إسلامية أخرى تحتاج إلى دعم موحد ومنظم، مثل قضايا مسلمي الروهينغا، والأويغور، وغيرها من الأقليات المسلمة التي تتعرض للاضطهاد في بعض أنحاء العالم.

إن دعم القضايا الإسلامية المركزية بجهد موحد ومنظم هو الذي سيُعيد للأمة هيبتها، ويُعزز من مكانتها، ويُظهر للعالم أن الأمة الإسلامية، رغم انقساماتها، لا تزال حية وقادرة على الدفاع عن قضاياها العادلة.

5. تعزيز التبادل الثقافي والاجتماعي لتقوية الروابط بين أبناء الأمة

إلى جانب التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري، يجب إعطاء أهمية خاصة لـ **تعزيز التبادل الثقافي والاجتماعي** بين أبناء الأمة لتقوية الروابط بينهم وزيادة التفاهم والتقارب.

- **التبادل الطلابي والأكاديمي:** يجب تشجيع التبادل الطلابي والأكاديمي بين الجامعات والمؤسسات التعليمية في الدول الإسلامية، لتزيد فرص التعارف بين الشباب المسلم من مختلف الجنسيات، وتبادل الخبرات والمعارف.
- **التبادل الثقافي والفني:** يجب تنظيم الفعاليات الثقافية والفنية المشتركة (معارض فنية، مهرجانات ثقافية، أسابيع ثقافية) لتعريف أبناء الأمة بثقافات بعضهم البعض وتقاليدهم وتراثهم المتنوع.
- **تعزيز السياحة البينية:** يجب تسهيل إجراءات السفر والتأشيرات بين الدول الإسلامية لتشجيع السياحة البينية، ولتمكين أبناء الأمة من زيارة بلدان بعضهم البعض والتعرف عليها.
- **دعم وسائل الإعلام المشتركة:** يمكن دعم وسائل الإعلام المشتركة (قنوات فضائية، مواقع إلكترونية، صحف) التي تُقدم محتوى يعكس تنوع الأمة ووحدتها، وتُعزز من الشعور بالانتماء المشترك.
- **تبادل الخبرات في مجالات التنمية الاجتماعية:** يمكن تبادل الخبرات والتجارب بين الدول الإسلامية في مجالات التنمية الاجتماعية، مثل مكافحة الفقر، وتطوير التعليم والصحة، وتمكين المرأة والشباب، ورعاية الأيتام والمسنين.

إن تعزيز التبادل الثقافي والاجتماعي هو استثمار طويل الأجل في بناء الروابط الإنسانية بين أبناء الأمة، وهو الذي سيُعزز من التفاهم والتقارب ويُقلل من آثار الانقسامات السياسية والجغرافية.

المبحث الخامس: استعادة الدور الحضاري العالمي: رسالة الأمة للعالم

بعد أن تناولنا في المباحث السابقة الركائز الأساسية للمشروع الحضاري المتكامل التي تبدأ من الداخل (الثورة الداخلية وبناء المجتمع)، وتنتقل إلى بناء البيئة الحاضنة المستقرة والعادلة (الحكم الرشيد والعدل)، وتُعزز بالقوة الصلبة (التقدم العلمي والاقتصادي)، وتُدعم بوحدة الصف وتجاوز الانقسام، نصل الآن إلى البعد الأسمى والأكثر طموحاً لهذا المشروع: **استعادة الدور الحضاري العالمي للأمة الإسلامية**. إن الأمة الإسلامية لم تُوجد لتكون منعزلة عن العالم، بل هي أمة ذات رسالة عالمية، أمة شاهدة على الناس، كما قال تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾** (البقرة: 143). هذه الشهادة ليست مجرد شهادة يوم القيامة، بل هي شهادة في الدنيا، بتقديم النموذج، والإسهام في بناء الحضارة الإنسانية، وحمل الخير للبشرية جمعاء. إن استعادة هذا الدور الحضاري العالمي هو جزء لا يتجزأ من النهوض المنشود، وهو الذي سيُعيد للأمة مكانتها وتأثيرها على الساحة الدولية.

إن استعادة الدور الحضاري العالمي لا تعني بالضرورة السيطرة العسكرية أو الهيمنة السياسية على العالم، بل تعني أن تكون الأمة الإسلامية قوة فاعلة ومؤثرة في مسار الحضارة الإنسانية، تُقدم إسهامات إيجابية في مختلف المجالات، وتُعالج المشكلات العالمية، وتُقدم للعالم نموذجاً إنسانياً وأخلاقياً راقياً مستمداً من قيم الإسلام. وهذا الدور لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كانت الأمة قوية من الداخل (كما بيّنا في المباحث السابقة)، قادرة على حمل رسالتها والدفاع عن نفسها ومصالحها.

1. تقديم صورة الإسلام السمحة والمعتدلة للعالم ومواجهة حملات التشويه

تعاني صورة الإسلام والمسلمين في العالم اليوم من حملات تشويه وتنميط ممنهجة من قبل بعض الجهات المعادية، تُقدم الإسلام على أنه دين عنف وتطرف وإرهاب، وتُربط المسلمين بالتخلف والرجعية. إن أول خطوة في استعادة الدور الحضاري العالمي هي **تقديم صورة الإسلام السمحة والمعتدلة والحقيقية للعالم**، ومواجهة هذه الحملات المغرضة بالحجة والبيان والنموذج العملي.

- **إبراز القيم الإنسانية في الإسلام:** يجب التركيز على إبراز القيم الإنسانية المشتركة في الإسلام، مثل الرحمة، والعدل، والتسامح، والإحسان، واحترام كرامة الإنسان، وحقوق المرأة والطفل، وحماية البيئة، وتشجيع العلم. هذه القيم هي قيم عالمية يمكن أن تتواصل وتتفاهم معها الشعوب الأخرى.
- **استخدام وسائل الإعلام الحديثة بفعالية:** يجب استخدام وسائل الإعلام الحديثة (الإنترنت، وسائل التواصل الاجتماعي، القنوات الفضائية، الأفلام الوثائقية) بفعالية واحترافية لتقديم رسالة الإسلام السمحة والمعتدلة إلى العالم بلغات مختلفة. يجب أن تُنتج محتويات إعلامية جذابة ومؤثرة تُقدم الإسلام بصورته الحقيقية، وتُفند الشبهات المثارة حوله.
- **دعم المؤسسات الدعوية والإعلامية:** يجب دعم المؤسسات الدعوية والإعلامية التي تعمل على تقديم صورة الإسلام الصحيحة للعالم، وتوفير الكفاءات المؤهلة والتمويل اللازم لها.
- **النموذج العملي:** إن أفضل وسيلة لتقديم صورة الإسلام السمحة هي **النموذج العملي**. عندما يرى العالم مجتمعات إسلامية عادلة، ومتقدمة، ومزدهرة، ومتسامحة، تحترم حقوق الإنسان، وتُساهم في بناء الحضارة الإنسانية، فإن ذلك سيكون أقوى رد على حملات التشويه.

2. المساهمة الفعالة في حل المشكلات العالمية (الفقر، البيئة، الصراعات، إلخ) من منظور إسلامي

إن العالم اليوم يواجه مشكلات عالمية معقدة تتجاوز حدود الدول والقارات، مثل الفقر، والتغيرات المناخية وتدهور البيئة، والصراعات والحروب، والأوبئة، والظلم الاجتماعي والاقتصادي. إن الأمة الإسلامية، بصفتها أمة شاهدة على الناس، يجب أن تُساهم بفعالية في **حل هذه المشكلات العالمية**، وأن تُقدم حلولاً ورؤى مستمدة من منظورها الإسلامي.

- **مكافحة الفقر والظلم الاقتصادي:** الإسلام يحث على مكافحة الفقر وتحقيق العدالة الاجتماعية. يمكن للأمة الإسلامية أن تُساهم في حل مشكلة الفقر العالمية من خلال تفعيل نظام الزكاة والأوقاف والصدقات على المستوى العالمي،

- وتشجيع التكافل بين الدول الغنية والفقيرة، وتقديم المساعدات الإنمائية،[161] وتبني سياسات اقتصادية عادلة تُكافح الاستغلال والظلم الاقتصادي.
- **حماية البيئة ومواجهة التغيرات المناخية:** الإسلام يحث على المحافظة على البيئة وعدم الإفساد في الأرض. يمكن للأمة الإسلامية أن تُساهم في حل مشكلة التغيرات المناخية وتدهور البيئة من خلال تبني سياسات بيئية مستدامة، والاستثمار في الطاقة المتجددة، ونشر الوعي بأهمية حماية البيئة، والمشاركة في الجهود الدولية لمواجهة هذه المشكلة.
- **حل الصراعات ونشر السلام:** الإسلام دين سلام ورحمة. يمكن للأمة الإسلامية أن تُساهم في حل الصراعات والحروب في العالم من خلال تبني سياسات خارجية قائمة على الحوار والتفاهم والوساطة، ودعم جهود السلام، وتقديم المساعدات الإنسانية للمتضررين من الحروب، ونبذ العنف والتطرف الذي يشوه صورة الإسلام.
- **المساهمة في الصحة العالمية:** يمكن للأمة الإسلامية أن تُساهم في تحسين الصحة العالمية من خلال الاستثمار في البحث العلمي في مجال الطب، وتطوير نظم الرعاية الصحية، وتقديم المساعدات الطبية للدول المحتاجة، والمشاركة في الجهود الدولية لمكافحة الأوبئة والأمراض.

إن المساهمة في حل المشكلات العالمية هي تجسيد لدور الأمة كـ**"**أمة وسط**"**، وهي التي ستُعيد لها احترام العالم وتقديره.

3. تعزيز الحوار بين الحضارات وتقديم النموذج الإسلامي كنموذج إيجابي للبشرية

في عالم تتزايد فيه التوترات والصراعات بين الثقافات والحضارات، يُصبح **الحوار بين الحضارات** ضرورة ملحة لتحقيق التفاهم والتعايش السلمي. إن الأمة الإسلامية، بتاريخها الغني وتنوعها الثقافي، مؤهلة للعب دور ريادي في هذا الحوار، وتقديم النموذج الإسلامي كنموذج إيجابي للبشرية.

- **الدعوة إلى التفاهم والاحترام المتبادل:** يجب أن تُبادر الأمة الإسلامية إلى الدعوة إلى الحوار بين الحضارات على أساس التفاهم والاحترام المتبادل، والاعتراف بالتنوع والاختلاف.

---

[161] **المساعدات الإنمائية:** دعم مالي أو تقني تقدمه الدول أو المؤسسات الدولية للدول النامية، بهدف تعزيز التنمية الاقتصادية والاجتماعية، مثل بناء البنية التحتية وتحسين التعليم والصحة.

- **تقديم النموذج الإسلامي:** يجب أن تُقدم الأمة الإسلامية نموذجها الحضاري القائم على قيم العدل، والرحمة، والتسامح، والتعايش السلمي، واحترام حقوق الإنسان، كنموذج إيجابي يمكن أن يُسهم في بناء عالم أفضل. يجب إبراز إسهامات الحضارة الإسلامية في مختلف مجالات المعرفة والفنون والآداب.
- **مواجهة الصدام الحضاري:** يجب مواجهة دعوات "صدام الحضارات" التي تهدف إلى إثارة الكراهية والعداء بين الشعوب، والتأكيد على أن الإنسانية تشترك في قيم ومصالح مشتركة يمكن أن تكون أساساً للتعاون والتفاهم.
- **دور المؤسسات التعليمية والثقافية:** يمكن للمؤسسات التعليمية والثقافية (الجامعات، المراكز البحثية، المتاحف، المكتبات) أن تلعب دوراً هاماً في تعزيز الحوار بين الحضارات من خلال تنظيم المؤتمرات والندوات وورش العمل المشتركة، وتبادل الأساتذة والطلاب، ونشر الكتب والمقالات التي تُعزز التفاهم المتبادل.

إن تعزيز الحوار بين الحضارات وتقديم النموذج الإسلامي كنموذج إيجابي للبشرية هو الذي سيُصحح الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين، ويُعزز من مكانة الأمة وتأثيرها على الساحة العالمية.

4. بناء جسور التواصل مع الشعوب الأخرى وتقديم الإسهامات المعرفية والإنسانية

إن استعادة الدور الحضاري العالمي تتطلب أيضاً **بناء جسور التواصل** مع الشعوب الأخرى، والتعرف على ثقافاتهم وحضاراتهم، وتقديم الإسهامات المعرفية والإنسانية التي تُثري الحضارة الإنسانية المشتركة.

- **التعرف على الآخر:** يجب على أبناء الأمة الإسلامية أن يسعوا للتعرف على الشعوب الأخرى وثقافاتهم وحضاراتهم، وأن يتجاوزوا الأحكام المسبقة والصور النمطية. هذا التعرف المباشر يُعزز من التفاهم المتبادل ويُقلل من سوء الفهم.
- **تقديم الإسهامات المعرفية:** يجب أن تستعيد الأمة الإسلامية دورها كمنتج للمعرفة، وأن تُقدم إسهامات أصيلة في مختلف مجالات العلوم والتكنولوجيا والفنون والآداب. يجب نشر هذه الإسهامات بلغات مختلفة لتصل إلى جميع شعوب العالم.
- **تقديم الإسهامات الإنسانية:** يجب أن تُساهم الأمة الإسلامية في الجهود الإنسانية العالمية، مثل تقديم المساعدات للمتضررين من الكوارث الطبيعية أو الحروب،

- ودعم اللاجئين والنازحين، ومكافحة الأمراض والأوبئة. هذا الدور الإنساني يعكس قيم الإسلام النبيلة ويُعزز من صورة الأمة في العالم.
- **التبادل الطلابي والثقافي:** يجب تشجيع التبادل الطلابي والثقافي مع الدول الأخرى لزيادة فرص التعارف بين الشباب وتبادل الخبرات والمعارف.
- **دور الجاليات المسلمة في الخارج:** تلعب الجاليات المسلمة في الدول غير الإسلامية دوراً هاماً في بناء جسور التواصل مع مجتمعاتها، وتقديم صورة الإسلام السمحة، والمساهمة في الحياة العامة في تلك الدول. يجب دعم هذه الجاليات وتمكينها من أداء دورها الإيجابي.

إن بناء جسور التواصل مع الشعوب الأخرى وتقديم الإسهامات المعرفية والإنسانية هو الذي سيُعزز من التفاهم المتبادل، ويُصحح الصورة المشوهة، ويُظهر للعالم أن الأمة الإسلامية هي جزء فاعل وإيجابي في المجتمع الإنساني.

4. عدم ترك الأمة لجهادها في سبيل استعادة الدور الحضاري العالمي

من الضروري التأكيد هنا على أن السعي لاستعادة الدور الحضاري العالمي، وتقديم صورة الإسلام السمحة، والمساهمة في حل المشكلات العالمية، وبناء جسور التواصل، **لا يعني أبداً أن تترك الأمة جهادها**، وخاصة جهادها في سبيل الدفاع عن نفسها وأراضيها ومقدساتها، وجهادها في سبيل إقامة العدل ودحر الظلم. بل إن القدرة على أداء هذا الدور العالمي الحضاري **مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقوة الأمة وقدرتها على الدفاع عن نفسها**.

- **الجهاد الدفاعي ضرورة للبقاء:** في عالم لا يزال تحكمه القوة والمصالح، فإن القدرة على الدفاع عن النفس، وردع المعتدين، وحماية الأراضي والمقدسات، هي ضرورة وجودية للبقاء. إذا كانت الأمة ضعيفة عسكرياً وغير قادرة على الدفاع عن نفسها، فإنها ستكون عرضة للغزو والاحتلال، ولن تتمكن من أداء أي دور حضاري عالمي مؤثر. إن الدفاع عن فلسطين والقدس، ودعم المقاومة المشروعة ضد الاحتلال، هو جزء لا يتجزأ من الجهاد الدفاعي، وهو شرط أساسي لاستعادة الكرامة والهيبة التي تُمكّن الأمة من استعادة دورها العالمي.

- **الجهاد في سبيل العدل:** إن السعي لإقامة العدل في الأرض، ومكافحة الظلم والاستبداد والفساد، هو أيضاً جزء من الجهاد. لا يمكن للأمة أن تُقدم نموذجاً حضارياً للعالم إذا كانت تعاني من الظلم والفساد في داخلها. الجهاد في سبيل إقامة العدل هو الذي يُصلح شأن الأمة من الداخل ويُمكنها من حمل رسالتها العالمية.
- **الجهاد بأبعاده الشاملة يدعم الدور العالمي:** إن الجهاد العلمي والاقتصادي والإداري والتنظيمي هو الذي يبني قوة الأمة الداخلية ويُوفر لها الموارد والقدرات اللازمة لأداء دورها العالمي. الأمة المتخلفة علمياً واقتصادياً، والفاسدة إدارياً، لن تتمكن من تقديم إسهامات معرفية أو اقتصادية مؤثرة للعالم.
- **الجهاد والدور العالمي وجهان لعملة واحدة:** إن الجهاد، بأبعاده الشاملة، واستعادة الدور الحضاري العالمي ليسا هدفين متناقضين، بل هما وجهان لعملة واحدة. القدرة على الجهاد الفعال هي التي تُمكّن الأمة من أداء دورها العالمي، وأداء الدور العالمي يُعزز من مكانة الأمة ويُقويها في جهادها.

لا يمكن للأمة أن تختار بين الجهاد والدور العالمي. يجب أن تجمع بينهما. يجب أن تكون قوية في جهادها للدفاع عن نفسها وإقامة العدل، وفي نفس الوقت، يجب أن تكون منفتحة على العالم، تُقدم إسهاماتها الإيجابية، وتُعالج مشكلاته، وتُقدم نموذجها الحضاري. هذا هو التوازن الذي حققته الأمة في عصور قوتها، وهو التوازن الذي يجب أن تستعيده اليوم.

.

خلاصة الفصل التاسع: نحو مشروع حضاري متكامل

في هذا الفصل من الكتاب، انتقلنا من تحليل الماضي واستخلاص العبر إلى وضع رؤية استشرافية للمستقبل، مقترحين ملامح **مشروع حضاري متكامل** للأمة الإسلامية. لم يكن الهدف من دراسة التاريخ مجرد المعرفة المجردة، بل كان وسيلة لوضع خطة عمل منهجية وعملية للنهوض، تعتمد على دروس الماضي لمواجهة تحديات الحاضر والمستقبل بروح جديدة.

بدأنا في **المبحث الأول: الثورة الداخلية وبناء المجتمع: أساس المشروع الحضاري**، بالتأكيد على أن أي نهوض حقيقي ومستدام يبدأ من الداخل، من بناء الإنسان، والأسرة، والمجتمع المحلي كأول لبنات النهوض. بيّنا أن هذا يتطلب تفعيل "جهاد النفس" كمنطلق للتغيير الفردي والأخلاقي، وبناء الأسرة المسلمة الواعية والمنتجة، وتعزيز دور المؤسسات المجتمعية (المساجد، الجمعيات الخيرية، المؤسسات التعليمية الأهلية) في التربية والتكافل والتنمية المحلية، ونشر الوعي بأهمية العمل والإنتاج والإتقان كجزء من المشروع الحضاري. هذا المبحث ركز على البناء من القاعدة، وهو الأساس الذي لا يمكن الاستغناء عنه.

ثم تناولنا في **المبحث الثاني: إرساء قواعد الحكم الرشيد والعدل: بيئة النهوض المستقرة**، أهمية بناء بيئة حاضنة مستقرة وعادلة للمشروع الحضاري. بيّنا أن هذا يتطلب العمل على تطبيق مبادئ العدل، والشورى، والمساواة في نظم الحكم والإدارة المعاصرة، ومكافحة الفساد بجميع أشكاله كأولوية قصوى، وتعزيز سيادة القانون واستقلال القضاء، وتطوير آليات للمشاركة الشعبية الفعالة والمساءلة. وأكدنا على ضرورة نبذ الانقلابات العسكرية والحلول غير الشرعية، والعمل على الانتقال السلمي للسلطة. هذا المبحث ركز على بناء بيئة سياسية وإدارية مستقرة وعادلة ضرورية لأي نهوض.

وفي **المبحث الثالث: قيادة التقدم العلمي والاقتصادي: محرك القوة والازدهار**، انتقلنا إلى ركيزة أساسية أخرى للقوة في العصر الحديث. بيّنا أن النهوض يتطلب الاستثمار الاستراتيجي والضخم في البحث العلمي والتطوير والابتكار، وتطوير نظم التعليم لتشجع على التفكير النقدي والإبداع وريادة الأعمال، وبناء قاعدة صناعية وتكنولوجية متقدمة وتقليل التبعية. كما أكدنا على أهمية تنمية الموارد الاقتصادية وتنويع مصادر الدخل وتحقيق الأمن الغذائي والمائي، وتعزيز التجارة البينية بين الدول الإسلامية وتشكيل تكتلات اقتصادية قوية. هذا المبحث ركز على بناء القوة الصلبة للدولة والمجتمع في مجالات العلم والاقتصاد.

ثم تطرقنا في **المبحث الرابع: نحو وحدة الصف والعمل المشترك: تجاوز الانقسام والتحديات**، إلى تحدي الانقسام الذي تعاني منه الأمة. بيّنا أن تجاوز هذا التحدي يتطلب تعزيز الحوار والتفاهم بين مختلف المذاهب والأعراق والقوميات داخل الأمة، وتفعيل دور المؤسسات الإسلامية المشتركة (منظمة التعاون الإسلامي وغيرها) لتكون أكثر فعالية وتأثيراً. وأكدنا على ضرورة تنسيق الجهود السياسية والاقتصادية والعسكرية لمواجهة التحديات المشتركة (مثل الاحتلال، العدوان، التدخلات الخارجية)، ودعم القضايا الإسلامية المركزية (مثل فلسطين والقدس) بجهد موحد ومنظم، وتعزيز التبادل الثقافي والاجتماعي لتقوية الروابط بين أبناء الأمة. هذا المبحث ركز على معالجة الانقسام وبناء الجبهة الداخلية للأمة.

وأخيراً، في **المبحث الخامس: استعادة الدور الحضاري العالمي: رسالة الأمة للعالم**، تناولنا البعد الأسمى للمشروع الحضاري. بيّنا أن استعادة هذا الدور يتطلب تقديم صورة الإسلام السمحة والمعتدلة للعالم ومواجهة حملات التشويه، والمساهمة الفعالة في حل المشكلات العالمية (الفقر، البيئة، الصراعات، إلخ) من منظور إسلامي، وتعزيز الحوار بين الحضارات وتقديم النموذج الإسلامي كنموذج إيجابي للبشرية، وبناء جسور التواصل مع الشعوب الأخرى وتقديم الإسهامات المعرفية والإنسانية. وأكدنا على أن هذا السعي لاستعادة الدور العالمي لا يعني أبداً أن تترك الأمة جهادها، بل هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقوة الأمة وقدرتها على الجهاد بأبعاده الشاملة.

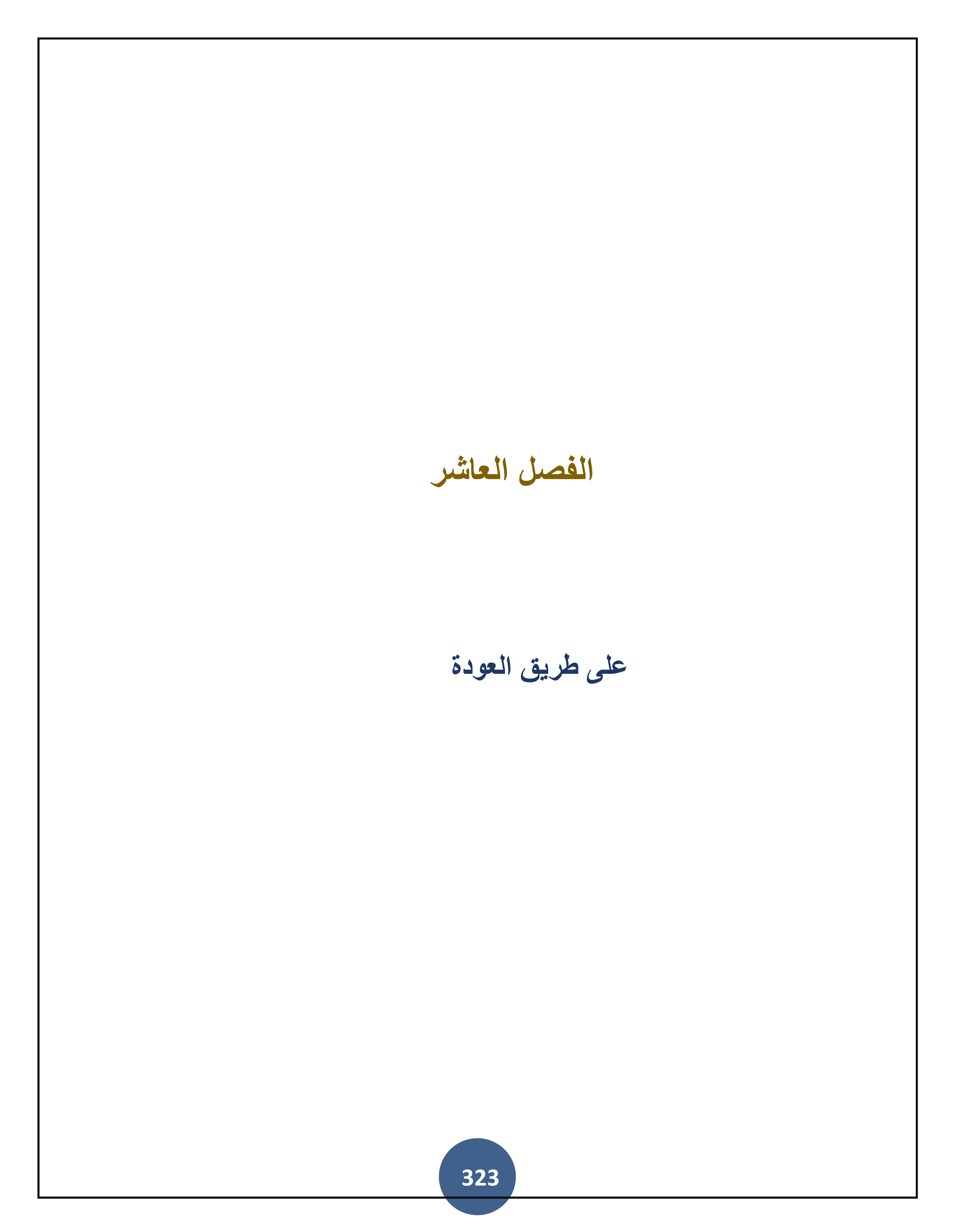
خلاصة المشروع الحضاري المتكامل:

إن المشروع الحضاري المتكامل الذي نقترحه للنهوض بالأمة الإسلامية يعتمد على رؤية شاملة ومتكاملة، تتجاوز الحلول الجزئية، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتستلهم دروس التاريخ لمواجهة تحديات المستقبل. يقوم هذا المشروع على ركائز أساسية مترابطة:

1. **البناء من القاعدة:** البدء بإصلاح الفرد والأسرة والمجتمع المحلي من خلال تفعيل جهاد النفس وتعزيز دور المؤسسات المجتمعية.
2. **إرساء الحكم الرشيد:** تطبيق مبادئ العدل والشورى والمساواة، ومكافحة الفساد، وتعزيز سيادة القانون، ونبذ الانقلابات، لبناء بيئة مستقرة وعادلة.
3. **قيادة التقدم:** الاستثمار في العلم والبحث العلمي والتطوير والابتكار، وبناء قاعدة صناعية وتكنولوجية قوية، وتنمية الموارد الاقتصادية، لتحقيق القوة والازدهار.

4. **تحقيق الوحدة:** تجاوز الانقسامات الداخلية، وتعزيز الحوار والتفاهم، وتنسيق الجهود بين الدول الإسلامية، ودعم القضايا المشتركة، لبناء جبهة موحدة للأمة.
5. **استعادة الدور العالمي:** تقديم صورة الإسلام السمحة، والمساهمة في حل المشكلات العالمية، وتعزيز الحوار بين الحضارات، وبناء جسور التواصل، مع عدم ترك الجهاد بأبعاده الشاملة، لاستعادة مكانة الأمة وتأثيرها عالمياً.

إن هذه الركائز الخمسة تشكل خارطة طريق للنهوض المنشود. إنها خطة عملية قابلة للتطبيق، تتطلب إرادة قوية، وعملاً دؤوباً، وتعاوناً بين جميع أبناء الأمة ومؤسساتها ودولها. إن النهوض ليس مجرد حلم، بل هو مسؤولية تاريخية، وواجب شرعي، وهدف يمكن تحقيقه إذا تمسكت الأمة بمبادئها، واستلهمت من تاريخها، وعملت بجد وإخلاص بروح جديدة متكاملة.



الفصل العاشر

على طريق العودة

بعد أن استعرضنا في الفصول السابقة مسيرة الدول الإسلامية الكبرى، من فجر الإسلام إلى سقوط آخر خلافة عالمية، وحللنا في الفصل الثامن عوامل النهوض والسقوط، واقترحنا في الفصل التاسع ملامح مشروع حضاري متكامل للأمة، نصل الآن إلى الفصل الأخير من هذا الكتاب. إن الهدف من كل ما سبق لم يكن مجرد الغوص في أعماق التاريخ، أو تحليل الأسباب والنتائج، أو حتى رسم خطط نظرية للمستقبل. بل كان الهدف الأسمى هو الوصول إلى إجابة عملية للسؤال الجوهري الذي يفرض نفسه على واقع الأمة اليوم: **ما السبيل؟ وما الحل؟ وكيف يمكن للأمة الإسلامية أن تنهض من كبوتها، وتستعيد مكانتها، وتؤدي دورها الذي أراده الله لها كأمة شاهدة على الناس؟**

إن الإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن تكون مجرد أمنيات أو شعارات جوفاء. إنها تتطلب خارطة طريق واضحة، تعتمد على فهم عميق لسنن الله في الكون والمجتمعات، وتستلهم من تجارب الماضي الناجحة، وتواجه تحديات الحاضر والمستقبل بوعي وبصيرة. إنها **الطريق إلى العودة**؛ العودة إلى المنهج الرباني الذي ضمن للأمة قوتها وعزتها في السابق، والعودة إلى موقعها الريادي في العالم، والعودة إلى وحدتها وتماسكها، والعودة إلى دورها كحاملة لرسالة الخير للبشرية.

في هذا الفصل، سنحاول أن نضع ملامح لهذه الطريق، مركزين على الخطوات العملية والأسس الجوهرية التي يجب على الأمة أن تسلكها لتحقيق النهوض المنشود. سننطلق من حقيقة أن الحل ليس في تقليد الآخرين تقليداً أعمى، ولا في الانغماس في الماديات وحدها، بل في العودة إلى مصادر قوتنا الأصيلة، وفي مقدمتها المنهج الذي رسمه لنا ربنا ونبينا صلى الله عليه وسلم. إنها دعوة للعمل الجاد، والتضحية، والبذل، والإصلاح من الداخل والخارج، إيماناً بأن النصر والتمكين من عند الله، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

بعد كل ما استعرضناه من تاريخ الدول الإسلامية، ومن عوامل نهوضها وسقوطها، ومن ملامح المشروع الحضاري الذي نسعى إليه، يظل السؤال الجوهري قائماً: **ما السبيل العملي والأهم الذي يجب على الأمة أن تسلكه اليوم على طريق العودة إلى عزتها ومكانتها؟** إن الإجابة، المستمدة من كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، ومن تجارب سلفنا الصالح، ومن واقع الأمة الذي تعيشه، هي أن **الجهاد في سبيل الله هو طريق العودة الأهم والأولى، وهو الفريضة الغائبة التي لا يمكن للأمة أن تستعيد عزتها وتمكينها بدونها.**

قد ينادي البعض بأن طريق العودة يكمن في التقدم الاقتصادي وحده، أو في التطور العلمي والتقني بمعزل عن غيره، أو في الإصلاح السياسي الداخلي فقط. ورغم أهمية هذه الجوانب كأركان أساسية لأي نهوض شامل (كما بيّنا في الفصل التاسع)، إلا أنها ليست هي الطريق الأهم والأولى في مرحلة تعيش فيها الأمة حالة من الضعف، والاحتلال لأراضيها ومقدساتها، والعدوان عليها، والهوان الذي أصابها. في مثل هذه المرحلة، يصبح **الجهاد في سبيل الله، وخاصة الجهاد العسكري للدفاع عن النفس والأرض والمقدسات، هو الأولوية القصوى، وهو الباب الذي لا يُفتح طريق العودة إلا من خلاله.**

1. التأكيد على أن الجهاد (بمعناه الشامل) هو الفريضة الغائبة التي لا يمكن للأمة أن تستعيد عزتها بدونها:

الجهاد في الإسلام ليس مجرد فريضة من الفرائض، بل هو **ذروة سنام الإسلام**. هو قمة الأعمال وأعلاها منزلة عند الله. وهو الذي يضمن حيوية الأمة وقدرتها على البقاء والدفاع عن نفسها وحمل رسالتها. الجهاد، بمعناه الشامل الذي يشمل جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الفساد، وجهاد الظلم، وجهاد الأعداء، هو المحرك الذي يدفع الأمة نحو العمل والبذل والتضحية في سبيل الله.

- **ذروة سنام الإسلام:** قال النبي صلى الله عليه وسلم: **"رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله"** (رواه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم الحديث 2616. وصححه الألباني). هذا الحديث الشريف يضع الجهاد في أعلى مرتبة بعد الإسلام والصلاة، مما يدل على عظم مكانته وأهميته في بناء الأمة وقوتها.

- **فريضة غائبة:** للأسف الشديد، في واقع الأمة اليوم، أصبح الجهاد، خاصة بمعناه القتالي، فريضة غائبة أو مشوهة لدى الكثيرين. تم تهميشه، أو اختزاله في أعمال فردية غير منظمة، أو تشويه صورته بأعمال العنف والتطرف التي لا يقرها الإسلام. هذا الغياب أو التشويه لفريضة الجهاد هو من أبرز أسباب الضعف والهوان الذي أصاب الأمة.

2. التركيز على الجهاد العسكري كضرورة حتمية للدفاع عن النفس والأرض والمقدسات، وإزالة الاحتلال، وكسر حاجز الخوف والهوان:

في مرحلة تتعرض فيها الأمة للعدوان والاحتلال لأراضيها ومقدساتها (مثل فلسطين والقدس)، ويُقتل أبناؤها وتُهتك أعراضها وتُدمر بيوتها، يصبح الجهاد العسكري **ضرورة حتمية وفرض عين** على القادرين، أو فرض كفاية إذا قام به من يكفي. إنه ليس اختياراً، بل هو واجب شرعي لا يمكن التخلي عنه.

- **الدفاع عن النفس والأرض:** قال الله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (البقرة: 190). هذه الآية تأمر بقتال الذين يقاتلون المسلمين، وهو أساس الجهاد الدفاعي.
- **إزالة الاحتلال:** لا يمكن إزالة الاحتلال للأراضي الإسلامية والمقدسات إلا بالقوة التي تُقابل قوة المحتل. التاريخ يشهد أن الأراضي لا تُسترد بالاستجداء أو المفاوضات وحدها في ظل موازين قوى مختلة. الجهاد العسكري هو السبيل لإجبار المحتل على الرحيل.
- **كسر حاجز الخوف والهوان:** عندما تتخلى الأمة عن الجهاد، يسودها الخوف من الأعداء، وتُصاب بالهوان والذل. الجهاد يغرس في نفوس أبناء الأمة الشجاعة، والإقدام، والاستعداد للتضحية، ويكسر حاجز الخوف من الموت، مما يُعيد للأمة كرامتها وهيبتها.

3. الاستدلال بغزارة من الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة التي تُعلي من شأن الجهاد وتُبين فضله وكونه ذروة سنام الإسلام:

لقد وردت نصوص كثيرة في السنة النبوية وأقوال الصحابة تُبين عظم فضل الجهاد ومكانته في الإسلام.

- **فضل الجهاد:**

- قال النبي صلى الله عليه وسلم: **"رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها"** (رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الرباط في سبيل الله، رقم الحديث 2892). الرباط هو ملازمة الثغور للجهاد.
- وقال صلى الله عليه وسلم: **"غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها"** (رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله، رقم الحديث 2849).
- وقال صلى الله عليه وسلم: **"مقام أحدكم في سبيل الله ساعة خير من صلاته في بيته ستين عاما"** (رواه الترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في فضل الرباط، رقم الحديث 1650. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني).
- سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أفضل؟ قال: **"إيمان بالله ورسوله"**. قيل: ثم ماذا؟ قال: **"الجهاد في سبيل الله"**. قيل: ثم ماذا؟ قال: **"حج مبرور"** (رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل، رقم الحديث 26). هذا الحديث يضع الجهاد في المرتبة الثانية بعد الإيمان بالله ورسوله.

- **فضل الشهادة:**

  - قال الله تعالى: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** (آل عمران: 169).
  - قال النبي صلى الله عليه وسلم: **"للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه"** (رواه الترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في فضل الشهيد، رقم الحديث 1663. وصححه الألباني).

- **أقوال الصحابة:**

  - قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته بعد توليه الخلافة: **"أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"**. وكان من

أول أعماله توجيه الجيوش لقتال المرتدين ثم لفتح الشام والعراق، إعلاءً لراية الجهاد.

- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **"إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله"**. وكان عمر يُعرف بشدته في الحق وحرصه على الجهاد والفتوحات.
- قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **"الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لأوليائه"**.
- كان الصحابة يتسابقون إلى الجهاد ويُحبون الشهادة في سبيل الله، ويرونها غاية آمالهم. قصصهم في معارك بدر، وأحد، والخندق، واليرموك، والقادسية، وغيرها، تشهد على روحهم الجهادية العالية واستعدادهم للتضحية بالنفس والمال في سبيل الله.

4. بيان أن الجهاد مقدم على غيره من الأولويات في مرحلة الضعف والاحتلال، وأن القوة الاقتصادية وغيرها تأتي لتدعم الجهاد، لا أن تحل محله:

في مرحلة تعيش فيها الأمة حالة من الضعف والاحتلال والعدوان، يصبح **الجهاد العسكري هو الأولوية القصوى** التي تُقدم على غيرها من الأولويات، بما في ذلك الأولويات الاقتصادية أو التنموية التي لا تخدم الجهاد مباشرة.

- **الجهاد للدفاع عن الوجود:** عندما يُهدد وجود الأمة، وتُحتل أراضيها، وتُنتهك مقدساتها، يصبح الدفاع عن هذا الوجود هو الأهم. لا معنى للتنمية الاقتصادية أو التقدم العلمي في أرض محتلة أو أمة مستذلة. الجهاد هو الذي يُعيد للأمة حريتها وسيادتها، ليصبح بعد ذلك ممكناً البناء والتنمية على أسس راسخة.
- **الاقتصاد في خدمة الجهاد:** القوة الاقتصادية والعلمية والتقنية ضرورية لـ **إعداد القوة** اللازمة للجهاد (كما سيأتي في المبحث الثاني). ولكن هذه القوة الاقتصادية والعلمية يجب أن تكون في خدمة الجهاد، لا أن تكون بديلاً عنه أو أن تُعيق ممارسته. لا يجب أن تُصبح الثروة والرفاهية هدفاً يُنسي الأمة واجب الجهاد والتضحية.
- **ترتيب الأولويات في مرحلة الضعف:** في مرحلة الضعف والاحتلال، يجب أن تُعاد ترتيب الأولويات في المجتمع والدولة. يجب أن تُوجه الموارد والطاقات نحو ما يُعزز

القدرة على الجهاد والمقاومة، حتى لو كان ذلك على حساب بعض جوانب الرفاهية أو التنمية التي يمكن تأجيلها إلى ما بعد التحرير.

- **التحذير من الركون إلى الدنيا:** حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الركون إلى الدنيا والانغماس في ملذاتها، مما يؤدي إلى الوهن وترك الجهاد. قال صلى الله عليه وسلم: **"يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها"**. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: **"بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن"**. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: **"حب الدنيا وكراهية الموت"** (رواه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم الحديث 4297. وصححه الألباني). هذا الحديث يبين أن كثرة العدد لا تنفع بدون القوة المعنوية والاستعداد للجهاد، وأن حب الدنيا وكراهية الموت هما سبب الوهن والذل.

5. الربط بين ترك الجهاد والذل والهوان الذي تعيشه الأمة اليوم، وبين التمسك به والعزة والتمكين:

إن واقع الأمة الإسلامية اليوم، وما تعيشه من ذل وهوان وتخلف وتسلط للأعداء على أراضيها ومقدساتها، هو نتيجة مباشرة لـ **تركها لفريضة الجهاد**، أو ضعفها في ممارستها، أو تشويه مفهومها.

- **ترك الجهاد يؤدي إلى الذل:** كما ورد في الحديث الشريف: **"ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا"** (رواه أحمد في مسنده، رقم الحديث 4915. وصححه الألباني). هذا الحديث هو بمثابة قانون إلهي لا يتخلف. عندما تترك الأمة الجهاد، تفقد قوتها وهيبتها، وتصبح ضعيفة أمام أعدائها، ويُسلب منها حقها، ويُهان أبناؤها.
- **التمسك بالجهاد يؤدي إلى العزة والتمكين:** على العكس، عندما تتمسك الأمة بالجهاد، وتعمل بمقتضاه، فإن الله يُعيد لها عزتها وتمكينها. التاريخ يشهد على ذلك. عندما تمسك المسلمون الأوائل بالجهاد، فتحوا البلاد وأقاموا دولة قوية. عندما تمسك المماليك بالجهاد، صدوا المغول والصليبيين. عندما تمسك العثمانيون بالجهاد، بنوا إمبراطورية عظيمة. إن العزة والتمكين لا يُنالان بالقعود والذل، بل بالعمل والبذل والتضحية في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحج: 40). نصر الله مرتبط بنصرة عباده لدينه، ومن أعظم نصرة الدين الجهاد في سبيله.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "الجهاد هو دعوة إلى الله، وهو إقامة لدين الله، وهو قمع لأعداء الله، وهو نصر لأولياء الله".

إن طريق العودة إلى العزة والتمكين يمر حتماً عبر بوابة الجهاد في سبيل الله. لا يمكن للأمة أن تتجاوز مرحلة الذل والهوان التي تعيشها اليوم إلا إذا أعادت إعلاء راية الجهاد، وفهمتها فهماً صحيحاً شاملاً، وعملت بمقتضاها بجد وإخلاص، مقدمة إياها على غيرها من الأولويات في مرحلة الضعف والاحتلال. إنها دعوة للعودة إلى المنهج الرباني الذي ضمن لنا العزة في السابق، وهو وحده القادر على أن يُعيدها لنا اليوم.

المبحث الثاني: إعداد القوة الشاملة: شرط الجهاد الفعال

بعد أن أكدنا في المبحث الأول على أن الجهاد في سبيل الله هو طريق العودة الأهم والأولى للأمة الإسلامية، خاصة في مرحلة الضعف والاحتلال، يجب أن ننتقل الآن إلى بيان أن هذا الجهاد، لكي يكون فعالاً ومثمراً ويحقق أهدافه، يتطلب **إعداداً شاملاً وقوة في جميع المجالات**. لا يمكن خوض الجهاد بفعالية بالاعتماد على الشجاعة والتضحية وحدهما، دون امتلاك أسباب القوة المادية والمعنوية اللازمة لمواجهة الأعداء الذين يمتلكون أحدث التقنيات وأقوى الأسلحة. إن إعداد القوة الشاملة هو **شرط الجهاد الفعال**، وهو واجب شرعي أمرنا الله به.

1. بيان أن الجهاد العسكري يتطلب إعداداً شاملاً وقوة في جميع المجالات (العلمية، التقنية، الصناعية، الاقتصادية، الإدارية):

إن مفهوم القوة في الإسلام ليس مقتصراً على القوة العسكرية فحسب، بل هو مفهوم واسع يشمل جميع جوانب القوة التي تحتاجها الأمة لتكون قادرة على حمل رسالتها، والدفاع عن نفسها، ومواجهة التحديات. الجهاد العسكري، كأحد أبعاد الجهاد الشامل، يتطلب دعماً قوياً من جميع المجالات الأخرى.

- **القوة العلمية والتقنية:** في العصر الحديث، أصبحت القوة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتقدم العلمي والتقني. القدرة على تصنيع الأسلحة المتطورة، وتطوير التكنولوجيا الحديثة، واستخدامها بفعالية في المعارك، تتطلب قاعدة علمية وتقنية قوية. الجيش الذي لا يمتلك المعرفة والتقنية اللازمة سيكون متخلفاً وعاجزاً عن مواجهة الجيوش التي تمتلكها.
- **القوة الصناعية:** القدرة على تصنيع المعدات العسكرية، والذخائر، والمستلزمات اللوجستية، تتطلب قاعدة صناعية قوية ومستقلة. الاعتماد على الاستيراد في هذه الجوانب يجعل الأمة رهينة بيد الدول المصنعة، ويمكن أن يُقطع عنها الإمداد في أوقات الحاجة القصوى.
- **القوة الاقتصادية:** الجهاد يتطلب تمويلاً ضخماً. بناء الجيوش، وتدريبها، وتجهيزها، وتوفير رواتب الجنود، وصناعة الأسلحة، كلها أمور تتطلب موارد مالية كبيرة. الاقتصاد القوي هو الذي يوفر هذه الموارد، ويُمكّن الدولة من الإنفاق على متطلبات الإعداد والجهاد دون الحاجة للاقتراض أو التبعية المالية للغير.

- **القوة الإدارية والتنظيمية:** الجيش المنظم، والإدارة الفعالة، والقيادة الحكيمة، كلها جوانب ضرورية لنجاح الجهاد. القدرة على حشد الطاقات، وتنسيق الجهود، وإدارة الموارد بكفاءة، وتنفيذ الخطط العسكرية بدقة، تتطلب نظاماً إدارياً وتنظيمياً قوياً.
- **القوة البشرية:** الجهاد يتطلب رجالاً مؤمنين، مدربين تدريباً عالياً، يتمتعون بالروح القتالية العالية، والانضباط، والولاء لله وللأمة. بناء هذه القوة البشرية يتطلب نظاماً تعليمياً وتربوياً قوياً يغرس هذه الصفات في الأجيال.

إن هذه الجوانب المختلفة للقوة مترابطة ومتكاملة. لا يمكن تحقيق قوة حقيقية في جانب بمعزل عن الجوانب الأخرى. الجهاد الفعال يتطلب منظومة متكاملة من القوة الشاملة.

2. التركيز على الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: 60) وتفسيرها:

هذه الآية الكريمة هي الأساس الشرعي لوجوب إعداد القوة في الإسلام، وهي من أجمع الآيات في هذا الباب.

- **نص الآية: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾** (الأنفال: 60).
- **الأمر بالإعداد:** تبدأ الآية بأمر صريح من الله عز وجل للمسلمين بـ **"وَأَعِدُّوا"**، وهو فعل أمر يدل على الوجوب. الإعداد هنا ليس اختيارياً، بل هو واجب على الأمة.
- **"مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ":** هذا الجزء من الآية هو جوهر الأمر بالإعداد. كلمة **"قوة"** جاءت نكرة وفي سياق الأمر، لتشمل **كل أنواع القوة** التي يمكن للمسلمين أن يمتلكوها ويستطيعوا إعدادها. لم تُحدد الآية نوعاً معيناً من القوة، بل تركت الباب مفتوحاً ليشمل كل ما يُعد قوة في كل زمان ومكان. في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، كانت القوة تشمل السيف، والرمح، والدرع، والرماية، والخيل. وفي عصرنا اليوم، تشمل القوة الدبابات، والطائرات، والصواريخ، والغواصات، والأقمار الصناعية، والأسلحة السيبرانية، والتكنولوجيا المتقدمة، والاقتصاد القوي، والعلم والمعرفة، والإعلام المؤثر، والوحدة الداخلية، والتربية الإيمانية. كل ما يُعد قوة في مواجهة الأعداء يدخل تحت هذا الأمر الرباني.

- **"وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ":** ذكر رباط الخيل هنا كمثال على ما كان يُعد قوة في ذلك العصر. الخيل كانت من أهم أدوات الحرب والنقل في ذلك الوقت. ذكرها لا يعني حصر القوة فيها، بل هي مثال على وجوب إعداد ما يُعد قوة في كل عصر. ففي عصرنا، يمكن أن يُقال: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن الدبابات والطائرات والصواريخ.
- **الهدف من الإعداد: "تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ":** الهدف الأساسي من إعداد القوة ليس العدوان على الآخرين، بل هو **إرهاب الأعداء**. إرهاب الأعداء يعني أن تجعلهم يخافون من قوتك، فلا يُقدمون على الاعتداء عليك، ولا يفكرون في احتلال أرضك أو انتهاك مقدساتك. هذا الإرهاب هو وسيلة للدفاع عن النفس، ولحماية دار الإسلام، ولفرض هيبة الأمة. والأعداء هنا يشملون أعداء الله وأعداء المسلمين، ومن نعرفهم ومن لا نعرفهم.
- **"وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ":** هذا الجزء من الآية يُشجع على الإنفاق في سبيل الله لتمويل متطلبات الإعداد والجهاد، ويُبشر المنفقين بأن الله سيُعوضهم ويُوفيهم أجرهم كاملاً غير منقوص. هذا يدل على أن الإنفاق على الإعداد والجهاد هو من أعظم أنواع الإنفاق في سبيل الله.

تفسير الآية عند المفسرين:

- **الإمام الطبري:** يفسر الطبري قوله "وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ" بأنها تشمل "كل ما يتقوى به على حرب العدو، من السلاح والرجال والخيل، وغير ذلك". ويقول إن "رباط الخيل" هو مثال على ذلك. ويؤكد أن الهدف هو إرهاب الأعداء.
- **الإمام القرطبي:** يقول القرطبي في تفسيره "مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ": "هذه عامة في كل ما يتقوى به في الحرب على العدو". ويذكر أقوالاً عن بعض السلف بأن القوة هي الرمي، ولكن القرطبي يؤكد أن الآية عامة وتشمل كل ما يُعد قوة.
- **الإمام ابن كثير:** يذكر ابن كثير أن قوله "وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ" أي: "من آلات الحرب ومما تقوون به على قتال عدوكم". ويذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي فسر القوة بالرمي ثلاث مرات، ثم يقول: "وهذا لا ينافي أن تكون القوة أعم من ذلك، بل هو من باب ذكر الخاص بعد العام".

خلاصة تفسير الآية أنها أمر شامل بإعداد كل أنواع القوة الممكنة والمستطاعة لمواجهة الأعداء وإرهابهم، وأن هذا الإعداد واجب شرعي على الأمة.

3. أهمية بناء قاعدة صناعية عسكرية مستقلة:

في ضوء الآية الكريمة التي تأمر بإعداد القوة، وفي ظل التحديات التي تواجه الأمة اليوم، يصبح بناء **قاعدة صناعية عسكرية مستقلة** ضرورة حتمية وليس ترفاً.

- **الاستقلال في القرار العسكري:** الاعتماد على الاستيراد في السلاح يجعل القرار العسكري للأمة مرهوناً بيد الدول المصدرة للسلاح. يمكن لهذه الدول أن تمنع بيع السلاح أو قطع غيار في أوقات الأزمات، مما يُشل القدرة الدفاعية للأمة. بناء قاعدة صناعية عسكرية مستقلة يمنح الأمة حرية القرار العسكري والقدرة على الدفاع عن نفسها دون إذن من أحد.
- **تلبية الاحتياجات الدفاعية:** القاعدة الصناعية العسكرية المستقلة قادرة على تلبية الاحتياجات الدفاعية للأمة من مختلف أنواع الأسلحة والمعدات، وتكييفها لتناسب طبيعة المعارك والتهديدات التي تواجهها.
- **دعم الاقتصاد الوطني:** بناء الصناعات العسكرية يتطلب استثمارات ضخمة في البحث والتطوير والصناعة، مما يُحفز الاقتصاد الوطني، ويُوفر فرص العمل، ويُعزز من القدرات التكنولوجية والصناعية للدولة ككل.
- **التعاون بين الدول الإسلامية:** يمكن للدول الإسلامية أن تتعاون في بناء قاعدة صناعية عسكرية مشتركة، وتوزيع الأدوار في تصنيع مختلف أنواع الأسلحة والمعدات، وتبادل الخبرات والتكنولوجيا. هذا التعاون يمكن أن يُعزز من القدرة الدفاعية للأمة ككل ويُقلل من التكاليف.

إن بناء قاعدة صناعية عسكرية مستقلة هو استثمار استراتيجي في أمن الأمة ومستقبلها، وهو جزء أساسي من إعداد القوة اللازمة للجهاد الفعال.

4. تطوير العلوم والتقنيات الحديثة كجزء أساسي من الإعداد للقوة:

كما ذكرنا، القوة في العصر الحديث مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتقدم العلمي والتقني. لذلك، فإن تطوير العلوم والتقنيات الحديثة هو جزء أساسي من إعداد القوة اللازمة للجهاد الفعال.

- **اللحاق بالركب العالمي:** يجب على الأمة الإسلامية أن تسعى جاهدة للحاق بالركب العالمي في مجالات العلوم والتقنيات الحديثة، بل وأن تسعى لقيادة هذه المجالات في

المستقبل. يتطلب ذلك الاستثمار الضخم في البحث العلمي والتطوير، وتطوير نظم التعليم، وتشجيع الابتكار والإبداع.

- **تطوير التقنيات العسكرية:** يجب توجيه جزء من الجهود العلمية والتقنية نحو تطوير التقنيات العسكرية الحديثة، مثل تقنيات الطائرات المسيرة، والصواريخ الباليستية، والحرب السيبرانية، والذكاء الاصطناعي في التطبيقات العسكرية، وغيرها.
- **تطوير التقنيات ذات الاستخدام المزدوج:** يمكن تطوير التقنيات ذات الاستخدام المزدوج (التي يمكن استخدامها في الأغراض المدنية والعسكرية)، مثل تقنيات الاتصالات، وتكنولوجيا المعلومات، وعلوم المواد، والطاقة.
- **بناء الكفاءات العلمية والتقنية:** يجب توفير البيئة المناسبة للعلماء والمهندسين والتقنيين المسلمين للعمل والإبداع داخل دولهم، وتوفير الدعم اللازم لهم، وتشجيعهم على التخصص في المجالات التي تخدم أولويات الأمة في إعداد القوة.

إن تطوير العلوم والتقنيات الحديثة هو استثمار في المستقبل، وهو الذي سيُمكن الأمة من امتلاك أدوات القوة اللازمة لمواجهة تحديات العصر، ويُعزز من قدرتها على الجهاد الفعال.

5. إصلاح الاقتصاد وتنميته ليكون قادراً على تمويل متطلبات الإعداد والجهاد:

لا يمكن تحقيق إعداد القوة الشاملة بدون اقتصاد قوي ومستدام قادر على تمويل متطلبات الإعداد والجهاد. لذلك، فإن إصلاح الاقتصاد وتنميته هو جزء أساسي من طريق العودة.

- **الاقتصاد في خدمة الجهاد:** يجب أن يُنظر إلى الاقتصاد على أنه أداة لخدمة الأمة وتحقيق مصالحها، وفي مقدمتها القدرة على الدفاع عن نفسها وخوض الجهاد. يجب أن تُوجه الموارد الاقتصادية لتمويل متطلبات الإعداد العسكري، والبحث العلمي والتطوير، وبناء الصناعات الاستراتيجية.
- **تنويع مصادر الدخل:** الاعتماد على مصدر دخل واحد (مثل النفط) يجعل الاقتصاد عرضة للتقلبات الخارجية ويُضعف من قدرته على تمويل الاحتياجات المتزايدة للإعداد والجهاد. يجب تنويع مصادر الدخل من خلال تنمية الصناعة، والزراعة، والتجارة، والخدمات.

- **مكافحة الفساد الاقتصادي:** الفساد الاقتصادي يستنزف موارد الدولة ويُضعف من قدرتها على تمويل متطلبات الإعداد والجهاد. يجب مكافحة الفساد بجميع أشكاله، وضمان الشفافية والمساءلة في إدارة الموارد الاقتصادية.
- **تحقيق الأمن الاقتصادي:** يجب العمل على تحقيق الأمن الاقتصادي للأمة، من خلال تقليل التبعية للغير في الاحتياجات الأساسية (الغذاء، الدواء، الطاقة)، وبناء احتياطيات استراتيجية، وتنويع الشركاء التجاريين.
- **تشجيع الاستثمار والإنتاج:** يجب توفير البيئة المناسبة لجذب الاستثمارات في القطاعات الإنتاجية، وتشجيع الإنتاج المحلي، وتوفير فرص العمل، لزيادة ثروة الأمة وقدرتها على الإنفاق على متطلبات الإعداد والجهاد.

إن إصلاح الاقتصاد وتنميته، وجعله قادراً على تمويل متطلبات الإعداد والجهاد، هو ركيزة أساسية في بناء القوة الشاملة للأمة، وهو الذي سيُمكنها من تحمل تكاليف الجهاد وتحقيق أهدافه.

إن الجهاد الفعال في سبيل الله، والذي هو طريق العودة الأهم والأولى للأمة، يتطلب **إعداداً شاملاً وقوة في جميع المجالات**. هذا الإعداد ليس مجرد خيار، بل هو واجب شرعي أمرنا الله به في كتابه الكريم: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾**. تشمل هذه القوة جميع الجوانب: العلمية، والتقنية، والصناعية، والاقتصادية، والإدارية، والبشرية. يجب على الأمة أن تعمل جاهدة على بناء قاعدة صناعية عسكرية مستقلة، وتطوير العلوم والتقنيات الحديثة، وإصلاح الاقتصاد وتنميته ليكون قادراً على تمويل متطلبات الإعداد والجهاد. إن هذا الإعداد الشامل للقوة هو شرط أساسي لكي يكون الجهاد فعالاً ومثمراً، وهو الذي سيُمكن الأمة من مواجهة التحديات، وإرهاب الأعداء، واستعادة مكانتها التي تستحقها.

المبحث الثالث: وحدة الصف وقيادة الأمة: ضرورة الجهاد والنصر

بعد أن أكدنا على أن الجهاد في سبيل الله هو طريق العودة الأهم والأولى، وبيّنا ضرورة إعداد القوة الشاملة لكي يكون هذا الجهاد فعالاً، نصل الآن إلى ركيزة أساسية أخرى لا يمكن للجهاد أن يؤتي ثماره بدونها: **وحدة الصف وقيادة الأمة**. إن الجهاد عمل جماعي يتطلب تكاتفاً وتنسيقاً، ولا يمكن أن يكون فعالاً ومثمراً ويحقق النصر المنشود إلا تحت راية واحدة موحدة، وفي ظل وحدة الصف بين أبناء الأمة. لقد أثبت التاريخ، وخاصة تاريخنا الإسلامي، أن الانقسام والتشرذم هما أقصر الطرق إلى الضعف والهزيمة، وأن الوحدة والتكاتف هما مفتاح القوة والنصر.

1. التأكيد على أن الجهاد لا يمكن أن يكون فعالاً ومثمراً إلا تحت قيادة واحدة موحدة، وفي ظل وحدة الصف بين أبناء الأمة:

الجهاد ليس مجرد أعمال فردية متفرقة، بل هو جهد جماعي منظم يتطلب تخطيطاً، وتنسيقاً، وتوجيهاً. هذا التخطيط والتنسيق والتوجيه لا يمكن أن يتم بفعالية إلا إذا كانت هناك **قيادة واحدة موحدة** يلتف حولها المجاهدون، و**وحدة في الصف** بين أبناء الأمة التي تخوض الجهاد.

- **القيادة الموحدة:** القيادة الواحدة هي التي تضع الخطط الاستراتيجية، وتُحدد الأهداف، وتُوزع الأدوار، وتُنسق بين الجيوش والفصائل، وتُدير المعارك بحكمة وبصيرة. تعدد القيادات أو التنازع فيما بينها يؤدي إلى الفوضى، والتضارب في القرارات، وإهدار الطاقات، وفشل الجهود.

- **وحدة الصف:** وحدة الصف تعني أن أبناء الأمة التي تخوض الجهاد يتجاوزون خلافاتهم الداخلية (السياسية، المذهبية، العرقية، الاجتماعية) ويصطفون كالبنيان المرصوص في مواجهة العدو المشترك. الانقسام الداخلي يضعف الجبهة الداخلية، ويُشتت الجهود، ويُسهل على العدو اختراق الصفوف وإثارة الفتن.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾ (الصف: 4). هذه الآية تبين أن الله يحب من يقاتل في سبيله وهم على هيئة الصف المرصوص، مما يدل على أهمية التنظيم والوحدة في القتال.

2. بيان خطورة الانقسام والتشرذم على الجهاد وقدرة الأمة على مواجهة الأعداء:

لقد كان الانقسام والتشرذم عبر التاريخ الإسلامي سبباً رئيسياً في ضعف الأمة وعجزها عن مواجهة الأعداء بفعالية، بل وجعلها عرضة للغزو والاحتلال.

- **تفتيت القوة:** الانقسام السياسي (تحول الدولة الواحدة إلى دويلات متناحرة) يفتت القوة العسكرية والاقتصادية والبشرية للأمة. بدلاً من أن تكون هذه القوة موحدة وموجهة نحو هدف واحد، تُصبح قوى صغيرة متصارعة تستنزف طاقتها في قتال بعضها البعض.
- **ضعف القدرة على المواجهة:** الكيانات المنقسمة أضعف بكثير من أن تواجه قوة خارجية موحدة ومنظمة. يسهل على العدو أن يهزمها الواحدة تلو الأخرى، كما حدث في سقوط الأندلس وسقوط بغداد أمام المغول، حيث كانت الأمة مقسمة إلى دويلات متناحرة.
- **استغلال الأعداء:** يستغل الأعداء حالة الانقسام والتناحر بين المسلمين لتحقيق مصالحهم. قد يتحالفون مع طرف ضد طرف آخر، أو يتدخلون مباشرة في شؤون الأمة لزيادة فرقتها وإضعافها.
- **إضعاف الروح القتالية:** الانقسام الداخلي يُضعف الروح القتالية لدى أبناء الأمة. فكيف يقاتل الجندي في سبيل أمة ممزقة تتصارع على السلطة أو تختلف على العقيدة؟ الروح القتالية العالية تنبع من الشعور بالانتماء إلى كيان موحد وهدف مشترك.

3. العمل على تجاوز الخلافات السياسية والمذهبية والعرقية من أجل الهدف الأسمى (الجهاد والنصر):

إن وجود الخلافات السياسية أو المذهبية أو العرقية في الأمة هو أمر واقع. ولكن يجب على أبناء الأمة الواعية أن يدركوا أن هذه الخلافات، مهما كانت، يجب أن تُدار بحكمة وتسامح، وأن تُوضع جانباً عندما يتعلق الأمر بالهدف الأسمى وهو **الجهاد في سبيل الله وتحقيق النصر على الأعداء وحماية الأمة.**

- **التركيز على المشتركات:** يجب التركيز على المشتركات الكبرى التي تجمع المسلمين (التوحيد، القرآن، السنة، الأركان الأساسية للإسلام، حب النبي صلى الله عليه وسلم، حب الأقصى) بدلاً من التركيز على نقاط الاختلاف التي تُفرقهم.
- **إدارة الخلاف بالحوار:** يجب أن تُدار الخلافات بالحوار الهادئ والبناء، ونبذ لغة التكفير والتخوين والعنف.

- **الأولوية للهدف الأسمى:** يجب أن يُدرك الجميع أن الهدف الأسمى، وهو حماية الأمة وتحرير مقدساتها وتحقيق النصر، يُقدم على المصالح الفئوية أو الحزبية أو المذهبية أو العرقية الضيقة.
- **التضحية بالمصالح الخاصة:** قد يتطلب تجاوز الخلافات التضحية ببعض المصالح الخاصة أو التنازل عن بعض المطالب من أجل تحقيق المصلحة العليا للأمة.

4. البحث عن القيادة الربانية الواعية التي تجمع كلمة الأمة وتقودها نحو الجهاد والتمكين:

إن وحدة الصف تحتاج إلى قيادة تجمعها وتوجهها. لذلك، فإن البحث عن القيادة الربانية الواعية التي تتمتع بالشرعية، والحكمة، والبصيرة، والقدرة على جمع كلمة الأمة، وقيادتها نحو الجهاد والتمكين، هو أمر ضروري وحيوي.

- **صفات القيادة:** القيادة المطلوبة يجب أن تكون ملتزمة بشرع الله، واعية بواقع الأمة وتحدياتها، حكيمة في قراراتها، قادرة على توحيد الصفوف، ملهمة لأبناء الأمة، وشجاعة في مواجهة الأعداء.
- **الشرعية المستمدة من الأمة:** القيادة يجب أن تستمد شرعيتها من رضا الأمة واختيارها (الشورى/البيعة)، لا من القوة العسكرية أو الوراثة غير الشرعية.
- **القيادة الجامعة:** يجب أن تكون القيادة قادرة على تمثيل جميع مكونات الأمة، وتجاوز الانتماءات الضيقة، والعمل لمصلحة الجميع.
- **قيادة الجهاد والتمكين:** يجب أن تكون القيادة مؤمنة بضرورة الجهاد بأبعاده الشاملة، وقادرة على إعداد القوة اللازمة، وتوجيه الجهود نحو تحقيق النصر والتمكين للأمة.

5. الاستدلال بجهاد الصحابة تحت قيادة واحدة في الفتوحات، وجهاد المماليك تحت قيادة موحدة في عين جالوت:

التاريخ الإسلامي يقدم لنا نماذج حية على كيف كانت وحدة الصف والقيادة الواحدة سبباً في النصر والتمكين.

- **جهاد الصحابة في الفتوحات:** في عهد الخلفاء الراشدين، انطلقت جيوش المسلمين لفتح الشام والعراق ومصر تحت قيادة واحدة موحدة من المدينة المنورة. كان أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي هم القادة الأعلى للجيوش، وكان القادة الميدانيون (مثل خالد بن الوليد، أبو عبيدة بن الجراح، سعد بن أبي وقاص، عمرو بن العاص) يعملون بتنسيق

وتكامل تحت هذه القيادة المركزية. ورغم اختلاف أصولهم القبلية، إلا أن الصحابة كانوا على قلب رجل واحد، يجمعهم الإيمان والهدف المشترك. هذه الوحدة في القيادة والصف هي التي مكنتهم من التغلب على إمبراطوريتين عظيمتين في فترة وجيزة.

- **جهاد المماليك في عين جالوت:** في معركة عين جالوت، واجه المماليك الخطر المغولي المدمر. ورغم وجود بعض الخلافات بين أمراء المماليك (خاصة بين السلطان قطز والأمير بيبرس)، إلا أنهم في اللحظة الحاسمة أدركوا ضرورة تجاوز هذه الخلافات والاصطفاف تحت قيادة واحدة لمواجهة العدو المشترك. تولى السلطان قطز القيادة العليا، ولعب بيبرس دوراً حاسماً كقائد ميداني. هذه الوحدة المؤقتة في القيادة والصف في لحظة الخطر الأكبر هي التي مكنت الجيش المملوكي من الصمود وتحقيق النصر التاريخي الذي أنقذ قلب العالم الإسلامي. هذا المثال يُظهر أن الوحدة، حتى لو كانت مؤقتة وفي لحظة الخطر، يمكن أن تُغير موازين القوى وتحقق النصر.

خلاصة المبحث:

إن وحدة الصف وقيادة الأمة هما **ضرورة الجهاد والنصر**. لا يمكن للجهاد أن يكون فعالاً ومثمراً ويحقق أهدافه إلا تحت راية واحدة موحدة، وفي ظل وحدة الصف بين أبناء الأمة. الانقسام والتشرذم هما أقصر الطرق إلى الضعف والهزيمة. يجب على الأمة أن تعمل جاهدة على تجاوز الخلافات السياسية والمذهبية والعرقية من أجل الهدف الأسمى (الجهاد والنصر)، وأن تبحث عن القيادة الربانية الواعية التي تجمع كلمتها وتقودها نحو الجهاد والتمكين. التاريخ يقدم لنا نماذج حية على أن الوحدة والقيادة هما مفتاح القوة والنصر. إن استعادة وحدة الصف ووجود القيادة الواعية هو شرط أساسي لكي تتمكن الأمة من السير بفعالية على طريق العودة.

المبحث الرابع: التربية والإعداد الروحي والأخلاقي: وقود الجهاد

بعد أن أكدنا على أن الجهاد في سبيل الله هو طريق العودة الأهم والأولى، وبيّنا ضرورة إعداد القوة الشاملة ووحدة الصف والقيادة لكي يكون هذا الجهاد فعالاً، نصل الآن إلى ركيزة أساسية، بل هي **الوقود الحقيقي** الذي يُشعل شعلة الجهاد ويُحافظ على استمراريتها: **التربية والإعداد الروحي والإيماني والأخلاقي.** إن الجهاد في سبيل الله، بأبعاده المختلفة، ليس مجرد عمل عسكري أو جهد مادي بحت، بل هو قبل ذلك وبعده **تربية عميقة للنفس، وإعداد شامل للروح، وبناء متين للأخلاق.** لا يمكن لجيش يفتقر إلى الإيمان الصادق، والأخلاق الفاضلة، والروح القتالية العالية المستمدة من العقيدة، أن يصمد في وجه التحديات الكبرى ويحقق النصر الحقيقي والمستدام.

1. التأكيد على أن الجهاد ليس مجرد عمل عسكري، بل هو قبل ذلك وبعده تربية روحية وإيمانية وأخلاقية عميقة:

إن النظرة الضيقة للجهاد على أنه مجرد قتال بالأسلحة هي نظرة قاصرة لا تعكس حقيقته في الإسلام. الجهاد في جوهره هو تجسيد لغاية وجود المسلم، وهي عبادة الله وحده والسعي لإعلاء كلمته في الأرض. وهذا يتطلب إعداداً يتجاوز التدريب البدني والتكتيكي ليشمل بناء الإنسان المسلم بناءً متكاملاً.

- **الجهاد عبادة:** الجهاد في سبيل الله هو من أعظم العبادات وأجلّ القربات إلى الله. ولذلك، فإن قبوله عند الله وثوابه لا يتوقفان على النصر المادي فحسب، بل على صدق النية، وإخلاص العمل، والالتزام بآداب الجهاد وأخلاقه. هذا الجانب التعبدي للجهاد يجعله مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقوة الإيمان وصفاء الروح.
- **الجهاد تربية:** الجهاد مدرسة تربوية عظيمة. إنه يُربي الفرد على الصبر، والثبات، والتضحية، والإيثار، والشجاعة، والاعتماد على الله، والتجرد من حظوظ النفس. إنه يُصقل الشخصية المسلمة ويُخرج منها أفضل ما فيها.
- **الجهاد أخلاق:** الجهاد في الإسلام له أخلاقه وآدابه التي لا يمكن تجاوزها. تحريم قتل غير المقاتلين (كالنساء والأطفال والشيوخ والرهبان)، وتحريم التمثيل بالجثث، وتحريم الغدر والخيانة، والالتزام بالعهود والمواثيق، والرحمة بالضعفاء، كلها جوانب أخلاقية

أساسية في الجهاد. هذه الأخلاق لا يمكن أن تُطبق إلا إذا كانت مغروسة في نفوس المجاهدين من خلال التربية السليمة.

2. أهمية بناء الفرد المسلم القوي في إيمانه، الملتزم بأخلاقه، المستعد للتضحية والبذل في سبيل الله:

إن أساس أي قوة لأمة هو قوة أفرادها. والفرد المسلم القوي هو الذي يجمع بين القوة الإيمانية، والقوة الأخلاقية، والقوة البدنية والعقلية. هذا الفرد هو الذي يُشكل الوقود الحقيقي للجهاد والمشروع الحضاري.

- **قوة الإيمان:** الإيمان الصادق بالله، واليقين بنصره، والتوكل عليه، هو الذي يمنح الفرد المسلم القوة الداخلية التي لا تهتز أمام الشدائد والمحن. الإيمان هو الذي يجعله يُقدم على الجهاد غير خائف من الموت، لأنه يعلم أن الموت في سبيل الله هو حياة أبدية.
- **الالتزام بالأخلاق:** الأخلاق الفاضلة هي التي تضمن تماسك المجتمع المجاهد، وتُعزز الثقة بين أفراده، وتُحسن صورة الأمة أمام الآخرين. الصدق، والأمانة، والعدل، والإحسان، والتواضع، والرحمة، كلها أخلاق ضرورية للمجاهد وللمجتمع الذي يخوض الجهاد.
- **الاستعداد للتضحية والبذل:** الجهاد يتطلب تضحية بالمال، وبالوقت، وبالجهد، وبالنفس. الفرد المسلم المعد إيمانياً وأخلاقياً هو الذي يكون مستعداً لهذه التضحيات عن طيب نفس، لأنه يعلم أن ما عند الله خير وأبقى.

3. دور الأسرة والمؤسسات التربوية في غرس روح الجهاد والتضحية في الأجيال الناشئة:

إن بناء الفرد المسلم القوي لا يتم بمعزل عن البيئة التي ينشأ فيها. الأسرة والمؤسسات التربوية (المدارس، المساجد، المراكز الشبابية) تلعب دوراً حيوياً في غرس روح الجهاد والتضحية في الأجيال الناشئة.

- **الأسرة كحاضنة أولى:** الأسرة هي المدرسة الأولى التي يتعلم فيها الطفل قيمه وأخلاقه. يجب على الآباء والأمهات أن يغرسوا في أبنائهم حب الله ورسوله، وحب الجهاد في سبيله، وقيم التضحية والبذل، من خلال القدوة الحسنة، والقصص الهادفة من السيرة النبوية وتاريخ الصحابة، والتربية على معاني الإيمان والتوكل على الله.

- **المؤسسات التعليمية:** يجب أن تُراجع المناهج التعليمية لتُركز على بناء الشخصية المسلمة المتوازنة، التي تجمع بين العلم النافع والتربية الإيمانية والأخلاقية. يجب أن تُغرس في الطلاب قيم الانتماء للأمة، والمسؤولية تجاه قضاياها، وحب الجهاد والتضحية في سبيل الله والوطن. يجب أن تُقدم نماذج حية من تاريخ الأمة في الجهاد والتضحية.
- **المساجد والمراكز الشبابية:** يمكن للمساجد والمراكز الشبابية أن تلعب دوراً تكميلياً هاماً في التربية الإيمانية والأخلاقية للشباب، وتنظيم الأنشطة التي تُعزز روح الانتماء للأمة، وتشجع على العمل التطوعي والبذل في سبيل الله.

4. التركيز على قيم الصبر، والثبات، والإخلاص، والتوكل على الله، والشجاعة، والإيثار كقيم أساسية للمجاهد:

هناك قيم أساسية لا غنى عنها للمجاهد ولكل من يسعى للعمل في سبيل نهضة الأمة. هذه القيم يجب أن تُغرس وتُعزز من خلال التربية والإعداد.

- **الصبر والثبات:** الجهاد طريق طويل وشاق، مليء بالتحديات والصعاب والنكبات أحياناً. يتطلب صبراً عظيماً وثباتاً على المبدأ والهدف، وعدم اليأس أو الإحباط أمام الشدائد. قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (آل عمران: 200).
- **الإخلاص:** الإخلاص لله وحده في الجهاد هو شرط قبوله عند الله وهو مصدر البركة فيه. يجب أن يكون الهدف من الجهاد إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، لا تحقيق مصالح شخصية أو فئوية أو قومية ضيقة.
- **التوكل على الله:** مع الأخذ بالأسباب المادية (إعداد القوة)، يجب أن يكون التوكل على الله هو الأساس. المجاهد يعلم أن النصر من عند الله، وأن الأسباب مجرد وسائل. هذا التوكل يمنحه الطمأنينة والثقة بالنصر حتى لو كانت الأسباب المادية قليلة.
- **الشجاعة:** الجهاد يتطلب شجاعة وإقداماً في مواجهة الأعداء والخوف من الموت. الشجاعة الحقيقية هي شجاعة القلب المستمدة من قوة الإيمان والتوكل على الله.
- **الإيثار:** الجهاد عمل جماعي يتطلب إيثاراً وتضحية بالمصالح الشخصية من أجل مصلحة الجماعة والأمة. المجاهد يُقدم إخوانه على نفسه، ويُفضل مصلحة الأمة على مصلحته الخاصة.

6. الاستدلال بنماذج من الصحابة والسلف الصالح في التربية الجهادية:

تاريخ الصحابة والسلف الصالح مليء بالنماذج العظيمة التي تُجسد التربية الجهادية والإعداد الروحي والأخلاقي الذي سبق الجهاد العسكري.

- **جيل الصحابة:** كان جيل الصحابة هو الجيل القرآني الفريد الذي رباه النبي صلى الله عليه وسلم على عينه. كانت التربية في مدرسة النبوة تُركز على بناء الإيمان القوي، والأخلاق الفاضلة، والاستعداد الكامل للتضحية في سبيل الله. كانوا يتسابقون إلى الجهاد ويُحبون الشهادة أكثر مما يُحبون الحياة. قصصهم في بدر، وأحد، والخندق، وتبوك، وغيرها، تُظهر مدى إيمانهم، وصبرهم، وثباتهم، وتضحيتهم، وإيثارهم. كانوا يُعدون أنفسهم روحياً وإيمانياً قبل أن يُعدوا السلاح.
- **نماذج من السلف:** على مر العصور، برز قادة وجنود من السلف الصالح كانوا مثالاً في التربية الجهادية. صلاح الدين الأيوبي، الذي ربى جيشه على الإيمان والتقوى قبل أن يقودهم لتحرير بيت المقدس. المماليك الأوائل، الذين تميزوا بالروح القتالية العالية والانضباط. هؤلاء وغيرهم كانوا يُدركون أن القوة الحقيقية تنبع من قوة الإيمان وصفاء النفس.

خلاصة المبحث:

إن التربية والإعداد الروحي والإيماني والأخلاقي هما **وقود الجهاد** وأساس قوته وفعاليته. الجهاد ليس مجرد عمل عسكري، بل هو قبل ذلك وبعده بناء للإنسان المسلم القوي في إيمانه، الملتزم بأخلاقه، المستعد للتضحية والبذل في سبيل الله. يتطلب ذلك جهوداً مكثفة من الأسرة والمؤسسات التربوية لغرس روح الجهاد والتضحية في الأجيال الناشئة، والتركيز على قيم الصبر، والثبات، والإخلاص، والتوكل على الله، والشجاعة، والإيثار. إن استعادة الأمة لروحها الجهادية، وبناء الفرد المسلم على هذه الأسس، هو شرط أساسي لكي تتمكن من السير بفعالية على طريق العودة وتحقيق النصر المنشود. بدون هذا الوقود الروحي والأخلاقي، ستظل أي جهود للجهاد ناقصة التأثير أو عرضة للانحراف.

بعد أن أكدنا في المبحث الأول على أن الجهاد في سبيل الله هو طريق العودة الأهم والأولى، وبيّنا في المبحث الثاني ضرورة إعداد القوة الشاملة لكي يكون هذا الجهاد فعالاً، وفي المبحث الثالث أهمية وحدة الصف وقيادة الأمة كشرط للجهاد والنصر، نصل الآن إلى ركيزة أساسية أخرى لا يمكن للجهاد أن يكون مستداماً ومثمراً بدونها، بل هي الأساس الذي تُبنى عليه قوة الدولة من الداخل وتُمكنها من مواصلة الجهاد وتحقيق النصر: **العدل والبناء الداخلي**. إن الدولة التي تخوض الجهاد في سبيل الله، وتُعد القوة لمواجهة الأعداء، وتُسعى لتوحيد صفوف أبنائها، لا يمكن أن تنجح في مسعاها على المدى الطويل إذا كانت تعاني من الظلم، والفساد، والاستبداد، وضعف البناء الداخلي. إن العدل هو أساس قوة الدولة المجاهدة، وهو الذي يضمن تماسك الجبهة الداخلية ورضا الرعية، مما يُعد شرطاً لا غنى عنه لأي جهاد فعال ومستدام.

1. بيان أن الجهاد لا يمكن أن يكون مستداماً ومثمراً إلا إذا كان قائماً على أساس من العدل في الداخل:

الجهاد في سبيل الله ليس مجرد حملة عسكرية مؤقتة، بل هو مسيرة طويلة تتطلب نفساً طويلاً، واستعداداً دائماً، وقدرة على الصمود في وجه التحديات المتجددة. هذه الاستدامة والقدرة على الصمود لا يمكن أن تتحققا إلا إذا كانت الدولة التي تخوض الجهاد قوية من الداخل، وهذا لا يكون إلا بإقامة العدل.

- **الجبهة الداخلية هي أساس الجبهة الخارجية:** الدولة التي تعاني من الظلم والفساد في الداخل تكون جبهتها الداخلية ضعيفة ومفككة. الرعية المستاءة من الظلم لن تكون مستعدة للتضحية والبذل في سبيل دولة تظلمها. الجنود الذين يرون الفساد والتمييز في بلادهم لن يكون لديهم نفس الروح القتالية والإخلاص الذي يمتلكه الجنود الذين يقاتلون في سبيل دولة عادلة يشعرون بالانتماء إليها وبأنها تمثلهم وتحمي حقوقهم.
- **العدل يضمن ولاء الرعية:** عندما تطبق الدولة العدل بين رعيها، ويشعر جميع المواطنين بأن حقوقهم مصونة، وأنهم متساوون أمام القانون، وأن ثروات بلادهم تُدار بشفافية وعدل، فإنهم يلتفون حول دولتهم ويُقدمون لها الولاء والطاعة عن قناعة وحب، لا عن خوف أو إكراه. هذا الولاء الشعبي هو أعظم قوة يمكن أن تمتلكها الدولة في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

- **الظلم يولد الثورات الداخلية:** على العكس، عندما ينتشر الظلم، وتظهر المظالم، ويُفرق بين الناس، ويُستبد بالرأي، فإن ذلك يولد استياءً شعبياً عميقاً يمكن أن يتحول إلى معارضة، ثم إلى ثورات وتمردات داخلية. هذه الثورات الداخلية تستنزف طاقة الدولة ومواردها، وتُضعف جيشها، وتُشتت جهودها، وتجعلها عاجزة عن مواجهة الأعداء الخارجيين بفعالية. التاريخ مليء بالأمثلة على دول قوية عسكرياً سقطت بسبب ضعفها الداخلي الناتج عن الظلم والاستبداد.
- **العدل يُعزز الروح المعنوية:** الروح المعنوية العالية للمقاتلين وللشعب الذي يدعم الجهاد هي عامل حاسم في تحقيق النصر. هذه الروح المعنوية لا يمكن أن تكون عالية ومستدامة إلا إذا كان الناس يشعرون بأنهم يقاتلون في سبيل قضية عادلة، وأن دولتهم تمثل الحق والعدل. الظلم يقتل الروح المعنوية ويُحبط العزائم.

2. أهمية تطبيق مبادئ العدل، والشورى، والمساواة في الدولة التي تخوض الجهاد، لضمان تماسك الجبهة الداخلية ورضا الرعية:

إن مبادئ العدل، والشورى، والمساواة ليست مجرد مثاليات أخلاقية، بل هي ضرورات عملية لبناء الدولة القوية والمتماسكة التي تستطيع خوض الجهاد بفعالية. تطبيق هذه المبادئ يضمن تماسك الجبهة الداخلية ورضا الرعية، وهما شرطان أساسيان لنجاح أي جهد جهادي.

- **العدل:**
    - **في القضاء:** يجب أن يكون القضاء مستقلاً ونزيهاً، يطبق شرع الله على الجميع دون تمييز. القضاء العادل هو صمام الأمان للمجتمع، وهو الذي يضمن حقوق الناس ويمنع انتشار الفوضى والظلم.
    - **في الإدارة:** يجب أن تتسم الإدارة بالكفاءة والشفافية والبعد عن الفساد والمحسوبية. يجب أن تُمنح الفرص بناءً على الكفاءة والجدارة، وأن تُدار شؤون الرعية بعدل وإنصاف.
    - **في توزيع الموارد:** يجب أن تُوزع ثروات البلاد ومواردها بعدل وشفافية على جميع المواطنين، وأن تُوجه لخدمة مصالح الأمة ككل، بما في ذلك تمويل متطلبات الجهاد والإعداد.
    - **مع غير المسلمين:** يجب أن يُعامل غير المسلمين في الدولة الإسلامية بعدل وإحسان، وأن تُصان حقوقهم، وأن يُسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية في إطار

القانون. هذا العدل مع الأقليات يُعزز من تماسك المجتمع ويُحبط محاولات الأعداء لإثارة الفتن الطائفية.

- **الشورى:**
  - **في صناعة القرار:** يجب أن تُطبق الشورى في اتخاذ القرارات الهامة المتعلقة بشؤون الدولة والجهاد. استشارة أهل الرأي والخبرة، وأخذ رأي الأمة في القضايا المصيرية (بما يتناسب مع طبيعة العصر)، يُعزز من شرعية القرارات ويجعل الأمة تشعر بأنها جزء من القرار، مما يزيد من استعدادها لدعمه والتضحية من أجله.
  - **المشاركة الشعبية:** إتاحة آليات للمشاركة الشعبية الفعالة في الحياة العامة (الانتخابات النزيهة، المجتمع المدني، حرية التعبير المسؤولة) يُعزز من تلاحم الناس مع قيادتهم ويُقلل من الاستياء الداخلي.
- **المساواة:**
  - **المساواة أمام القانون:** الجميع سواسية أمام القانون، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح. هذا المبدأ يقضي على العصبيات والتمييز ويُعزز من تماسك المجتمع.
  - **تكافؤ الفرص:** إتاحة الفرص المتساوية للجميع في التعليم، والصحة، والعمل، والمشاركة في الحياة العامة، بناءً على الكفاءة والجدارة، يُقلل من الفجوات الاجتماعية والاقتصادية ويُعزز من شعور المواطنين بالانتماء والولاء للدولة.

تطبيق هذه المبادئ مجتمعة يُشكل الجبهة الداخلية القوية، ويضمن رضا الرعية، ويُحبط محاولات الأعداء لإثارة الفتن الداخلية، مما يُعد شرطاً أساسياً لنجاح أي جهد جهادي.

3. مكافحة الفساد والظلم والاستبداد الذي يضعف الدولة من الداخل ويجعلها عاجزة عن الجهاد الفعال:

على النقيض من العدل والبناء الداخلي، فإن انتشار الفساد، والظلم، والاستبداد هو بمثابة أمراض مزمنة تُضعف الدولة من الداخل وتجعلها عاجزة عن خوض الجهاد بفعالية.

- **الفساد:**

- ◦ **استنزاف الموارد:** الفساد المالي والإداري يستنزف موارد الدولة التي هي أحوج ما تكون إليها لتمويل متطلبات الإعداد والجهاد. الأموال التي تُهدر في الفساد كان يمكن أن تُستخدم لشراء السلاح، أو تدريب الجنود، أو دعم الأسر المحتاجة.
- ◦ **إضعاف المؤسسات:** الفساد يُضعف مؤسسات الدولة، بما في ذلك المؤسسة العسكرية نفسها. عندما ينتشر الفساد في الجيش، يتراجع الانضباط، وتُقدم المصالح الشخصية على المصلحة العامة، وتُهدر الكفاءات، مما يؤثر سلباً على القدرة القتالية.
- ◦ **إفساد الروح المعنوية:** الفساد يُفسد الروح المعنوية للشعب وللجنود. كيف يُطلب من الجندي أن يُضحي بنفسه في سبيل دولة ينتشر فيها الفساد ويُهدر فيها المال العام؟

- **الظلم:**
  - ◦ **استياء الرعية:** الظلم يولد استياءً شعبياً عميقاً، ويُفقد الرعية الثقة في السلطة. هذا الاستياء يمكن أن يتحول إلى معارضة شديدة، بل وإلى تمرد مسلح، مما يُضعف الجبهة الداخلية ويُشتت جهود الدولة.
  - ◦ **فقدان الولاء:** الرعية المظلومة لن تكون وفية لدولتها، ولن تُقدم لها الدعم اللازم في أوقات الشدة.
- **الاستبداد:**
  - ◦ **قتل الإبداع:** الاستبداد بالرأي يُقتل الإبداع والمبادرة في المجتمع والدولة. عندما يُمنع الناس من التعبير عن آرائهم وتقديم النصح، تُفقد الدولة الكثير من الطاقات والكفاءات التي يمكن أن تُساهم في نهضتها وجهادها.
  - ◦ **ضعف اتخاذ القرار:** القرار المستبد غالباً ما يكون قاصراً وغير صائب، لأنه لا يعتمد على مشورة أهل الرأي والخبرة. هذا يؤثر سلباً على الخطط الاستراتيجية والتكتيكية للجهاد.

- **عزل القيادة عن الواقع:** الاستبداد يُعزل القيادة عن واقع المجتمع واحتياجاته وتطلعاته، مما يجعل قراراتها غير متوافقة مع الواقع ويُزيد من الفجوة بين الحاكم والمحكوم.

مكافحة الفساد والظلم والاستبداد ليست مجرد إصلاحات شكلية، بل هي ضرورة حتمية لضمان قوة الدولة من الداخل وقدرتها على خوض الجهاد بفعالية.

4. الربط بين قوة الدولة الداخلية وعدلها وقدرتها على مواصلة الجهاد وتحقيق النصر:

هناك علاقة طردية واضحة بين قوة الدولة الداخلية القائمة على العدل وقدرتها على مواصلة الجهاد وتحقيق النصر.

- **العدل أساس القوة:** الدولة العادلة هي دولة قوية من الداخل. تماسك مجتمعها، ورضا رعيها، وولاؤهم لقيادتها، وكفاءة مؤسساتها الخالية من الفساد، كلها عوامل تُشكل قوة داخلية هائلة لا يمكن لأي عدو أن يُقوضها بسهولة.
- **العدل يدعم الجهاد:** هذه القوة الداخلية الناتجة عن العدل تدعم الجهاد في جميع أبعاده. تُوفر له الموارد البشرية المؤهلة والمستعدة للتضحية، والموارد الاقتصادية اللازمة للتمويل، والمؤسسات الإدارية المنظمة، والقيادة الحكيمة التي تستمد قوتها من شرعيتها وعدلها.
- **الظلم يضعف الجهاد:** على العكس، الدولة الظالمة هي دولة ضعيفة من الداخل، حتى لو امتلكت جيشاً كبيراً أو ثروة طائلة. استياء الرعية، وانتشار الفساد، وضعف المؤسسات، كلها عوامل تُقوض قدرتها على الجهاد. قد تُحقق انتصارات مؤقتة، ولكنها لن تستطيع مواصلة الجهاد على المدى الطويل، وستكون عرضة للسقوط عند أول تحدٍ كبير.
- **النصر من عند الله مرتبط بالعدل:** النصر في الجهاد هو من عند الله، والله ينصر من ينصره. ونصرة الله لدينه مرتبطة بإقامة العدل في الأرض. الدولة التي تسعى لإقامة العدل وتطبيق شرع الله هي الأحق بنصر الله وتأييده.

5. الاستدلال بنماذج من تاريخنا حيث كان العدل سبباً في قوة الدول المجاهدة:

تاريخنا الإسلامي مليء بالنماذج التي تُجسد العلاقة بين العدل وقوة الدولة المجاهدة.

- **عهد الخلفاء الراشدين:** كان عهد الخلفاء الراشدين هو أروع مثال على الدولة المجاهدة القائمة على العدل. كانت هذه الدولة، رغم حداثتها وقلة عددها في البداية، قوية من الداخل بفضل تطبيقها الكامل لمبادئ العدل، والشورى، والمساواة. هذا العدل ضمن ولاء الرعية وتماسك المجتمع، ومكنها من خوض الفتوحات الكبرى وتحقيق انتصارات لم يسبق لها مثيل. الشعوب التي فُتحت رحبت بحكم المسلمين العادل مقارنة بالظلم الذي كانت تعيشه تحت حكم الإمبراطوريات السابقة.
- **صلاح الدين الأيوبي:** في فترة كانت فيها بلاد الشام ومصر تعاني من التفكك السياسي والخطر الصليبي، تمكن صلاح الدين الأيوبي من توحيد هذه البلاد تحت رايته. لم يعتمد صلاح الدين على القوة العسكرية وحدها، بل سعى لإصلاح الأوضاع الداخلية، ونشر العدل، ومكافحة الفساد، ودعم العلماء. هذا البناء الداخلي وإقامة العدل ضمن له التفاف الشعب حوله ودعمه في جهاده ضد الصليبيين، مما مكنه من تحقيق انتصارات عظيمة كان أبرزها تحرير بيت المقدس.
- **فترات قوة المماليك والعثمانيين:** في فترات قوتهم، تميز بعض سلاطين المماليك والعثمانيين بالحرص على إقامة العدل، وتنظيم شؤون الدولة، ومكافحة الفساد. هذا العدل الداخلي ساهم في استقرار دولهم وقدرتها على مواصلة الجهاد والتوسع. وعندما بدأ الظلم والفساد ينتشران في فترات الضعف، بدأت الدولة تعاني من الداخل وتفقد قدرتها على الجهاد الفعال.

خلاصة المبحث:

إن العدل والبناء الداخلي هما **أساس قوة الدولة المجاهدة**. لا يمكن للجهاد أن يكون مستداماً ومثمراً إلا إذا كان قائماً على أساس راسخ من العدل في الداخل. يتطلب ذلك تطبيق مبادئ العدل، والشورى، والمساواة في الدولة التي تخوض الجهاد، لضمان تماسك الجبهة الداخلية ورضا الرعية. كما يجب مكافحة الفساد والظلم والاستبداد الذي يضعف الدولة من الداخل ويجعلها عاجزة عن الجهاد الفعال. التاريخ الإسلامي مليء بالنماذج التي تُثبت أن قوة الدولة الداخلية وعدلها هما شرط أساسي لقدرتها على مواصلة الجهاد وتحقيق النصر. إن السعي لإقامة العدل في الداخل هو جزء لا يتجزأ من الجهاد في سبيل الله، وهو الطريق إلى بناء الدولة القوية التي تستطيع حمل راية الجهاد وتحقيق النصر المنشود. بدون العدل، ستظل أي جهود للجهاد ضعيفة ومحدودة التأثير، وستكون الأمة عرضة للسقوط من الداخل قبل أن تُهزم من الخارج.

المبحث السادس: طبيعة النظام الاقتصادي الإسلامي: منهج للنهوض والعدالة

بعد أن تناولنا في المباحث السابقة الركائز الأساسية لطريق العودة، من الجهاد كأولوية، إلى إعداد القوة الشاملة، ووحدة الصف والقيادة، والتربية والإعداد الروحي والأخلاقي، والعدل والبناء الداخلي، نصل الآن إلى جانب حيوي آخر لا يمكن لأي نهوض أن يكتمل بدونه: الجانب الاقتصادي. لقد أشرنا سابقاً إلى أهمية إصلاح الاقتصاد وتنميته ليكون قادراً على تمويل متطلبات الإعداد والجهاد، ولكن الحديث عن الاقتصاد في مشروع النهوض لا يقتصر على مجرد توفير التمويل. بل يجب أن نتناول طبيعة النظام الاقتصادي الذي يجب أن تسعى الأمة لإقامته، نظام يستمد مبادئه وقيمه من الشريعة الإسلامية، ويهدف إلى تحقيق التنمية الشاملة، والعدالة الاجتماعية، والرخاء لجميع أبناء الأمة.

إن النظم الاقتصادية السائدة في العالم اليوم، رغم ما حققته من تقدم مادي في بعض جوانبها، تعاني من مشاكل هيكلية عميقة، مثل الفجوات الكبيرة بين الأغنياء والفقراء، والأزمات المالية المتكررة، والاستغلال، والظلم. إن الأمة الإسلامية، وهي تسعى للنهوض واستعادة دورها الريادي، لا يجب أن تستنسخ هذه النظم بحذافيرها، بل يجب أن تُقدم نموذجاً اقتصادياً بديلاً، يقوم على قيمها ومبادئها، ويُحقق التنمية المستدامة والعدالة للجميع. إن إقامة نظام اقتصادي إسلامي ليس مجرد تطبيق لأحكام شرعية جامدة، بل هو بناء لمنهج حياة اقتصادي متكامل، يُحقق التوازن بين المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية، ويُعزز القيم الأخلاقية في التعاملات المالية، ويُوفر بيئة اقتصادية مستقرة وعادلة تُسهم في قوة الأمة وازدهارها.

1. المبادئ الأساسية للنظام الاقتصادي الإسلامي: رؤية ربانية للمال والحياة

يقوم النظام الاقتصادي الإسلامي على مجموعة من المبادئ الأساسية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، والتي تُميزه عن النظم الاقتصادية الوضعية وتُقدم رؤية فريدة للمال والحياة الاقتصادية.

- الملكية لله والاستخلاف للإنسان: يقر النظام الاقتصادي الإسلامي بأن الملكية الحقيقية المطلقة هي لله عز وجل وحده، وأن ما في أيدي الناس من أموال وموارد هو ملك لله، وأن الإنسان مجرد مستخلف عليها، ومؤتمن على إدارتها وتنميتها وإنفاقها وفق ما أمر الله. قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم

مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد: 7). هذا المبدأ يُرسخ الشعور بالمسؤولية تجاه المال، ويُبعد الإنسان عن الأنانية المفرطة والجشع، ويجعله يُدرك أن المال وسيلة لتحقيق غايات أسمى، وليس غاية في حد ذاته.

- تحريم الربا: يُعد تحريم الربا (الفائدة على القروض والمعاملات المالية) من أبرز سمات النظام الاقتصادي الإسلامي. الربا يُعتبر ظلماً واستغلالاً، حيث يُمكن صاحب المال من زيادة ثروته دون جهد أو مخاطرة، ويُثقل كاهل المدين. الربا يُؤدي إلى تركيز الثروة في أيدي قليلة، ويُشجع على الكسل والمضاربة بدلاً من العمل والإنتاج الحقيقي، ويُسبب الأزمات المالية. قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: 275). تحريم الربا يفتح الباب أمام صيغ تمويل بديلة قائمة على المشاركة في الربح والخسارة (مثل المضاربة والمرابحة والمشاركة)، والتي تُشجع على الاستثمار الحقيقي والإنتاج.
- فرض الزكاة: الزكاة هي ركن من أركان الإسلام، وهي فريضة مالية على الأغنياء تُؤخذ من أموالهم وتُعطى للفقراء والمساكين والمستحقين. الزكاة ليست مجرد ضريبة، بل هي حق معلوم للسائل والمحروم، وهي آلية أساسية لإعادة توزيع جزء من الثروة، ومكافحة الفقر، وتحقيق التكافل الاجتماعي، وتطهير نفس المزكي من الشح والبخل. قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة: 103). الزكاة تُحفز الدورة الاقتصادية وتُقلل الفجوات بين الطبقات، وتُعزز المحبة والأخوة في المجتمع.
- أهمية العمل والإنتاج والكسب الحلال: يُعلي الإسلام من شأن العمل والإنتاج والكسب الحلال، ويُعتبر العمل عبادة إذا صحت النية. يُحرم الإسلام الكسب من الطرق المحرمة (كالربا، والرشوة، والسرقة، والغش، والقمار). يُشجع على السعي في الأرض وطلب الرزق الحلال. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (الملك: 15). العمل والإنتاج هما أساس بناء الاقتصاد القوي وتحقيق الرخاء.
- تحريم الغرر والميسر: يُحرم الإسلام الغرر (المعاملات التي تحتوي على جهالة كبيرة ومخاطرة غير محسوبة) والميسر (القمار). هذه المعاملات تُؤدي إلى أكل أموال الناس بالباطل، وتُشجع على الكسب السهل دون جهد، وتُسبب الأزمات المالية

والاجتماعية. تحريمها يُعزز من استقرار المعاملات المالية ويُشجع على الاستثمار القائم على الوضوح والمخاطرة المحسوبة.

- **تحقيق العدالة في التوزيع ومنع تركيز الثروة:** يهدف النظام الاقتصادي الإسلامي إلى تحقيق العدالة في توزيع الثروة ومنع تركيزها في أيدي قليلة. من خلال آليات مثل الزكاة، والميراث (الذي يُفتت الثروة بين الورثة)، وتحريم الربا، وتحريم الاحتكار، وتشجيع الصدقات والأوقاف، يسعى النظام إلى ضمان توزيع أكثر عدالة للثروة في المجتمع. قال تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر: 7).
- **الإطار الأخلاقي للتعاملات:** تُحكم جميع التعاملات الاقتصادية في الإسلام بإطار أخلاقي متين. يُحث على الصدق، والأمانة، والوفاء بالعهود، والتسامح في البيع والشراء، ونبذ الغش والخداع والاستغلال. هذه القيم الأخلاقية تُعزز الثقة بين المتعاملين وتُساهم في استقرار السوق ونموه.

2. آليات تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في الواقع المعاصر: تحديات وحلول

تطبيق مبادئ النظام الاقتصادي الإسلامي في الواقع المعاصر، في ظل سيادة النظم الاقتصادية الوضعية وتحديات العولمة، يتطلب جهوداً كبيرة ورؤية واضحة.

- **تطوير المؤسسات المالية الإسلامية:** شهد العالم في العقود الأخيرة نمواً ملحوظاً في قطاع التمويل الإسلامي (البنوك الإسلامية، شركات التأمين التكافلي، الصكوك الإسلامية). يجب دعم هذه المؤسسات وتطويرها لتكون أكثر كفاءة وابتكاراً وقدرة على تقديم حلول تمويلية واستثمارية متوافقة مع الشريعة تلبي احتياجات الأفراد والمؤسسات والدول.
- **إصدار التشريعات والقوانين:** يتطلب تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي إصدار تشريعات وقوانين منظمة للنشاط الاقتصادي تتوافق مع مبادئه وأسسه، وتُكافح الربا، والغرر، والميسر، والاحتكار، والفساد المالي.
- **تفعيل دور الزكاة والأوقاف:** يجب تفعيل دور مؤسسات الزكاة والأوقاف لتكون قادرة على جمع أموال الزكاة والأوقاف وإدارتها وتوزيعها بكفاءة وشفافية على المستحقين والمصارف الشرعية، ليكون لها دور حقيقي في مكافحة الفقر وتحقيق التكافل الاجتماعي ودعم المشاريع التنموية.

- **تشجيع الاستثمار والإنتاج الحقيقي: يجب توجيه الاستثمارات نحو القطاعات الإنتاجية الحقيقية (الصناعة، الزراعة، التكنولوجيا) بدلاً من التركيز على المضاربات المالية غير المنتجة. يجب توفير البيئة المناسبة للاستثمار والإنتاج، وتبسيط الإجراءات، ومكافحة الفساد.**
- **تحقيق العدالة الاجتماعية في التوزيع: يجب وضع سياسات اقتصادية تهدف إلى تحقيق عدالة أكبر في توزيع الثروة والدخل، وتقليل الفجوات بين الطبقات، وتوفير شبكات الأمان الاجتماعي للمحتاجين، وضمان تكافؤ الفرص الاقتصادية للجميع.**
- **دور الدولة في الرقابة والتوجيه: للدولة دور هام في النظام الاقتصادي الإسلامي في الرقابة على الأسواق لمنع الغش والاحتكار والاستغلال، وفي توجيه النشاط الاقتصادي نحو ما يحقق المصلحة العامة للأمة، وفي ضمان تطبيق القوانين والتشريعات الاقتصادية الشرعية.**

3. النظام الاقتصادي الإسلامي كداعم للمشروع الحضاري الشامل للأمة

لا ينفصل النظام الاقتصادي الإسلامي عن بقية جوانب المشروع الحضاري الشامل للأمة، بل هو داعم أساسي له ومُحقق لأهدافه.

- **توفير الموارد للجهاد والإعداد: الاقتصاد القوي القائم على مبادئ الإسلام يوفر الموارد المالية اللازمة لتمويل متطلبات الإعداد للقوة الشاملة والجهاد في سبيل الله. المال هو عصب الحرب، والاقتصاد الإسلامي يسعى لتوفير هذا العصب من طرق حلال وبمباركة من الله.**
- **تحقيق العدالة والاستقرار الداخلي: النظام الاقتصادي الإسلامي، من خلال تركيزه على العدالة في التوزيع ومكافحة الفساد والاستغلال، يُساهم في تحقيق الاستقرار الداخلي للمجتمع والدولة، ويُقلل من أسباب الاضطرابات الداخلية الناتجة عن الظلم الاقتصادي. هذا الاستقرار الداخلي ضروري لأي جهاد فعال.**
- **تعزيز التكافل ووحدة الصف: الزكاة والصدقات والأوقاف تُعزز روح التكافل والتعاون بين أبناء المجتمع، وتُقلل من الحسد والتباغض الناتج عن الفجوات الاقتصادية الكبيرة. هذا التكافل يُساهم في وحدة الصف وتماسك الجبهة الداخلية.**

- **بناء مجتمع منتج وقوي: تشجيع العمل والإنتاج والإتقان في النظام الاقتصادي الإسلامي يُساهم في بناء مجتمع منتج وقوي، يعتمد على نفسه ولا يكون تابعاً للغير في احتياجاته الأساسية.**
- **تقديم نموذج عالمي بديل: في ظل الأزمات التي تعاني منها النظم الاقتصادية الوضعية، يمكن للنظام الاقتصادي الإسلامي، إذا طُبق بشكل صحيح وأظهر نتائجه الإيجابية في تحقيق التنمية والعدالة، أن يُقدم نموذجاً عالمياً بديلاً، ويُثبت أن الإسلام ليس مجرد دين عبادات، بل هو منهج حياة متكامل قادر على حل مشكلات البشرية.**

خلاصة المبحث:

إن طبيعة النظام الاقتصادي الإسلامي، القائم على مبادئ ربانية سامية، هو منهج للنهوض والعدالة، وداعم أساسي للمشروع الحضاري الشامل للأمة. ليس الهدف مجرد توفير التمويل، بل بناء نظام اقتصادي متكامل يُحقق التنمية الشاملة، والعدالة في التوزيع، والرخاء لجميع أبناء الأمة، مع الالتزام بالقيم الأخلاقية في جميع التعاملات. من خلال تطبيق مبادئ مثل تحريم الربا، وفرض الزكاة، وتشجيع العمل والإنتاج، ومكافحة الغرر والميسر، وتحقيق العدالة في التوزيع، يمكن للأمة أن تُقيم نظاماً اقتصادياً قوياً ومستداماً. هذا النظام الاقتصادي الإسلامي سيكون داعماً أساسياً للجهاد والإعداد، ومُحققاً للاستقرار الداخلي، ومُعززاً للتكافل ووحدة الصف، وقادراً على تقديم نموذج عالمي بديل. إن السير على طريق العودة يتطلب حتماً إصلاحاً اقتصادياً شاملاً يقوم على أسس ومبادئ النظام الاقتصادي الإسلامي.

بعد أن تناولنا في المباحث السابقة الركائز الأساسية لطريق العودة، من الجهاد كأولوية، إلى إعداد القوة الشاملة، ووحدة الصف والقيادة، والتربية والإعداد الروحي والأخلاقي، والعدل والبناء الداخلي، وطبيعة النظام الاقتصادي الإسلامي، نصل الآن إلى جانب حيوي آخر لا يمكن لأي مشروع نهضوي أن يكتب له النجاح في العصر الحديث بدونه: الإعلام والخطاب المؤثر. في عالم اليوم، حيث تتسارع وتيرة تدفق المعلومات، وتتعدد وسائل الاتصال، وتتشكل الآراء وتُوجه الجماهير عبر الشاشات والموجات الرقمية، يُصبح امتلاك زمام الإعلام وتطوير خطاب مؤثر أمراً لا غنى عنه لأي أمة تسعى لاستعادة مكانتها وتوجيه مسيرتها. إن الإعلام والخطاب هما أدوات قوية لـ بناء الوعي وتوجيه المسيرة على طريق العودة.

لقد كان الإعلام، بأشكاله المختلفة عبر التاريخ (الخطابة، الشعر، الرسائل، الكتب)، يلعب دوراً هاماً في توجيه الرأي العام وتعبئة الجماهير. ولكن في العصر الحديث، ومع ظهور وسائل الإعلام الجماهيرية (الصحافة، الإذاعة، التلفزيون) ثم وسائل الإعلام الرقمية وشبكات التواصل الاجتماعي، أصبح تأثير الإعلام أكبر وأوسع نطاقاً من أي وقت مضى. إن الأمة الإسلامية، وهي تواجه تحديات جسيمة وحملات تشويه ممنهجة، تحتاج حاجة ماسة إلى تطوير قدراتها في هذا المجال الحيوي لتكون قادرة على إيصال صوتها، وتقديم رسالتها، وبناء الوعي اللازم لتحقيق النهوض المنشود.

1. قوة الإعلام والخطاب في العصر الحديث: تشكيل الوعي وتوجيه الجماهير

يُعد الإعلام في العصر الحديث قوة هائلة تمتلك القدرة على تشكيل الوعي الفردي والجماعي، والتأثير في الرأي العام، وتوجيه سلوك الجماهير.

- مصادر المعلومات الرئيسية: أصبح الإعلام، بجميع أشكاله، هو المصدر الرئيسي للمعلومات بالنسبة لغالبية الناس في العالم. ما يُقدمه الإعلام من أخبار، وتحليلات، وصور، ومقاطع فيديو، يُشكل فهم الناس للعالم من حولهم، وللأحداث التي تجري فيه.

- **تشكيل الصور النمطية:** للإعلام دور كبير في تشكيل الصور النمطية عن الشعوب، والثقافات، والأديان. يمكن للإعلام أن يُقدم صورة إيجابية أو سلبية عن فئة معينة، مما يُؤثر في كيفية تعامل الآخرين معها.
- **التأثير في الرأي العام:** يمكن للإعلام، من خلال تكرار رسائل معينة، والتركيز على جوانب محددة من القضايا، وتوظيف الخبراء والمحللين، أن يُؤثر بشكل كبير في الرأي العام ويُوجهه في اتجاه معين.
- **التعبئة والتجييش:** في أوقات الأزمات أو الصراعات، يمكن للإعلام أن يُستخدم كأداة قوية لتعبئة الجماهير وتجييشها لدعم قضية معينة أو الوقوف في وجه عدو معين.
- **الحرب الإعلامية:** في عالم اليوم، أصبحت الحرب الإعلامية لا تقل أهمية عن الحرب العسكرية. تسعى القوى المتصارعة إلى السيطرة على السرد، وتشويه صورة الخصم، وكسب تأييد الرأي العام الداخلي والخارجي من خلال وسائل الإعلام.

إن إدراك هذه القوة الهائلة للإعلام والخطاب في العصر الحديث هو الخطوة الأولى نحو تطوير قدرات الأمة في هذا المجال الحيوي.

2. بناء الوعي: فهم التاريخ، الهوية، والتحديات الراهنة

إن أي مشروع نهضوي يجب أن يبدأ بـ بناء الوعي لدى أبناء الأمة. الوعي بالتاريخ العظيم، والهوية الإسلامية الأصيلة، والتحديات الجسيمة التي تواجه الأمة في العصر الراهن. الإعلام والخطاب المؤثر هما أدوات أساسية لتحقيق هذا الهدف.

- **الوعي بالتاريخ:** يجب أن يُستخدم الإعلام لتعريف الأجيال الشابة بتاريخ الأمة الإسلامية العظيم، وعصور قوتها وازدهارها، وإنجازاتها الحضارية، وقادتها العظام، وعلمائها الأفذاذ، وتجاربها في الجهاد والبناء. فهم التاريخ يمنح الأمة الثقة بالنفس، ويعزز الانتماء، ويُقدم دروساً وعبر للمستقبل.
- **الوعي بالهوية الإسلامية:** يجب أن يُركز الخطاب الإعلامي على تعزيز الوعي بالهوية الإسلامية الجامعة، التي تتجاوز الانتماءات العرقية أو القومية أو المذهبية الضيقة. يجب إبراز قيم الإسلام ومبادئه، وجمالياته، وشموليته كمنهج حياة. يجب تحصين الأجيال ضد محاولات طمس الهوية أو تشويهها.

- **الوعي بالتحديات: يجب أن يُبصر الإعلام أبناء الأمة بالتحديات الحقيقية التي تواجهها في العصر الراهن، سواء كانت تحديات داخلية (كالفساد، والظلم، والانقسام، والتخلف العلمي والاقتصادي) أو تحديات خارجية (كالاحتلال، والعدوان، والتبعية، وحملات التشويه، والغزو الفكري). الوعي بهذه التحديات هو الخطوة الأولى نحو العمل على مواجهتها.**
- **الوعي بالفرص والإمكانيات: إلى جانب التحديات، يجب أن يُبرز الإعلام أيضاً الفرص والإمكانيات الهائلة التي تمتلكها الأمة (الموارد البشرية، المادية، الموقع الاستراتيجي، الإرث الحضاري)، وأن يُغرس في نفوس أبنائها الأمل في المستقبل والقدرة على التغيير.**

3. مواجهة حملات التشويه وتقديم صورة الإسلام السمحة والمعتدلة

تعاني صورة الإسلام والمسلمين في العالم اليوم من حملات تشويه ممنهجة ومغرضة، تُقدم الإسلام على أنه دين عنف وتطرف وإرهاب، وتُربط المسلمين بالتخلف والرجعية. الإعلام والخطاب المؤثر هما أدوات أساسية لـ مواجهة هذه الحملات وتقديم صورة الإسلام السمحة والمعتدلة والحقيقية للعالم.

- **تفنيد الشبهات والأكاذيب: يجب أن يُستخدم الإعلام بفعالية لتفنيد الشبهات والأكاذيب التي تُثار حول الإسلام والمسلمين، وتقديم الردود العلمية والمنطقية عليها بلغات مختلفة.**
- **إبراز القيم الإنسانية في الإسلام: يجب التركيز على إبراز القيم الإنسانية المشتركة في الإسلام، مثل الرحمة، والعدل، والتسامح، والإحسان، واحترام كرامة الإنسان، وحقوق المرأة والطفل، وحماية البيئة. هذه القيم هي قيم عالمية يمكن أن تتواصل وتتفاهم معها الشعوب الأخرى.**
- **تقديم النموذج العملي: إن أفضل وسيلة لمواجهة حملات التشويه هي تقديم النموذج العملي. عندما يرى العالم مجتمعات إسلامية عادلة، ومتقدمة، ومزدهرة، ومتسامحة، تحترم حقوق الإنسان، وتُساهم في بناء الحضارة الإنسانية، فإن ذلك سيكون أقوى رد على حملات التشويه. يجب أن يُبرز الإعلام هذه النماذج الإيجابية.**

- **استخدام لغة عالمية ومؤثرة: يجب تطوير خطاب إعلامي يستخدم لغة عالمية ومؤثرة، تخاطب عقول وقلوب الناس من مختلف الثقافات والخلفيات، وتُقدم الإسلام بصورته الحقيقية البعيدة عن الغلو والتطرف.**

4. تطوير خطاب مؤثر: مخاطبة العقول والقلوب وتوجيه العمل

إن بناء الوعي ومواجهة حملات التشويه يتطلب تطوير خطاب مؤثر لا يكتفي بنقل المعلومات، بل يخاطب العقول والقلوب، ويُحفز على العمل، ويُوجه المسيرة نحو الأهداف المنشودة.

- **الصدق والمصداقية: يجب أن يتسم الخطاب الإعلامي بالصدق والمصداقية، وأن يستند إلى الحقائق والأدلة. فقدان المصداقية يُفقد الخطاب تأثيره ويُضعف الثقة فيه.**
- **الوضوح والبساطة: يجب أن يكون الخطاب واضحاً ومبسطاً، بعيداً عن التعقيد والغموض، لكي يصل إلى أكبر شريحة من الجمهور.**
- **التنوع في الوسائل والأساليب: يجب استخدام وسائل الإعلام المختلفة (التلفزيون، الإذاعة، الإنترنت، وسائل التواصل الاجتماعي، الأفلام، الوثائقيات، الكتب، المقالات) وتوظيف أساليب متنوعة (القصة، الحوار، التحليل، الرسوم البيانية، الفيديو) لكي يصل الخطاب إلى جماهير مختلفة وبطرق مؤثرة.**
- **التركيز على الحلول والأمل: يجب أن يُركز الخطاب على تقديم الحلول للتحديات التي تواجه الأمة، وأن يُغرس في نفوس أبنائها الأمل في المستقبل والقدرة على التغيير، بدلاً من التركيز على المشكلات فقط مما قد يؤدي إلى اليأس والإحباط.**
- **الربط بين النظرية والتطبيق: يجب أن يُربط الخطاب بين المبادئ والقيم الإسلامية وبين واقع الحياة والتحديات المعاصرة، وأن يُقدم رؤى عملية لكيفية تطبيق هذه المبادئ في الحياة اليومية وفي بناء المشروع الحضاري.**
- **توجيه العمل: يجب أن يُوجه الخطاب الإعلامي أبناء الأمة نحو العمل الجاد، والبذل، والتضحية، والمشاركة في بناء المشروع الحضاري، كل في مجاله. يجب أن يُحفز على الوحدة والتكاتف والتعاون.**

5. الإعلام كأداة لتعبئة وتوجيه المسيرة على طريق العودة

في سياق طريق العودة الذي نتحدث عنه، يُصبح الإعلام أداة حيوية لـ تعبئة أبناء الأمة وتوجيه مسيرتهم نحو تحقيق الأهداف المنشودة، وفي مقدمتها الجهاد بأبعاده الشاملة.

- التعبئة للجهاد: في أوقات الجهاد العسكري للدفاع عن النفس والأرض والمقدسات، يلعب الإعلام دوراً حاسماً في تعبئة الجماهير، وشرح أهداف الجهاد وشرعيته، وإبراز بطولات المجاهدين، وغرس روح التضحية والبذل في سبيل الله.
- توجيه الجهود: يمكن للإعلام أن يُوجه جهود أبناء الأمة نحو الأولويات الصحيحة في المشروع الحضاري، مثل تشجيع الاستثمار في البحث العلمي والصناعة، أو دعم المشاريع التنموية، أو المشاركة في العمل التطوعي، أو مكافحة الفساد.
- تعزيز الوحدة والتكاتف: يمكن للإعلام أن يُساهم في تعزيز الوحدة والتكاتف بين أبناء الأمة من خلال إبراز المشتركات، ونبذ التعصب، وتشجيع الحوار، وتقديم نماذج ناجحة للتعاون والعمل المشترك.
- مواجهة الإشاعات والفتن: في أوقات التحديات، تنتشر الإشاعات والفتن التي تهدف إلى إضعاف الجبهة الداخلية. يمكن للإعلام الموثوق أن يُواجه هذه الإشاعات ويفندها، ويُحافظ على تماسك المجتمع.
- إبراز النماذج الإيجابية: يجب أن يُبرز الإعلام النماذج الإيجابية من أبناء الأمة في مختلف المجالات (العلماء، المبتكرون، رواد الأعمال، القادة المخلصون، المجاهدون الصادقون) ليكونوا قدوة للأجيال الشابة ويُلهموهم للعمل والبذل.

6. الحاجة إلى الكفاءات المتخصصة في الإعلام والاتصال

إن تحقيق الأهداف المذكورة أعلاه يتطلب الاستثمار في بناء الكفاءات المتخصصة في مجالات الإعلام والاتصال.

- التأهيل والتدريب: يجب توفير فرص التأهيل والتدريب المتقدم للشباب المسلم في مجالات الصحافة، والإذاعة، والتلفزيون، والإعلام الرقمي، والاتصال الاستراتيجي، والإنتاج الإعلامي، بلغات مختلفة.
- المهنية والاحترافية: يجب أن يتمتع العاملون في الإعلام بالمهنية والاحترافية العالية، وأن يلتزموا بأخلاقيات المهنة، وأن يكونوا قادرين على استخدام أحدث التقنيات والأساليب الإعلامية.

- **الوعي الشرعي والحضاري: يجب أن يتمتع العاملون في الإعلام بوعي شرعي وحضاري عميق، لكي يكونوا قادرين على تقديم رسالة الإسلام بصورتها الصحيحة، وفهم التحديات التي تواجه الأمة، وتطوير خطاب مؤثر ومسؤول.**
- **دعم المؤسسات الإعلامية المستقلة: يجب دعم المؤسسات الإعلامية المستقلة التي تلتزم بالمهنية والمصداقية وتعمل على خدمة قضايا الأمة.**

خلاصة المبحث:

إن الإعلام والخطاب المؤثر هما أدوات قوية لـ بناء الوعي وتوجيه المسيرة على طريق العودة. في عالم اليوم، لا يمكن لأي مشروع نهضوي أن ينجح بدون امتلاك زمام الإعلام وتطوير خطاب مؤثر. يتطلب ذلك إدراك قوة الإعلام في تشكيل الوعي وتوجيه الجماهير، والعمل على بناء الوعي بالتاريخ والهوية والتحديات، ومواجهة حملات التشويه بتقديم صورة الإسلام السمحة والمعتدلة، وتطوير خطاب مؤثر يخاطب العقول والقلوب ويُحفز على العمل، واستخدام الإعلام كأداة لتعبئة وتوجيه المسيرة نحو الجهاد بأبعاده الشاملة. كل هذا يتطلب الاستثمار في بناء الكفاءات المتخصصة في مجالات الإعلام والاتصال. إن السير على طريق العودة يتطلب حتماً ثورة في مجال الإعلام والخطاب، ليكون قادراً على حمل رسالة الأمة إلى العالم، وتعبئة أبنائها لتحقيق النهوض المنشود.

المبحث الثامن: التعامل مع التحديات الفكرية والثقافية: تحصين الهوية وبناء الوعي النقدي

بعد أن تناولنا في المباحث السابقة الركائز الأساسية لطريق العودة، من الجهاد كأولوية، إلى إعداد القوة الشاملة، ووحدة الصف والقيادة، والتربية والإعداد الروحي والأخلاقي، والعدل والبناء الداخلي، وطبيعة النظام الاقتصادي الإسلامي، ودور الإعلام والخطاب المؤثر، نصل الآن إلى جانب لا يقل خطورة، بل ربما هو التحدي الأكثر خفاءً وتغلغلاً في واقع الأمة اليوم: التحديات الفكرية والثقافية. إن الأمة الإسلامية لا تواجه تحديات عسكرية واقتصادية وسياسية فحسب، بل تواجه أيضاً غزواً فكرياً وثقافياً هائلاً يهدف إلى طمس هويتها، وتشويه قيمها، وزعزعة ثقتها بنفسها وتاريخها. إن التعامل مع هذه التحديات يتطلب استراتيجية واضحة لـ تحصين الهوية وبناء الوعي النقدي لدى أبناء الأمة.

في عالم اليوم، حيث تتسارع وتيرة العولمة، وتتداخل الثقافات، وتُبث الأفكار والقيم عبر الحدود بلا قيود، تُصبح حماية الهوية الثقافية والفكرية للأمة أمراً حيوياً. إن الأمة التي تفقد هويتها وتذوب في ثقافات الآخرين، تفقد قدرتها على الإبداع والنهوض، وتُصبح مجرد تابع يستهلك ما يُنتجه الآخرون فكرياً وثقافياً. لذلك، يجب أن يكون تحصين الهوية وبناء الوعي النقدي ركيزة أساسية في مشروع النهوض المتكامل على طريق العودة.

1. طبيعة التحديات الفكرية والثقافية في العصر الحديث: الغزو الناعم

تختلف التحديات الفكرية والثقافية في العصر الحديث عن التحديات العسكرية التقليدية. إنها تحديات "ناعمة" تتسلل إلى العقول والقلوب، وتُؤثر في القيم والمعتقدات، وتُغير أنماط السلوك والتفكير.

- الغزو الفكري الممنهج: تتعرض الأمة لحملات فكرية ممنهجة تهدف إلى:
  - تشويه صورة الإسلام: بتقديمه على أنه دين عنف، أو تخلف، أو لا يتوافق مع العصر الحديث.
  - التشكيك في ثوابت الدين: من خلال إثارة الشبهات حول القرآن الكريم والسنة النبوية، أو حول أحكام الشريعة، أو حول تاريخ الإسلام وشخصياته العظيمة.
  - نشر الإلحاد واللاأدرية: من خلال الترويج لتيارات فكرية تُنكر وجود الخالق، أو تُشكك في الغيبيات، أو تُقدم العلم كبديل للدين.

- التروويج للقيم الغربية المطلقة: بتقديم القيم الغربية (مثل الحرية المطلقة، الفردانية المفرطة، الإباحية) على أنها قيم كونية يجب على الجميع تبنيها، وتصوير القيم الإسلامية على أنها رجعية أو متخلفة.
- إضعاف الروابط الأسرية والاجتماعية: من خلال الترويج لأفكار تُفكك الأسرة، وتُضعف الروابط الاجتماعية، وتُشجع على الأنانية والفردانية.

- التأثير الثقافي السلبي: يتمثل في:
  - التبعية الثقافية: استهلاك المنتجات الثقافية الغربية (أفلام، مسلسلات، موسيقى، أزياء) دون وعي نقدي، مما يؤدي إلى تقليد أعمى لأنماط الحياة الغربية وقيمها.
  - طمس الهوية المحلية: تراجع الاهتمام باللغة العربية، والتراث الإسلامي، والفنون والآداب الأصيلة، لصالح الثقافات الأجنبية.
  - الاستهلاك المفرط والترف: الترويج لثقافة الاستهلاك المفرط والبحث عن الملذات والترف، مما يُبعد الأمة عن قيم العمل والإنتاج والتضحية.
- وسائل الانتشار الواسعة: تنتشر هذه التحديات عبر وسائل الإعلام الحديثة وشبكات التواصل الاجتماعي، والإنترنت، والأفلام، والمسلسلات، والألعاب الإلكترونية، مما يجعلها تصل إلى كل بيت وكل فرد، خاصة الأجيال الشابة.

2. تحصين الهوية الإسلامية: الأصالة والاعتزاز بالتراث

لمواجهة هذا الغزو الفكري والثقافي، يجب أن يكون تحصين الهوية الإسلامية أولوية قصوى. الهوية الإسلامية ليست مجرد انتماء شكلي، بل هي منظومة متكاملة من العقيدة، والقيم، والأخلاق، واللغة، والتاريخ، والتراث، تُشكل شخصية الأمة وتُميزها.

- العودة إلى المصادر الأصيلة: يجب العودة إلى المصادر الأصيلة للإسلام (القرآن والسنة) بفهم صحيح ومعتدل، بعيداً عن الغلو والتطرف، لترسيخ العقيدة الصحيحة والقيم الإسلامية الأصيلة في نفوس أبناء الأمة.
- الاعتزاز باللغة العربية: اللغة العربية هي لغة القرآن، وهي جزء لا يتجزأ من الهوية الإسلامية. يجب تعزيز مكانة اللغة العربية، وتشجيع تعليمها وتعلمها، والاعتزاز بها، واستخدامها في جميع مجالات الحياة.

- **الاعتزاز بالتاريخ والتراث:** يجب تعريف الأجيال بتاريخ الأمة الإسلامية العظيم، وإنجازاتها الحضارية، وعلمائها الأفذاذ، وقادتها العظام. يجب أن يُغرس في نفوسهم الاعتزاز بهذا التراث الغني، وفهم الدروس والعبر منه، دون الوقوع في فخ التمجيد الأعمى أو جلد الذات المفرط.
- **بناء الوعي بالقدوة:** يجب إبراز النماذج الإيجابية من تاريخ الأمة وحاضرها، من العلماء، والقادة، والمفكرين، والشباب المبدعين، الذين يجمعون بين الالتزام الديني والكفاءة الدنيوية، ليكونوا قدوة للأجيال الشابة.
- **الانفتاح الواعي على الثقافات الأخرى:** تحصين الهوية لا يعني الانغلاق على الذات أو رفض كل ما هو أجنبي. بل يعني الانفتاح الواعي على الثقافات الأخرى، والاستفادة مما فيها من خير ونافع، مع الحفاظ على الثوابت والقيم الإسلامية، ورفض ما يتعارض معها. هذا هو منهج الإسلام الذي أمرنا بالحكمة وأخذها أنى وجدت.

3. بناء الوعي النقدي: تحليل المعلومات وتمييز الحق من الباطل

في عصر تدفق المعلومات الهائل، حيث يُمكن لأي شخص أن ينشر أي فكرة أو معلومة، يُصبح بناء الوعي النقدي ضرورة حيوية. الوعي النقدي هو القدرة على تحليل المعلومات، وتمييز الحق من الباطل، والصحيح من الزائف، والمفيد من الضار، وعدم قبول الأفكار والآراء بشكل أعمى.

- **تعليم التفكير النقدي:** يجب أن تُركز نظم التعليم على تعليم الطلاب مهارات التفكير النقدي منذ سن مبكرة. يتضمن ذلك تعليمهم كيفية طرح الأسئلة، والبحث عن الأدلة، وتقييم المصادر، والتمييز بين الحقيقة والرأي، وتحليل الحجج المنطقية.
- **التعامل مع وسائل الإعلام:** يجب تدريب الأجيال على التعامل الواعي مع وسائل الإعلام المختلفة، وخاصة وسائل التواصل الاجتماعي. يجب تعليمهم كيفية التحقق من الأخبار، والتمييز بين المصادر الموثوقة وغير الموثوقة، وفهم الأجندات الخفية وراء بعض الرسائل الإعلامية.
- **مواجهة الشبهات الفكرية:** يجب إعداد جيل قادر على مواجهة الشبهات الفكرية التي تُثار حول الإسلام وقيمه. يتطلب ذلك تعليماً شرعياً قوياً، بالإضافة إلى القدرة على التفكير المنطقي والعلمي، والقدرة على الحوار والإقناع بالحجة والبيان.

- **عدم التقليد الأعمى: يجب غرس ثقافة عدم التقليد الأعمى للآخرين، سواء كانوا من الغرب أو من أي ثقافة أخرى. يجب أن يكون المسلم قادراً على تقييم الأفكار والقيم بناءً على ميزان الشرع والعقل السليم، وأن يأخذ ما ينفعه ويترك ما يضره.**
- **الوعي بالمخططات: يجب بناء الوعي بالمخططات التي تُحاك ضد الأمة، والتي تهدف إلى إضعافها من الداخل من خلال الغزو الفكري والثقافي.**

4. دور المؤسسات في تحصين الهوية وبناء الوعي النقدي

تلعب المؤسسات المختلفة دوراً حيوياً في تحصين الهوية وبناء الوعي النقدي لدى أبناء الأمة.

- **المؤسسات التعليمية: المدارس والجامعات هي الخط الأول في بناء الوعي النقدي وتحصين الهوية. يجب أن تُراجع المناهج لتُركز على هذه الأهداف، وأن يُدرب المعلمون على طرق التدريس التي تُشجع على التفكير النقدي.**
- **المؤسسات الدينية: المساجد، والمراكز الإسلامية، والمؤسسات الدينية (مثل الأزهر الشريف) لها دور محوري في ترسيخ العقيدة الصحيحة، وتعليم قيم الإسلام، ومواجهة الشبهات الفكرية، وتقديم الإرشاد الروحي والأخلاقي.**
- **المؤسسات الإعلامية: يجب أن تُستخدم وسائل الإعلام الإسلامية بفعالية لتقديم محتوى إعلامي هادف يُعزز الهوية، ويُبني الوعي النقدي، ويُفند الشبهات، ويُقدم صورة الإسلام السمحة.**
- **الأسرة: الأسرة هي الحصن الأول. يجب على الآباء والأمهات أن يكونوا واعين بالتحديات الفكرية والثقافية، وأن يُربوا أبناءهم على القيم الإسلامية، وأن يُعلموهم كيفية التفكير النقدي والتعامل الواعي مع المعلومات.**
- **المجتمع المدني: يمكن لمنظمات المجتمع المدني (الجمعيات، المراكز البحثية، المؤسسات الثقافية) أن تلعب دوراً في تنظيم الورش، والندوات، والمؤتمرات التي تُعالج التحديات الفكرية والثقافية، وتُقدم حلولاً لها.**

5. التوازن بين الأصالة والمعاصرة: الانفتاح الواعي

إن تحصين الهوية وبناء الوعي النقدي لا يعنيان الانغلاق على الذات أو رفض كل ما هو جديد. بل يعنيان تحقيق التوازن بين الأصالة والمعاصرة، والانفتاح الواعي على الحضارات الأخرى.

- **الأصالة: التمسك بالثوابت والقيم والمبادئ الإسلامية الأصيلة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان. هذه الأصالة هي التي تمنح الأمة هويتها وقوتها.**
- **المعاصرة: القدرة على فهم تحديات العصر، والاستفادة من إنجازات الحضارة الإنسانية في العلوم والتكنولوجيا والتنظيم والإدارة، وتكييفها بما يتوافق مع قيم الإسلام ومبادئه.**
- **الانفتاح الواعي: الانفتاح على ثقافات العالم الأخرى، والتعرف عليها، والاستفادة مما فيها من خير ونافع، مع القدرة على التمييز بين الغث والسمين، ورفض ما يتعارض مع قيمنا ومبادئنا. هذا الانفتاح الواعي هو الذي يُمكن الأمة من الإبداع والابتكار، ويُجنبها التقليد الأعمى.**
- **الإسهام الحضاري: الأمة الإسلامية لم تكن يوماً أمة مستهلكة للمعرفة، بل كانت منتجة ومُساهمة في بناء الحضارة الإنسانية. يجب أن تستعيد هذا الدور، وأن تُقدم إسهاماتها الأصيلة في مختلف مجالات المعرفة والفنون والآداب، وأن تُثبت أن الإسلام قادر على إنتاج حضارة عالمية معاصرة.**

خلاصة المبحث:

إن التعامل مع التحديات الفكرية والثقافية، وتحصين الهوية، وبناء الوعي النقدي، هو ركيزة أساسية على طريق العودة. إن الأمة اليوم تواجه غزواً فكرياً وثقافياً يهدف إلى طمس هويتها وتشويه قيمها. يتطلب ذلك استراتيجية واضحة لـ تحصين الهوية الإسلامية من خلال العودة إلى المصادر الأصيلة، والاعتزاز باللغة والتاريخ والتراث، وبناء الوعي بالقدوة. كما يتطلب بناء الوعي النقدي من خلال تعليم التفكير النقدي، والتعامل الواعي مع وسائل الإعلام، ومواجهة الشبهات الفكرية، وعدم التقليد الأعمى. تلعب المؤسسات التعليمية والدينية والإعلامية والأسرة دوراً حيوياً في هذا المسعى. والأهم من ذلك، يجب تحقيق التوازن بين الأصالة والمعاصرة، والانفتاح الواعي على الحضارات الأخرى، لكي تتمكن الأمة من استعادة دورها كمنتج للمعرفة، ومُساهم في بناء الحضارة الإنسانية، وحامل لرسالة الإسلام السمحة إلى العالم. بدون تحصين الهوية وبناء الوعي النقدي، ستظل الأمة عرضة للذوبان والتفكك من الداخل، مما يُعيق أي محاولة للنهوض الشامل.

بعد أن تناولنا في المباحث السابقة الركائز الأساسية لطريق العودة، من الجهاد كأولوية، إلى إعداد القوة الشاملة، ووحدة الصف والقيادة، والتربية والإعداد الروحي والأخلاقي، والعدل والبناء الداخلي، وطبيعة النظام الاقتصادي الإسلامي، ودور الإعلام والخطاب المؤثر، والتعامل مع التحديات الفكرية والثقافية، نصل الآن إلى ركيزتين أساسيتين لا يمكن لأي مشروع نهضوي أن ينطلق أو يستمر بدونهما: **الشباب والمرأة**. إن الحديث عن بناء مجتمع قوي، أو إعداد قوة شاملة، أو تحقيق تقدم علمي واقتصادي، أو استعادة دور حضاري عالمي، يظل حديثاً نظرياً ما لم يتم تفعيل طاقات هاتين الفئتين الحيويتين في الأمة. إن الشباب هم **عماد المستقبل وطاقة التغيير**، والمرأة هي **شقيقة الرجل في بناء المجتمع وتربية الأجيال**. لذلك، يجب أن يُسلط الضوء بشكل خاص على دور هاتين الفئتين في المشروع النهضوي، وكيفية تأهيلهما وتمكينهما ليقوما بدورهما كاملاً في إطار الشريعة الإسلامية.

إن تاريخنا الإسلامي مليء بنماذج عظيمة لشباب ونساء لعبوا أدواراً حاسمة في بناء الحضارة، والدفاع عن الأمة، ونشر العلم، وتربية الأجيال. من شباب الصحابة الذين كانوا وقود الفتوحات، إلى نساء الصحابة اللاتي ساهمن في الجهاد والعلم والتربية، مروراً بنماذج لا حصر لها عبر العصور. إن استعادة هذا الدور التاريخي للشباب والمرأة هو شرط أساسي لاستعادة الأمة لحيويتها وقدرتها على النهوض.

1. الشباب: عماد المستقبل وطاقة التغيير الكامنة

الشباب هم المرحلة العمرية التي تتسم بالحيوية، والطاقة، والحماس، والقدرة على التغيير، والاستعداد لتقبل الأفكار الجديدة، والميل إلى التضحية والمغامرة. إنهم يمثلون أغلبية سكان العالم الإسلامي، وهم **عماد المستقبل** الذي سيحمل راية النهوض، و**طاقة التغيير الكامنة** التي يمكن أن تُحدث الفارق إذا تم توجيهها واستثمارها بشكل صحيح.

- **طاقة التغيير:** الشباب هم الأكثر قدرة على التغيير والتحرر من قيود الماضي والتقاليد البالية التي قد تُعيق التقدم. لديهم الجرأة على تحدي الواقع القائم والسعي نحو مستقبل أفضل.

- **الإبداع والابتكار:** الشباب هم الأكثر ميلاً للإبداع والابتكار في مختلف المجالات (العلمية، التقنية، الاقتصادية، الاجتماعية). عقولهم متفتحة على الأفكار الجديدة، ولديهم القدرة على التفكير خارج الصندوق.
- **الاستعداد للتضحية:** الشباب هم الأكثر استعداداً للتضحية والبذل في سبيل المبادئ والقضايا التي يؤمنون بها. يمكن توجيه هذه الطاقة نحو الجهاد بأبعاده المختلفة، والعمل التطوعي، والمساهمة في بناء المجتمع.
- **التحديات التي تواجه الشباب:** يواجه الشباب في العالم الإسلامي اليوم تحديات كبيرة، مثل البطالة، ونقص فرص التعليم والتدريب، والإحباط واليأس نتيجة للواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والغزو الفكري والثقافي الذي يهدد هويتهم، وضعف القدوة الحسنة. هذه التحديات يمكن أن تُحول طاقة الشباب من طاقة بناء إلى طاقة هدم إذا لم يتم التعامل معها بجدية.

2. تأهيل الشباب وتمكينهم: استثمار في مستقبل الأمة

إن استثمار طاقة الشباب وتوجيهها نحو بناء المشروع الحضاري يتطلب **تأهيلهم وتمكينهم** في مختلف المجالات. هذا التأهيل والتمكين هو استثمار حقيقي في مستقبل الأمة.

- **التعليم النوعي:** يجب توفير تعليم نوعي للشباب يجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويربي فيهم الوعي بالهوية الإسلامية، ويُنمي فيهم التفكير النقدي والإبداع وريادة الأعمال، ويُؤهلهم علمياً وتقنياً لمواكبة متطلبات العصر وسوق العمل.
- **التدريب والتأهيل المهني:** يجب توفير برامج تدريب وتأهيل مهني للشباب لتزويدهم بالمهارات العملية اللازمة لدخول سوق العمل والمساهمة في الإنتاج الاقتصادي.
- **توفير فرص العمل:** يجب العمل على توفير فرص عمل كريمة للشباب، وتشجيع ريادة الأعمال والمشاريع الصغيرة والمتوسطة التي يُمكن للشباب أن يُساهموا فيها أو يُنشئوها بأنفسهم.
- **بناء الوعي السياسي والمجتمعي:** يجب توعية الشباب بحقوقهم وواجباتهم، وتشجيعهم على المشاركة الإيجابية في الحياة السياسية والمجتمعية، وتوفير آليات لمشاركتهم في صنع القرار.

- **تحصينهم فكرياً وثقافياً:** يجب تحصين الشباب فكرياً وثقافياً ضد الأفكار الهدامة والشبهات التي تُثار حول الإسلام، وتعزيز انتمائهم لهويتهم الإسلامية، وتقديم القدوة الحسنة لهم.
- **دعم المبادرات الشبابية:** يجب دعم المبادرات الشبابية الهادفة في مختلف المجالات (العلمية، الثقافية، الاجتماعية، التطوعية)، وتوفير البيئة المناسبة لهم للإبداع والابتكار.
- **الاهتمام بالجانب الروحي والأخلاقي:** يجب التركيز على التربية الروحية والإيمانية والأخلاقية للشباب، وغرس قيم الإسلام في نفوسهم، وتعزيز ارتباطهم بالقرآن والسنة.

إن تأهيل الشباب وتمكينهم في هذه الجوانب المختلفة هو الذي سيُحولهم من مجرد طاقة كامنة إلى طاقة فاعلة ومساهمة في بناء المشروع الحضاري.

3. المرأة: شقيقة الرجل في بناء المجتمع وتربية الأجيال

المرأة في الإسلام لها مكانة عظيمة ودور حيوي لا يقل أهمية عن دور الرجل في بناء المجتمع وتربية الأجيال. هي الأم التي تُربي النشء على قيم الإسلام، وهي الزوجة التي تُسهم في بناء الأسرة المتماسكة، وهي الأخت والابنة التي تُشكل جزءاً لا يتجزأ من نسيج المجتمع. إنها **شقيقة الرجل في بناء المجتمع وأساس تربية الأجيال** التي ستحمل راية النهوض.

- **دورها في الأسرة:** الدور الأساسي للمرأة هو في بناء الأسرة وتربية الأبناء على قيم الإسلام وأخلاقه. الأم الصالحة الواعية هي التي تُخرج للجيل رجالاً ونساءً قادرين على حمل المسؤولية والمساهمة في بناء الأمة.
- **دورها في المجتمع:** للمرأة أيضاً دور هام في المجتمع في مختلف المجالات التي تتناسب مع طبيعتها وتخصصها، وفي إطار الضوابط الشرعية. لقد ساهمن نساء الصحابة في الجهاد (تضميد الجرحى، السقاية)، وفي العلم (رواية الحديث، الفقه)، وفي الدعوة، وفي التجارة.
- **المرأة في التعليم والصحة:** يمكن للمرأة أن تلعب دوراً حيوياً في مجالات التعليم (معلمة، أستاذة جامعية) والصحة (طبيبة، ممرضة)، وهما مجالان حيويان لبناء المجتمع ونهضته.

- **المرأة في العمل الخيري والتطوعي:** يمكن للمرأة أن تُساهم بفعالية في العمل الخيري والتطوعي، ورعاية الفقراء والمساكين، والمشاركة في المشاريع الاجتماعية التي تخدم المجتمع.
- **المرأة في التنمية الاقتصادية:** يمكن للمرأة أن تُساهم في التنمية الاقتصادية من خلال المشاريع الصغيرة والمتوسطة، والعمل في مجالات تتناسب مع طبيعتها، مع الالتزام بالضوابط الشرعية.

4. إعادة للمرأة دورها الريادي في المجتمع في إطار الشريعة: تجاوز المفاهيم الخاطئة

لقد تعرض دور المرأة في المجتمع الإسلامي للتشويه والانكماش في بعض الفترات، نتيجة لمفاهيم خاطئة أو تقاليد بالية لا تمت للإسلام بصلة. إن إعادة للمرأة دورها الريادي في المجتمع يتطلب **تجاوز هذه المفاهيم الخاطئة** و**تطبيق منهج الإسلام الصحيح** الذي يُكرم المرأة ويُعطيها حقوقها ويُمكنها من أداء دورها كاملاً.

- **فهم مكانة المرأة في الإسلام:** يجب تصحيح المفاهيم الخاطئة حول مكانة المرأة في الإسلام، وإبراز النصوص الشرعية التي تُكرمها، وتُعطيها حقوقها كاملة (حق التعليم، حق التملك، حق العمل، حق إبداء الرأي، حق المشاركة في الحياة العامة في إطار الضوابط الشرعية).
- **التعليم حق للمرأة:** التعليم حق للمرأة كما هو حق للرجل. يجب توفير فرص التعليم النوعي للمرأة في جميع المراحل والتخصصات، لكي تكون واعية بدينها، قادرة على تربية أبنائها، ومؤهلة للمساهمة في بناء المجتمع.
- **المشاركة في الحياة العامة بضوابط شرعية:** يمكن للمرأة أن تُشارك في الحياة العامة في المجالات التي تتناسب مع طبيعتها وتخصصها، مع الالتزام بالضوابط الشرعية (مثل الحجاب الشرعي، وعدم الخلوة، والبعد عن الاختلاط المحرم). هذه المشاركة ضرورية للاستفادة من طاقات المرأة وقدراتها في بناء المجتمع.
- **مكافحة الظلم الواقع على المرأة:** يجب مكافحة جميع أشكال الظلم الواقع على المرأة في بعض المجتمعات الإسلامية، مثل الحرمان من التعليم، أو الزواج القسري، أو العنف الأسري، أو الحرمان من حقوقها الشرعية.

- **إبراز النماذج النسائية الناجحة:** يجب إبراز النماذج النسائية المسلمة الناجحة في تاريخ الإسلام وحاضره، في مختلف المجالات (العلم، الدعوة، العمل الاجتماعي، ريادة الأعمال)، ليكونوا قدوة للفتيات والنساء المسلمات.

5. التكامل بين دور الشباب والمرأة: بناء متين للمستقبل

إن دور الشباب والمرأة في المشروع النهضوي ليس دوراً متنافساً، بل هو دور **متكامل ومتعاون**. لا يمكن للشباب أن يحملوا راية التغيير بنجاح بدون دعم الأسر القوية التي تُربيهم، ولا يمكن للمرأة أن تؤدي دورها كاملاً في بناء الأسرة والمجتمع بدون شباب مؤهل وواعٍ يدعمها ويُقدر دورها.

- **التعاون في بناء الأسرة:** يجب أن يتعاون الرجل والمرأة في بناء الأسرة المسلمة الواعية والمنتجة، وتقاسم المسؤوليات والأدوار داخل الأسرة.
- **التعاون في بناء المجتمع:** يجب أن يتعاون الشباب والشابات، والرجال والنساء، في بناء المجتمع، كل في مجاله وتخصصه، مستفيدين من طاقات وقدرات بعضهم البعض.
- **دعم بعضهم البعض:** يجب أن يدعم الشباب المرأة في سعيها لأداء دورها كاملاً في المجتمع، وأن تدعم المرأة الشباب في جهودهم نحو التغيير والنهوض.
- **القدوة المتبادلة:** يمكن أن يكون الشباب قدوة للمرأة في الحيوية والإبداع، ويمكن أن تكون المرأة قدوة للشباب في الصبر والثبات والتربية الصالحة.

خلاصة المبحث:

إن الشباب والمرأة هما **طاقة التغيير وأساس البناء** في المشروع النهضوي المتكامل. لا يمكن للأمة أن تنهض وتستعيد مكانتها بدون تفعيل طاقات هاتين الفئتين الحيويتين. يتطلب ذلك **تأهيل الشباب وتمكينهم** في مختلف المجالات (التعليم، التدريب، العمل، الوعي) ليكونوا عماد المستقبل وقادرين على قيادة التغيير. كما يتطلب **إعادة للمرأة دورها الريادي في المجتمع في إطار الشريعة**، من خلال تصحيح المفاهيم الخاطئة، وتوفير فرص التعليم والعمل المناسبة، وتمكينها من أداء دورها كاملاً في بناء الأسرة والمجتمع. إن تحقيق **التكامل بين دور الشباب والمرأة**، والتعاون بينهما في مختلف جوانب الحياة، هو الذي سيُشكل بناءً متيناً للمستقبل، ويُمكن الأمة من السير بفعالية على طريق العودة وتحقيق النهوض المنشود.

بعد أن تناولنا في المباحث السابقة الركائز الأساسية لطريق العودة، من الجهاد كأولوية، إلى إعداد القوة الشاملة، ووحدة الصف والقيادة، والتربية والإعداد الروحي والأخلاقي، والعدل والبناء الداخلي، وطبيعة النظام الاقتصادي الإسلامي، ودور الإعلام والخطاب المؤثر، والتعامل مع التحديات الفكرية والثقافية، ودور الشباب والمرأة، نصل الآن إلى ركيزة أساسية تُعد بمثابة الضمانة لاستدامة كل هذه الجهود وتحقيق أهدافها على المدى الطويل: التخطيط الاستراتيجي وبناء المؤسسات المستدامة. إن النهوض المنشود للأمة الإسلامية ليس مجرد عمل حماسي مؤقت أو رد فعل على أزمة عابرة، بل هو مسيرة طويلة وشاملة تتطلب رؤية مستقبلية واضحة، وتخطيطاً دقيقاً، ووضع أهداف قابلة للقياس، وبناء مؤسسات قوية وراسخة قادرة على تنفيذ الخطط ومواصلة المسيرة عبر الأجيال، حتى لا تتوقف بذهاب الأشخاص. هذا المبحث يتجاوز مجرد "البناء الداخلي" ليشمل منهجية العمل المؤسسي والتخطيط المستقبلي.

لقد أظهر تاريخ الدول الإسلامية أن فترات القوة والازدهار كانت غالباً ما تتسم بوجود رؤية واضحة، وتخطيط محكم، وبناء مؤسسات قوية (مثل بيت الحكمة، ودواوين الدولة، والنظم القضائية، ونظام الأوقاف). وعلى النقيض، كانت فترات الضعف والتراجع غالباً ما تُصاحبها غياب الرؤية الاستراتيجية، وضعف التخطيط، وتدهور المؤسسات، مما أدى إلى الفوضى والارتجالية وعدم القدرة على مواجهة التحديات بفعالية. لذلك، فإن أي مشروع نهضوي جاد يجب أن يضع التخطيط الاستراتيجي وبناء المؤسسات المستدامة في صلب أولوياته.

1. أهمية التخطيط الاستراتيجي: رؤية للمستقبل وخارطة طريق للعمل

التخطيط الاستراتيجي هو عملية تحديد الأهداف طويلة المدى، ووضع الخطط الكفيلة بتحقيقها، وتحديد الموارد اللازمة، وتوزيع الأدوار والمسؤوليات، ومتابعة التنفيذ وتقييم الأداء. إنه يُقدم رؤية واضحة للمستقبل وخارطة طريق للعمل للأمة.

- **تحديد الأهداف الكبرى: يبدأ التخطيط الاستراتيجي بتحديد الأهداف الكبرى للأمة على المدى الطويل (20-50 سنة أو أكثر)، مثل: استعادة مكانة الأمة كقوة حضارية عالمية، تحرير الأقصى، تحقيق الوحدة، قيادة التقدم العلمي والتكنولوجي، تحقيق**

الاكتفاء الذاتي والأمن الاقتصادي. هذه الأهداف يجب أن تكون مستلهمة من رؤية الإسلام للحياة.

- وضع الخطط طويلة المدى: بناءً على الأهداف الكبرى، تُوضع خطط استراتيجية طويلة المدى تُحدد المسارات الرئيسية لتحقيق هذه الأهداف. هذه الخطط يجب أن تكون شاملة، تُغطي جميع جوانب النهوض (الجهاد، الاقتصاد، العلم، التربية، السياسة، الإعلام).
- تحديد الأولويات والموارد: التخطيط الاستراتيجي يُساعد على تحديد الأولويات في توزيع الموارد (البشرية، المالية، المادية) المحدودة. يجب أن تُوجه الموارد نحو الأنشطة التي تُحقق أكبر تأثير في تحقيق الأهداف الاستراتيجية.
- توزيع الأدوار والمسؤوليات: يُحدد التخطيط الاستراتيجي بوضوح أدوار ومسؤوليات مختلف الجهات الفاعلة (الدول، المؤسسات، الأفراد) في تنفيذ الخطط.
- المرونة والتكيف: التخطيط الاستراتيجي لا يعني الجمود، بل يجب أن يتسم بالمرونة والقدرة على التكيف مع المتغيرات والتحديات الجديدة التي قد تظهر. يجب أن تكون هناك آليات للمراجعة الدورية للخطط وتعديلها عند الحاجة.
- الاستدلال من القرآن والسنة: القرآن الكريم والسنة النبوية يُعلماننا أهمية التخطيط والتنظيم. قصة يوسف عليه السلام في تخطيطه للسنوات السبع العجاف، وتخطيط النبي صلى الله عليه وسلم للهجرة، وتنظيمه للجيوش في الغزوات، كلها أمثلة على أهمية التخطيط في الإسلام.

2. بناء مؤسسات قوية ومستدامة: ضمان استمرارية المسيرة عبر الأجيال

إن الخطط الاستراتيجية، مهما كانت عظيمة، تظل حبراً على ورق ما لم تُنفذ من خلال مؤسسات قوية وراسخة ومستدامة. المؤسسات هي التي تُحول الأفكار إلى واقع، وتُحافظ على استمرارية العمل عبر الأجيال، وتُقلل من تأثير غياب الأشخاص.

- مفهوم المؤسسة المستدامة: المؤسسة المستدامة هي التي تمتلك هيكلاً تنظيمياً واضحاً، وإجراءات عمل محددة، وكفاءات بشرية مؤهلة، وموارد مالية مستقرة، وقادرة على أداء مهامها بفعالية وكفاءة على المدى الطويل، بغض النظر عن تغير الأفراد القياديين.

- **أهمية المؤسسات في النهوض:**
  - **ضمان الاستمرارية: المؤسسات تُضمن استمرارية العمل في المشروع النهضوي حتى لو تغيرت القيادات أو الأفراد. فالعمل المؤسسي لا يتوقف بذهاب شخص معين.**
  - **تراكم الخبرات: المؤسسات تُمكن من تراكم الخبرات والمعرفة عبر الزمن. كل جيل يُبني على ما أنجزه الجيل الذي سبقه.**
  - **الكفاءة والفعالية: المؤسسات المنظمة تُساهم في زيادة الكفاءة والفعالية في تنفيذ الخطط، وتُقلل من الارتجالية والفوضى.**
  - **المساءلة والشفافية: المؤسسات ذات الهياكل الواضحة والإجراءات المحددة تُسهل عملية المساءلة والشفافية في إدارة الموارد وتنفيذ الأعمال.**
  - **تحقيق الأهداف الكبرى: الأهداف الكبرى للمشروع الحضاري (مثل بناء قوة عسكرية، أو تحقيق نهضة علمية، أو إقامة عدل شامل) لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال عمل مؤسسي منظم ومستدام.**
- **أنواع المؤسسات المطلوبة:**
  - **المؤسسات الحكومية: إصلاح وتطوير مؤسسات الدولة (الوزارات، الهيئات، الأجهزة الأمنية والقضائية) لتكون كفؤة، وشفافة، ومسؤولة، وتعمل وفقاً لمبادئ الحكم الرشيد.**
  - **المؤسسات التعليمية والبحثية: بناء جامعات ومراكز بحثية عالمية المستوى، قادرة على إنتاج المعرفة، وتخريج الكفاءات، والمساهمة في التقدم العلمي والتكنولوجي.**
  - **المؤسسات الاقتصادية: تطوير مؤسسات مالية (بنوك، صناديق استثمار) وصناعية وتجارية قوية ومستقلة، تعمل وفقاً لمبادئ الاقتصاد الإسلامي.**
  - **المؤسسات المجتمعية (المجتمع المدني): دعم وتفعيل دور منظمات المجتمع المدني (الجمعيات الخيرية، النقابات، المراكز الثقافية، المؤسسات الدعوية) لتكون شريكاً فاعلاً في التنمية، وبناء الوعي، والرقابة على الأداء.**

- **المؤسسات الإعلامية: بناء مؤسسات إعلامية قوية ومؤثرة، قادرة على إنتاج خطاب إعلامي هادف، وبناء الوعي، ومواجهة حملات التشويه.**
- **المؤسسات المشتركة بين الدول الإسلامية: تفعيل دور المؤسسات الإقليمية والدولية المشتركة (مثل منظمة التعاون الإسلامي) لتكون قادرة على تنسيق الجهود والعمل المشترك بين الدول الإسلامية.**

3. منهجية العمل المؤسسي: من الارتجالية إلى الاحترافية

إن بناء المؤسسات المستدامة يتطلب تبني منهجية عمل مؤسسي قائمة على الاحترافية، والشفافية، والمساءلة، والتقييم المستمر.

- **الرؤية والرسالة والقيم: يجب أن يكون لكل مؤسسة رؤية واضحة، ورسالة محددة، وقيم راسخة مستمدة من الشريعة الإسلامية، توجه عملها.**
- **الهياكل التنظيمية الواضحة: يجب أن تمتلك المؤسسات هياكل تنظيمية واضحة تُحدد الأدوار والمسؤوليات والصلاحيات، وتُقلل من التداخل والازدواجية.**
- **الإجراءات والسياسات المحددة: يجب أن تكون هناك إجراءات وسياسات عمل محددة وواضحة لجميع الأنشطة، لضمان الكفاءة والشفافية والعدالة في الأداء.**
- **الكفاءات البشرية: يجب الاستثمار في بناء الكفاءات البشرية المؤهلة والمدربة، وتوفير البيئة المناسبة لهم للعمل والإبداع، وتطوير برامج للتدريب المستمر.**
- **التمويل المستدام: يجب ضمان التمويل المستدام للمؤسسات من خلال مصادر متنوعة (ميزانيات حكومية، استثمارات، أوقاف، تبرعات) لضمان استمراريتها وعدم توقف عملها.**
- **التقييم والمحاسبة: يجب أن تكون هناك آليات واضحة للتقييم الدوري لأداء المؤسسات، ومحاسبة المقصرين، ومكافأة المتميزين، لضمان التحسين المستمر.**
- **التخطيط للمستقبل (التعاقب القيادي): يجب أن تُخطط المؤسسات للمستقبل من خلال إعداد قيادات وكفاءات جديدة قادرة على تولي المسؤولية في المستقبل، لضمان استمرارية المسيرة عبر الأجيال.**

4. الربط بين التخطيط الاستراتيجي والمؤسسات والجهاد الشامل:

إن التخطيط الاستراتيجي وبناء المؤسسات المستدامة هما جزء لا يتجزأ من الجهاد الشامل الذي تحدثنا عنه في المبحث الأول.

- **الجهاد يتطلب تخطيطاً: الجهاد العسكري، والعلمي، والاقتصادي، والإداري، والدعوي، كلها تتطلب تخطيطاً استراتيجياً دقيقاً لتحقيق أهدافها. لا يمكن خوض الجهاد بفعالية بالارتجالية أو العشوائية.**
- **المؤسسات تُنفذ الجهاد: المؤسسات القوية هي التي تُنفذ خطط الجهاد الشامل. الجيش المنظم، والمؤسسات العلمية البحثية، والشركات الصناعية، والمؤسسات الاقتصادية، والمؤسسات الدعوية، كلها تُعد أدوات للجهاد في سبيل الله.**
- **الاستدامة في الجهاد: الجهاد ليس معركة واحدة، بل هو مسيرة طويلة. التخطيط الاستراتيجي والمؤسسات المستدامة تُضمن استمرارية هذه المسيرة عبر الأجيال، وتُمكن الأمة من الصمود في وجه التحديات المتجددة.**

خلاصة المبحث:

إن التخطيط الاستراتيجي وبناء المؤسسات المستدامة هما ضمان استدامة المسيرة على طريق العودة. إن النهوض المنشود للأمة ليس مجرد عمل حماسي مؤقت، بل هو مسيرة طويلة تتطلب رؤية مستقبلية واضحة، وتخطيطاً دقيقاً، ووضع أهداف قابلة للقياس، وبناء مؤسسات قوية وراسخة قادرة على تنفيذ الخطط ومواصلة المسيرة عبر الأجيال. يتطلب ذلك تبني منهجية عمل مؤسسي قائمة على الاحترافية، والشفافية، والمساءلة، والتقييم المستمر. إن هذا المبحث يتجاوز مجرد "البناء الداخلي" ليشمل منهجية العمل المؤسسي والتخطيط المستقبلي. إن هذا الجهد المؤسسي والتخطيطي هو جزء لا يتجزأ من الجهاد الشامل، وهو الذي سيُمكن الأمة من تحقيق أهدافها الكبرى في النهوض واستعادة مكانتها التي تستحقها. بدون تخطيط استراتيجي ومؤسسات قوية، ستظل أي جهود للنهوض عرضة للتوقف والانهيار بذهاب الأشخاص أو تغير الظروف.

بعد أن تناولنا في المباحث السابقة الركائز الأساسية لطريق العودة، من الجهاد كأولوية، إلى إعداد القوة الشاملة، ووحدة الصف والقيادة، والتربية والإعداد الروحي والأخلاقي، والعدل والبناء الداخلي، وطبيعة النظام الاقتصادي الإسلامي، ودور الإعلام والخطاب المؤثر، والتعامل مع التحديات الفكرية والثقافية، ودور الشباب والمرأة، والتخطيط الاستراتيجي وبناء المؤسسات، نصل الآن إلى البعد الأخير والحيوي في المشروع الحضاري المتكامل: العلاقات الدولية والتعامل مع العالم غير الإسلامي. إن الأمة الإسلامية، وهي تسعى للنهوض واستعادة مكانتها، لا يمكن أن تعيش بمعزل عن العالم. بل هي جزء لا يتجزأ من المنظومة الدولية، وعليها أن تُحدد منهجها في التعامل مع القوى العالمية الأخرى، وأن تُدافع عن مصالحها، وأن تُقدم رسالتها للعالم بأسره. هذا المبحث يتجاوز مجرد "استعادة الدور الحضاري العالمي" ليشمل منهجية التعامل السياسي والدبلوماسي والاقتصادي مع الدول غير الإسلامية.

إن تاريخ الأمة الإسلامية مليء بالتجارب في التعامل مع الأمم الأخرى، من فترات الفتوحات والتوسع، إلى فترات التعايش السلمي والتبادل الحضاري، إلى فترات الصراع والدفاع عن الوجود. هذه التجارب تُقدم دروساً قيمة حول كيفية بناء علاقات متوازنة وفعالة مع العالم، قائمة على مبادئ الإسلام، ومُراعية لمصالح الأمة.

1. طبيعة العلاقة مع العالم غير الإسلامي: هل هو صراع دائم أم تعايش سلمي؟

إن طبيعة العلاقة بين الأمة الإسلامية والعالم غير الإسلامي ليست ثابتة أو أحادية، بل هي متغيرة وتعتمد على الظروف والمصالح والمبادئ. الإسلام لا يدعو إلى الصراع الدائم مع كل الأمم، ولا يدعو إلى الاستسلام المطلق. بل يُقدم منهجاً متوازناً يجمع بين القوة والعدل، وبين الدعوة والسلام، وبين الدفاع عن النفس والتعاون على الخير.

- **الأساس هو الدعوة والتعايش السلمي: الأصل في علاقة المسلمين بالآخرين هو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والتعايش السلمي القائم على العدل والوفاء بالعهود. قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:**

8). هذه الآية تُشير إلى جواز البر والإقساط مع غير المسلمين الذين لا يُعادون المسلمين.

- **الجهاد للدفاع ورفع الظلم:** في المقابل، إذا تعرضت الأمة للعدوان، أو الاحتلال، أو الظلم، أو مُنعت من تبليغ رسالتها، فإن الجهاد يصبح واجباً للدفاع عن النفس، وردع المعتدين، ورفع الظلم. هذا ليس صراعاً من أجل السيطرة، بل هو دفاع عن الحق والعدل.
- **التعاون على الخير:** يُشجع الإسلام على التعاون مع الآخرين على البر والتقوى، وعلى ما فيه خير للبشرية جمعاء. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: 2). يمكن التعاون في مجالات مثل مكافحة الفقر، وحماية البيئة، ونشر العلم، وحل المشكلات العالمية.
- **القوة لفرض الاحترام:** الأمة الناهضة يجب أن تكون قوية (كما بيّنا في المبحث الثاني) لكي تُفرض احترامها على الآخرين، وتُدافع عن مصالحها، وتُقدم رسالتها بفعالية. القوة ليست للعدوان، بل للردع وحماية المصالح.
- **الواقعية والمرونة:** يجب أن تتعامل الأمة مع العالم بواقعية ومرونة، وأن تُدرك أن العلاقات الدولية قائمة على المصالح المتبادلة. يجب أن تكون قادرة على بناء التحالفات، وعقد الاتفاقيات، والتفاوض، بما يخدم مصالح الأمة ويُعزز من مكانتها.

2. كيفية الدفاع عن مصالح الأمة في المحافل الدولية: الدبلوماسية الفعالة

إن الأمة الناهضة يجب أن تكون قادرة على الدفاع عن مصالحها وقضاياها العادلة في المحافل الدولية (مثل الأمم المتحدة، والمنظمات الإقليمية، والمؤتمرات الدولية). هذا يتطلب تطوير دبلوماسية فعالة، قائمة على الفهم العميق للقانون الدولي، والقدرة على التفاوض، والقدرة على التأثير.

- **التمثيل القوي والموحد:** يجب أن يكون للأمة الإسلامية تمثيل قوي وموحد في المحافل الدولية. هذا يتطلب تنسيق المواقف بين الدول الإسلامية، وتجاوز الخلافات الداخلية، والتحدث بصوت واحد حول القضايا المشتركة.
- **الاستناد إلى القانون الدولي والشرعية:** يجب أن تستند الأمة في دفاعها عن مصالحها وقضاياها إلى القانون الدولي، ومبادئ العدل والإنصاف، والشرعية الدولية، بالإضافة إلى مرجعيتها الإسلامية. هذا يمنحها قوة الحجة والموقف.

- **تطوير الكفاءات الدبلوماسية:** يجب الاستثمار في تأهيل وتدريب الكفاءات الدبلوماسية من أبناء الأمة، ليكونوا قادرين على فهم تعقيدات العلاقات الدولية، وإتقان فن التفاوض، والقدرة على التأثير في صياغة القرارات الدولية.
- **الاستفادة من المنظمات الدولية:** يجب تفعيل دور المنظمات الإسلامية الدولية (مثل منظمة التعاون الإسلامي) لتكون أدوات فعالة للتنسيق الدبلوماسي والدفاع عن مصالح الأمة في المحافل الدولية.
- **بناء التحالفات:** يجب على الأمة أن تكون قادرة على بناء التحالفات مع الدول والقوى الأخرى التي تتوافق مصالحها مع مصالح الأمة، أو التي تُشاركها القيم والمبادئ، لتعزيز موقفها في المحافل الدولية.
- **الضغط الدبلوماسي والاقتصادي:** يمكن استخدام أدوات الضغط الدبلوماسي والاقتصادي لتحقيق الأهداف، مثل فرض العقوبات على الدول التي تعتدي على مصالح الأمة، أو استخدام النفوذ الاقتصادي لتحقيق مكاسب سياسية.

3. تقديم رسالة الأمة للعالم: الحوار الحضاري والتأثير الإيجابي

إن استعادة الدور الحضاري العالمي للأمة الإسلامية لا يقتصر على الدفاع عن المصالح، بل يشمل أيضاً تقديم رسالتها للعالم، رسالة الإسلام السمحة والمعتدلة، والمساهمة في بناء حضارة إنسانية مشتركة. هذا يتطلب منهجاً قائماً على الحوار الحضاري والتأثير الإيجابي.

- **الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة:** يجب أن تُقدم رسالة الإسلام إلى العالم بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالقدوة الحسنة، لا بالإكراه أو العنف. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125).
- **الحوار بين الحضارات:** يجب تعزيز الحوار بين الحضارات، وتقديم النموذج الإسلامي كنموذج إيجابي للبشرية، يُساهم في حل المشكلات العالمية، ويُقدم قيماً أخلاقية وإنسانية.
- **المساهمة في حل المشكلات العالمية:** كما ذكرنا في الفصل التاسع، يجب على الأمة أن تُساهم بفعالية في حل المشكلات العالمية (الفقر، البيئة، الصراعات، الأوبئة) من منظور إسلامي، مما يُظهر للعالم أن الإسلام دين يُقدم حلولاً لمشكلات البشرية.

- **تقديم الإسهامات المعرفية والإنسانية:** يجب أن تستعيد الأمة دورها كمنتج للمعرفة، وأن تُقدم إسهامات أصيلة في مختلف مجالات العلوم والتكنولوجيا والفنون والآداب. كما يجب أن تُساهم في الجهود الإنسانية العالمية، مما يُعزز من صورتها الإيجابية في العالم.
- **الإعلام العالمي المؤثر:** يجب استخدام وسائل الإعلام العالمية بفعالية لتقديم صورة الإسلام السمحة والمعتدلة، وتفنيذ الشبهات، وإبراز الإنجازات، وتقديم رسالة الأمة بلغات مختلفة وبأساليب مؤثرة.
- **دور الجاليات المسلمة:** تلعب الجاليات المسلمة في الدول غير الإسلامية دوراً حيوياً في بناء جسور التواصل، وتقديم صورة الإسلام الصحيحة، والمساهمة الإيجابية في مجتمعاتها. يجب دعم هذه الجاليات وتمكينها.

4. العلاقة بين العلاقات الدولية والجهاد: تكامل لا تناقض

من الضروري التأكيد على أن منهج التعامل مع العالم غير الإسلامي في العلاقات الدولية، سواء كان دبلوماسياً، أو اقتصادياً، أو ثقافياً، لا يتناقض مع فريضة الجهاد، بل هو جزء من منظومة متكاملة تخدم أهداف الأمة.

- **الجهاد يُعزز الموقف الدبلوماسي:** عندما تكون الأمة قوية ومستعدة للجهاد (بأبعاده الشاملة)، فإن موقفها الدبلوماسي يكون أقوى وأكثر تأثيراً. الأعداء يُدركون أن الأمة قادرة على الدفاع عن مصالحها بالقوة إذا لزم الأمر، مما يجعلهم أكثر استعداداً للتفاوض والتعامل العادل.
- **الدبلوماسية تخدم الجهاد:** الدبلوماسية يمكن أن تُستخدم لخدمة أهداف الجهاد، مثل كسب التأييد الدولي للقضايا العادلة للأمة (مثل تحرير الأقصى)، أو عزل الأعداء، أو بناء التحالفات التي تُعزز من قوة الأمة.
- **الاقتصاد يدعم العلاقات:** الاقتصاد القوي يُمكن الأمة من بناء علاقات اقتصادية قوية مع الدول الأخرى، ويُعزز من نفوذها الاقتصادي، مما يُمكنها من تحقيق مصالحها في العلاقات الدولية.
- **الرسالة الحضارية تخدم الجهاد:** تقديم رسالة الإسلام السمحة للعالم، والمساهمة في حل المشكلات العالمية، يُحسن من صورة الأمة، ويُقلل من العداء ضدها، ويُمكنها من

كسب قلوب وعقول الشعوب الأخرى، مما يُسهل عليها تحقيق أهدافها في الجهاد والدعوة.

إن العلاقة بين الجهاد والعلاقات الدولية هي علاقة تكاملية. الأمة القوية في جهادها هي الأقدر على بناء علاقات دولية قوية وفعالة، والأمة التي تُدير علاقاتها الدولية بحكمة هي الأقدر على خدمة أهداف جهادها وتحقيق النصر.

خلاصة المبحث:

إن العلاقات الدولية والتعامل مع العالم غير الإسلامي هو بعد حيوي في المشروع الحضاري المتكامل على طريق العودة. إن طبيعة العلاقة مع العالم ليست صراعاً دائماً ولا تعايشاً مطلقاً، بل هي منهج متوازن يجمع بين القوة والدعوة والسلام والدفاع عن النفس، مع الواقعية والمرونة. يتطلب ذلك تطوير دبلوماسية فعالة للدفاع عن مصالح الأمة في المحافل الدولية، وتقديم رسالة الإسلام السمحة والمعتدلة للعالم من خلال الحوار الحضاري والتأثير الإيجابي، وبناء جسور التواصل مع الشعوب الأخرى وتقديم الإسهامات المعرفية والإنسانية. ومن الضروري التأكيد على أن هذا السعي لاستعادة الدور الحضاري العالمي لا يتناقض مع فريضة الجهاد، بل هو جزء من منظومة متكاملة تُعزز من قوة الأمة وتُمكنها من تحقيق أهدافها في الجهاد والدعوة. إن الأمة التي تتقن فن التعامل مع العالم، وهي قوية في ذاتها، هي الأقدر على استعادة مكانتها الريادية وتأثيرها العالمي.

لقد كانت رحلتنا عبر صفحات تاريخ الدول الإسلامية الكبرى رحلة ماتعة وشاقة في آن واحد. ماتعة بما كشفته لنا من عصور مجد وعظمة، وإنجازات حضارية وعسكرية، وقادة عظماء، وعلماء أفذاذ، ومجتمعات فاضلة سعت لتطبيق منهج الله في الأرض. وشاقة بما عرضته لنا من فترات ضعف وتراجع، وصراعات داخلية، وتحديات خارجية، وأخطاء بشرية أدت إلى تفتت القوة، وفقدان الأراضي، وتراجع المكانة، وصولاً إلى واقع الأمة اليوم الذي يعج بالتحديات والأزمات.

لم يكن الغرض من هذه الرحلة التاريخية مجرد سرد الأحداث أو التغني بأمجاد الماضي، بل كان الهدف الأسمى هو **استخلاص العبر والدروس**، وفهم **سنن الله في قيام الأمم وسقوطها**، وتحديد **مفاتيح النهوض** التي كانت سبباً في قوة الأمة وازدهارها، و**أسباب السقوط** التي أدت إلى ضعفها وتراجعها. إن التاريخ، كما قال الحكماء، يُعيد نفسه، ليس بحذافيره، ولكن في سننه وقوانينه. ومن لا يتعلم من دروس التاريخ محكوم عليه بتكرار أخطائه.

في الفصول الأولى من هذا الكتاب، استعرضنا مسيرة الدولة الإسلامية منذ فجرها المبارك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، حيث وُضعت الأسس المتينة للدولة على الإيمان، والعدل، والشورى، والمساواة، والجهاد في سبيل الله. رأينا كيف انطلقت الفتوحات الكبرى التي نشرت الإسلام في أصقاع الأرض، وكيف بُنيت دولة قوية متماسكة على هذه الأسس الربانية.

ثم تتبعنا مسيرة الدولة الأموية، التي ورثت راية الفتوحات والتوسع، ووصلت إلى أقصى اتساع جغرافي لها. ورغم الإنجازات العسكرية والإدارية الكبرى في هذا العصر، إلا أن بذور الضعف بدأت تظهر مع تحول نظام الحكم إلى الوراثة، وظهور بعض أشكال التمييز الاجتماعي (خاصة قضية الموالي)، والصراعات الداخلية على السلطة، مما أضعف الدولة ومهد لسقوطها.

في العصر العباسي، شهدت الأمة الإسلامية عصراً ذهبياً من الازدهار العلمي والحضاري، حيث أصبحت بغداد منارة للعلم والمعرفة في العالم. كان هذا الازدهار نتيجة لـ "الجهاد العلمي والمعرفي" الذي صاحب الجهاد العسكري. ولكن مع مرور الوقت، بدأت الدولة العباسية تعاني من ضعف السلطة المركزية، والانقسام السياسي إلى دويلات مستقلة، وتدخل القوى العسكرية غير العربية في شؤون الحكم، مما أضعفها وجعلها عرضة للغزو الخارجي المدمر (المغول).

استعرضنا أيضاً تجربة الدولة الفاطمية، التي مثلت تحدياً سياسياً ومذهبياً للخلافة العباسية، وسيطرت على مصر والشام والحجاز في فترة من الزمان. ورغم قوتها في بعض الفترات، إلا أن طبيعة حكمها المذهبية (الشيعية الإسماعيلية) في بيئة سنية في الغالب، والصراعات الداخلية، والتحديات الخارجية، أدت إلى ضعفها وسقوطها.

ثم تناولنا دولة المماليك، التي قامت في فترة حرجة، ولعبت دوراً عظيماً كدروع للأمة في مواجهة الخطر المغولي والصليبي. كانت قوتها مستمدة من كفاءتها العسكرية وروحها الجهادية في فترات قوتها. ولكن الصراعات الداخلية على السلطة، والأزمات الاقتصادية، وضعف الجيش وعدم مواكبته للتطورات العسكرية، أدت إلى ضعفها وسقوطها أمام الدولة العثمانية.

وأخيراً، استعرضنا مسيرة الدولة العثمانية، التي قامت على أساس الجهاد، وتوسعت بشكل هائل في أوروبا والمشرق، وبلغت ذروة قوتها بفتح القسطنطينية، وأصبحت آخر خلافة عالمية كبرى لقرون طويلة. ولكن عوامل الضعف الداخلية (مشاكل في نظام الحكم، تدهور الجيش، أزمات اقتصادية)، وفشلها في مواكبة التطورات السريعة في أوروبا (العلمية، الصناعية، العسكرية)، وتزايد التحديات الخارجية، أدت إلى تراجعها وانكماشها وسقوطها.

في الفصل الثامن، قمنا بتحليل معمق لعوامل النهوض والسقوط المشتركة من خلال هذه التجارب التاريخية. رأينا كيف أن **الجهاد بأبعاده الشاملة** كان ركيزة للنهوض، وكيف أن ضعفه كان عاملاً في السقوط. وكيف أن **العدل، والشورى، والمساواة** كانت أسس الحكم الراشد وعوامل الاستقرار، وكيف أن الابتعاد عنها أدى إلى المظالم والصراعات الداخلية. وكيف أن **العلم والمعرفة** كانا أساس بناء الحضارة والقوة، وكيف أن التخلف العلمي أدى إلى الضعف. وكيف أن **الوحدة والتكاتف** كانا عاملاً حاسماً في مواجهة التحديات، وكيف أن الانقسام كان سبباً في الهزيمة. وكيف أن ظاهرة **الانقلابات العسكرية** تقوض الشرعية وتزعزع الاستقرار. وأخيراً، كيف أن **وحدة الأمة الإسلامية** هي حقيقة قرآنية وتاريخية، وكيف أن عوامل التفتيت والانقسام (مثل سايكس بيكو) أدت إلى مرحلة الذل والهوان التي نعيشها اليوم.

في الفصل التاسع، انتقلنا إلى اقتراح ملامح **مشروع حضاري متكامل** للنهوض، يعتمد على البناء من القاعدة (الثورة الداخلية وبناء المجتمع)، وإرساء قواعد الحكم الرشيد والعدل، وقيادة التقدم العلمي والاقتصادي، وتحقيق وحدة الصف والعمل المشترك، واستعادة الدور الحضاري العالمي. كانت هذه المباحث بمثابة خطة عمل منهجية للنهوض.

والآن، في هذا الفصل العاشر، وصلنا إلى جوهر الإجابة على السؤال: **ما السبيل؟ وما الحل؟ على طريق العودة؟** لقد استخلصنا من كل ما سبق أن طريق العودة لا يمكن أن يكون طريقاً واحداً أو حلاً جزئياً. إنه طريق متعدد المسارات، ولكنه متكامل ومترابط، ويقوم على أسس جوهرية لا يمكن التنازل عنها.

الدروس المستفادة وخلاصة طريق العودة:

من كل ما سبق، نستخلص أن الدروس المستفادة من تاريخنا، والتي تُشكل خارطة طريق العودة، يمكن تلخيصها في النقاط التالية، مع التأكيد على تكاملها وترابطها:

1. **الجهاد في سبيل الله هو طريق العودة الأهم والأولى:**

- لقد أثبت التاريخ، وأكدت النصوص الشرعية، أن الجهاد في سبيل الله، بأبعاده الشاملة، هو الفريضة الغائبة التي لا يمكن للأمة أن تستعيد عزتها وتمكينها بدونها.
- في مرحلة الضعف والاحتلال والعدوان التي تعيشها الأمة اليوم، يصبح **الجهاد العسكري للدفاع عن النفس والأرض والمقدسات، وإزالة الاحتلال، وكسر حاجز الخوف والهوان، هو الأولوية القصوى، وهو الباب الذي لا يُفتح طريق العودة إلا من خلاله.**
- لا يمكن أن تُقدم الأولويات الاقتصادية أو التنموية على الجهاد في هذه المرحلة، بل يجب أن تكون هذه الجوانب في خدمة الجهاد وتدعمه، لا أن تحل محله أو تُعيق ممارسته.
- ترك الجهاد هو سبب الذل والهوان الذي تعيشه الأمة اليوم، والتمسك به هو طريق العزة والتمكين.
- لقد استدللنا بغزارة من الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الصحابة الكرام التي تُعلي من شأن الجهاد، وتُبين فضله، وكونه ذروة سنام الإسلام، وتُحذر من تركه وما يترتب عليه من ذل وهوان. هذه النصوص ليست مجرد تاريخ، بل هي توجيهات ربانية ونبوية ملزمة للأمة في كل زمان ومكان.

2. **إعداد القوة الشاملة: شرط الجهاد الفعال:**

- الجهاد في سبيل الله يتطلب إعداداً شاملاً وقوة في جميع المجالات: العلمية، التقنية، الصناعية، الاقتصادية، الإدارية، والبشرية.
- الآية الكريمة ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ هي أمر رباني شامل بإعداد كل ما يُعد قوة في كل عصر.
- يتطلب ذلك بناء قاعدة صناعية عسكرية مستقلة لضمان الاستقلال في القرار العسكري، وتطوير العلوم والتقنيات الحديثة للحاق بالركب العالمي، وإصلاح الاقتصاد وتنميته ليكون قادراً على تمويل متطلبات الإعداد والجهاد.

3. **وحدة الصف وقيادة الأمة: ضرورة الجهاد والنصر:**

- الجهاد عمل جماعي لا يمكن أن يكون فعالاً ومثمراً إلا تحت قيادة واحدة موحدة، وفي ظل وحدة الصف بين أبناء الأمة.
- الانقسام والتشرذم هما أقصر الطرق إلى الضعف والهزيمة، ويُسهلان على الأعداء تحقيق أهدافهم.
- يجب العمل على تجاوز الخلافات السياسية والمذهبية والعرقية من أجل الهدف الأسمى (الجهاد والنصر).
- البحث عن القيادة الربانية الواعية التي تجمع كلمة الأمة وتقودها نحو الجهاد والتمكين هو أمر ضروري.
- تاريخ الصحابة تحت قيادة واحدة في الفتوحات، وجهاد المماليك تحت قيادة موحدة في عين جالوت، هما نماذج حية على أن الوحدة والقيادة هما مفتاح النصر.

4. **التربية والإعداد الروحي والأخلاقي: وقود الجهاد:**

- الجهاد ليس مجرد عمل عسكري، بل هو قبل ذلك وبعده تربية روحية وإيمانية وأخلاقية عميقة.
- بناء الفرد المسلم القوي في إيمانه، الملتزم بأخلاقه، المستعد للتضحية والبذل في سبيل الله، هو أساس قوة الأمة المجاهدة.

- الأسرة والمؤسسات التربوية تلعب دوراً حيوياً في غرس روح الجهاد والتضحية في الأجيال الناشئة.
- قيم الصبر، والثبات، والإخلاص، والتوكل على الله، والشجاعة، والإيثار، هي وقود الجهاد الذي يُشعل شعلته ويُحافظ على استمراريته.

5. **العدل والبناء الداخلي: أساس قوة الدولة المجاهدة:**

- الجهاد لا يمكن أن يكون مستداماً ومثمراً إلا إذا كان قائماً على أساس من العدل في الداخل.
- تطبيق مبادئ العدل، والشورى، والمساواة في الدولة التي تخوض الجهاد يضمن تماسك الجبهة الداخلية ورضا الرعية.
- مكافحة الفساد والظلم والاستبداد هو ضرورة حتمية لضمان قوة الدولة من الداخل وقدرتها على الجهاد الفعال.
- قوة الدولة الداخلية وعدلها مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بقدرتها على مواصلة الجهاد وتحقيق النصر. تاريخنا مليء بنماذج الدول المجاهدة التي كانت قوية بعدلها.

السبيل والحل: تكامل الركائز على طريق العودة:

إن السبيل والحل لطريق العودة لا يكمن في الأخذ ببعض هذه الركائز وترك البعض الآخر. إنها منظومة متكاملة ومترابطة. لا يمكن للجهاد أن يكون فعالاً بدون إعداد القوة، ولا يمكن إعداد القوة بدون اقتصاد قوي وعلم متقدم، ولا يمكن للجهاد أن يحقق النصر بدون وحدة الصف والقيادة الواحدة، ولا يمكن لوحدة الصف أن تدوم بدون تربية إيمانية وأخلاقية قوية، ولا يمكن للدولة أن تكون قوية ومستقرة وقادرة على الجهاد والبناء بدون العدل في الداخل.

التركيز على وحدة الأمة الإسلامية تحت قائد واحد وإعلان الجهاد لتحرير الأقصى وجمع شمل الأمة:

في سياق واقع الأمة اليوم، حيث الانقسام والتشرذم والاحتلال لأقدس مقدساتها (المسجد الأقصى)، فإن التركيز على **وحدة الأمة الإسلامية تحت قائد واحد** وإعلان **الجهاد لتحرير الأقصى** و**جمع شمل الأمة** ليس مجرد أهداف نبيلة، بل هي **ضرورات عملية** على طريق العودة.

- إن وحدة الأمة تحت قيادة ربانية واعية هي التي تُمكنها من حشد طاقاتها الهائلة (البشرية، المادية، المعنوية) وتوجيهها نحو الهدف الأسمى.
- إن إعلان الجهاد لتحرير الأقصى هو بمثابة الشرارة التي تُشعل الروح الجهادية في الأمة، وتُعيد لها بوصلتها، وتُجمع كلمتها حول قضية مركزية ومقدسة.
- إن هذا الجهاد، عندما يُمارس بفعالية وإخلاص وتنسيق، هو الذي سيُعيد للأمة هيبتها، ويكسر حاجز الخوف والهوان، ويُجبر المحتل على الرحيل، ويُعيد للأمة جزءاً غالياً من أرضها ومقدساتها.
- إن عملية الجهاد نفسها، عندما تكون موحدة ومنظمة، ستُساهم في جمع شمل الأمة، وتجاوز الخلافات الداخلية، وتوحيد الصفوف في مواجهة العدو المشترك.

كل هذا لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله وإقامة العدل ودحر الانقلابات والخلافات:

إن تحقيق هذه الوحدة، وإعلان الجهاد لتحرير الأقصى، وجمع شمل الأمة، واستعادة مكانتها، **كل هذا لا يكون إلا بالتمسك بـ "الجهاد في سبيل الله" بأبعاده الشاملة**، و**إقامة العدل المطلق** في الداخل، و**دحر الانقلابات والحلول غير الشرعية** التي تقوض الشرعية وتزرع الفوضى، و**تجاوز الخلافات الداخلية** بالحوار والتفاهم والتنازل عن المصالح الضيقة لصالح المصلحة العليا للأمة.

إن طريق العودة ليس مفروشاً بالورود، ولن يكون سهلاً. إنه يتطلب تضحية، وبذلاً، وصبراً، وثباتاً، وعملاً دؤوباً على جميع المستويات: على مستوى الفرد، والأسرة، والمجتمع، والمؤسسات، والدولة، والأمة ككل. يتطلب ثورة داخلية في العقول والنفوس، وإصلاحاً شاملاً في المؤسسات والأنظمة، وجهاداً متواصلاً في جميع الميادين.

الخلاصة النهائية:

إن خلاصة هذا الكتاب، والدروس المستفادة من تاريخنا العظيم، هي أن **النهوض المنشود للأمة الإسلامية اليوم يكمن في العودة الصادقة إلى المنهج الرباني الذي ضمن لها القوة والعزة في السابق.** هذه العودة تتجسد في:

1. **إعلاء راية الجهاد في سبيل الله بأبعاده الشاملة، وجعله طريق العودة الأهم والأولى، خاصة الجهاد العسكري للدفاع عن النفس وتحرير الأقصى.**

2. **إعداد القوة الشاملة في جميع المجالات (العلمية، التقنية، الصناعية، الاقتصادية، الإدارية) كشرط أساسي للجهاد الفعال.**
3. **تحقيق وحدة الصف ووجود القيادة الربانية الواعية التي تجمع كلمة الأمة وتقودها نحو الجهاد والتمكين.**
4. **التركيز على التربية والإعداد الروحي والأخلاقي كوقود للجهاد، وبناء الفرد المسلم القوي في إيمانه وأخلاقه.**
5. **إقامة العدل والبناء الداخلي كأساس لقوة الدولة المجاهدة، ومكافحة الفساد والظلم والاستبداد ودحر الانقلابات والخلافات.**

إن هذه الركائز الخمسة هي مفاتيح النهوض، وهي طريق العودة. إنها دعوة للأمة الإسلامية، بأفرادها ومؤسساتها ودولها، أن تستيقظ من غفلتها، وأن تتعلم من تاريخها، وأن تنفض عنها غبار الذل والهوان، وأن تبدأ المسير على طريق العودة بجد وإخلاص، مستعينة بالله، واثقة بنصره، ساعية لتحقيق وعده: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحج: 40).
إن مستقبل الأمة في يدها، إذا عادت إلى ما صلح به أولها، وتمسكت بمنهج ربها، وجاهدت في سبيله حق الجهاد.

أهم 10 كتب في مجال تاريخ الدول الإسلامية وعوامل النهوض والسقوط

لقد استندت الرؤية المطروحة في هذا الكتاب إلى قراءة في تاريخ الدول الإسلامية وتجاربها، وتحليل لعوامل قوتها وضعفها. وللباحث والمهتم بهذا المجال، هناك العديد من المصادر والمراجع القيمة التي تُشكل أساساً لفهم أعمق لهذا التاريخ المعقد ودروسه المستفادة. فيما يلي قائمة بأهم 10 كتب في هذا المجال، مع ذكر أصحابها وتاريخ أعمالهم التقريبي:

1. **مقدمة ابن خلدون**
   - **المؤلف:** عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (732-808 هـ / 1332-1406 م).
   - **تاريخ العمل:** بدأ في تأليفها حوالي عام 779 هـ (1377 م).
   - **أهميتها:** تُعد المقدمة عملاً فريداً في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع. يحلل فيها ابن خلدون الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويضع نظريته في العمران البشري ودور العصبية في قيام الدول وسقوطها. هي أساسية لفهم السنن التي تحكم مسيرة الدول والأمم من منظور إسلامي عميق.
2. **تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الطبري)**
   - **المؤلف:** أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (224-310 هـ / 839-923 م).
   - **تاريخ العمل:** تم تأليفه في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري.
   - **أهميته:** هو من أقدم وأشمل كتب التاريخ الإسلامي التي وصلت إلينا. يغطي تاريخ العالم منذ بدء الخليقة إلى عصر المؤلف، مع تركيز كبير على السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية. يُعد مرجعاً أساسياً للأحداث التاريخية المبكرة.
3. **الكامل في التاريخ**
   - **المؤلف:** عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير الجزري (555-630 هـ / 1160-1233 م).

- **تاريخ العمل:** تم تأليفه في أوائل القرن السابع الهجري.
- **أهميته:** يُعد من أهم كتب التاريخ الإسلامي الشاملة. يتبع منهجاً حولياً (يسجل الأحداث سنة بسنة) ويغطي تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى عام 628 هـ. يتميز بأسلوبه الواضح ودقته في نقل الروايات، ويُعد مكملاً لتاريخ الطبري.

4. **سير أعلام النبلاء**

- **المؤلف:** شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (673-748 هـ / 1274-1348 م).
- **تاريخ العمل:** تم تأليفه في القرن الثامن الهجري.
- **أهميته:** هو كتاب تراجم ضخم يغطي حياة وسير آلاف الأعلام من الصحابة والتابعين والعلماء والخلفاء والأمراء والزهاد وغيرهم. يُقدم رؤية عميقة للمجتمع الإسلامي عبر العصور، ودور الشخصيات المؤثرة في مسيرة الأمة، ويعكس جوانب مختلفة من الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية.

5. **كتاب الجهاد**

- **المؤلف:** عبد الله بن المبارك (118-181 هـ / 736-797 م).
- **تاريخ العمل:** من أوائل الكتب المؤلفة في موضوع الجهاد.
- **أهميته:** يُعد من أقدم المصادر التي جمعت الأحاديث والآثار المتعلقة بفضل الجهاد وآدابه وأحكامه. يعكس الفهم المبكر لمفهوم الجهاد ومكانته في الإسلام، ويُقدم مادة غزيرة للباحث في هذا الجانب الهام.

6. **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**

- **المؤلف:** أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، المعروف بالماوردي (364-450 هـ / 974-1058 م).
- **تاريخ العمل:** تم تأليفه في القرن الخامس الهجري.
- **أهميته:** يُعد من أهم الكتب في الفقه السياسي الإسلامي. يتناول بالتفصيل أحكام الإمامة (الخلافة)، والوزارة، والإمارة، والقضاء، وغيرها من الولايات الدينية.

يُقدم رؤية فقهية لكيفية تنظيم الدولة وإدارة شؤونها وفق الشريعة، ويُعد مرجعاً أساسياً في فهم نظرية الحكم في الإسلام.

7. **إحياء علوم الدين**

- **المؤلف:** أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي النيسابوري (450-505 هـ / 1058-1111 م).
- **تاريخ العمل:** تم تأليفه في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري.
- **أهميته:** رغم أنه ليس كتاباً في التاريخ أو السياسة بشكل مباشر، إلا أنه عمل موسوعي في علوم الدين والتصوف والأخلاق. يُقدم رؤية متكاملة للإسلام كمنهج حياة، ويُركز على إصلاح الفرد وتزكية النفس، وهو جانب أساسي في أي مشروع نهضوي وبناء داخلي للأمة. تأثيره على الفكر الإسلامي لا يُقدر بثمن.

8. **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟**

- **المؤلف:** أبو الحسن علي الحسني الندوي (1333-1420 هـ / 1914-1999 م).
- **تاريخ العمل:** نُشر لأول مرة عام 1370 هـ (1950 م).
- **أهميته:** يُعد من أبرز الكتب الحديثة التي تُحلل أسباب ضعف وتراجع العالم الإسلامي في العصور المتأخرة، وتأثير ذلك على مسار الحضارة الإنسانية. يُقدم نقداً ذاتياً لأوضاع المسلمين، ويُؤكد على ضرورة العودة إلى المنهج الإسلامي الصحيح كسبيل للنهوض واستعادة الدور الريادي للأمة.

9. **في الشعر الجاهلي (أو مستقبل الثقافة في مصر)**

- **المؤلف:** طه حسين (1889-1973 م).
- **تاريخ العمل:** نُشر كتاب "في الشعر الجاهلي" عام 1926م، وكتاب "مستقبل الثقافة في مصر" عام 1938م.
- **أهميته:** رغم الجدل الذي أثاره كتاب "في الشعر الجاهلي"، وكلاهما يعكسان فكراً حداثياً متأثراً بالغرب، إلا أن أعمال طه حسين تُعد علامة فارقة في الفكر

العربي الحديث، وتُمثل تياراً فكرياً حاول التوفيق بين الأصالة والمعاصرة أو الدعوة إلى الأخذ بالحداثة الغربية. قراءة أعماله ضرورية لفهم التحديات الفكرية والثقافية التي واجهت العالم الإسلامي في العصر الحديث، والنقاشات الدائرة حول الهوية والنهوض.

10. **نحو حكم إسلامي**

- **المؤلف:** أبو الأعلى المودودي (1321-1399 هـ / 1903-1979 م).
- **تاريخ العمل:** نُشر في منتصف القرن العشرين الميلادي.
- **أهميته:** يُعد من أبرز الكتب الحديثة التي تُقدم رؤية نظرية وعملية لإقامة نظام حكم إسلامي في العصر الحديث. يتناول مفهوم الدولة في الإسلام، وأهدافها، ومؤسساتها، ودور الشريعة في الحكم. يُعد مرجعاً أساسياً للتيارات الإسلامية السياسية الحديثة التي تسعى لتطبيق الشريعة في الدولة.

هذه الكتب تُشكل مصادر غنية ومتنوعة للباحث في تاريخ الدول الإسلامية، وعوامل قوتها وضعفها، ومفاهيم الجهاد والحكم والنهوض في الفكر الإسلامي، وتحديات العصر الحديث. القراءة فيها تفتح آفاقاً واسعة للفهم والتحليل والاستخلاص.

فهرس الكتاب

سنن النهوض والسقوط: خارطة طريق لعودة الأمة الإسلامية

